موسوعة
الرسول المصطفى (ص)
باهتمام: محسن أحمد الخاتمي

أثر الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله

في التكوين الحضاري والمدني

عادل البدري

أثر

الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله

في التكوين الحضاري والمدني

سرشناسه : بدری ، عادل عبدالرحمن ، ۱۹۵۶ - م.
عنوان و پدیدآور : اثر الرسول المصطفی (ص) في التکوین الحضاري و المدني/عادل بدری.
مشخصات نشر : مشهد : سنبله ، ۱۳۸۵ .
مشخصات ظاهری : ۳۹۴ ص.
شابک : ۳-۴۴۲-۳۹۲-۹۶۴-۹۷۸
وضعیت فهرست نویسی : فیپا
یادداشت : عنوان دیگر : تأثیر الرسول المصطفی (ص) في التکوین الحضاري و المدني .
عنوان دیگر : تأثیر الرسول المصطفی (ص) في التکوین الحضاري و المدني .
موضوع : محمد (ص)، پیامبر اسلام ، ۵۳ سال قبل از هجرت - ۱۱ ق .
موضوع : تمدن اسلامی -- تاریخ .
موضوع : اسلام -- تاریخ .
رده بندی کنگره : ۱۲الف۳۷ ب / ۳۵/۶۲ DS
رده بندی دیویی : ۹۰۹/۰۹۷۶۷۱
شماره کتابخانه ملی : ۴۹۹۹۵-۸۵ م



اثر الرسول المصطفی صلی الله علیه و آله في التکوین الحضاري و المدني

عادل بدری

ناشر : سنبله

شمارگان : ۱۰۰۰ نسخه

نوبت چاپ : اول ۱۳۸۵

تعداد صفحات : ۳۹۴ ص وزیری

چاپ : دقت

هماهنگی و نظارت چاپ : هادی عدالتیان

شابک : ۳-۴۴۲-۳۹۲-۹۶۴-۹۷۸

قیمت : ۳۵۰۰۰ ریال

شبكة الفكر
alfeker.net

أثر الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله

في التكوين الحضاري والمدني

عادل البدري



(٢٣)

العنوان البريدي في لبنان:
بيروت- الغبيري ص. ب. ٢٥/١٣٨

العنوان البريدي في إيران:
مشهد - ص. ب. ٩١٣٧٥/٤٤٣٦

الفاكس: ٢٢٢٢٤٨٣ (٥١١ - ٠٠٩٨)

الموقع في الإنترنت:
www.almawsouah.org

مركز التوزيع و النشر في ايران: انتشارات سنبله
مشهد- خيابان سعدي- پاساژ مهتاب- طبقه منهاي يك- هاتف: ٢٢١٦٧٥٣(٥١١-٠٠٩٨)

كافة الحقوق محفوظة و مسجلة للناشر
الطبعة الأولى: بيروت ١٤٢٨ ـ ٢٠٠٧
الطبعة الثانية: مشهد ١٤٢٨ ـ ٢٠٠٧

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا
وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ
بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ

الأحزاب ٤٥ - ٤٦

كلمة الموسوعة

لـو أردنـا أن نختزل كـل معـاني الحضـارة والمدنـية ومصـاديقها وآثارهـا ونتائجها في مفردات واضحة يفهمها عامة الناس، فلا نعدو عن القول بأن كل مـا يـنفع الناس في دنياهم من المسكن والملبس والمأكل والمشرب وسائر المنافع البدنـية وكذلـك كـل ما يرتبط برقيهم الثقافي بما ينفعهم في حياتهم الدنيوية، كل هذا نعبِّر عنه بالحضارة والمدنية.

وقد كابدت البشرية بجميع شرائحها وقطاعاتها لتحقيق هذه المنشودة، كلٌ عـلى قدر طاقتها، عبر تاريخها الطويل وحتى يومنا هذا الذي نرى فيه ما نسميه بالنمو الحضاري والتقدم المدني في كل أرجاء المعمورة.

ولكـن السؤال الذي يطرح نفسه دائماً وخاصةً في هذه الأيام الحالكة من عمـر الإنسـان هو أنه: لماذا نجد في ثنايا هذا النمو والتقدم ما يعكِّر صفو الحياة من حروبٍ وبغي وظلمٍ وانتهاكٍ لحقوق الإنسان وسحق كرامته؟

ألَـمْ تكـن كـل هـذه الجهود، التي بُذِلَتْ عبر التاريخ البشري، تهدف إلى تحقيق راحة الإنسان وطمأنينته ورفاهه ودعته؟

وألَـمْ تكـن كـل هـذه المحـاولات الشاقة ترنو لصنع حياة فضلى يسودها الأمن والسلام والرفاه.

فـلماذا نجـد كلَّ هذا الحرمان والجوع والخوف والتخلف يلفُّ الإنسان في كـثيرٍ مـن أرجـاء هـذه المعمـورة الـتي كان من المفترض أن يُؤثر التقدم والنمو الحضـاري والمدنـي العالمـيان في إسعاده ... والأعجب من هذا أننا نجد في داخل

المجتمعات الراقية وحتى من العالم الأوّل حيث تكمن مصادر الثروة وينابيع المدنية، أن الكثيرين من شعوبها لم يرقوْا إلى مستوى الكفاف والأمن والدعة.

والأعجب من هذا العجيب أننا نرى القيِّمين على قمم الحضارة والمدنية العصرية هم _ في الحقيقة والواقع _ المخططون والمنفذون لكل الانتكاسات الحضارية والمدنية على أرجاء هذه البسيطة.

أليست هذه الحضارة والمدنية القائمة الآن، تحمل في داخلها تناقضاتٍ قاتلة ومخالفاتٍ سحيقة، بل الأدهى والأمرّ هو أن هذه التناقضات والمخالفات قد تصل سلبياتها إلى حيث الدمار الشامل والخراب العام الذي سوف يطل كلَّ الحصائل والنتائج التي تحققت بعرق جبين الماضين وكدِّ يمينهم عبر تاريخ الإنسان الطويل.

فهل من المحتمل أن يأتي يوم _ ونأمل أن لا يأتي _ يندم فيه الإنسان على كل جهوده ومحاولاته لتحقيق هذا النمو الحضاري والتقدم المدني، وهل من المحتمل أن نصل إلى عصر نكفر فيه بكل أمجديات الحضارة والمدنية ونتمنىّ من صميم قلوبنا الرجوع إلى ربوع الصحاري حيث كانت الخيمة تظلُّنا والعنزة تروينا وتشبعنا، وإلى الكهوف حيث كانت الدعة والقرار والاستقرار... فلا بيئة ملوّثة ولا مفاعلات مدمِّرة ولا أسلحة فتاكة ولا تفكك أسري ولا هبوط أخلاقي ولا ارتباك قيمي ولا ازدواجية في المعايير ولا ظلم ولا ظلمات.

من هنا، ومن كل هذه النذر المتشائمة اليائسة، نفهم ما كان يسعى إليه الأنبياء في تاريخهم الحضاري والمدني الوصول إليه، بدءاً من أبينا آدم وما حمل معه من السماء من كلمات ومروراً بنوح وتطهيره للأرض عبر الطوفان

وإبراهيم وكسره لرموز التخلف الفكري والثقافي [الأصنام] وموسى ودحره لطواغيت الأرض [الفراعنة] ووصولاً إلى عيسى وثورته على الدجّالين المتسترين بقناع الخداع الديني وانتهاءً برسول النبل والكرامة ومتمم مكارم الأخلاق محمد صلى الله عليه وآله وإرسائه لقواعد الحضارة التي تنفع ولا تضر وأعمدة المدنية التي تصلح ولا تُفسد واستمراراً لنهجه ونهج كل الأنبياء والرسل، نرى علياً أمير المؤمنين ومدرسته الفكرية والحضارية في بسط العدل والقسط.

فالنمو الحضاري والتقدم المدني هو قبل كل شيء، تقدم في الفكر ونمو في نشر القيم وسعيٌ لصنع الإنسان ومحاولةٌ لبسط العدل، فلا يمكن بل ليس من العقلاني والنافع للبشرية أن نصنع مفاعلاً ذرياً من دون أن نصنع إنساناً يفهم كيف يستثمر ويستفيد من هذا التقدم التكنولوجي، ولا يفيد الإنسانَ صعود [ارمسترانك] على سطح القمر من دون أن نصنع جيلاً يعطي للإنسان حقه في العيش بكرامة ولا يطغى على أخيه في الدين أو نظيره في الخلق كما يقول علي عليه السلام.

هذا الكتاب الذي بين يديك _ عزيزي القارئ _ هو حصيلةُ محاولةٍ سريعة لأخي الفاضل عادل البدري، وهو يتصفح تاريخ الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وأهل بيته الكرام عليهم السلام ليتلّمس آثارهم في بناء حضارة نافعة ومدنية مجدية، وقد استطاع أن يسجِّل بعض تلك البصمات الرسالية في إرساء هذه الحضارة وتلك المدنية، علّنا نوفّق في المستقبل وعبر هذه الموسوعة المباركة، الوصول إلى جرد وتثبيت معايير الحضارة الفضلى وملاكاتها عند الرسول صلى الله عليه وآله فهي التي تنفعنا في هذا العصر الحالك ونحن على عتبات الانتظار الكبير... انتظار منقذ

الحضـارات الصالحة ومشيِّد المدنية الكاملة حفيد الرسول، المهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف.

محسن أحمد الخاتمي

عيد الغدير ١٨/ ذو الحجة /١٤٢٧ هـ

٨/ يناير /٢٠٠٧ م

مشهد المقدسة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

«والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الغر الميامين»

كانت وما زالت مواضيع في قاموس المنظومات المعرفية تستأثر اهتمام الباحث والقارئ معاً، ومن هذه المواضيع: المدنية والثقافة والحضارة، وقد استبد في وجدان العقلاء وشغلهم الدور الذي أراده الله للإنسان لكي يمارس معنى عمارة الأرض للنهوض بمسئولية الخلافة على هذه الأرض والتي أسكنها الله تعالى آدم عليه السلام، لأنَّ وجود الإنسان على البسيطة لم يكن من دون هدف وجدوى من الإرادة العليا السماوية، وقد أكّدت لنا كتب السماء المنزلة بأنَّ إرادة الله لنا لم تكن لغرض اللعب والتسلية وتزجية هذه الأعمار القصيرة، وإنّما أرسلنا الله لكي نعمر الأرض و نبني ربوعها ونمارس ما نستطيع ممارسته من نشاطات عقلية وعلمية نستكشف بها أسرار الوجود والخليقة لنصل إلى عرفان المنعم الخالق.

وأول خطوة مدنية خطاها الإنسان هو بناء بيته الخاص وتنظيم أحواله الشخصية وتشكيل أسرته.

ثمّ يبدأ الفكر البشري بمرحلة من التفكير أبعد من هذا، وهو تفكيره نحو قريته ومدينته وعشيرته ليأخذ التفكير المدني خطوة نحو بعد آخر وأرحب، ومن هذه الأفكار تتراكم وتتشكل حضارة الإنسان ونهضته العمرانية.

ويشكل إحساس الإنسان المدني ووعيه وثقافته وكلّ ما يرتبط بهذا من فكرة ورغبة وعاطفة قد تظهر بشكل لوحة فنية أو قصيدة شعرية أو أمنية، وقد تترجم في أساطير أو ملاحم شعبية ما زالت كلّها تعدّ جزءاً من ثقافة الإنسان ومعرفته وحضارته.

وكان لدور النبوّة ورسل السماء من الأثر الواضح الذي نلمسه في صنع التكوين الثقافي والحضاري للإنسان، وقد سعينا في هذه السطور أن نتلمس ونقف على الأثر النبوي المحمدي الكبير لهذا التكوين، ومن الله التوفيق.

«عادل عبد الرحمن البدري»

«مشهد الرضا عليه السلام»

مفاهيم الحضارة

يواجه القارئ الحديث زخماً من المفاهيم والتعريفات لمفردات أخذت موقعاً في لغة العلم والثقافة والاعلام... .

ويكاد يضطرب في الوقوف على دلالات هذه المفاهيم نظراً للتشعب الكبير في اللغة المعرفية الحديثة ولكثرة الكتب والمقالات المترجمة التي دخلت سوق الثقافة ومعاقلها.

فيكون من اللازم على الكاتب في هذا الزمان أن يحدد ويبيّن مدلول هذا المصطلح أو ذاك لكي يقف القارئ على مراد الباحث.

وقد حاولت كتب التعجيم المصطلحي وضع المفردات المصطلحية والعلمية في كتب مصنّفة يمكن الرجوع إليها في مختلف المعارف والعلوم والفنون، إلاّ أنّ الحسم في دلالة هذا المصطلح أو ذاك ما زال قائماً.

وما زالت تتداخل في ذهن القارئ بعض المفاهيم والمصطلحات، فتبدو تارةً وكأنها متباينة، وأخرى بأنّها مترادفة أو متجانسة، ومن هذه المصطلحات: ثقافة، حضارة، مدنية، عمران، تقدّم، معرفة، علم... .

ومنشأ هذا التداخل يعود إلى أصول استخدامها من قبل الدارسين، فهم يرون بأنّ هذه المفردات تحكي تاريخ مجد الإنسان ورغبته وكفاحه في عمران الأرض واستثمارها وتحسين أحوال ساكنيها، فتندرج تحت عناوين متشابهة، وكأنّها تصنعها عقول مبدعة واحدة.

والحقّ أنّه لا يفكر أو يسعى في استثمار هذا العالم وتطويره إلاّ أهل العلم والثقافة والمعرفة، فتجنيد هذه الكيانات المخلوقة والسيطرة عليها هو شعور خلّاق لا ينشأ لدى الجهّال، وإنما أفكار تراود نخبة من العلماء والعقلاء فيبدأون بفكرة أو رؤية أو نظرية، ومن ثمّ خطوة عملية تتجسّد في بناء أو

إعمار أو ترميم أو حفر، وغير ذلك، من نشاطات الإنسان المختلفة، و هنا تنشأ ألفاظ حضارية مثل هذه وغيرها من المفردات التي ما زالت تتداور في الاستخدام، وبالتالي هي مفاهيم من بناة أفكار أهل العلم والمعرفة والدرس، فالترعة والقناة التي تشقّ، والجسر الذي يُشيّد، والمسجد الذي يُؤسس، كلّها أو بعضها قائم على قدحات وومضات أفكار ذوي الفهم والمعرفة،وما زال العلماء، والأدباء والفنانون وأهل السياسة يتحدّثون عن هذه المفاهيم ويقفون عندها كثيراً، حتى أنّ الحكومات والشعوب حين تتحدث عن تاريخها لا يمكنها أن تتجاوز هذه المفردات.

فكلّ أمة ومجموعة سكانية حين تلتفت إلى الماضي تحاول أن تبحث عن التاريخ الحضاري لها، والدور الذي مارسته هذه الأمة في تشكيل وصنع هذا التاريخ فنشأت لديها مفردات يمكن أن نسميها مفردات حضارية، ولكثرة دوران هذه المفردات والمفاهيم الحضارية بين الأقلام والألسنة تباعدت دلالاتها، ونشأت ألفاظ جديدة وكأنها صارت بديلاً عنها، فجرت ألفاظ أخرى مثل: تطوّر، تحوّل،تغيّر، نهضة... وبالتالي حَدَثَ تبلبل واضطراب للقارئ في مفردات خاصة بالحضارة أو غيرها.

وأكثر ما يكون هذا الاختلاط والاضطراب حين تتجاور مصطلحات ثقافة، مدنية،حضارة، ومن تداخل مفهوم الحضارة والثقافة برزت اتجاهات فلسفية وفكرية مختلفة ترى بعضها أنّ الثقافة هي مفهوم أضيق من الحضارة، فلذا نشأ اتجاه جديد في أدبيات العولمة يدعو إلى التوجه نحو الحضارة العالمية الواحدة التي تستبطن وتتفاهم مع ثقافات متعددة الجنسية، فاللغة التي تشكّل فاصلاً وقاطعاً للفكر العولمي تدجّن ضمن الحضارة العالمية الواحدة.

ولكن الذي يستعصي على تفكيرهم هو الدين، فيكف يمكنهم إخضاع الدين إلى الحضارة الواحدة، فالدين هو صانع الحضارة والثقافة، فمن رحم

الأديان تولّدت الثقافات والحضارات واللغات والعلوم، فكان لكل دين حضارته وثقافته ومدنيته التي اقترنت بدوله وأصحابه وساحته، فمن هنا يصعب إيجاد حضارة وثقافة واحدة تذوب وتنتهي في دائرتها ثقافات وحضارات أخر.

ولكن هذا لا ينفي وجود اقترابات ثقافية في العلوم والمعارف والتي توحي للمعولمين إمكانية دمج الثقافات الإقليمية في ثقافة عالمية واحدة.

والثقافة العالمية الواحدة التي يمكن أن تنضوي تحتها الثقافات والحضارات هي ثقافة التوحيد، وهي ثقافة العبودية للّه الواحد القهّار، لأنّ العبودية للّه مفهوم يتسع في نظر الثقافة الإسلامية ليشمل رعاية الإنسان للحياة والعناية بالجسم وحاجات البدن والحفاظ على الصحّة وتوفير العيش،بل ورعاية الحيوان والاهتمام بكل مظاهر الحضارة والمدنية وإعمار الأرض، لأنّ كلّ هذا الاهتمام من الإنسان يعبّر عن الخضوع لإرادة الله والتنفيذ لحكمته ومشيئته التي شاءت لهذه الكائنات-الإنسان والنبات-أن تعيش تحت ظلّ رحمة الله تعالى، فيكون التعامل مع خلق الله وفق إرادته ومشيئته عبادةً وتعبيراً عن الشعور بالعبودية والتوجّه إلى الله.

ولذلك توجّه القرآن بالذم واللوم إلى أولئك الذين ينشرون الخراب والدمار في الأرض، ويشيعون في ربوعها العبث والفساد، ويسعون للقضاء على مظاهر الحياة والعمران والمدنية فيها، فقال عزّ اسمه﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[1].

وترتبط الثقافة والمعرفة بالعبادة ارتباطاً عضوياً غير قابل للانفصام،

---

(١) البقرة: ٢٠٥، ينظر هذا المطلب في العبادة والعبودية والعلاقة مع الله، مؤسسة البلاغ طهران ص٣٥.

فحيث وجد العلم والثقافة حطّت العبادة رحالها هناك، وأول خطوة للعلم والمعرفة هي معرفة الخالق والمدبّر لهذا العالم وسلوك طريق العابدين،فجزئيات التعلّم والعلم والثقافة تلتقي بكليات التوحيد، فحين يبدأ العالم بالتفكّر والتأمّل يخطو بشكل عفوي نحو خالقه البديع المتجلّي في الوجود.

قال بعض العلماء: إنّ أظهر المرجودات وأجلاها هو الله عزوجلّ، فكان هذا يقتضي أن يكون معرفته أوّل المعارف، وأسبقها إلى الأفهام[١].

وما العلّة الغائية من الخلق إلّا معرفة المخلوقات للخالق، وفي ذلك روى الصادق عن الحسين بن علي عليه السلام أنه قال: أيها الناس إنّ الله جلّ ذكره ما خلق العباد إلاّ ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة سواه[٢].

فحين يظهر العلم وتترسّخ المعرفة والثقافة تندثر وتتلاشي أوهام الشرك والكفر، فلا معبود غير الله الواحد الأحد فعندها تتلاقى النفوس والأرواح في مسار واحد هو الهداية والصلاح.

فتجد أهل العلم والمعرفة يدعون للهدى والإيمان والصلاح، قال تعالى واصفاً هدايتهم وسدادهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾[٣].

ويبدو الآن وكأنّ أطروحة عولمة الثقافة لاتقاوم ولا تهزم، نظراً لتوفّر الأجهزة الألكترونية التي تقوم بنشر الثقافة المعولمة خلال دقائق، فشبكات الأنترنت توفّر إتصالاً سريعاً وسلخناً يتحاور فيه الشرق والغرب، والشمال والجنوب... .

---

(١) بحار الأنوار ٦٧: ١٣٧.

(٢) علل الشرائع للصدوق ٩.

(٣) القصص:٨٠.

فالتناحر والتناقض الثقافي يمكن أن يتحوّل إلى تفاهم نسبي في داخل سياق العولمة الحاصلة من الاتصالات السريعة التي تهيئ الأجواء للمائدة التحاورية التي تسلّ السخائم من خلال طرح الأسئلة والاستفسارات المتبادلة، وبالتالي يتمّ الكشف عن الحقائق الغائبة أو المشوّهة عن تاريخ الفكر البشري، وخصوصاً الفكر الشيعي الذي ابتلي بالاتهام والتغييب عن الأذهان وسطح الإعلام، فالمسلمون جميعهم، والشيعة جزء من هذا الكيان، يطرحون ثقافة النبي ﷺ بصفتها الثقافة الكاملة الجامعة التي تتخذ الإنسان موضوعاً لها، فخطاب النبيّ ﷺ جاء لإصلاح الإنسان وخدمته وتكامله وإعداده لدور الخلافة التي أراده الله تعالى له.

فطرح ثقافة عالمية جديدة، ليست بالنسبة للمسلمين جديدة وانّما هي ثقافة معروفة موجودة في مسيرة الأنبياء أظهرها النبيّ ﷺ وجاءت مكملة للخطاب القرآني، وإذا كان المعولمون يرون بأنّ البشر تتقسّمهم ثقافات شتّى ساهمت في تقطيع الإنسان ودفعه إلى ساحات الحروب والمنازعات فإنّ ردم الفوارق بين الرؤى والأفكار والفلسفات جدير بتوحيد بني آدم وصفّهم في مجتمع متآلف متناغم، وفي هذا نطق القرآن الكريم على لسان رسله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾[1].

وهذا القيام هو الحركة نحو الخالق، وتأكيد جوهر الربوبية التي تلوي أعناق بني آدم جميعهم في ثقافة عالمية واحدة، وليس عسيراً على العقل البشري أن يدرك ما تعنيه آية العولمة-إن صحّت هذه العبارة-والتي تقول: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[2].

---

(١) سبأ: ٣٤.

(٢) المؤمنون: ٥٢.

ومن هذا الاعتبار كتب النبيّ ﷺ الميثاق العالمي إلى زعماء العالم آنذاك، وهم كسرى وقيصر والنجاشي، حيث كتب لهم: تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: **أن لا نعبد إلاّ الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخّذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله**[1].

فهذه الرسالة تعكس مبدأ التعايش السلمي، ونبذ الحروب، والاحترام المتبادل للكيانات السياسية، واحترام الثقافات والإقرار بها، فلم يكن النبيّ ﷺ يريد لهذه الكيانات الحضارية، والتي كانت موجودة وقائمة من عصور غابرة، أن تتهافت و تتخلى عن جميع رؤاها وأفكارها وفلسفاتها وثقافاتها التي تحمل تاريخاً عريقاً لايغيب عن ذهن النبّي ﷺ.

فالتنوّع الثقافي حقيقة قائمة على مسار التاريخ، فالثقافات والحضارات شأنها شأن الكيانات والوجودات الأخرى لها ألوانها وقسماتها الخاصّة بها.

وقد وقف فرانز بوس الشخصية الرئيسة في الأنثروبولوجيا الأمريكية بصلابة مع القول بأنّ الفروق بين البشر هي فروق ثقافية وليست بيولوجية.

وقد عرّفوا الثقافة بأنها نظام من الأدوات والقوانين والطقوس ومظاهر السلوك.

فالمفهوم الأنثروبولوجي قد جعل الثقافة مجرّد مقولة وصفية يمكن أن تسري على أيّ أُمّة حتّى يمكن القول بثقافة البدائيين[2].

فهذا التعويم والفهم الغربي للثقافة يعني لديهم بأنّ كلّ شيء يشكّل

---

(١) كنز العمال١٠:٦٣٢ ح٣٠٣٣٠.

(٢) نهاية اليوتوبيا: ٥٣و٥٥.

ثقافـة، حـتّى الجمهـور الرياضـي الذي يتّفق على قواعد وعادات تصير ثقافة قابلـة للـتعريف، وهـذا الفهـم قد يعني وضع الفواصل بين المجتمعات والأمم، وحـتى داخـل المجـتمع الواحـد نفسـه، فالتعدد والتنوّع الثقافي ينشأويتكوّن من عوامل واعتبارات شتّى تفرض وجودها بناءً على هذا التعريف.

الحضارة بين يدي التاريخ

عرف التاريخ البشري مقدّمات حضارية كانت اللبنات الأولى للحضارة التي نشهدها، وقد كانت هذه المقدمات بمثابة المنطلق الذي رسم خريطة الثقافة والحضارة البشرية، ومهما كانت هذه البدايات، ضعيفة أو قوية، سقيمة أو صحيحة، فإنّها شرقية المنحى سماوية في هويتها، وإذا كانت هناك حضارات وثقافات تُعزى إلى الغرب، فإنَّ جذورها شرقية لا محالة، أو أنّها حضارات وثقافات شرقية سافرت إلى هناك، ويعترف علماء الغرب بهذه الحقيقة، حيث يقول: الدكتور غوستاف لوبون: الغرب وليد الشرق[1].

وقد أجمع المؤرخون على أنَّ الحركة الفكرية والنهضة العلمية دخلتا أوربا حوالي القرن الثاني عشر عن طريقين ١_الاحتكاك الذي ظلّ نحو قرنين مستمرّاً بين أمم أوربا والشرق الإسلامي خلال الحروب الصليبية، ٢_طريق المعاهد الدينية العلمية التي أقامها العرب في الأندلس ونابولي وجزيرة صقلية، والمحققون من المؤرخين يرون أنَّ من بُدئ بهم تاريخ النهضة العلمية في أوربا كروجر بيكون وغيره كانوا من الواقفين على اللغة العربية واللاتينية التي كانت تنقل إليها علوم العرب ومباحثهم في كلّ فن[2].

وليس من الصعوبة التدليل على مدى ما قدّمته الحضارة الإسلامية للحضارة الأوربية الحديثة، تلك الكتب التي كانت تملأ مكتبات أوربا منذ زمن مبكّر، وعكف الأوربيون على دراستها في جامعاتهم الناشئة في عصر النهضة، كما وجد الأوربيون كتب الطب والفلسفة الإغريقية مهذّبة ومشروحة فيما ألّفه المسلمون من كتب في هذه العلوم فأخذوها ممّا يؤكّد أنَّ كلّ حضارة جديدة

---

(١) حضارة العرب: ٢٨.

(٢) محمد عللوه، عالمية الإسلام وقضايا العصر الجماهيرية الليبية ص ٤٩.

مدينة في نهضتها للحضارة السابقة لها، ولعلَّ أهم ما اهتم به الأوربيون من كتب المسلمين في بداية عصر النهضة كتب الفلسفة التي تعالج العقيدة أو بمعنى آخر الفلسفة اللاهوتية، والتي عرفت بالفلسفة المدرسية لأنّها كانت تناقش في المدارس أو من يقومون بها ويُسمّون بالمدرّسين « Doctoresscholostiel» فكان معظم ما كتب عن الفلسفة اليونانية أو الرومانية موجوداً بين دفّتي كتب العرب المسلمين.

وقد اهتمّ الأوربيون كذلك بعلم الطبّ فأخذوا عمّا كتبه العلماء المسلمون في هذا المجال من أمثال ابن سينا والرازي حيث ترجمت كتبهم إلى اللغات الأوربية وتمَّ تدريسها في جامعاتهم حتى نهاية القرن الثامن عشر[1].

فعلوم الكيمياء التي تُعد منذ زمن ومازالت عماد الحياة والأساس المهم والضروري لعلوم الطب والصيدلة والصناعات المختلفة قد توضّحت وتمنهجت في أعصر الرسالة وبروز المعصومين عليهم السلام في الحياة العلمية، حيث إنَّ رغبة المسلمين في التفقّه في أمور الدين، والبحث في ما أمر به الإسلام من نظافة وطهارة، قد دفعت العلماء إلى عمل دراسات مستفيضة وثيقة الصلة بعلم الكيمياء، كما نفهمه اليوم... فمثلاً عند ما راح المسلمون يناقشون موضوعات طهارة الماء المستخدم في الغسل والوضوء والمشرب والمأكل، كان لزاماً عليهم أن يبحثوا عدّة مشاكل مثل.

تأثير الأملاح والمواد التي يمرّ عليها الماء الجاري، وكذلك حالات الماء الراكد، كما درسوا تفاصيل تأثير الأواني المختلفة التي يخزن فيها الماء على طبيعة الماء وصفاته.

ومن ألوان الدراسات التي أثارها المسلمون تأثير الخمر على الأجسام

---

(١) تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ٣٥٣.

وتحوّل الخمر إلى خلّ، واستخدام المساحيق في عمليات تنظيف الأواني، والمعروف علمياً أنّه كلّما صغرت حجوم الحبيبات التي يتكوّن منها المسحوق المستخدم في النظافة كلّما كان مفعولها أكثر.

وبطبيعة الحال تستخدم المساحيق ومنها التراب الجاف، بدلاً من الصابون، ونحن نقول علمياً بأنَّ مفعول المساحيق في عمليات التنظيف هو مفعول ميكانيكي.

والمأثور عن رسول الله ﷺ أنّه قال «**إذا ولغ الكلب في وعاء أحدكم فليغسله سبع مرّات إحداهنّ بالتراب**»[1].

واليوم نعرف أنَّ من الكلاب ما يُصاب بأمراض طفيلية خطرة ومعدية في نفس الوقت، وذلك عن طريق الجهاز الهضمي مثلاً عندما يستخدم المرء آنية ولغ فيها الكلب، ولم يكن لدى العرب آنئذٍ مادة متداولة تستخدم في تنظيف الأواني مثل الصابون.

وكثير من المؤسسات اليوم تنتج بدلاً من الصابون مساحيق تستخدم في تنظيف الأواني، إلّا أنَّ مسحوق التراب الجاف الطاهر خير بديل لمثل هذه المساحيق التي يصنعها الإنسان في عصر العلم[2].

وهنا يشار إلى تلميذ من تلاميذ حفيد محمد ﷺ الإمام الصادق عليه السلام، الذي عبّد طريق علم الكيمياء وطوّره، جابر بن حيّان الكوفي والذي عرفه الغرب واهتدى بعلمه.

---

(١) ينظر المعجم الكبير للطبراني ١١: ١٨ ح ١١٥٦٦و ج ١٢: ٢٧٩ ح ٢٣٣٥٧، غوالي اللآلي١: ٣٩٩ ح ٥١.

(٢) ينظر محمد جمال الدين الفندي، دارسات في الحضارة الإسلامية، تراث المسلمين في ميدان العلوم٢: ٢٥٧و٢٧٤.

وقد اعترف علماء الشرق والغرب في تاريخ العلوم بأنَّ جابر بن حيّان قد صنّف موسوعة علمية في هذا الميدان لا يستغني عنها باحث... وتضلّع في ميادين أخرى مثل الطب والصيدلة والفيزياء[١].

وتضم مكتبات العالم كتباً مؤلّفة باللاتينية تُنسب إلى جابر بن حيّان، رغم أنه ليس لها أيّ أصل معروف بالعربية.

ويقول ابن النديم بأنَّ لجابرين حيّان ٣٠٦ كتاباً.

وحين يتحدّث جابر بن حيان عن علمه يتحدّث بمنطق التجربة العملية فيقول: يجب أن تعلم أننا نذكر في هذه الكتب خواصّ ما رأيناه فقط دون ما سمعناه أو قيل لنا وقرأناه، بعد أن امتحنّاه وجرّبناه، فما صحَّ أوردناه، وما بطل رفضناه[٢].

ولهذا السبق العلمي يقول الدكتور غوستاف لوبون: كلّما أمعنا في درس حضارة العرب وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة لسُرعان ما رأينا أنّ العرب أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين وأنّ جامعات الغرب لم تعرف لها مدّة خمسة قرون مورداً علميا سوى مؤلفاتهم وأنّهم هم الذين مدّنوا أوربا مادة وعقلاً وأخلاقاً[٣]، ويكفي مثلاً على ذلك ما يقوله أحد الباحثين الأوربيين من أنَّ مدينة قرطبة احتوت ما يزيد عن مائتي ألف منزل يسكنها مليون نسمة، وكان أهلها يستطيعون السير في طرقاتها بعد غروب الشمس في ضوء المصابيح العامة، في الوقت ظلّت مدينة لندن بعد ذلك بسبعة قرون أقرب ما تكون إلى

---

(١) الدكتور موريس شربل، موسوعة علماء الكيمياء، دار الكتب العلمية بيروت ص١٢٩.

(٢) محمد جمال الدين، دراسات في الحضارة الإسلامية ٢: ٢٧٤.

(٣) حضارة العرب ٢٦.

قرية صغيرة لا يوجد في طرقاتها مصباح واحدٌ عام يضيء ليلاً[١].

وللمسلمين في الفلسفة والمنطق والحكمة فضل كبير على العقل الأوربي حيث قدحوا أفكار الفلاسفة الغربيين وهذّبوها، ولولا المسلمون ما عُرف الفكر الفلسفي الغربي، يقول عبد الرحمن بدوي: ولما بدأت عقول ممتازة في قراءة آثار المسلمين بدأت النهضة الحقيقية للفكر الفلسفي الأوربي، وذلك في القرن الثالث عشر، فأحدث ابن سينا أولاً تأثيراً عميقاً واسعاً، خصوصاً إلهياته المتأثرة بأرسطو والأفلاطونية المحدثة معاً، والتي يفسّر فيها الكون ابتداءً من الأوّل الذي يصدر عنه العقل الثاني ثمّ الثالث وهكذا حتّى العاشر، وهو العقل الذي يؤثر في الإنسان مباشرة، فهذا التصوير لصدور العالم عن الله الواحد هو الذي سيعتنقه الفلاسفة الأوربيون، بدلاً من التصوير الوارد في التوراة والذي كان سائداً حتّى ذلك الحين.

فلنستعرض الآن كبار الفلاسفة الأوربيين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، لترى أثر الفلاسفة المسلمين فيهم، فأوّلهم هو البرتس الكبير (١٢٠٧_١٢٨٠) الذي درس ما تُرجم إلى اللاتينية من مؤلّفات الفلاسفة العرب دراسة عميقة، وكاد أن ينقل عنهم كلّ نظرياته الرئيسية في الفلسفة، وإنْ لم يستطع أحيانا الجهر بذلك خوفاً من السلطات الدينية.

فقد أخذ عن ابن سينا القول بأنَّ النفس جوهر عقلي، وأنّ كونها صورة للجسم ليس تحديداً لماهيتها، بل هو وظيفة من وظائفها، وأنّها تستضيء من إشراق العقل الفعّال عليها، وهذا العقل الفعّال متّصل بالعقل العاشر الذي هو عقل فلك القمر، كما أخذ عن ابن سينا نظرية الواحد وصدور العقول عنه.

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور، بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ٢٠٣.

وفضلاً عن ذلك فإنّه في إدراكه وفهمه للفلسفة الأرسطية إنّما اعتمد كلّ الاعتماد على الفارابي وابن سينا وابن رشد، وإذا ما انتقلنا من البرتس الكبير إلى أكبر الفلاسفة الأوربيين في القرن الثالث عشر، وهو القدّيس توما الأكويني وجدنا آثار الفلسفة العربية أعمق وأنضج، وإن كانت أخفى في الظاهر، لأنّه لم يكن يذكر مصادره، بعكس البرتس الكبير الذي كان يشير غالباً إلى المصادر التي نقل عنها، أمّا توما فلا يذكر إلّا أسماء الذين ينقدهم.

وأوّل شيء يظهر فيه تأثير الفلاسفة المسلمين في القدّيس توما هو البراهين التي أوردها لإثبات وجود الله بطريق العقل، فالبرهان الثالث من بين براهينه الخمسة، وهو أقواها إنّما أخذه من الفارابي وابن سينا، ويقوم هذا البرهان على أساس تقسيم الوجود إلى واجب وممكن.

والممكن لا يمكن أن يستمرّ في حال الإمكان إلى غير نهاية، بل لابدَّ من موجود واجب الوجود تنتهي إليه الممكنات، وهذا الكائن الواجب، الوجود هو الله فإنّ الممكن هو الذي يوجد ثم يفسد، وهو الذي وجد أو سيوجد، وكان من الممكن ألّا يوجد، وأمّا الواجب فهو الذي لا يمكن إلّا أن يكون موجوداً، والممكن لا يستطيع بنفسه أن يفسّر وجوده، إذ لو لم يوجد إلّا ممكنات لأمكن ألا يوجد شيء، فلكي يوجد شيء لابدَّ أن يكون هناك موجود واجب الوجود، وهذا الواجب الوجود هو الله[١].

ولابن باجه محمد بن يحيى المتوفّى عام ١١٣٨ م فضل عظيم في أزدهار الفلسفة في أوربا حيث بنى فلسفته العقلية على أساس من الرياضيات والطبيعيات، وعلى نهجه سار كانط في فلسفته[٢].

---

(١) دور العرب في تكوين الفكر الأوربي: ٣٦و ٣٨و٤٠.

(٢) دراسات في الحضارة الإسلامية٢: ٣٨٠.

وإذا كانت الحضارة الأوربية قد أقامت بناءها على أساس ركيزتين كبيرتين من معارف اليونان ومعارف الرومان، فإنَّ هناك إجماعاً من الباحثين على أنَّ علوم اليونان ولغتهم كادت تندثر من الغرب الأوربي قبيل بداية القرن السادس على أقلّ تقدير، وعلى أنَّ غرب أوربا ظلّ طوال الشطر الأوّل من العصور الوسطى، أي حتى القرن الحادي عشر للميلاد، يجهل جهلاً تاماً لغة اليونان وعلومهم، إلّا في مراكز محدودة في صقلية وجنوب إيطاليا، وعندما أخذ الغرب الأوربي يُفيق من ظلمة العصور الوسطى، فإنّه لم يتعرّف على علوم اليونان إلّا من خلال التراجم العربية.

وعن هذا الطريق وحده عرف الغرب فلسفة أرسطو، ومعارف اليونان في الطب وغير الطبّ من العلوم العقلية، ومعنى هذا أنَّ الفضل يرجع إلى المسلمين وعلمائهم في وصل ما انقطع من أسباب الحضارة الأوربية، وفي تعريف غرب أوربا في أواخر العصور الوسطى بما انقطع من تراث اليونان، وبذلك لا يكون المسلمون مسئولين عن فرط عقد الحضارة الأوربية، وإنّما الصحيح هو أن يقال: إنّ المسلمين هم الذين نظموا حبّات ذلك العقد ووصلوا ما انقطع منه[1].

وتقترن مرحلة النهوض الحضاري الأوربي مع عصور التنوير، على العكس من ذلك الشرق الإسلامي، الذي عرف الحضارة والمدنية من أزمنة مبكرة في عصور التاريخ القديمة والوسطى والحديثة، وبشكل واضح يبرز التاريخ الحضاري للشرق مع بزوغ نجم المصطفى ﷺ في جزيرة العرب، وهو

---

(١) الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته، عالم الكتب القاهرة ص ١٦١.

التاريخ الحقيقي للحضارة والمدنية البشرية، ولذلك تعثّر الباحثون والمؤرخون في تسجيل ملامح حضارة واضحة قبل نزول القرآن والبعثة النبوية، وفي هذا يقول المؤرخ جرجي زيدان: ليس في تواريخ الأمم الراقية أسقم من تاريخ العرب قبل الإسلام، حتّى تهيَّبس الكاتبون الخوض فيه وعورة مسلكه وتناقض الأقوال فيه، وبعكس ذلك تاريخهم بعد الإسلام، فإنّهم لم يتركوا خبراً من أخباره أو رواية أو واقعة إلّا دوّنوها وفصّلوها، كأنّهم شُغلوا بهذا عن ذاك، أو لعلّهم أرادوا محو مفاخر الجاهلية وإقامة مجد الإسلام مكانها، ولذلك لا نجد لهم كتاباً خاصاً بتاريخ العرب قبل الإسلام[1]، وقد أشار القرآن الكريم إلى الدور الحضاري والمدني للنبيّ المصطفى ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2] قال الشيخ علي بن إبراهيم القمّي: أصلحها برسول الله صلّى الله عليه وآله[3] والإصلاح هو الثقافة والعمارة والمدنية والتحضّر.

---

(١) العرب قبل الإسلام: ١٥.

(٢) الأعراف: ٥٦.

(٣) تفسير القمي١: ٢٣٦.

علم الثقافة

ولقد أصبحت الثقافة علماً قائماً بذاته تساهم فيه فروع علمية مختلفة، على رأسها علم الإناسة(الأنثروبولوجيا) الرمزية، وعلم اجتماع المعرفة، وكلاهما، كما يدلّ مصطلحاهما، ذو صلة وثيقة بالمعلومات.

فالأنثروبولوجيا الرمزية تطبق الأسس اللغوية والمنهج البنيوي الذي يرتكزهو الآخر على اللسانيات في تحليل التراث الثقافي نصوصه وبناه المعرفية ومؤسساته الاجتماعية، ويقوم علم اجتماع المعرفة بدراسة علاقات الترابط بين المعرفة والسياقين الثقافي والاجتماعي اللذين أفرزا هذه المعرفة، أو اللذين تطبق فيهما.

إنّ دارسي علم اجتماع المعرفة يشغلهم في المقام الأوّل تعقّب المعرفة، وقد تجسّدت في تنظيمات المؤسسات الاجتماعية ومواثيقها، وتجلّت في أداء هذه المؤسسات وسلوك أفرادها.

وكما هو واضح، سيمضي وقت ليس بقصير قبل أن يستقر علم الثقافة على خريطة المعرفة الإنسانية،خاصّة أنّ الأمر في هذا يتوقفّ على مدى الشوط الذي قطعته علوم الإنسانيات المغذّية لعلم الثقافة، في طريقها نحو الوصول إلى رتبة العلوم الدقيقة، وفي هذا الصدد، علينا أن ننوّه إلى أنّ بلوغ الموضوعية في علوم الإنسانيات أصعب بكثير عنه في العلوم الطبيعية[1]، حتى أنّه قيل: ليس علماء العلوم الطبيعية ذوي عقول أكثر موضوعية من عقول علماء العلوم الاجتماعية، ولاهم نقديون أكثر منهم، وإذا كان ثمّة موضوعية أكثر في العلوم الطبيعية، فلأنّ فيها تقاليد أفضل ومقاييس أرفع للوضوح وللنقد العقلاني[2].

---

(١) الدكتور نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، عالم المعرفة الكويت :١٣٣.

(٢) أسطورة الإطار،كارل بوبر بترجمة يمنى طريف الخولي ص٩٦،عالم المعرفة الكويت:٢٠٠٣.

والثقافة كلمة ذات مدلول واسع، فهي تشمل جميع نواحي الحياة: الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعملية والسياسية والأخلاقية والتربوية والجمالية الفنية واللغوية، ولذا اختلف علماء الاجتماع في تعريفها اختلافاً بيناً[١].

ومهما قيل في علوم الإنسانيات، فالحصول على تعريف جامع كامل متّفق عليه قد يبدو متعذراً نسبياً، وإذا كانت تعريفات هذه العلوم في مختلف القضايا متفاوتة، فالثقافة شأنها شأن بقية المفاهيم لها دلالاتها وتاريخها وتعريفها.

وقد اكتسبت كلمة ثقافة(culture) معناها الفكري في أوربا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

فالكلمة الفرنسية كانت تعني في القرون الوسطى الطقوس الدينية[٢]، ولم تعبر عن فلاحة الأرض إلاّ في القرن السابع عشر أمّا في القرن الثامن عشر فقد عبّرت عن التكوين الفكري عموماً، وعن التقدّم الفكري للشخص خاصّة، وعماّ يتطلبه ذلك من عمل وما ينتج عنه من تطبيقات.

هذا هو الموجود في المعاجم الكلاسيكية، لكن انتقال الكلمة إلى الألمانية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر أكسبها لأوّل مرّة، وقبل رجوعها إلى فرنسا، مضموناً جماعياً، فقد أصبحت تدلّ خاصة على التقدّم الفكري الذي يتحصّل عليه الشخص أو المجموعات أو الإنسانية بصفة عامة،واكتسبت كلمة ثقافة هذا المضمون في المانيا موازاةً لتصوّر عام لتاريخ البشرية واعتبرت فيه درجات التقدّم الفكري معياراً أساسياً بين مراحل تطوره، أمّا الجانب المادي في

---

(١) قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية : ٢٠٣.

(٢) وقد عدّ وليام هاولز الدين أحد المستويات العليا للثقافة. ما وراء التاريخ : ٣٢٨.

حياة الأشخاص والمجتمعات فقد أفردت له المعاجم الألمانية كلمة حضارة، ومن هذا الاعتبار قيل: إنّ الثقافة هي مجمل العقائد التي تؤمن بها جماعة ما،وتمنح المعنى للأشياء في محيطها، وما ينبثق عن ذلك من سلوك وعلاقات، فالثقافة هي فلسفة الجماعة ونظرتها إلى الوجود من حولها، والعلاقات القائمة على مثل هذه الفلسفة.

وبهذا المعنى فإنّها، أي الثقافة، تجعل من الحضارات أو المدنيات أشكالاً مختلفة، رغم أنّ جوهرها واحد، فإذا كانت المؤسسة واحدة في بنية كلّ حضارة، فإن أسلوب عملها وغايتها يتحددان وفقاً للثقافة السائدة، فمؤسسة الزواج وارتباط الذكر بالأنثى، أو المدرسة أو المعبد مثلاً، موجودة في كلّ حضارة قديمة وحديثة، ولكن كيف يتمّ الزواج وما هي طقوسه؟ وماذا يدرس في المدرسة وما هي الغاية؟ ومن يعبد في المعبد وكيف يتم ذلك؟ إنّما يتحدّد وفقاً لثقافة الجماعة[١].

وقالوا في تعريفها أيضاً « الثقافة: كلّ مركّب يشمل المعرفة والعقيدة والفن والقانون والأخلاق والممارسات وأيّ إمكانات أو عادات يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع»[٢]وهذا التعريف أشمل تعريف وأكمله، فإطلاقنا لفظ الثقافة الإسلامية باعتبار هذا التعريف يعني طرح منظومة وشبكة من قوانين وقيم وممارسات وسنن عرفت بالسنن والآداب النبوية، أو ما يقال عنها مجموعات سلوكية أو مواقف اجتماعية وأخلاقية.

ولها تعريف آخر يقول:«الثقافة هي البيئة التي يحيا فيها الإنسان والتي تنتقل من جيل إلى جيل.

---

(١) ينظر موسوعة الثقافة السياسية الاجتماعية الاقتصادية العسكرية :٤٠٣و٣٩٤.

(٢) راسل جا كوبي، نهاية اليوتوبيا ط الكويت ترجمة فاروق عبد القادر:٥١

وتتضمن الأنماط الظاهرة والباطنة من السلوك المكتسب عن طريق الرموز.

وتتكون ثقافة أيّ مجتمع من أيديولوجيته وأفكاره ومعتقداته ودياناته ولغته وفنونه وقيمه وعاداته وتقاليده وقوانينه وسلوكيات أفراده، وغير ذلك من وسائل حياته ومناشط أفكاره»[1].

ومن عنوان الثقافة العامة ظهر مفهوم الثقافة السياسية كتخصيص لحركة الثقافة وتشعيب فروعها لأهمّيّتها في حياة الإنسان،وعرّفوا الثقافة السياسية بأنّها جزء من الثقافة العامة للمجتمع في الوقت الحاضر.

وتنحصر في القيم والاتجاهات والأعراف والتقاليد والممارسات والسلوكيات والمعارف السياسية، فهي نظام من القيم والمعتقدات يرتبط بافراد مجتمع معيّن يتعرضون لخبرات تنشئة مختلفة إلى حدّ ما، ولا بدّ أن تنطوي الثقافة السياسية لأيّ مجتمع على قدر من التجانس.

وتشتمل أي ثقافة سياسية على عدد من الثقافات الفرعية أيضاً[2]فإمكانية تقسيمها تبدو ممكنة باعتبارها عنصراً متداخلاً مع كثير من المفاهيم.

تقسيمات الثقافة

وإذا قسمنا العنصر الثقافي إلى ثلاثة أقسام: فلسفي وأخلاقي ومعرفي حينئذٍ، فإنّ القسم الأوّل منه وهو البعد الفلسفي فيما نقصد به الموقف الفكري من الكون والمجتمع والإنسان، يظلّ موسوماً بثبات المبادئ، بصفة أنّ الإسلام يمثّل مجموعة من القوانين المطلقة التي لا يطرأ عليها أيّ تغيير، ولذلك

---

(١) معجم مصطلحات العولمة ٦٧.

(٢) ينظر معجم مصطلحات العولمة : ٦٧ رقم ٤١٥و٤١٦.

يقف الإسلام موقفاً مضاداً من جميع التيّارات العلمانية التي شهدتها المجتمعات قديماً وحديثاً.

أمّا القسم الآخر من العنصر الثقافي، وهو البعد الأخلاقي، فيما نقصد به مجموعة القيم العرفية التي تجسد تعامل الناس بعضهم مع الآخر، فيما رسمتها المجتمعات بمعزل عن مبادئ السماء، فإنّ الإسلام يقف منها أيضاً موقف التضادّ، في حالة كونها تتعارض مع أخلاقية الإسلام، أمّا ما عداها فإنّ المجتمع الإسلامي قد يقرّ بمشروعيتها نظراً لكون الإسلام قد نسج صمتاً حيالها وسمح للمجتمعات الإسلامية بأن يفعّلوا عقولهم في مواجهتها، ويفرزوا ما هو صائب أو منحرف منها طالما نعرف بأنّ نظرية نزعة الخير من جانب،وإلهامية الإدراك لما هو خير أوشرّ من جانب آخر، تسمح للإنسان حتّى لو كان بمعزل عن مبادئ السماء، بأن يهتدي إلى صياغة قيم إيجابية، ممّا تجعل التجاوب معها أمراً مشروعاً في التصور الإسلامي.

وأمّا القسم الثالث من العنصر الثقافي، وهو البعد المعرفي، فيما نقصد به ضروب العلم أو الفن، وما تواكبها من أدوات ثقافية، فإنّ الإسلام يقرّ بمشروعيتها دون أدنى شكّ ، ما دام الإسلام نفسه يلحّ على طلب المعرفة و إتقان أدواتها ، خلا المعرفة التي تتضمن ما هو منحرف أو ما هو أداة للانحراف سواء أكانت علماً أوفنّاً[1] .

وإذا كان مفهوم الثقافة ينزع إلى الخصوصية، فإنّ الحضارة تنزع إلى العمومية، فالثقافة هي الحضارة الخاصّة بأمّة من الأمم لا يشاركها في شأنها أحد، تحمل صبغة هذه الأمّة وتتسم بسماتها، ووراء كلّ حضارة دين، وقد

---

(١) ينظر الدكتور محمود البستاني، الإسلام وعلم الاجتماع، البحوث الإسلامية بيروت: ١٦٦.

تصبّ عدّة ثقافات في نهر حضارة واحدة[١]، ونجد هذا واضحاً في الثقافة الفارسية والعربية والسندية وغيرها التي تمازجت والتقت في نهر الحضارة الإسلامية الخالدة، فمن مجموع هذه الثقافات شكلت روافد التجدد والبقاء للنهر الحضاري العظيم الذي ما زال قائماً.

«والثقافة في أدنى مستوياتها هي مجموع الاستجابات والمواقف التي يواجه بها شعب من الشعوب بحسب عبقريته ضرورات وجوده الطبيعي من مأكل وملبس وتناسل.

أمّا على المستوى الأرفع فإنّ للثقافة أوجهاً ثلاثة هي: تنمية الفكر وترقية الحسّ النقدي؛ تكوين الحسّ الجمالي وإرهاف الذوق، والاستمساك بالقيم وغرس الحسّ الأخلاقي»[٢].

ومن الوجه الأوّل للثقافة تدرج هذه النصوص التي نوردها، ومنها أنّه نزل جبرئيل على رسول الله ﷺ في ساعة لم يكن يأتيه فيها، فرعب رسول الله ﷺ، فقال جبرئيل: ينهاك ربّك عن عبادة الأوثان وشرب الخمور وملاحاة الرجال، وأخرى هي للآخرة والأولى، يقول لك ربّك: يا محمد، ما أبغضت وعاءً قطّ كبغضي بطناً ملآن[٣].

وفي آخر أنّ النبيّ ﷺ قال: **قوّة المؤمن في قلبه، ألا ترون أنّه قد تجدونه ضعيف البدن نحيف الجسم فهو يقوم الليل ويصوم النهار**[٤].

وفي آخر أنّه ﷺ قال: **المؤمن كيّس فطن**[٥].

---

(١) أحمد طالب الإبراهيمي، حوار الحضارات، كتاب الإسلام والغرب: ١١٦.

(٢) أحمد طالب الإبراهيمي، حوار الحضارات، الإسلام والغرب: ١١٦.

(٣) مجالس الشيخ المفيد: ١٩٢ ط جماعة المدرسين في الحوزة العلمية قم.

(٤) بحار الأنوار٦٧:٣٠٢.

(٥) شهاب الأخبار: ٢٠ح١٢٠.

ومن ذلك ما روى الباقر عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه خطب الناس فقال: **ألا أخبركم بشراركم؟** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **الذي يمنع رفده**[١]**، ويضرب عبده، وينزوّد**[٢] **وحده**، فظنّوا أنّ الله لم يخلق خلقاً هو شرٌّ من هذا.

ثمّ قال: **ألا أخبركم بمن هو شرّ من ذلك؟**

قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **الذي لا يرجى خيره ولا يؤمن شرّه**، فظنّوا أنّ الله لم يخلق خلقاً هو شرّ من هذا.

ثمّ قال: **ألا أخبركم بمن هو شرّ من ذلك؟** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **المتفحش اللعّان الذي إذا ذكر عنده المؤمنون لعنهم، وإذا ذكروه لعنوه**[٣].

وفي خبر عنه صلى الله عليه وآله قال: **مثل المؤمن مثل الأرض منافعهم منها وأذاهم عليها**[٤].

وغيرها من أخبار تُدرج ضمن هذا التقسيم باعتبار أنها نصوص تسهم في تنمية الفكر وتهذيبه.

ويمكن أن يدرج في الوجه الثاني للثقافة ما روي من أخبار في تكوين الحسّ الجمالي ومن ذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: **من بشّرني بخروج آذار فله الجنّة، فقال أبو ذر:قد خرج آذار يا رسول الله**[٥].

لما يعني ذلك من دخول فصل الربيع وازدهار الطبيعة واخضرارها

---

(١) الرفد: العطاء والمعونة. اللسان (رفد).

(٢) التزوّد: اتخاذ الزاد والطعام. والمراد هنا هو قبض اليد والبخل. اللسان (زود).

(٣) أصول الكافي٢ : ٢٩٠ح٧.

(٤) مصباح الشريعة : ١٥٥.

(٥) بحار الأنوار٢٢: ٤٢٤.

واكتسابها حلّة جميلة وهبها الله لعباده فتبدو الأرض والطبيعة بأروع صورة وأكملها، ويُرى هذا لمن عاش في البوادي والبراري حيث تتلون الأرض وتظهر مخلوقات الله في هذا الفصل لتعلن ميلاد الطبيعة من جديد بثوب أخضر زاهٍ حاكياً جمال الله وجمال مخلوقاته.

ويحسّ المتلقّي للنصوص النبوية البعد الجمالي والحضاري لشخصية الرسول الكريم ﷺ حيث يجسد معالم الجمال والقوّة في المؤمن.

كما في قوله ﷺ **لا تسمّوا العنب الكَرْم، فإنّ المؤمن هو الكَرْم**[1]، فهنا تأكيد لقيمة المؤمن وروعة وجوده في الكون، فليس لأيّ مخلوق كرامة تفوق كرامة المؤمن،فالعنب فاكهة تفنى وحين توصف بأنها كريمة يعني في هذا غضاضة للمؤمن، فليس من الذوق نسيان هذا الكائن الكريم الموجود على الأرض ونتجاوز بالتسمية إلى موجود آخر وهناك من هو أحقّ بها وأجمل.

وقد جعل النبيّ ﷺ قطعة من المؤمن الكرم، وليس المؤمن بتمامه وكماله كما ورد في خبر عنه ﷺ قال: **الكَرْم قلب المؤمن**[2].

ويعبق من النصوص النبوية نشر وعرف طيّب يتجلّى في قوله ﷺ: رائحة الأنبياء رائحة السفرجل، ورائحة الحور العين الآس، ورائحة الملائكة رائحة الورد، ورائحة ابنتي فاطمة الزهراء رائحة السفرجل والآس والورد[3].

فتجده ﷺ يسعى إلى إظهار أبعاد الطهارة والجمال للكيانات الروحية المقدّسة ثم يعرج النبيّ ﷺ إلى إبراز الجمال الخارجي للطاهرة فاطمة عليها السلام في الشعاعات المتناثرة من هذا الجمال المندمج في كيانها المعطّر بعطر الوجود

---

(١) علل الشرايع : ٥٨٣ح٢٣.

(٢) صحيح مسلم ٤: ١٧٦ح٢٢٤٧.

(٣) بحار الأنوار٦٦: ١٧٧.

الـربّاني الـذي نثره الله في مخلوقاته، وإن كانت الإشارات هذه أدنى من كيان فاطمة عليها السلام.

ومـن الوجـه الثالـث للـثقافة، وهو غرس الحسّ الأخلاقي والاستمساك بالقـيم، ندرج ما يروى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يقول: **تفوح روائح الجنّة من قبل قرن، واشوقاه إليك يا أويس القرني، ألاومن لقيه فليقرأه منّي السلام**، قيل: يا رسول الله، ومن أويس القرني؟

قـال: **إنْ غاب عنكم لم تفتقدوه، وإن ظهرلكم لم تكترثوا به، يدخل الجنّة في شـفاعته مـثل ربيعة ومضر، يؤمن بي ولايراني، ويقتل بين يدي خليفتي أمير المؤمـنين علـي بن أبي طالب في صفيّن**[1]، فهنا خبر يطرح قيمة الرجل الكامل المجهـول الـذي يـتجاهله المجـتمع البشـري،في حـين هو قمة الكمال، ومن هداه وشذاه شرفت قبيلة ودخلت في حافظة التاريخ، ومن هذا الوجه قول النبيّ صلى الله عليه وآله: **أقـلّ الـناس راحـةً البخـيل، وأبخـل الناس من بخل بما افترض الله عليه**[2]، فهنا تأكـيد لمـبدأ أخلاقـي سـماوي ينبغي أن يأخذ موقعه في حياة الناس وهو السخاء والجود الذي يترشح من مفهوم الحديث.

وقوله صلى الله عليه وآله: **أيّما مسلم خدم قوماً من المسلمين إلاّ أعطاه الله مثل عددهم خدّاماً في الجنّة**[3]، تأكيد لروح التعاون والتضحية والإيثار.

ونجد في قوله صلى الله عليه وآله: **الدنيا والدرهم أهلكا من كان قبلكم وهما مهلكاكم**[4].

دعـوة للـزهد ونبذ القيم الزائفة القائمة على تحويل المجتمعات إلى أرقام

---

(١) فضائل شاذان: ١٠٧.

(٢) أمالي الصدوق : ٢٧ح٤.

(٣) أصول الكافي٢: ٢٠٧ح١.

(٤) أصول الكافي٢: ٣١٦ح٦.

وحسابات مصرفية خالية من القيم والمبادئ.

ومن هذا الوجه أيضاً ما روى الباقر عليه السلام أنّ أعرابياً من بني تميم أتى النبي ﷺ فقال له: أوصني، فكان ممّا أوصاه: **تحبّب إلى الناس يحبّوك**[١].

حيث علّمه النبيّ ﷺ ثقافة الودّ والسلام والوئام، وكان النبي ﷺ يسعى إلى نزع الشر من بواطن شخصية هذا البدوي، ويحاول تجريد قيم البداوة التي كان يراها ﷺ متجسّده بهذا الأعرابي الذي يمثل شريحة من مجتمع متقاتل متحارب تنقدح شرارات البغض والعداوة فيه فتشتعل حروب وغارات ليس من السهل إطفاؤها، وقد جعل ﷺ المودّة والتآلف والسلام نصف الفكر البشري؛ وناصف به عقل الإنسان فقال ﷺ:التودّد إلى الناس نصف العقل[٢].

ثقافة العنف والطغيان وانعكاساتها على السيرة النبوية

كان النبيّ ﷺ يسعى لوضع الكيان الثقافي الإسلامي الذي يقوم على مبادئ المودّة والمسالمة والتفاهم، فليست ثقافة العدوان والعنف من مكوّنات شخصية النبي ﷺ الذي تشكلّت أخلاقه من نسيج ملؤه العطف والرحمة والخير،ولم تتوقّد لديه ﷺ أحاسيس الانفعال والغضب الشخصي حين كان فتيان قريش وصبيانهم يواجهونه بالإيذاء والاستهزاء والمشاكسة، فروي أنّه لقي ﷺ من قومه أذىً وبلاءً شديداً حتّى أتوه ذات يوم وهو ساجد فطرحوا عليه رحم شاة[٣].

---

(١) أصول الكافي٢: ٦٤٢ح١ باب التودّد إلى الناس.

(٢) أصول الكافي٢: ٦٤٣ح٤ باب التحبّب إلى الناس.

(٣) ينظر بحار الأنوار١٨: ٢٠٥و١٩:٣١٩.

وكان ﷺ إذا خرج من بيته تبعه أحداث المشركين يرمونه بالحجارة حتّى أدْمَوا كعبه وعرقوبيه، فكان عليّ عليه السلام يحمل عليهم فينهزمون فنزل قوله تعالى:«كأنهم حمر مستنفرة فرّت من قسورة»[١].

ويروى مما لقي ﷺ من الإيذاء أنّه كان يطوف في الكعبة فشتمه عقبة بن أبي معيط وألقى عمامته في عنقه وجرّه من المسجد[٢].

وجدّت قريش في أذاه حتى كان أشدّ الناس عليه عمّه أبو لهب فنزل قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾[٣].

وقد روى ابن شهر اشوب صورة من صور هذا الإيذاء الذي لقيه النبي ﷺ من عمّه حاكياً ذلك عن طارق المحاربي قال: رأيت النبيّ ﷺ في سويقة ذي المجاز، عليه حلّة حمراء، وهو يقول: يا أيّها الناس قولوا لا إله إلاّ الله تُفلحوا، وأبو لهب يتبعه ويرميه بالحجارة، وقد أدمى كعبيه وعرقوبيه، وهو يقول: يا أيّها الناس لا تطيعوه فإنّه كذّاب[٤].

وقد نسب إلى عليّ عليه السلام أنّه سجّل هذه المواقف في أبيات شعرية فيقول:

أبا لهب تبّت يداك أبا لهب ... وصخرة بنت الحرب حمّالة الحطب

خذلت نبيّ الله قاطع رحمه ... فكنت كمن باع السلامة بالعطب

لخوف أبي جهل فأصبحت تابعاً ... له، وكذاك الرأس يتبعه الذنب[٥].

---

(١) المدّثر:٥٠و٥١.وذكر الخبر ابن شهر آشوب في المناقب٢: ٦٨.

(٢) بحار الأنوار١٨: ٢٠٤.

(٣) تبت:١ـ٥.

(٤) مناقب آل أبي طالب١: ٥٦.

(٥) بحار الأنوار٣٤: ٣٩٨.

فالعدوان البدني واللفظي الذي لقيه النبيّ ﷺ كان صعباً وعسيراً، وخصوصاً حينما ينطلق من الدائرة القريبة للإنسان، فليس من المتعارف في المجتمعات العربية العشائرية القائمة آنذاك أن تكون سهام العداء والحرب موجهة من داخل القبيلة أو الأسرة، وهذا ما لقيه النبي ﷺ من عشيرته وقومه، علاوةً على ما انضاف إليه من الزخم الخارجي العدائي الشديد والذي برز حين تظاهرت عليه عامّة العرب على أمل خنق هذا الكيان الطاهر ووأده في عقر داره.

فكيف يمكن تصوّر معاناة النبيّ ﷺ وخاصّة أحبّائه حينما اجتمعت قريش في دار الندوة وكتبوا صحيفة بينهم أن لا يؤاكلوا بني هاشم ولا يكلّموهم، ولا يبايعوهم، ولا يزوّجوهم، ولايتزوّجوا إليهم، ولا يحضروا معهم حتّى يدفعوا إليهم محمداً فيقتلونه، وأنّهم يدٌ واحدة على محمد يقتلونه غيلةً أو صراحاً، فلمّا بلغ ذلك أبا طالب جمع بني هاشم ودخلوا الشعب وكانوا أربعين رجلاً، فحلف لهم أبو طالب بالكعبة والحرم والركن والمقام إنْ شاكت محمداً شوكة لأثبنّ عليكم يا بني هاشم! وحصّن الشِعب وكان يحرسه بالليل والنهار، فإذا جاء الليل يقوم عليه بالسيف، ورسول الله ﷺ مضطجع ثمّ يقيمه ويضجعه في موضع آخر، فلا يزال الليل كلّه هكذا، ويوكّل ولده وولد أخيه به يحرسونه بالنهار فأصابهم الجهد، وكان من دخل مكّة من العرب لا يجسر أن يبيع من بني هاشم شيئاً، ومن باع منهم شيئاً انتهبوا ماله، وكان أبو جهل والعاص بن وائل السهمي يخرجون إلى الطرقات التي تدخل مكّة، فمن رأوه معه ميرة نهوه أن يبيع من بني هاشم شيئاً، ويحذّرون إنْ باع شيئاً منهم أن ينهبوا ماله... فلم يزل هذا حالهم وبقوا في الشعب أربع سنين، لايأمنون إلاّ من موسم إلى موسم، ولايشترون ولا يبايعون إلاّ في الموسم، وكان يقوم بمكّة موسمان في كلّ سنة، موسم العمرة في رجب، وموسم الحج في ذي الحجّة، فكان إذا اجتمعت المواسم تخرج بنو هاشم من الشعب فيشترون ويبيعون، ثمّ لا يجسر

أحدٌ منهم أن يخرج إلى الموسم الثاني، وأصابهم الجهد وجاعوا، وبعثت قريش إلى أبي طالب: ادفع إلينا محمداً حتّى نقتله، ونملكك علينا، فقال أبو طالب رضي الله عنه قصيدته اللامية:

ولمّا رأيت القوم لاودّ فيهم وقد قطعوا كلّ العرى والوسائل[١].

وقد وصف عليٌ عليه السلام جانباً من هذه المعاناة فقال: فأراد قومنا قتل نبيّنا واجتياح أصلنا، وهمّوا بنا الهموم، وفعلوا بنا الأفاعيل، ومنعونا العَذْب، وأحلسونا الخوف، واضطرونا إلى جبل وَعْر، وأوقدوا لنا نار الحرب، فعزم الله لنا على الذبّ عن حوزته، والرمي من وراء حرمته، مؤمننا يبغي بذلك الأجر، وكافرنا يحامي عن الأصل.

ومن أسلم من قريش خلوٌّ ممّا نحن فيه بحلفٍ يمنعه، أو عشيرة تقوم دونه، فهو من القتل بمكان أمن، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا احمرَّ البأس وأحجم الناس قدَّم أهل بيته فوقى بهم أصحابه حرَّ السيوف والأسنّة، فقتل عبيدة بن الحارث يوم بدر، وقتل حمزة يوم أحد، وقتل جعفر يوم مُؤتة[٢].

وفي وصف آخر له عليه السلام يصف معاناة النبي صلى الله عليه وآله بالقول: وكتبوا علينا بينهم كتاباً لا يواكلونا ولا يشاربوننا ولا يناكحوننا، ولا يبايعوننا، ولا نأمن فيهم حتى ندفع إليهم محمداً صلى الله عليه وآله فيقتلوه ويمثّلوا به، فلم نكن نأمن فيهم إلّا من موسم إلى موسم، فعزم الله لنا على منعه والذب عن حوزته، والرميّا من وراء جمرته، والقيام بأسيافنا دونه في ساعات الخوف بالليل والنهار، فمؤمننا يرجو بذلك الثواب، وكافرنا يحامي به عن الأصل[٣].

---

(١) بحار الأنوار١٩: ١.

(٢) نهج البلاغة: ٣٦٨ رسائل أمير المؤمنين عليه السلام رسالة رقم ٩.

(٣) وقعة صفين: ٨٩.

فتبدو كأنّ هذه الأحداث قصّة خيالية لصعوبة تصديقها في مجتمع مكّة، المجتمع الديني والتجاري الذي يفترض فيه أن تكون عواطفه رقيقة وخاصّة مع أبنائه وسكّانه الذين يتعايشون معه.

وقد وصف الأستاذ أمين دويدار معاناة النبيّ ﷺ مع قومه بالقول: لقد أخذت قريش منذ قام النبيّ ﷺ بدعوته تناصبه العداوة، وتقيم في طريقه العقبات، وتصفه بالسحر تارة، وبالكهانة تارة، وبالجنون تارة، وبالكذب تارة، وتحذّر العرب في المواسم والأسواق من شرّه وسحره ليقاطعوه، وتحصره وآله في الشعب حتّى كادوا يهلكون جوعاً، وتصبّ على أصحابه ألوان العذاب حتّى تخرجهم من ديارهم وأموالهم، وتتآمر على قتله حتّى يفرّ منها مهاجراً إلى المدينة، ثمّ تتعقبه هناك في مهاجره فتغزوه المرّة بعد المرّة، وتتآمر مع اليهود عليه فيحاولون اغتياله، ويجمعون له الأحزاب ويؤلبون عليه القبائل... وهكذا ممّا جعل حياته وحياة أصحابه جهاداً دائباً وكفاحاً مريراً، ويقول أيضاً: وكانت قريش هي العقبة الكأداء في طريق الإسلام منذ ظهوره، وكانت عداوتها له أصل البلاء ومنبع الشرّ، وكان العرب واليهود يسيرون على منهاجها في مناوأة الإسلام وعداوته، وكأنّما كانت هي الجذوة التي تشعل النار في كلّ ما حولها[1].

وقد كتب المأمون العباسي في كتاب له إلى بني هاشم يصوّر جانباً من معاناته ﷺ، حين يصف قوم النبيّ ﷺ وحاله عند بعثته صلى الله عليه وآله فقال: كانت عمومة رسول الله ﷺ إمّا مسلم مهين أو كافر معاند، إلاّ حمزة فإنّه لم يمتنع من الإسلام ولايمتنع الإسلام منه، فمضى لسبيله على بيّنة من ربّه.

وأمّا أبو طالب فإنّه كفله وربّاه، ولم يزل مدافعاً عنه ومانعاً منه، فلمّا قبض الله سبحانه أبا طالب همّ القوم وأجمعوا عليه ليقتلوه فهاجر إلى القوم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾[2].

---

(١) صور من حياة الرسول:٤٦٨و٤٦٩.

(٢) الطرائف لابن طاووس :٢٧٥ والآية في سورة الحشر: ٩.

وكيف يمكن تصوّر إنسان يعيش هذه الحلقات والدوائر المتتابعة من الصدود والمجافاة، وكأنّ النبيّ ﷺ كان يحمل أعباء هذه الرسالة العظيمة وحده، فكان المدد السماوي للنبيّ ﷺ الذي أشار له الكتاب العزيز: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾[1]، ولم يكن أثقل عليه ﷺ من هذه الصورة القائمة التي قال الشيخ الطبرسي عنها: أزلنا همومك التي أثقلتك من أذى الكفّار[2]، والذين كان جلّهم من قومه ومن مدينته ومن رباع صباه.

ولم يتخلّص النبيّ ﷺ من أخطبوط الإيذاء الذي ظلّ يلاحقه حتّى بعد استتباب الدعوة المباركة، وكأنّ قدر النبيّ ﷺ أن يعيش هذه المعاناة ويواجهها في كلّ مراحل حياته، وأشدّ الأمر وأصعبه على القادة حين يبتلى القائد بجند يشككون بنزاهته ويتناسون تضحياته، وأسوأ ما تكون التهمة حين تنال شخصية هذا القائد بحطام تافه لاتعني لديه شيئاً، فقد سرت شرارة شيطانية في نفس جندي مسلم اتهّم بها النبيّ ﷺ أنّه أخذ لنفسه قطيفة حمراء قبل تقسيم المغنم، فأنف الله لنبيّه الكريم فأنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[3] قالوا في سبب نزولها أنّه كان في الغنيمة التي أصابوها يوم بدر قطيفة حمراء ففقدت، فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ :ما لنا لانرى القطيفة؟ما أظن إلاّ أنّ رسول الله أخذها[4].

ونال النبيّ ﷺ من سهام الكلام التي كانت تصوّب إليه، أنّ كانت سهماً

---

(١) الشرح:٢و٣.

(٢) مجمع البيان مجلد٥:٥٠٨.

(٣) آل عمران:١٦١. وينظر تفاصيل هذه الحادثة في البحار٢٠: ٦١.

(٤) بحار الأنوار١٩: ٢٦٨.

لأن تثير حنق أصحابه وتستفزّهم لدرجة أنّهم همّوا بتصفية صانعها، فقد روى المفيد رحمه الله أنّه لمّا قسم رسول الله ﷺ غنائم حنين أقبل رجل طويل آدم، بين عينيه أثر السجود فسلّم ولم يخصّ النبيّ ﷺ ثمّ قال: قد رأيتك وما صنعت في هذه الغنائم فقال ﷺ: وكيف رأيت؟ قال: لم أراك عدلت، فغضب رسول الله ﷺ وقال: ويلك، إذا لم يكن العدل عندي، فعند من يكون! فقال المسلمون: ألا نقتله؟ فقال: دعوه، فإنّه ستكون له أتباع يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، يقتلهم الله على يد أحبّ الخلق إليه من بعدي، فقتله أمير المؤمنين عليه السلام فيمن قتل يوم النهروان من الخوارج[1].

ومع كلّ هذا كان النبيّ ﷺ يحرص على أن يكون غضبه وتنمرّه لله وحده، ومن الطبيعي لقائد سياسي وعسكري أن يبتلى بتفاصيل الممارسات السياسية والأعمال الجهادية والعسكرية، وهذا ممّا يجعله في احتكاك مباشر وتماس مع الأطراف المعادية، فحين نزل ﷺ على حصن بني قُريظة كان كعب بن أسد يشتمه ويشتم المسلمين، فلمّا دنا النبيّ ﷺ من حصنهم خاطبهم وقال: **يا إخوة القردة والخنازير وعبدة الطاغوت، أتشتموني! إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**، وهذا منه ﷺ ردّ فعل طبيعي للمواقف العدائية التي تراكمت من قبل اليهود، إضافة إلى محاولاتهم الحثيثة في اغتياله والوقيعة به وبالمسلمين ممّا قدح شرارة غضب ربّاني في صدره الرحيب، ومع كلّ هذا وذاك فإنّ النبيّ ﷺ وسجاياه الكريمة لم تكن تمكّنه من أن يدع موجة الغضب التي اعترته أن تحرق الأذن اليهودية بنار بلاغته، فتقول رواية الصادق عليه السلام حين قال له كعب بن أسد: يا أبا القاسم ما كنت فحّاشاً، سقطت العنزة من يده وسقط رداؤه من خلفه ورجع يمشي إلى ورائه حياءً ممّا قال[2].

---

(١) إرشاد المفيد:٧٨.

(٢) ينظر بحار الأنوار٢٠: ٢٧٣و٢٣٣و٢٦٢.

وكانت ثقافة المعايشة السلمية نصب عين النبيّ ﷺ وإليها يدعو أصحابه ومن آمن به، فحين وفد العلاء بن الحضرمي على النبيّ ﷺ قال: يا رسول الله، إنّ لي أهل بيت أحسن إليهم فيسيئون، وأصلهم فيقطعون، فقال رسول الله ﷺ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1].

وكان ﷺ يقول: لم يزل جبرئيل ينهاني عن ملاحاة الرجل، كما ينهاني عن شرب الخمر، وعبادة الأوثان[2].

وقيل: إنّ رجلاً من تميم أتى النبيّ ﷺ فقال: أوصني، فكان فيما أوصاه النبيّ ﷺ أن قال: لاتسبّوا الناس فتكسبوا العداوة بينهم[3].

فليس من السهل، إزاء هذا العدوان والإيذاء المتعمّد، على النفس البشرية أن تتغاضى وتطوي هذه المعاناة وتضعها في محفظة النسيان، وتفتح صفحات جديدة مع هذه الكيانات المتمرسة بالجريمة والطغيان، إلاّ أنّ النفس الصافية والعالية للنبيّ ﷺ تناست كلّ شي بل حوّلت هذه العواصف الصفراء الحاقدة إلى أحاسيس أخرى نزعت من أجيجها الحارق، فتراه يضع هذه العواطف السلبية في خانة العواطف الإيجابية وفقاً لما جاء في التوصية الربّانية التي تقول: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[4] وحين دخل مكّة دخول الفاتحين سئل أهلها: ما ترون أنّي فاعل بكم؛ قالوا خيراً، ظنّاً به وبخصاله وسجيته الكريمة، فقال ﷺ أقول كما

---

(١) بحار الأنوار٧١: ٤١٥. والآية في سورة فصلت٣٤و٣٥.

(٢) أمالي الطوسي٢: ١٢٦ط النجف.

(٣) بحار الأنوار٧٢: ١٦٣.

(٤) فصّلت:٣٤.

قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين[١]، ولطالما كان ﷺ يردّد: اللهم اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون[٢].

ومن هذا المنطلق كان النبيّ ﷺ يضع لبنات ثقافة السلام، وتعدّ ثقافة السلام وفقاً لسياقها الزمني ثقافة محدثة غريبة لاتتواءم مع بيئة صحراء قاحلة تتحكم بها قوانين الحرب والسلب والغارات الخاطفة التي تنزع اللقمة من الأفواه الجائعة.

وقد أشار عليّ عليه السلام إلى جانب من ثقافة الحرب والعدوان التي كانت عليها جمهرة من العرب فقال: إنّ الله بعث محمداً ﷺ نذيراً للعالمين، وأميناً على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شرّ دين، وفي شرّ دار، منيخون بين حجارةٍ خشنٍ، وحيّاتٍ صمّ، تشربون الكَدِر وتأكلون الجَشِب، وتسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة[٣].

وقد استحكمت الغلظة والقسوة في الروابط الاجتماعية لديهم لدرجة أن صارت البنت تدفن وهي حيّة تتنفس ولا تقطر لها دموع، قال قتادة:كان أهل الجاهلية يقتل أحدهم ابنته ويغذو كلبه فعاب الله ذلك عليهم فقال: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾[٤].

و روي أن المرأة كانت إذا حان وقت ولادتها حفرت حفرة وقعدت على رأسها، فإن ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة، وإن ولدت غلاماً حبسته[٥].

---

(١) بحار الأنوار٢١: ١٣٢،كنز العمال١٠: ٣٨٩ح٢٩٩٣١.

(٢) كنز العمال١٠: ٣٧٩ح٢٩٨٨٣.

(٣) نهج البلاغة ٦٨ خطبة ٢٦.

(٤) التكوير٨و٩، ينظر تفسير الطبري٣٠: ٧٢ ط الحلبي مصر.

(٥) مجمع البيان للطبرسي مجلد٥: ٤٤٤.

ومن الجدير بالإشارة إلى أنّ العرب إنّما كانوا كغيرهم من الأمم يفضلون الذكور على الإناث، ومن ثمّ فإذا ما ولدت المرأة ولداً هنأها أفراد القبيلة وذبحوا الذبائح، ولذلك كان يقال:« بالرفاء والبنين» لاالبنات.

وكان الأب، في أغلب الأحايين، يسمّى باسم ابنه، ومن هنا كانت التكنية بأبي، وعلى العكس من ذلك كان العرب، بخاصّة البدو، ينفرون من نسل الإناث، خوف العار، أو أن يسبين في الحروب أو خشية الإملاق.

وهكذا رغب كثير من العرب عن البنات،وذاعت بغضتهم واشتهروا بها، فقد قيل لأعرابي: ما ولدك؟ قال: قليل خبيث قيل: وكيف ذلك؟ قال: لاعدد أقلّ من الواحد، ولاأخبث من بنت، وهكذا كانوا إذا هنئوا بها قالوا: آمنكم الله عارها، وكفاكم مؤونتها، وصاهرتم القبر.

ومن الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أنّ الوأد لم يكن عاماً بين قبائل العرب جميعاً، وإنّما كان في بعض القبائل التي تغلّبت الأعرابية على حياتها، ومنها كندة وقيس وهذيل وأسد وبكربن وائل،وإن كانت تميم أشدّهم في هذا [1] ويروى أنّ بعضهم كان يقول: إنّ الإناث بنات الله فألحقوا البنات بالله فهو أحق بها منّا[2].

وبلغ من جهالة بعض الأعراب أنْ حوّل هذه المخلوقة الرائعة الجميلة لله تعالى كبضاعة كاسدة، وكأنّ الله تعالى حين يخلق لهم أنثى غير عادل معهم، فترى الآية تقول: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾[3] لأنّ الأنوثة باعتقادهم أرذل الأجناس وأوضعها، ويتّضح إحساسهم بالضعة والهوان حين

---

(١) الدكتور محمد بيومي مهران،الفكر الجاهلي،دراسات في الحضارة الإسلامية٢ :٢٣٦و٢٣٣.

(٢) ينظر أمالي السيّد المرتضى٤: ١٩٠ مجلس ٧٩.

(٣) النحل: ٥٧.

يبشّر أحدهم بأنثى فتحدّثنا الآية الكريمة عن ذلك بالقول: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[1].

وهذا الإحساس الذي نقله لنا القرآن الكريم يمثل طبقات وفئات جهلاء الأمّة آنذاك وإلاّ لانقطع نسل العرب ووجودهم.

وتختلف الروايات في تحديد تاريخ ظهور هذه العادة بين العرب، وأوّل من سنّها فيهم، فهناك روايات تقول: إنّها أوّل ما ظهرت في قبيلة تميم على يد زعيمهم قيس بن عاصم المنقري، ثمّ انتشرت في القبائل العربية الأخرى.

وذكر أبو عبيدة المتوفى سنة٢١٠هـ أنّ قبيلة تميم امتنعت عن دفع الإتاوة المقررة عليها للنعمان بن المنذر ملك الحيرة، فأرسل إليهم النعمان جيشاً أكثره من بكر بن وائل، استاق الغنم وسبى الذراري، فوفدت بنو تميم على النعمان وكلّموه في ردّ ذراريهم، فحكم النعمان بأن يجعل الخيار في ذلك إلى النساء، فأيّة امرأة اختارت أباها ردّت إليه، وإن اختارت صاحبها(سابيها) تُركت عليه، وكان بينهنّ ابنة لقيس بن عاصم المنقري سيّد تميم فاختارت سابيها،ورفضت العودة لأبيها، فنذر قيس أن لا تولد له ابنة إلاّ قتلها، ففشت هذه السنّة في تميم والعرب قاطبة بعده.

وهناك روايات أخرى تجعل قبيلة ربيعة أوّل من سنّ عادة الوأد بين العرب ثم انتشرت منها إلى القبائل العربية الأخرى[2].

---

(١) النحل:٥٨و٥٩.

(٢) خالد العسلي، دراسات في تاريخ العرب١: ٢٨٤. أشارغوستاف لوبون إلى أن قيس سيّد تميم رأى النبيّ ﷺ يشمّ ابنة له، فقال للنبيّ ﷺ: من هذه التي تشمّها، فقال ﷺ: ابنتي، فقال قيس: والله كان لي بنات كثير فوأدتهنّ من غير أن أشمّ واحدة منهنّ فصرخ النبيّ ﷺ قائلاً

وقد وصف قيس بن عاصم المنقري هذا للرسول ﷺ وأده لإحدى بناته، فذكر بأنّه أخذ ابنته التي تبلغ من العمر عدّة سنوات معه إلى الصحراء، فحفر لها حفرة كانت تساعده فيها، ودفعها فيها وصار يهيل عليها التراب وهي تبكي وتسأله عن سبب دفنه لها، وظلّت تبكي وهو يسمع أنينها تحت التراب ولم يدعها حتّى صمتت إلى الأبد[1].

وتعددت أساليب الوأد واختلفت باختلاف سنّ الموءودة، فإذا كانت صغيرة دفنت في التراب حيّة، وإن كانت كبيرة أُلقيت من شاهق فيتمزّق جسدها، أو ألقيت في بئر فتموت غرقاً.

ويبدو أنّ اللجوء إلى أسلوب الدفن بالنسبة للصغيرة لأنها عاجزة عن المقاومة أو الهرب، في حين تستطيع الكبيرة ذلك.

وتُدفن الصغيرة حال ولادتها، وفي هذه الحالة تقوم الأم بالعملية تنفيذاً لرغبة زوجها.

وأمّا إذا كانت البنت كبيرة قد وصلت سنّ البلوغ، ويصعب على والدها وأدها عن طريق الدفن، فإنّه يلجأ إلى أساليب أخرى لوأدها، منها إلقاؤها في بئر حتى تموت غرقاً، كما يتضح من الرواية الآتية التي تقول: رأى الرسول ﷺ أحد أصحابه في غمٍ دائم فسأله عن السبب فأجابه بأنّه ارتكب ذنباً في الجاهلية ويخشى أن لايغفره الله له، وهو أنّه ولدت له بنت فأراد وأدها لكن زوجته توسّلت إليه أن لا يئدها، فتركها فلمّا كبرت وجاء من يخطبها للزواج أخذته الحمية، ولم يحتمل قلبه أن يزوّجها أو يتركها بلا زوج، فأخبر

له: ويلٌ لك، يظهر أنّ الله نزع الرحمة من قلبك فلا تعرف أطيب النعم التي منّ الله بها على الإنسان. حضارة العرب٤٠٣.

(١) خالد العسلي، دراسات في تاريخ العرب١: ٢٢٨.

زوجته أنّه يريد الذهاب مع ابنته لزيارة أقارب له في قبيلة أخرى، فزيّنتها أمّها وأخذت عليه المواثيق أن لا يغدربها،فذهب بها إلى بئر ماء، ولمّا همّ أن يلقيها فيه تعلّقت به وتوسّلت إليه أن لا يفعل، فتردّد في بداية الأمر، ثمّ ألقاها في البئر منكوسة وهي تنادي:يا أبت قتلتني، حتّى انقطع صوتها[1].

و روي مثل هذه بأنّ رجلاً من أصحاب النبيّ ﷺ كان لا يزال مغتمّاً بين يدي رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : مالك تكون محزوناً، فقال: يا رسول الله إنّي أذنبت ذنباً في الجاهلية فأخاف ألاّ يغفره الله لي وإن أسلمت، فقال له النبيّ ﷺ:أخبرني عن ذنبك،فقال:يا رسول الله،إنّي كنت من الذين يقتلون بناتهم، فولدت لي بنت فتشفّعت إليّ امرأتي أن أتركها فتركتها، حتّى كبرت وأدركت وصارت من أجمل النساء، فخطبوها فدخلتني الحميّة ولم يحتمل قلبي أن أزوّجها أو أتركها في البيت بغير زوج، فقلت للمرأة: إنّي أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا في زيارة أقربائي فابعثيها معي، فسرّت بذلك وزينتها بالثياب والحلي، وأخذت عليّ المواثيق ألاّ أخونها، فذهبت بها إلى رأس بئر، فنظرت في البئر ففطنت الجارية أنّي أريد أن ألقيها في البئر فالتزمتني وجعلت تبكي وتقول: أيش تريد أن تفعل بي !

فرحمتها ثمّ نظرت في البئر فدخلت عليّ الحمية ثمّ التزمتني وجعلت تقول: يا أبت لا تضيّع أمانة أمّي، فجعلت مرّة أنظر في البئر ومرّة أنظر إليها فأرحمها، حتى غلبني الشيطان فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسة وهي تنادي في البئر: يا أبت قتلتني، فمكثت هناك حتّى انقطع صوتها فرجعت، فبكى رسول الله ﷺ وأصحابه وقال : لو أمرت أن أعاقب أحداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك[2].

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) تفسير القرطبي٧:٩٧.

وبعضهم كان يقتلها بأن يلقيها من مكان مرتفع في وادٍ سحيق فيتمزّق جسدها، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو من أنّه لم يجد حلاوة للإسلام منذ دخوله فيه، لأنّه يتذكّر باستمرار صوت ابنته التي وأدها في الجاهلية، إذ ألقاها من مكان مرتفع في وادٍ سحيق، وهي تصرخ يا أبت قتلتني.

وهناك من كان يقوم بذبحها لكي يتخلّص منها، وأمّا وأد الذكور فكان نادراً بين العرب، ولاتفعله القبائل البدوية إلاّ في سنوات الجدب والمجاعة.

ويتمّ وأد الأطفال الذكور بذبحهم أو دقّ عنق أحدهم عند الولادة، فقد طلبت هند بنت معاوية من بكر بن وائل من قوابلها عند ما ولدت ابنها ناشرة أن يدققن عنقه، لأنها لاتملك ما تعيشه به، فأعطاها جارها همام بن مرّة ما يكفي لإعالته ومنعها من ذلك[1].

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المأساة التي كان عليها جمع من العرب في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2].

وروى عكرمة أنّ قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[3]، نزل في قوم من ربيعة ومضر بأنّه كان الرجل يشترط على امرأته أن تستحيي جارية وتئد

---

(١) تفسير القرطبي١:٢٩٠و٢٨٦.

(٢) الأنعام:١٥١.

(٣) الأنعام:١٤٠.

أخرى، فإذا كانت الجارية التي تُوأد غدا الرجل أو راح من عند امرأته وقال لها: أنت عليّ كظهر أمّي إنْ رجعت إليك ولم تئديها،فتخدّ لها في الأرض خدّاً وترسل إلى نسائها فيجتمعن عندها يتداولنها، حتّى إذا أبصرته راجعاً دسّتها في حفرتها ثمّ سوّت عليها التراب[1].

وتفيد النصوص القرآنية بأنّ الدافع الأكبر لسفهاء العرب في قتل أولادهم هو الفقر، والعجز عن تأمين معيشتهم نظراً للجدب والعسرة التي تعيشها جزيرة العرب، وقد سجّل الله تعالى ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾[2].

وكان لهذه السنّة المقيتة أثر في نفس النبيّ ﷺ بحيث أنّه ﷺ لمّا سمع قصّة وأد بنت من بنات العرب تحرّكت عواطفه الكريمة ليعيدها إلى الحياة الدنيا، تقول رواية القطب الراوندي أنّ رجلاً جاء إلى النبيّ ﷺ فقال: إنّي قدمت من سفر لي، فبينا بنيّة خماسية[3] تدرج حولي في صبغها وحليّها، أخذت بيدها فانطلقت بها إلى وادي كذا فطرحتها فيه، فقال ﷺ: انطلق معي وأرني الوادي، فانطلق مع رسول الله ﷺ إلى الوادي فقال لأبيها:ما اسمها؟ قال: فلانة، فقال: يا فلانة إحيي بإذن الله تعالى، فخرجت الصبيّة تقول:لبّيك وسعديك، فقال: إنّ أبويك قد أسلما فإن أحببت أردّك عليهما؟ قالت:لا حاجة لي فيهما وجدت الله خيراً لي منهما[4].

---

(١) تفسير الطبري٨: ٥١. ط مصر.

(٢) الإسراء:٣١.

(٣) الخماسي والخماسية: ما كان طوله خمسة أشبار، ولايقال سداسي ولاسباعي، إذا بلغ ستّة أشبار وسبعة، لأنّه إذا بلغ سبعة أشبار صار رجلاً. اللسان(خمس).

(٤) الخرائج والجرائح:١: ٣٧ح٤٢ط مؤسسة المهدي عج قم.

وممّا يروى في هذا: أنّ الرجل إذا ما ولدت له بنت فأراد أن يستحييها ألبسها جبّة من صوف أو شعر، ترعى له الإبل والغنم في البادية، وإن أراد قتلها تركها، حتّى إذا كانت سداسية فيقول لأمّها: طيّبيها وزيّنيها حتّى أذهب بها حماتها، وقد حفر لها بئراً في الصحراء، فيبلغ بها البئر، فيقول لها: انظري فيها، ثمّ يدفعها من خلفها، ويهيل عليها التراب، حتّى تستوي البئر بالأرض[١].

وممّا يروى في هذا الموضوع أنّهم كانوا يسمّون القبر صهراً لأنّه يضمّ بناتهم، وفي هذا رووا قول الشاعر:

سمّيتها إذ ولدت تموت ... والقبر صهرٌ ضامنٌ زمّيت[٢].

وكان هذا السلوك الشائن يبعث الألم والحزازة في نفس النبيّ الكريم ﷺ ويستدر دموعه، ويذكره بآهات الآخرين وشقاءهم وأحزانهم.

وكان النبيّ ﷺ رقيق العاطفة، مرهف الحسّ، فيّاض الدموع، وقد وصفه تعالى أحسن وصف بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٣].

وكان من عواطفه الكريمة ورأفته ما روي أنّه ﷺ لما أمسى يوم بدر والناس محبوسون بالوثاق بات ساهراً أوّل الليل، فقال له أصحابه: مالك لا تنام؟

فقال ﷺ: سمعت أنين عمّي العبّاس في وثاقه، فأطلقوه، فسكت فنام ﷺ[٤].

---

(١) الفكر الجاهلي، دراسات في الحضارة الإسلاميه٢: ٢٣٢.

(٢) ينظر غريب الحديث للهروي١: ٢٣٥ط دار الكتب العلمية بيروت. والزميت والزمّيت: الحليم الساكن، القليل الكلام. اللسان(زمت).

(٣) التوبة:١٢٨.

(٤) بحار الأنوار١٩: ٢٤٠.

وكانت عواطفه وأحاسيسه موزّعة على الناس كلّهم مهما كانوا، ولم تكن عواطفه حبيسة على أرحامه وخوّاصه، فحين أتاه ﷺ نعي النجاشي بكى بكاء حزين عليه[1]، كأنّه ﷺ عاشره معاشرة طويلة.

وكانت عواطفه ﷺ وعواطف أهل بيته عليهم السلام مملوءةً رقّة،وحناناً، تترجمها قطرات الدموع التي تعفّر خدودهم الكريمة.

وترقيق العواطف وصقلها كان ضمن برنامجهم التربوي عليهم السلام، وفي هذا يقول الصادق عليه السلام: ما جفّت الدموع إلاّ لقسوة القلوب، وما قست القلوب إلاّ لكثرة الذنوب، ومن هذا الباب يُفسّرما روي عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: أن الله أوحى إلى موسى عليه السلام: يا موسى لاتفرح بكثرة المال، ولاتدع ذكري على كلّ حال، فإنّ كثرة المال تنسي الذنوب، وإنّ ترك ذكري يقسي القلوب[2].

ومع أنّ النبيّ ﷺ كان كاملاً وأنّه يتحكم في مسار عواطفه وأحاسيسه، إلاّ أنّ الأشجان والعواطف حين تتسلل إلى قلبه الرقيق كانت تثقله وتفجّر لديه ينبوع لوعة وأسى ومرارة ذكريات، فلربّما بكى حين يذكر خديجة عليها السلام وعمومته وأحبّاءه، ولمّا أخبر وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه عن كيفية قتله قال له النبيّ ﷺ غيّب وجهك عنّي[3] فلم يطق ﷺ أن يرى قاتل حبيب من أحبّائه رغم أنّه أسلم وشهد الشهادتين فأمره أن يتوارى عنه.

وقد جعل النبيّ ﷺ قسوة القلب من نصيب الأشقياء الذين ينأون عن الجنة فقال: من علامات الشقاء: جمود العين، وقسوة القلب، وشدّة الحرص في طلب الرزق، والإصرار على الذنب[4].

---

(١) الخصال للصدوق:٣٦٠ح٤٧.

(٢) علل الشرائع:٨١ باب جفاف الدموع.

(٣) ينظر سيرة ابن هشام٣: ٧٦.

(٤) الخصال للصدوق:٢٤٣ح٩٦.

ومن هذا المنطلق كان النبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام يسعون إلى إحلال ثقافة إنسانية جديدة، ثقافة ذات بعد إنساني تضع قواعد التفاهم والتسالم بين الناس، فلا عدوان ولاطغيان ولاتجاوز، وكان هذا التوجه لاينسجم مع البيئة الصحراوية المنغلقة لذا كان النبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام يؤكّدون على ضرورة التفاعل والاطلاع على الحضارات والمدنيات الأخرى، لأن ذلك يوسع من أفق الإنسان، ويوقد المشاعر الإيجابية لديه، ويحرّك دوافع الخير والبناء لدى الإنسان لأنَّ كلّ تغيير في البناء الاجتماعي لابدَّ أن يسبقه فكر وشعور بالتغيير واستعداد له.

وكان هذا الإدراك الذي يحمله النبيّ ﷺ ينسجم مع معطيات ثقافة الإسلام الحركية المتفاعلة مع الزمن.

و الملاحظ أنَّ الثقافات الإنسانية تنقسم أمام صرح التغير الاجتماعي إلى قسمين رئيسيين، القسم الأوّل يقف منها موقفاً سلبياً يرفض التفاعل معها وتلبية حاجاتها، والقسم الثاني يندمج معها ويتفاعل وإيّاها تبعاً لمقتضيات الضرورات الحياتية والمطالب الاجتماعية، فالثقافة من القسم الأوّل تدعى بالثقافة الستاتيكية أو الثقافة الجامدة، والثقافة من القسم الثاني تدعى بالثقافة الديناميكية، أو الثقافة الحركية.

فالثقافة الستاتيكية: هي تلك الثقافة التي تقف سدّاً منيعاً بوجه كلّ تجديد أو تغيير، كما أنّ أنماط سلوك أرباب هذه الثقافة أبداً حبيسة داخل النطاق الذي قيّدها به جمود أهلها وتبقى في معزل تام عن التيّارات الفكرية والثقافية العالمية.

أما الثقافة الديناميكية فهي تنزع إلى مسايرة سنّة التطورّ ولاتستنكف الأخذ من غيرها، فتأتيها الإشعاعات الثقافية من كلّ حدب وصوب، فتتمثلها

وتكيّف نفسها لها متى وجدت عدم التعارض بينها وبين تلك الثقافات[١].

ولاشكّ أنّ الثقافة الإسلامية هي ثقافة ديناميكية وفقاً لهذا التصور ،فالاجتهاد الفقهي ومسايرة الأزمنة واستيعاب تطوّرات الحياة كلّها أخذت مواقع لها في سيرة المسلمين، فلم تنغلق أذهان المسلمين على ثقافتهم وحدها، بل فتحوا أبواب هذه الثقافة لترتبط بالثقافات الوافدة بعد تمريرها بمصفاة الضوابط الشرعية فترجموا العلوم وآداب الثقافات المختلفة، ولم يقف النبيّ ﷺ والأئمة المعصومون عليهم السلام وعامّة المسلمين موقف المعارض لهذا التوجه.

ولهذا قد انفتحت أبواب الاتصال بالثقافات الأخرى لدرجة أنّه كان الأئمة المعصومون عليهم السلام يتكلّمون لغات الأمم والشعوب حتّى في لحظات الخلوة والعبادة، فقد روى المفضل بن عمر أنّه أتى باب الصادق عليه السلام يوماً فسمعه يتكلّم بالسريانية[٢].

وهذا مؤشر حضاري كبير يعكس درجة الانفتاح والمرونة التي كان المسلمون يتعاملون بها مع الكيانات الحضارية الأخرى.

---

(١) ينظر علي الأديب، منهج التربية عند الإمام علي عليه السلام، ط المكتبة الحيدرية النجف:٥٩.

(٢) الخبر في بحار الأنوار١٣: ٣٩٢.

الحضارة الإسلامية والحضارات العالمية

لم تكن معرفة العرب قبل الإسلام بالشكل الذي ينسب لهم من معارف وعلوم كالذي عليه بعد الإسلام،بل كانت معرفة العرب بالعلوم في الجاهلية مقصورة على بعض الأفكار والآراء البدائية في مجالي علوم الهيئة والجغرافيا،ويمكننا تلمّس تلك المعلومات من الشعر الجاهلي[1].

فالعلوم التي أسسها المسلمون وصارت مصدراً ومرجعاً للدراسات الأوربية كانت بعد البعثة النبوية المباركة، ومن أنفاس وجوده ﷺ ووجود أولاده المعصومين وتلاميذهم.

ولكن عامّة العرب على العموم كانوا يحملون استعداداً للتعلم واكتساب المعارف والعلوم من الأمم الأخرى .

يقول مؤلّفا تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في هذا الشأن:

بالرغم من افتقار العرب إلى تراث قديم في العلوم العقلية والتجريبية، مثل الفلسفة والطبّ والكيمياء والفيزياء وغيرها لكنّهم امتازوا دائماً بما أنعم الله عليهم من قدرة على الاستيعاب والتعلّم.

وجاء الإسلام داعياً ومؤكّداً على طلب العلم النافع في الحياة من ناحية، والتعامل مع أصحاب الحضارات الأخرى من ناحية ثانية، ممّا دفع المسلمين إلى العمل سريعاً للإفادة من كلّ ما هو نافع من تراث السابقين العلمي ممّالا يتعارض وتعاليم الإسلام وقيمه وآدابه.

وبتلك الخصائص التي كان عليها المسلمون أقدموا على علوم الأوائل

---

(١) محمد جمال الدين الفندي، تراث المسلمين في ميدان العلوم، دراسات في الحضارة الإسلامية ج ٢: ٢٤١.

يدرسونها ويناقشون ما بها من آراء ويصححون ما قد يجدونه من أخطاء ويضيفون إليها الجديد من المعلومات التي يتوصلون إليها بالتجربة والبرهان العلمي، وكانت نقطة البداية للإطلاع على تراث الآخرين هي ترجمة ذلك التراث[١].

وقد سجّل لنا تاريخ المسلمين انفتاحاً واستقبالاً للثقافات والمدنيات والحضارات الأخرى بحيث تطوّر إلى مرحلة أن طلب النبيّ ﷺ من المسلم أن يتحرك من موضعه للاطلاع والمشاهدة المباشره للوقوف على ثقافات الأمم وعلومها، كما روي عنه في الحديث: اطلبوا العلم ولوبالصين[٢].

وما تعني هذه الدعوة المطلقة إلاّ الحركة والسفر وتحمّل المشاق للوقوف على التجارب والثقافات التي امتلكتها الأمم لغرض هضمها وتمثّلها واستيعابها.

وقد جرّ هذا الانفتاح والتفاعل مع الحضارات والمدنيات الأخرى إلى قيام نهضة إسلامية كبيرة مميزة تركت بصماتها بشكل واضح في مسيرة الحضارة الطويلة.

ويصف الدكتور غوستاف لوبون تقبّل العرب المسلمين للمدنية واستعدادهم للإبداع الحضاري بالقول:

وقد أثبت العرب أنهّم أهل للاقتباس، ولاريب في أنّ العرب الذين استطاعوا في أقلّ من قرن أن يقيموا دولةً عظيمة ويبدعوا حضارة عالية جديدة، من ذوي القرائح التي لاتتمّ إلاّ بتوالي الوراثة وبثقافة سابقة مستمرة، وبالعرب لابأصحاب الجلود الحمر أو الاستراليين، أنشأ خلفاء محمد تلك المدن

---

(١) تاريخ الحضارة العربية الإسلامية للتليسي والذويب:٢٨٧.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي٢: ٢٥٤ رقم ١٦٦٣.بحار الأنوار١: ١٧٧و١٨٠.

الزاهرة التي ظلّت ثمانية قرون مراكز للعلوم والآداب والفنون في آسيا وأوربا... ثمّ يقول: ويصل الباحث حين يدرس تأثير العرب في الأمم التي اختلطوا بها، إلى إحدى النتيجتين الآتيتين، وهما: إمّا أن تكون حضارة العرب قد حلّت محلّ حضارة الأمّة المقهورة كما حدث في مصر، وإمّا أن تكون قد امتزجت بحضارة الأمّة المغلوبة كما حدث في بلاد فارس والهند، وفي بلاد الهند بلغ امتزاج حضارة العرب بحضارة الهند مبلغاً بدت علائمه حتى على المذاهب الدينية، ثم حدث أن أتى بعدئذٍ عنصر الحضارة الفارسية، فاشترك هذا العنصر أيضاً في ذلك الامتزاج[1].

وقد عزت الباحثة الألمانية زيغريدهونكه، صاحبة كتاب شمس الله تسطع على الغرب، نهضة الأمة الإسلامية وتقدّمها الحضاري إلى هذه العوامل التي نقلها باحث مسلم، وهي:

١- دراسة لغة القرآن، وتعلّم القراءة والكتابة بالنسبة إلى جميع المسلمين.

٢- المهام التي يفرضها القيام بفرائض الدين،مثل علم الفلك والرياضيات والنظافة والصحة.

٣- التعاليم والإشارات الصادرة عن الرسول ﷺ والتي تحفز إلى طلب العلم ودراسته.

٤- استيعاب المعارف الموجودة.

٥- شرح النصوص اليونانية والهندية، وتحقيق مدى صحتها والتعليق عليها.

---

(١) حضارة العرب:٨٨و١٨٧.

٦- وجوب تحصيل العلوم الأخرى غير الإسلامية واتخاذها سلاحاً للدفاع عن الإسلام.

٧- التشجيع على مواصلة البحث الذاتي، وتدريب الملكات الفكرية.

٨- توسيع الآفاق عن طريق الهجرة والرحلات والمبادلات.

٩- الجو السائد في مجال حرية الرأي والتسامح[١].

ومهما كانت الأسباب، هذه أو غيرها،فإنّ تكوين الحضارة الإسلامية كان بتأثير النبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام وصحابتهم العلماء أيضاً، فإنّهم قدحوا عقول المسلمين بالعلوم والمعارف، وقد وضعت الباحثة الألمانية دور النبيّ ﷺ ضمن مجموعة عوامل لايمكن لنا حذفها أو تقليل دورها إلاّ أنّ تكميل الدور الحضاري والإبقاء عليه كان بفعل الدور الكبير الذي كان يمارسه الأئمة وأتباع الأئمة المعصومين عليهم السلام وصحابتهم[٢]، والذي تجلّى واضحاً في حقب التاريخ المختلفة، ويكفي أن نشير إلى الجهد العلمي المميّز الذي كان يضطلع به الصادق عليه السلام، وما ترتّب على ذلك من انبثاق علوم المسلمين ومساهمتهم الواضحة في الإرشاد الحضاري للبشرية.

فالإسلام يعتبر الجهل من المشاكل المعضلة للإنسان فعند تفشّي الجهل يضلّ الإنسان هنا ويهلك ويتيه، لأن البصر لديه مسلوب فكيف يمكنه أن يرى الحقائق وهو فاقد لحاسّة البصر القوية، وهي العلم والمعرفة، فحين يتعلّم الإنسان تنكشف الحقائق لديه ويتمكّن من إدارة نفسه والعالم معه أيضاً،

---

(١) محمد سعيد البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، دار الفكر:١٦١.

(٢) ذكر مؤلّفا تاريخ الحضارة العربية الإسلامية أعلام الحضارة الإسلامية حسب تصنيف العلوم، ولم يفتهما الإشارة إلى الصادق عليه السلام وتلميذه جابر بن حيّان مؤسس علم الكيمياء في ص ٢٩٩ من الكتاب لشهرتهما في تاريخ العلوم وتأسيسهما هذا العلم.

ويتحرّك لتطوير نفسه وحياته والأخذ بها نحو شكل أحسن،ولذلك خصّ النبيّ ﷺ دعاءه لبني أبيه بالعلم فقال: يا بني عبد المطلب، إني سألت الله لكم أن يعلّم جاهلكم[1].

والمقياس الحضاري للشعوب والأمم هو النسبة المئوية للمتعلمين في المجتمع فكلّما زادت نسبة أهل العلم والمعرفة زادت الفرص في التقدّم الحضاري والاجتماعي، وبالتالي ازدهار حركة الإعمار والبناء، وحين تخطو الجموع البشرية بخطوات البناء والإعمار، من هنا تبرز الحاجة إلى تكنولوجيا الإعمار، أو تطبيقات العلوم النظرية، فكلّ ما لدى الأمة من نظريات وفرضيات علمية تجد مناخها وساحتها في مجمل هذه النهضة المدنية.

وتُعتبر التكنولوجيا الحديثة معلماً واضحاً يحدّد المركز السياسي والاقتصادي للبلدان في الساحة الدولية في هذه الأزمنة.

لذا يقاس قوّة البلد سياسياً واقتصادياً من خلال امتلاكه لحلقات التقنية الحديثة، فكلّما كانت درجة وموقعيّة المهندس التكنولوجي عالية كانت قيمته الاقتصادية أعلى وأرفع، فالمهندسون هم البنوك البشرية الآن للدول، وبهم يتقوّم اقتصاد البلد وسياسته وكيانه.

وقد كانت المرحلة الزمنية التي عاشها النبيّ ﷺ رهينة بتاريخها وتسلسلها الزمني، فلا يمكن مطالبة النبيّ ﷺ بأن يتجاوز السياق الزمنى للتطور الحضاري والعلمي، فتحقيق قفزة في اقتصاد الدولة الإسلامية المقامة آنذاك وفي تقدمها التقني غير ممكنة وغير واقعية ولا تناسب عقول الناس باعتبار أنّ معايير الحضارة التكنولوجية الحديثة جاءت مناسبة مع تاريخ الإنسان

---

(١) بحار الأنوار٢٧: ١٧٣.

العلمي والحضاري الحديث الذي ورث مسيرة طويلة شاقة أوصلته إلى ما عليه الآن.

ولم يهمل النبيّ ﷺ أهمية التقدّم التقني للإنسان، فالتأكيد على طلب العلم من الصين يلمح إلى إدراك النبيّ ﷺ لهذا العامل في صنع الحضارة، ولقد كانت أوّل محاولة لزراعة اللؤلؤ في المحار هناك، وذلك بإدخال جسم غريب بصورة فنيّة بين الصدف والغشاء اللحمي للمحار، لأوّل مرّة في الصين قبل اثنين وعشرين قرناً[١].

فالخطاب النبوي كان مدروساً وواعياً لأوضاع الناس والعالم في زمانهم الذي مضى، فالأنبياء لديهم من العلم والدراية التي زوّدتهم بها السماء، ممّا يجعل كلّ كلمة يقولونها لها دلالاتها وأبعادها، فالصين قبل بعثة النبيّ ﷺ كانت مجهولة للعرب، ولم تكن متداولة في مفردات حياتهم بالقياس إلى البلدان القريبة مثل اليمن والحبشة وفارس وغيرها من الدول المحيطة بهم والتي تصل أسماعهم بواسطة التجّار أو غيرهم، إلاّ أنّ النبيّ ﷺ لم يخصّ تلك الدول في خطابه للتعلم والاكتساب رغم أنّها كانت لها حضارة لم يهملها النبيّ ﷺ كما يلاحظ في حديثه، بل خصّ الصين، فما يعنى هذا في خطابه ﷺ.

يقول تاريخ العلم عن هذا البلد:في غضون القرنين الأول والثاني الميلاديين كانت الصين قد بلغت قمة من قمم التقدّم العلمي والتقني عبر التاريخ، لذلك فإنّه من الناحية التقنية بالذات، يحق اعتبار الصين غاية وذروة الحضارات الشرقية القديمة[٢].

---

(١) فاضل الطائي، أعلام العرب في الكيمياء، بغداد وزارة الثقافة:٢٦٦.

(٢) يمنى طريف الخولى، فلسفة العلم في القرن العشرين:٣٦.

لذا كان النبيّ ﷺ يلفت إلى التقدّم العلمي والتقني الذي عرفت به الصين فقال: اطلبوا العلم ولو بالصين ،فإنّ طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة[١].

وقد فُسّر ذلك ببعد الصين عن بلاد المسلمين، وإنْ كان هذا التفسير معقولاً إلاّ أنّ تنويه المسلم على بعد المسافة غير كافٍ بإيراد اسم الدولة، فبالإمكان أن يكون الحديث «ولوفي أقصى الأرض» فالنبيّ ﷺ كان من الاطلاع والعلم على قدرة الحضارات ومستواها أن خصّص اسم هذا البلد.

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي، بتحقيق السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية بيروت ج ٢: ٢٥٤رقم ١٦٦٣، كنز العمال١٠: ١٣٨ح٢٨٦٩٧و٢٨٦٩٨.بحار الأنوار١: ١٧٧.

مفهوم الجاهلية والحضارة

اصطلح الباحثون على تسمية العصر والفترة الزمنية التي سبقت ظهور الإسلام بالفتره الجاهلية أو العصر الجاهلي،ويعود أصل التسمية إلى نصوص القرآن الكريم التي رسّخت هذه التسمية فصارت هذه التسمية اصطلاحاً علمياً وتاريخياً مازال متداولاً ، ومن هذه النصوص قوله تعالى: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[1]،وقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾[2]،وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[4]... وغيرها من الآيات الدالّة على ذلك.

وإطلاق هذا المصطلح لايعني خلوّ هذه الفترة الزمنية من العلم وانعدام حركة الثقافة والفكر أو غيابها كلّياً.

وإنْ كانت تلك الفترة محكومة بالضرورة بفقرها لأعلام الثقافة وروّادها.

ويميل الباحثون في ذهابهم لهذه التسمية للحالة التي كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله ورسوله وشرائع الدين والمفاخرة بالآباء والأنساب والكبر والتجبّر وغير ذلك[5]، والجاهل يعبّر عن الجاهلية بشكل أو بآخر ولهذا

---

(١) آل عمران:١٥٤.

(٢) المائدة:٥٠.

(٣) الأحزاب:٣٣.

(٤) الفتح: ٢٦.

(٥) مجمع البحرين٥: ٣٤٦.

قال علي عليه السلام: الجاهل صغير وإن كان شيخاً[١].

والمشهور أنّ مفهوم الجهل والجاهلية يطلق على ما هو خلاف العلم، وعلى ما هو مقتضاه من السفاهة وصدور الأفعال المخالفة للعقل[٢]، وقد وصف النبيّ ﷺ أتباع الجهل بالموتى فقال: طالب العلم بين الجهّال كالحيّ بين الأموات[٣].

وتكاد تكون أفعال أهل الجهل وعبادتهم باطلة، كما يفهم من الحديث المروي عن النبي ﷺ والذي يقول فيه: ما قَسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإفطار العاقل أفضل من صوم الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل، ولا بعث الله رسولاً ولا نبيّاً حتّى يستكمل العقل، ويكون عقله أفضل من عقول جميع أُمّته، وما يُضمر النبيّ في نفسه أفضل من اجتهاد المجتهدين، وما أدّى العاقل فرائض الله حتّى عقل منه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل، إنّ العقلاء هم أولو الألباب الذين قال الله عزّوجلّ: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[٤].

وحين ابتلي موسى عليه السلام ببني إسرائيل أوقفهم على حقيقة مطلقة بأنّ النبوّة والجهل ندّان لا يجتمعان في ذات واحدة فقال لهم ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[٥].

والجهل والجاهلية مفهومان لا ينحصران في زمان ومكان.

---

(١) بحار الأنوار١: ١٨٣.

(٢) بحار الأنوار٦٨: ٤٠٤ط بيروت، ج٧١: ٤٠٧ط طهران.

(٣) بحار الأنوار١: ١٨١.

(٤) بحار الأنوار١: ٩١ والآية في سورة الرعد ١٩، المحاسن للبرقي: ١٩٣ ح١١.

(٥) البقرة: ٦٧.

فقد يراد بالجهل كلّ الأفعال الصادرة حتّى بعد ظهور الإسلام وعليه تكون المعايير باعتبار حالة الجاهلية شبه ثابتة وخصوصاً المعايير الأخلاقية العامة، التي تأنس لها الطباع السليمة ويراها ذوو الفطرة الصحيحة، فالنبيّ ﷺ يقرر النظام الأخلاقي السابق لنزول الشرائع السماوية، في قوله ﷺ: الناس معادن كمعادن الذهب والفضّة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا[١]،فلا تغيير في مفهوم الصدق، والخيانة والغش والغدر، والإخلاص والتضحية، ورحمة الضعفاء والسخاء وإصلاح ذات البين، والاعتداء والتجاوز... فهذه وغيرها معايير وقواعد تفرز الجاهلي من غيره.

ومفهوم الجاهلية الأولى الذي ورد في القرآن الكريم فسّر بأنّه ما كان قبل الإسلام، وفي قول آخر: بأنّه ما كان بين آدم ونوح عليهما السلام بمقدار ثمانمائة سنة، وفي آخر: ما بين عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ[٢]، وقيل: الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق بعد الإسلام[٣].

وقد وضع الصادق عليه السلام معالم الجهل في حديث رواه سماعة بن مهران[٤] عنه قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام وعنده عدّة من مواليه فجرى ذكر العقل والجهل فقال عليه السلام اعرفوا العقل وجنده، واعرفوا الجهل وجنده تهتدوا، فقال سماعة جُعلت فداك لا نعرف إلّا ما عرّفتنا، فقال أبو عبد الله عليه السلام: إنَّ الله خلق العقل وهو أوّل خلق خلقه الله من الروحانيين عن يمين العرش من نوره، فقال له: أدبر فأدبر، ثمّ قال له: أقبل فأقبل، فقال الله عزوجلّ خلقتك خلقاً عظيماً

---

(١) كنز العمّال ج ١٠: ١٤٩ ح ٢٨٧٦١ وص١٧٠ ح ٢٨٨٨٠، شهاب الأخبار ٢٧ ح ٥٩، بحارالأنوار٦١: ٦٥.

(٢) بحار الأنوار٢٢: ١٧٦.

(٣) تفسير البيضاوي٢: ٢٤٥.

(٤) المحاسن للبرقي: ١٩٦.

وأكرمتك على جميع خلقي... ثم خلق الجهل من البحر الأجاج الظلماني فقال له: أدبر فأدبر، ثمّ قال له: أقبل فلم يقبل فقال الله له: استكبرت فلعنه ثمّ جعل للعقل خمسة وسبعين جنداً، فلمّا رأى الجهل ما أكرم الله به العقل وما أعطاه أضمر له العداوة، فقال الجهل: يا ربّ هذا خلق مثلي خلقته وكرّمته وقوّيته وأنا ضدّه ولا قوّة لي به فأعطني من الجند مثل ما أعطيته فقال: نعم، فإن عصيت بعد ذلك أخرجتك وجندك من رحمتي، قال: قد رضيت فأعطاه خمسة وسبعين جنداً، فكان ممّا أعطى الله العقل من الخمسة والسبعين الجند: الخير وهو وزير العقل، وجعل ضدّه الشرّ، وهو وزير الجهل، والإيمان وضدّه الكفر، والتصديق وضدّه الجحود، والرجاء وضدّه القنوط، والعدل وضدّه الجور، والرضى وضدّه السخط، والشكر وضدّه الكفران، والطمع وضدّه اليأس، والتوكلّ وضدّه الحرص، والرأفة وضدّها العزّة، والرحمة وضدّها الغضب، والعلم وضدّه الجهل، والفهم وضدّه الحُمق، والعفّة وضدّها الهتك، والزهد وضدّه الرغبة، والرفق وضدّه الخرق.

ويدخل مفهوم الجاهلية ضمن قانون اجتماعي تاريخي، فميلاد الحضارة والمدنية يكون على ركامات من الجهل والتخلف والهبوط الاجتماعي، فعندما ينتقل المجتمع من مرحلة إلى مرحلة أفضل وأحسن يكتسب في هذه الحقبة الزمنية وصفاً حضارياً، وتكون الحقبة التاريخية السابقة حقبة جاهلية أو حقبة همجية أو بتسمية البعض حقبة بدائية أو حقبة أولية... وغير ذلك من التسميات، وتعريف هذه المراحل تكون من مهمة المؤرخ وعالم الاجتماع، وهذا الدور الذي اضطلع به الدارسون المحدثون كان يدخل ضمن الخطاب القرآني الذي أرّخ لنا بعض هذه الحضارات والمدنيات التي ظهرت على مسرح التاريخ.

وقد اهتم القرآن الكريم بوصفه أعلى مصادر المعرفة الإنسانية بالتاريخ الاجتماعي والسياسي، ومن هذا يلاحظ المتتبّع في الإشارات القرآنية الواردة

بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾[٤] بأنّ الإنسان والمجتمع خاضعان إلى قوانين ثابتة مثل القوانين الطبيعية والفيزيائية، فالقوانين الاجتماعية من هذا المنطلق ثابتة لاقبل للإنسان بتغييرها، فهي له قدر محتوم، وإنّما عليه التكيف والانسجام لهذا القانون.

«وقد قدّم القرآن أصول منهج متكامل في التعامل مع التاريخ البشري ينتقل من مجرد العرض والتجميع إلى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية والتاريخية»[٥].

ومن هذه القوانين والسنن التي أشارها القرآن الكريم قانون التطوّر والتحوّل الاجتماعي والسياسي، حيث قرن تغيير المجتمعات بالتغير النفسي والداخلي للأفراد الذي يكون أساس التغير والتحوّل في المجتمع، فما لم يكن الفرد متغيراً فلا يمكن تغيير المجتمع ونقله إلى حالة أفضل، تقول الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٦].

فلا يمكن إيجاد مجتمع فاضل صالح متعاون، إلاّ بخلق حالة فيه تتناول

---

(١) يوسف:١١١.

(٢) الفتح:٢٣.

(٣) آل عمران:١٣٧.

(٤) البقرة:٢٥١.

(٥) القرآن والنظر العقلي، فاطمة إسماعيل، المعهد العالمي للفكر الإسلامي:١٣٦.

(٦) الرعد:١١.

الأرقام الفردية التي تشكّل بمجموعها كيان المجتمع وكلّه العام.

وقدّم النبيّ ﷺ لنا قانون التحوّل والتطور الاجتماعي والسياسي بقوله:إذا تغيّر السلطان تغيّر الزمان[1].

فتغيير النظام السياسي يعني تحقيق تحوّل وتبّدل في البنية الاجتماعية والثقافية، لأنّ السلطة الزمنية حين تتبّدل تنقل معها رياح التغيّر، ويدخل في هذا التغيّر كلّ مؤسسات السلطة والسلطان، فالبنية الاقتصادية والروابط الاجتماعية، والآداب والفنون والثقافة المرتبطة بالنظام والحاكم تكون عرضة للتغيّر والتبدّل، وهذا ما نجده منعكساً بشكل واضح في أدوار التاريخ المختلفة، وكأنّ دنيا جديدةً وعالماً آخر قد ولد، وهذا ما أكّده دارسو التاريخ وعلماؤه.

وتتجلّى الحالة الجاهلية في سلوك الإنسان ومعتقداته وخطاباته، و من المحقق أنّ بقايا السلوك الجاهلي ظلّ في نفوس العديد من المسلمين حتّى بعد زوال الثقافة الجاهلية ومؤسساتها وسقوط أعلامها بل قد بعثت وتجددت حين استشهد النبي ﷺ ، وينجلي هذا من قول أبي جعفر عليه السلام حين قال: إنّ رسول الله ﷺ لما قُبض صار الناس كلّهم أهل جاهلية إلّا أربعة: عليّ عليه السلام والمقداد وسلمان وأبوذرّ[2].

وقد صار مفهوم الجاهل يقابل مفهومين كلّيين ومصطلحين عامين هما: العالم والمؤمن، وقد يتداخل لهذا مفهوم الجاهل مع مفهوم المنافق والكافر،ونجد هذا في حديث النبيّ ﷺ حين سأله شمعون عن أعلام الجاهل فقال ﷺ في وصفه: إن صحبته عنّاك، وإن اعتزلته شتمك، وإن أعطاك منّ عليك، وإنْ أعطيته كفّرك، وإنْ أسررت إليه خانك وإنْ أسرر إليك اتّهمك، وإنْ استغنى

---

(١) بحار الأنوار٧٤: ١٦٥.

(٢) بحار الأنوار٢٢: ٣٣٣.

بطر، وكان فظّاً غليظاً،وإنْ افتقرجحد نعمة الله ولم يتحرّج، وإنْ فرح أسرف وطغى، وإنْ حزن آيس،وإنْ ضحك فهق[١]، وإن بكى خار[٢]، يقع في الأبرار، ولايحبّ الله ولايراقبه، ولايستحيي من الله ولايذكره.

إنْ أرضيته مدحك وقال فيك من الحسنة ما ليس فيك، وإنْ سخط عليك ذهبت مدحته ووقع فيك من السوء ما ليس فيك، فهذا مجرى الجاهل[٣].

وقد لعبت الثقافة والمعتقدات الجاهلية دوراً كبيراً في أحاسيس العرب وأفكارهم حتى أنّ النبيّ ﷺ نبّه إلى تمكّن هذا المارد الجاهلي في نفوس العرب حين قال لعائشة: لولا أنّ قومك حديثو عهد بالجاهلية لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالأرض وجعلت له بابين: باباً شرقياً، وباباً غربياً فبلغت أساس إبراهيم[٤].

وكانت سيرة النبيّ ﷺ واضحة في سحق القيم والمآثر الجاهلية وتجلّى ذلك بقوله ﷺ: إنَّ كلّ مأثرة كانت في الجاهلية فإنّها تحت قدمي اليوم إلّا ما كانت من سدانة البيت وسقاية الحاج[٥].

وقد سعى النبيّ ﷺ جاهداً لأن يمحو ثقافة الجاهلية ومعالمها، فحرص النبيّ ﷺ لوضع معالم الثقافة الإسلامية كان واضحاً في تعامله مع أصحابه،

---

(١) أصل الفهق الامتلاء، وأراد أنه ملأ به فمه، وذهب هنا إلى معنى الاستغراق والمبالغة في الضحك ينظر اللسان «فهق».

(٢) الخوار: صوت الثور والبقرة والعجل، وذهب هنا إلها معنى الصباح والعويل ينظر اللسان «خور» وترتيب جمهرة اللغة ١: ٥٧٧ «خور».

(٣) تحف العقول:١٨.

(٤) جامع الأصول لابن الأثير١٠: ١٨٦رقم ٦٨٩٢، ط دار إحياء التراث العربي بيروت،بحار الأنوار٢٩: ٤١٢.

(٥) كنز العمال١٠: ٥١٤ ح٣٠١٧٨. بحار الأنوار ٢١: ١٣٢.

وقد أخبر النبيّ ﷺ أصحابه أنّ تحيّة الجاهلية التي كانت أنعم صباحاً وأنعم مساءً قد نسخت وأبدل الله تعالى بدلها: «السلام عليكم»[١].

كما روى الشيخ علي بن إبراهيم القمي حيث قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا أتوه يقولون له: أنعم صباحاً وأنعم مساءً، وهي تحيّة أهل الجاهلية، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾[٢] فقال لهم رسول الله ﷺ: قد أبدلنا الله تعالى بخير من ذلك، تحيّة أهل الجنة: السلام عليكم[٣].

وقد كانت خطب النبيّ ﷺ وأحاديثه تؤكد على تغييب معايير الجاهلية وإحلال ثقافة الإسلام بدلها، فإحياء قيم الجاهلية وأخلاقها وأد للحضارة وهدم لمدنية الإسلام، ومن هذه الخطب أنّه قال ﷺ يوم فتح مكة: أيّها الناس ليبلغ الشاهد الغائب، إنّ الله تبارك وتعالى أذهب عنكم بالإسلام نخوة الجاهلية والتفاخر بآبائها وعشائرها[٤].

وإلى هذه الخطبة أشار الباقر عليه السلام بقوله: ثلاثة من عمل الجاهلية:الفخر بالأنساب، والطعن في الأحساب، والاستسقاء بالأنواء[٥].

---

(١) كانت العرب في الجاهلية يُحيّون بأن يقول أحدهم لصاحبه: أنعم صباحاً، وأبيت اللّعن، ويقولون أيضاً: سلام عليكم، فكأنّه علامة المسالمة، وأنّه لاحرب هنالك، اللسان (سلم).

(٢) المجادلة: ٨ .

(٣) تفسير علي بن إبراهيم القمي٢: ٣٣٥.قالوا: السلام والتحيّة معناهما واحد ومعناهما السلامة من جميع الآفات، وهو دعاء للإنسان بأن يسلم من الآفات في دينه ونفسه. اللسان(سلم) .

(٤) الزهد للحسين بن سعيد الأهوازي:٥٦ ح١٥٠.

(٥) معاني الأخبار للصدوق: ٣٢٦.

وقد طالت الثورة الثقافية للنبيّ ﷺ المسمّيات الجاهلية ورموزها، فجعل النبيّ ﷺ من برنامجه الثقافي تحويل هذه الأسماء إلى أسماء أخرى تحمل معاني ثقافة الإسلام وآفاقه الرحيبة، فحين قدم أناس من مزينة عليه ﷺ سألهم: ما شعاركم؟ قالوا: حرام، فقال ﷺ لهم: بل شعاركم حلال[1]، فقد عطف أفكارهم ومشاعرهم من مرحلة السلب والنهب وامتطاء الشهوات المحرّمة والفوضى إلى مرحلة النظام والتشريع وضبط الشهوات ليعلّمهم ﷺ مفهوم الحلال والحرام فيكون ماثلاً بين أعينهم.

وكان ﷺ يعنيه أن تكون الأعلام إسلامية تحمل معاني المدنية والروح الإسلامية؛ لذا قال ﷺ: خير الأسماء عبد الله وعبد الرحمن وحارثة وهمّام، وشرّ الأسماء ضرار ومرّة وحرب وظالم[2]لما تثير في النفس أحاسيس الغدر والظلم والقهر والعدوان، لأنّها موغلة في دلالاتها الجاهلية القاتمة.

ولهذا كان النبيّ ﷺ يغيّر الأسماء القبيحة في الرجال والبلدان[3]، تأكيداً لنهجه وإفهاماً للأمّة بأنّ الثورة الاجتماعية والثقافية التي جاء بها شاملة تستغرق كلّ مفاصل المجتمع والبيئة وجزئياتها.

ولا يؤاخذ النبيّ ﷺ في مجتمعه المتمدّن الناس على ما مضى من أزمنة الظلام والمجتمعات الجاهلية التي ابتلي الناس فيها بالسيّئات والذنوب، فروى

---

(١) بحار الأنوار١٩: ١٦٤ح٢.

(٢) الخصال للصدوق:٢٥١ ح١١٨.

(٣) قرب الإسناد للحميري: ٤٥ط مكتبة نينوى طهران، بحار الأنوار١٠٤: ١٢٧ ومن ذلك ماروي أنّه كانت لعمر ابنة يقل لها: عاصية فسمّاها رسول الله ﷺ جميلة. سنن ابن ماجة٢: ١٢٣ح٣٧٢٣. باب تغيير الأسماء.

أبـو جعفر عليه السلام أنّ أناساً أتوا رسول الله ﷺ بعد ما أسلموا فقالوا: يا رسول الله، أيؤخذ الرجل منّا بما كان عمل في الجاهلية بعد إسلامه؟

فقـال لهم رسول الله ﷺ: من حَسُن إسلامه وصحّ يقين إيمانه لم يأخذه الله تـبارك وتعـالى بمـا عمـل في الجاهلية، ومن سخف إسلامه ولم يصحّ يقين إيمانه أخذه الله تبارك وتعالى بالأوّل والآخر[١].

وقـد رأى الـنبيّ ﷺ أنّ الاعتقاد القلبي هو الذي يصحّح سلوك الإنسان ويعـدّ له، فاعـتقاد المسـلم كفـيل بتثبيت القيم ومحوها، فالمسلم يظلّ جاهليا إنْ كـان معـتقده غـير كـامل، ومن هذا الفهم يُفسّر الحديث الذي رواه أبو جعفر الباقر عليه السلام عن النبي ﷺ: من حسن إسلامه وصحّ يقين إيمانه لم يأخذه الله تبارك وتعالى بما عمل في الجاهلية، ومن سخف إسلامه ولم يصحّ إيمانه أخذه الله تبارك وتعالى بالأوّل والآخر[٢].

ونحـوه روى الصـادق عـن النبي ﷺ: من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأوّل والآخر[٣].

---

(١) أصول الكافي٢: ٤٦١ح١.

(٢) أصول الكافي٢: ٤٦١ح١.

(٣) أصول الكافي٢: ٤٦١ ح ٢.

معنى المدنية والحضارة

يلاحظ أنّ المعنى اللغوي للمدنية مأخوذ من المدينة التي تفيد الاستقرار والبناء والعمران، فقولهم: مدن بالمكان، أي أقام به، ومدن الرجل، إذا أتى المدينة. ويقولون: فلان مدّن المدائن، كما يقال مصّر الأمصار[1].

والمصْر في كلام العرب كلّ كورة تقام فيها الحدود ويقسم فيها الفيء والصدقات، والمصْر: الحدّ من كلّ شيء[2].

ويقترب معنى المدينة من معنى الحضارة، بل يقترن ذكر الحضارة بالمدن وأهلها ومستوطنيها، لذلك نشأ نوع من الخلط في معنى المفهومين.

وقد خلص مؤلّفا تاريخ الحضارة العربية الإسلامية إلى القول: بأنّ الحضارة هي الجهد المادي والمعنوي الذي خلّفه لنا الإنسان في منطقة معينّة من معتقدات دينية وأدب وفنون وعلوم وقوانين وعادات وتقاليد وآثار مادية من بناء وصناعات وغيرها، أمّا المدينة فيمكن القول: إنّها تركّز على المعرفة الحالية والتطوّر العلمي والمادي لذلك يمكن القول: إنَّ أمريكا تمتلك المدنية لكنّها تفتقر إلى الحضارة[3].

ولعلّ ابن خلدون أوّل من أشار إلى المدنية بمفهومها الذي عرف في زمننا المعاصر حيث قال: إنّ الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبّر الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدنيّ بالطبع، أي لابدّ له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم، وهو معنى العمران[4].

---

(١) ينظر لسان العرب(مدن) و(مصر).

(٢) وهذا يعنى الفهم المبكر لدى المسلمين في ارتباط القانون بالمدينة والاستقرار

(٣) تاريخ الحضارة العربية الإسلامية:١٠.

(٤) تاريخ ابن خلدون(كتاب العبر و ديوان المبتدأ والخبر) جـ ١: ٤٤ دار الكتب العلمية.

دور المدينة في صنع الحضارة

ونتيجة التداخل الحاصل بين فهم الحضارة والثقافة والمدنية اختلف المؤرخون وعلماء الاجتماع الأوربيون في تعريفهم للحضارة إذ مزجوا بين مصطلحي الثقافة culture والحضارة civilization فورد في الموسوعة البريطانية تعريف للعالم البريطاني تايلور في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بأنّ الحضارة بمعناها الإثنوغرافي «أي ذو الصلة بوصف شعوب العالم» هي كلّ مترابط يتضمن المعرفة والمعتقد والفن والأخلاق والقانون والعرف وأيّة قدرات وعادات أخرى مكتسبة من الإنسان كعضو في المجتمع.

وورد مفهوم الحضارة لدى العالم الأمريكي كيلي بأنها نظام مستنبط تاريخياً من أشكال الحياة التي تميل لأن تكون مشتركة من قبل أفراد أو مجموعة، وأن يتضمن اللغة والتقاليد والعادات والمؤسسات والمعتقدات والقيم المحفّزة، وتجسيدها في أدوات مادية.

ويلاحظ عند مقارنة المفهومين السابقين أنّ المفكّرين في أمريكا يميلون إلى تغليب الجانب المادّي بسبب افتقارهم إلى حضارة وتاريخ[1]، والالتباس في استعمال مفهومي الحضارة والثقافة يجري رفعه ببلورة الاختلاف بينهما: أ- الثقافة هي تعبيرات الحياة كالاعتقادات والديانات والآداب.

ب- تتضمن الحضارة إبداعات المجتمع لتأمين رقابته وضبطه وشروط

---

(١) تاريخ الحضارة العربية الإسلامية؟.

حياته الخاصة به كالتقنيات والتنظيمات الاجتماعية[١].

وقد ساد اعتقاد بأنّ الغرب يمتلك ناصية الحضارة أكثر من امتلاك الشرقيين لها استناداً إلى الحلقات التكنولوجية والصناعية التي عرفت بها.

يقول كارل بوير:وحينما نبحث عن تفهّم الخاصّة الأساسية المميزة للحضارة الأوربية أو الغربية، فإنّ ثمّة ملمحاً يقفز على الفور إلى الذهن، فالحضارة الأوربية حضارة صناعية، ولقد أقيمت على التصنيع من أعلى الدرجات، إنّها تستخدم المحركات في مصادر الطاقة غير العضلية، وبهذا تختلف الحضارة الأوربية والأمريكية اختلافاً أساسياً عن سائر الحضارات العظمى، التي هي أو التي كانت في الأساس حضارات زراعية واعتمدت الصناعة فيها على العمل اليدوي[٢].

واقتران النهضة الصناعية والتكنولوجية بالخط البياني للتقدّم الحضاري لايعني سلب المظاهر الأخرى التي تعتبر معالم مهمة في التاريخ الحضاري للإنسان.

وتاريخ الحضارة يبدأ من المرحلة الحضارية الأولى للإنسان وهي استيطان المدينة فحين تظهر المدن تُولد الحضارات وتتأسس مدارس الثقافة، فأوراق التاريخ المحفوظة في أرشيف المكتبات هي سجل المدن ووقائع يوميات هذه المدن وحركة رجالها وعظمائها.

فقوانين الدول وثقافاتها ما وجدت إلاّ خلف أسوار المدن وحيطانها، ولو تأمّلت أحاديث الصادق عليه السلام لوجدتها قد خطّت ودوّنت في مؤسسات المدينة النبوية ومن وحي أسواقها ويوميات سكّانها، وكأنّك في زحمة سككها تشاهد

---

(١) مفاتيح العلوم الإنسانية:١٧٠.

(٢) أسطورة الإطار:٢٢٣.

أناسها يتحركون، فالتاريخ بالضرورة تصنعه المدن، والحضارة التي تفتخر بها الأمم كانت وما زالت عجلة تحرّكها المدينة، والعناصر القلقة والطارئة فيها هي باعث ودافع التحضر والتمدن ونشوء حركة التاريخ، وهذه الأحداث والحركات سببتها نخبة من البشر استوطنت المدينة وعمّرتها وأرسلت أفكارها وفلسفتها، فلم نفهم فلسفة النبيّ ﷺ وأفكاره وشريعته التي جاء بها إلاّ في بقاع المدينة المنوّرة بوجوده ﷺ فحضارة الإسلام وثقافته بدأت هناك، وكانت المدينة نفسها تاريخ الإسلام وسجله الحضاري.

ولم تكتب صفحات نهج البلاغة لعليّ عليه السلام إلاّ في بلحات الكوفة وبين نخلاتها وسككها وأزقتها ومساجدها.

و لهذا يندمج ويتداخل مفهوم الحضارة في المدينة بشكل أو بآخر.

وإشارة الدكتور محمود حجازي بأنّ لفظة مدينة لا ترجع إلى المادة «مدن» على الرغم من وجود الكلمات مدن وتمدّن ومدينة، بل ترجع إلى تعرف الدين بمعنى القانون والديان في الآرامية والعبرية هو القاضي، وبيت الدين هو مقرّ الحكم والمحكمة في الآرامية والعبرية... أمّا الصيغة الميمية التي نحبها في كلمة مدينة فإنّ مصدرها مأخوذ من لفظ آرامي مدنيتا، ومعناه في الآرامية مكان القضاء وهو يمثل وحدة إدارية قضائية هي المدينة والقرى المجاورة التابعة لها[1].

فحين يقال مدنية أو حضارة أو ثقافة تتراءى لنا من خلال مرآة التاريخ رسالات السماء ورجالات المدن الدينية ولغة الوحي والنبوّة، وأبرز حضارة تظهر هنا وتشعشع هي حضارة المدينة الإسلامية.

وللمدينة الإسلامية مساحة كبيرة في كتاب الفقه الإسلامي الذي يشكّل أبرز ثقافة تراثية للمسلمين، وإذا قلنا بأنّ بحوث الفقه الإسلامي لا تخرج عن

---

(١) مصطفى عباس الموسوي، العوامل التاريخية لنشأة وتطوّر المدن العربية الإسلامية: ٣٥٠.

نطاق المدينة فإننا قد لانشطط في هذا القول عن الصواب[١].

ولقد عكست المدينة الإسلامية حضارة ومدنية واضحة في التاريخ، لأنّ المدينة الإسلامية كانت ملتقى الحضارات والثقافات والديانات، لأنّ تعاليم الدين الإسلامي الحنيف سمحت للإنسان بأن يعيش في رحاب المدينة الإسلامية دون ضغوط وتقييد، عكس المدينة المسيحية مثلاً فإنهّا لم تسمح في التاريخ إلاّ للإنسان المسيحي في تقاليده وثقافته، فلم يكد يتنفس مسلم في المدن البيزنطية إلاّ بعنوان أسير يقبع بين جدران سجن ينتظر الموت أو الإخراج للعودة إلى وطنه، بينما في المدن الإسلامية كان أصحاب الرقيق مثلاً «لم يكن ينكرون على الجواري أو العبيد تعليق الصليب في أعناقهم حتّى في حضرة الخليفة، فإنّ هذا يعني أنّ بيوت الطبقة المحرّكة في المجتمع الإسلامي كانت مفتوحة لمختلف التأثيرات من الأمم المختلفة سواء كانت تأثيرات عرقية نتيجة الزواج بالكثير من الإماء وتحويلهنّ إلى أمهات أولاد أم كانت تأثيرات في الدين وفي العادات والأخلاق وفي الزي والطبخ.

وكانت تلك التأثيرات تنتاب البيت الإسلامي في الأندلس كما في خراسان وفي مصر وكما في فارس، وكان المزيج الذي ظهر من كلّ ذلك أحد مميّزات المجتمع في المدن الإسلامية»[٢].

---

(١) يقول الدكتور شاكر مصطفى: ولعلّ الفقه الإسلامي هو الذي لعب الدور الأكبر في انسجام المدينة الإسلامية مع سكانها بناءً وحيةً ونظماً في نوع من الجدلية المتبادلة، فهو باعتباره يستقى أصوله وأحكامه من هدى القرآن الكريم والسنّة المشرّفة وأراء الأئمة، كان يعود فيتأثر بتطوّرات الحياة للمجوعة الإسلامية، ويجد الحلول للمشكلات المتجددة في هذه الحياة ويعني بين هذا وذاك التجربة الإسلامية المدنية والعمرانية دون انقطاع. المدن في الإسلام١: ١٦.

(٢) شاكر مصطفى،المدن في الإسلام٢: ٩٤.

ولم تكن المدينة الإسلامية ملتقى ثقافي وحضاري فقط، وإنّما كانت مصدر نمو وارتقاء لغير المسلمين أيضاً، فمناخها وقانونها المرن فجّر المواهب والقابليات حتّى إنّ الشعراء نبّهونا عن بداية تاريخ الحرية وحقوق الإنسان وكأنها-أي مفاهيم الحرية وحقوق الإنسان_لم تولد إلاّ في المدينة الإسلامية وذلك حين سجّلوا مناخ هذه الحرية والتسامح السائد في مجتمع المدينة الإسلامية آنذاك،فتجد أحدهم يقول :

يهودُ هذا الزمان قد وصلوا ... غاية آمالهم وقد ملكوا

الملكُ فيهم والمالُ عندهم ... و منهم المستشار والملك

يا أهلَ مصر قد نصحت لكم ... تهوّدوا قد تهوّد الفلك

وقال آخر في وصف الحال والموقع الذي كان عليه النصارى:

تنصّر فالتنصّر دين حقّ ... عليه زماننا هذا يدلّ [1]

فأيّ حضارة ومدنية كانت عليه المدينة الإسلامية التي صار فيها غير المسلم تتطلع له العيون[2]، ويصف آدم مبتز وضع أهل الذمّة في الحواضر الإسلامية بالقول: ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يغلق دون أهل الذمّة أيّ باب من أبواب الأعمال وكان قدمهم الأعمال وكان قدمهم راسخاً في الصنائع التي تدرّ الأرباح الوافرة فكانوا صيارفة وتجاراً وأصحاب ضياع وأطباء، بل إن

---

(١) ورد هذا الشعر في كتاب المدن في الإسلام٢: ٢٢٧.

(٢) كان تاريخ المسلمين الديني والسياسي يعكس الانفتاح والسماح لغير المسلم في تأسيس وبناء مؤسسات القوى والطوائف الدينية أن ألّف الباحث حبيب الزيّات كتاب الديارات النصرانية في الإسلام، وعقد فيه فصلاً للأديار التي كان ينزلها الخلفاء والملوك الأُمراء ووجوه الدولة وقد نشرت دار المشرق في بيروت هذا الكتاب وصدرت له ثلاث طبعات آخرها عام١٩٩٩.

أهل الذمّة نظموا أنفسهم بحيث كان معظم الصيارفة والجهابذة في الشام مثلاً يهوداً، على حين كان أ كثر الأطباء والكتبة نصارى، وكان رئيس النصارى ببغداد هو طبيب الخليفة[١].

وحينما توفيّ المعز معدّ العبيدي الفاطمي في سنة خمس وستّين وثلاثمائة وولي بعده ابنه العزيز بالله أبو المنصور نزار ولّى كتابته رجلاً نصرانياً اسمه عيس بن نسطورس، واستناب بالشام رجلاً يهودياً اسمه ميسا[٢]وهذا مؤشّر على الاستيعاب الحضاري للعقلية الإسلامية وعدم انغلاقها.

وقد أشار عدد من المؤرّخين الأوربيين إلى أنّ المسيحيين الذين كانوا يعيشون في ظلّ الدولة الإسلامية، وخاصّة في بلاد الشام،كانوا أحسن حالاً من المسيحيين الذي عاشوا في ظلّ الدولة البيزنطية نفسها، وإنّ ما أصابهم من بعض المتاعب في بلاد الشام في ذلك العصر يرجع إلى الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين على النفوذ،وأنّه لا يوجد أيّ دليل واضح على قيام المسلمين باضطهاد المسيحيين الذين يعيشون في ظلّ دولتهم[٣].

وإلى هذا الموضوع تناول الدكتور غوستاف لوبون إشارة الباحث دوزي إلى قصّة أحد علماء الكلام المسلمين الذي كان يحضر ببغداد دروساً كثيرة في الفلسفة يشترك فيها أناس من اليهود والزنادقة والمجوس والمسلمين والنصارى، فيستمع إلى كلّ واحد منهم باحترام عظيم، ولا يُطلب منه إلّا أن يستند إلى الأدلّة الصادرة عن العقل،لا إلى الأدلّة المأخوذة من أيّ كتاب ديني كان، ثمّ يقول: فتسامح مثل هذا هو ممّا لم تصل إليه أوربا بعد ما قامت به أكثر من ألف سنة

---

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري١: ٨٦.

(٢) مآثر الإنافة في معالم الخلافة للقلقشندي جـ ١: ٣١٥ ط الكويت.

(٣) الدكتور خاشع المعاضيدي وآخرون، الوطن العربي والغزو الصليبي، وزارة التعليم العالي بغداد:٢١.

من الحروب الطاحنة وما عانته من الأحقاد المتأصّلة وما منيت به من المذابح الدامية[١].

ويذكّر هذا الموضوع بمناظرات الصادق عليه السلام واحتجاجاته التي شهدتها مجالسه عليه السلام مع الطوائف والأديان الأخرى، وحتى كان مجلسه يتّسع للملحدين والناكرين لوجود الله تعالى، وقد كان نفر منهم يتحدّث بما شاء ومن دون قيود في ساحة مفتوحة لمطلق الآراء والأفكار، ومن هذه المجالس ما رواه الصدوق رحمه الله في قصّة زنديق جاء يسفّه فرعاً أساسياً من فروع الدين، وهو فريضة الحجّ التي هي من أساس الدين وعماده، أمام رئيسه الصادق عليه السلام.

تقول هذه الرواية المسندة إلى الفضل بن يونس أنّه أتى ابن أبي العوجاء ـ وهو زنديق ـ الصادق عليه السلام فجلس إليه في جماعة من نظرائه ثمّ قال: يا أبا عبد الله، إنّ المجالس أمانات، ولابدّ لكّل من به سعال أن يسعل، فتأذن لي في الكلام؟ فقال الصادق عليه السلام: تكلّم بما شئت، فقال ابن أبي العوجاء: إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطّوب والمدر، وتهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر! من فكّر في هذا أو قدّر، علم أنّ هذا فعل أسّسه غير حكيم ولا ذي نظر،فقل فإنّك رأس هذا الأمر وسنامه وأبوك أسّه ونظامه... الحديث[٢].

فيفهم القارئ والباحث من هذه المجالس إلى أيّ مدى بلغت حرية الرأي في المدن الدينية، التي لم تصادر ولم تمنع حتّى من يحاول الإساءة إلى المعتقد الديني بأيّ لغة أو أسلوب كان.

ولم يخف المفكرون الأوربيون إعجابهم بالحضارة والمدنية الإسلامية التي

---

(١) حضارة العرب:٥٧٠.

(٢) الأمالي:٤٩٣ح ٤ط بيروت.

صهرت الثقافات وتمثلتها ، يقول المفكّر الأمريكي توماس جولد شتاين واصفاً هذه الحضارة: تميّزت تاريخياً بانفتاح عقلها تجاه الثقافات الغربية، النابع من اليقين التام لمعتقداتها الدينية الخاصّة، خضوعها الذي لايهتزّ للإله الواحد وللكلمة التي علّمها لهم محمد رسول الله، وكان هذا اليقين الداخلي الأساسي في أوج قوّتها، على أيّ حال، هو الذي منح المجتمع الإسلامي مرونته الاستثنائية في مواجهة الحضارات الغربية وموروثاتها[١].

واقترنت الثقافة والحضارة الإسلامية بالمدن والحواضر كما يروي لنا التاريخ، لذا حين يطلق مصطلح الحضارة الإسلامية يتبادر إلى الذهن المدينة وضواحيها ومؤسساتها،وتنأى البادية ومعالمها عن الذهن تلقائياً، فالمدينة الإسلامية تُعدّ صانعة الحضارة والثقافة،ولا يغيب عن ذهن المسلم وصيّة النبي ﷺ لعلّي عليه السلام التي يقول فيها: يا عليّ لاتسكن الرستاق، فإنّ شيوخهم جهلة وشبّانهم عرمة، ونسوانهم كشفة، والعالم بينهم كالجيفة بين الكلاب[٢] ومن هذا المنطلق جاءت وصيّة عليّ عليه السلام للحارث الهمداني: واسكن الأمصار العظام فإنّها جماع المسلمين، واحذر منازل الغفلة والجفاء وقلّة الأعوان على طاعة الله[٣]، وروى علي عليه السلام عنه ﷺ قوله:

إنّ الله عزّوجل يعذّب ستّة بستّة: العرب بالعصبية، والدهاقنة بالكبر، والأُمراء بالجور، والفقهاء بالحسد، والتجّار بالخيانة، وأهل الرستاق بالجهل[٤].

وهذا تأكيد منه ﷺ على ضرورة ممارسة الإنسان دوره الحضاري في الأرض، لأنّ الله خلقه كي يتعلّم ويتسلّح بالثقافة والمعرفة وكي يعمّر الأرض

---

(١) المقدّمات التاريخية للعلم الحديث، ترجمة أحمد عبد الواحد، عالم المعرفة الكويت:١١٤.

(٢) جامع الأخبار:١٣٩.

(٣) نهج البلاغة: ٤٦٠ كتاب رقم ٦٩.

(٤) بحار الأنوار٧٥: ٣٣٩.

ولـيقترب من الخالق ويتهذّب ويتّزن، وأوّل خطوة حضارية يخطوها هو التعلّم وخلع رداء الجهل عنه.

ولايتمّ هذا إلاّ خلف أسوار المدن والحواضر وتحت السقوف المستقرّة.

وحين يُبحث عن الأصول اللغوية للحضارة نجد أنّ المعنى اللغوي مأخوذ من المعنى المضاد للبادية، فأهل اللغة يقولون: الحاضر: هو المقيم في المدن والقرى، والحضارة، بالكسر تعنى الإقامة في الحضر وكان الأصمعي يقول: الحضارة بفتح الحاء قال القطامي:

فمن تكن الحضارةُ أعجبته فأيّ رجال باديةٍ ترانا[1].

فمدار الحضارة، مهما تشقّق أو اختلف الحديث عنها، يكون على الجهود التي يبذلها الإنسان في نطاق انتقاله من حياة البداوة وبساطتها إلى حياة العمران وتعقيداتها، فكلمة الحضر في اللغة ما يقابل المعنى الذي يراد بكلمة البداوة، من حيث المدلول الذاتي لكلّ منهما وماقد يتبعه من مستلزمات، فالعلاقة بين المعنى اللغوي والقصد الاصطلاحي لكلمة الحضارة واضحة جلية.

ثمّ إنّ الحضارة تزداد اتساعاً وعمقاً، كلّما ازدادت بأصحابها بعداً عن طبيعة البداوة ومستلزماتها وإيغالاً في المجتمع العمراني، وتفاعلاً مع آثاره ونتائجه[2].

فالحضارة لها معنيان: أ-الحضارة ضدّ البداوة، وتقابل الهمجية والوحشية، وهي مرحلة سامية من مراحل التطوّر الإنساني.

ب- مجموع الخصائص الاجتماعية والدينية والخلقية والتقنية والعلمية

---

(١) لسان العرب(حضر).

(٢) ينظر محمد سعيد البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر دمشق:١٩.

والفنّية الشائعة في شعب معيّن، كالحضارات الهندية واليونانية والعربية، أو هي جملة مظاهر الرقي العلمي والفنّي والأدبي التي تنتقل من جيل إلى جيل في مجتمع أو مجتمعات متشابهة.

وهناك حضارات قديمة وأخرى حديثة، شرقية وأخرى غربية، والحضارات متفاوتة فيما بينها، ولكلّ حضارة نطاقها وطبقاتها ولغاتها.

ولابدّ لكلّ حضارة غربية أو شرقية من أن تنتظم فيها المادة والروح معاً، لذا فإنّ الحضارة الغربية مهدّدة بالزوال والانهيار، وأمّا الحضارة الإسلامية القائمة على المادة والروح فهي القابلة للبقاء والاستمرار[1].

وحين نقوم بدراسة الحضارة الإسلامية يجب أن يكون معيارنا وفهمنا منصبّاً على أساس التغيير الهائل الذي أحدثته في نظام الحياة، وعلى الثورة الجذرية التي أعادت تقييم الأمور أمام الإنسان، وما أوجدت من توازنات جديدة في إطار المعايير العقلية والثقافية المختلفة.

وذلك لأنّ الحضارة من حيث مفهومها العام هي النظام الحيوي الذي ينتظم السلوك الإنساني والتصرّف البشري وفقاً للحياة العقلية الجديدة التي تنبع من حقيقة الحضارة، وتتمثل هنا في المواقف الإنسانية في التعامل الاجتماعي في الإطار الداخلي للمجتمع، وفي العلاقات الخارجية مع بلدان العالم.

لذا فإنّ منهج البحث في موضوع الحضارة يتعلّق بها من حيث كونها أسلوباً متكاملاً يتعامل بحركة نامية مع الحياة بحيث يصدر التعامل عن وعي متلازم في تطورات الحياة المختلفة، وعلى هذا الأساس فإنّ الحضارة هي النتاج

---

(١) الدكتور وهبى الزحيلي، القرآن الكريم بنيته التشريعية وخصائصه الحضارية ، دار الفكر دمشق:١٢.

العقلي المتكافئ مع الضرورات الإنسانية، والتطلّع إلى الصورة الحقيقية الفضلى التي تُظهر الشخصية البشرية واضحة الملامح والقسمات.

ومن هذا المفهوم فإنَّ الدراسة التي تتناول الحضارة الإسلامية تبحث عن هذا التكامل الذي تواجد بفعل الأسلوب الحضاري الجديد للحياة،والذي انبثق عنه تفكير عقلي جديد، أفرزه النمط الجديد في الفكر والمواقف... ولذا يتميَّز التاريخ الحضاري الإسلامي بشروع مرحلة جديدة من التماسك والانسجام في حياة الفرد والجماعة، فقد عرف المجتمع العربي قبل الإسلام بحياته المفككة وتبعيته الفردية، حيث كان الفرد هو المسيطر على شؤون الجماعة يتحكّم فيها بطريقة دكتاتورية، كما تمايز المجتمع إلى طبقات متنافرة إلى حدّ عدم التلاقي، وكيف يتلاقى السادة والعبيد، وكيف تلتقي الحرّة مع الأمة، والأسود والأبيض، والغني والفقير، بل كيف يلتقي المنتصر والمهزوم... هكذا كان يعيش الناس في دائرة الصراع، فهل يمكن للعقلية الجامدة الضيّقة الحدود والأبعاد أن تنسجم مع مطالب الحرية والتفاهم والمساواة؟

ومن هنا نقول بأنَّ مفاهيم جديدة كمفاهيم التقدّم الاجتماعي وغيرها من المفاهيم التي جاءت بها حضارة النبيّ ﷺ وثقافته قد بدأت.

فالإسلام حمل الواقع الحضاري الجديد الذي دفع المسلمين وبشكل ملحّ وسريع إلى تغيير أنفسهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1] ومن هذا الفهم يقال:

قد كان النبيّ ﷺ يبحث عن الحلّ الحضاري للسلبيات التي فرضت نفسها طويلاً على الحياة العربية الجاهلية.

وتبيّن السلوك الحضاري لدى الرسول ﷺ من أوّل وهلة حين بدأ يواجه

---

(١) الرعد: ١١.

المجتمع أفراداً وجماعات يحملون تراث التخلّف، وقد تحمّل أنواع العذاب وضحّى بما يملك وبحقوقه الفردية، وأعطى الكثير من وقته ومن راحته الجسمية والنفسية، وكان ينظر إلى اليوم الذي يستطيع فيه أن يرى البناء الحضاري للمجتمع الجديد قائماً، وقد حصل لأنّه هو المسئول أوّلاً عن هذا العمل فكان لابدّ أن يظهر سلوكه الحضاري ليصبح المجتمع من بعد مجتمعاً حضارياً، وعندما نصف المجتمع بالحضارة فلأنّه أخذ بالفعل بتطبيق النظام الحضاري الجديد الذي تجاوز مرحلة التخلّف والبداوة فاصطفّ في مدرسة الحضارة، وكان هذا ضمن منهج سلكه النبيّ ﷺ، يقول مفكر إسلامي:

ولقد كان النهج التربوي الذي قدّمه الرسول ﷺ عملياً في عملية البناء الحضاري، لأنّه يقوم على الحدّ من حبّ الذات وتناسيها أحياناً في إطار المجموع، لأنّ الطريق الجديد أصبح ينتظم الجميع، ولايخرج عنه إلاّ من استعصت عليه عقليته التي مازالت تعيش وتتمسّك برواسبها القديمة فتمنعها عن استيعاب المفاهيم الجديدة لنظام الحياة الحضارية الجديدة النابع من جوهر الإسلام[1].

فالنبيّ ﷺ يرى ذات المسلم كرقم في مجموعة أرقام تشكّل نسيج المجتمع وبنائه الحضاري لذا يقوم منهجه على تربية الفرد على حبّ الآخرين والتفاعل معهم فيقول ﷺ: من أصبح ولم يهتمّ بأمور المسلمين فليس منهم، ومن سمع رجلاً ينادي: يا للمسلمين! فلم يجبه فليس بمسلم[2].

وكان النبيّ ﷺ يرى أنّ منظومة المجتمع البشري تتشكّل من خطوط متآلفة متّسقة تنتظم في عقد واحد هو الأخوّة الإسلامية فيقول ﷺ: من ضمن

---

(١) ينظر عبد الفتاح أحمد أبو زايدة، الوعي الفكري في الحضارة الإسلامية، منشورات الدعوة الإسلامية الجماهيرية الليبية:٩١-٩٦.

(٢) أصول الكافي٢: ١٦٤ح٥.

لأخيه المسلم حاجة له لم ينظر الله تعالى له في حاجته حتّى يقضي حاجة أخيه المسلم[١].

وجعل النبيّ ﷺ فَرَج المسلم وراحته في الدارين مناطاً بحركته تجاه أخيه وصدقه في ذلك فيقول ﷺ:

من أجرى الله على يده فَرَجاً لمسلم فرّج الله عنه كرب الدنيا والآخرة[٢].

ولكي لايتمزّق النسيج الاجتماعي الذي تحوكه أيدي المحّبة والوئام قال ﷺ: لايحلّ للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث[٣].

وجعل النبيّ ﷺ للمتفاعل مع الناس درجة خصيصة ومنزلة رفيعة فقال ﷺ: أقربكم غداً منّي في الموقف أصدقكم للحديث، وآداكم للأمانة، وأوفاكم بالعهد، وأحسنكم خلقاً، وأقربكم من الناس[٤].

وفي خبر قيل للنبيّ ﷺ: يا نبيّ الله أفي المال حقّ سوى الزكاة؟ قال: نعم برّ الرحم إذا أدبرت، وصلة الجار المسلم، فما آمن بي من بات شبعاناً وجاره المسلم جائع[٥].

ومن هذا الفهم والمنطلق النبوي الذي وضع أساس التربية الحضارية للأمم كان أهل بيته عليهم السلام يستوحون منهج جدّهم ﷺ فيحدثون الناس بهذا

---

(١) نوادر الراوندي :٨.
(٢) أمالى الشيخ الطوسي٢: ١٩٩.
(٣) الخصال للصدوق:١٨٣ح٢٥.
(٤) أمالي الشيخ الطوسي١: ٢٣٣.
(٥) أمالي الطوسي: ١٣٤.

النهج، وروى المفضّل ذلك فقال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: يا مفضّل اسمع ما أقول لك، واعلم أنّه الحقّ وافعله وأخبر به علّية إخوانك، قلت: جُعلت فداك وما علّية إخواني؟

قال: الراغبون في قضاء حوائج إخوانهم، قال: ثمّ قال: ومن قضى لأخيه المؤمن حاجةً قضى الله عزّوجلّ له يوم القيامة مائة ألف حاجة، من ذلك أوّلها الجنّة، ومن ذلك أن يدخل قرابته ومعارفه وإخوانه الجنّة بعد أن لا يكونوا نُصّاباً.

وكان المفضّل إذا سأل الحاجة أخاً من إخوانه، قال له: أما تشتهي أن تكون من علّية الإخوان[1].

ونحوه روى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: تنافسوا في المعروف لإخوانكم وكونوا من أهله، فإنّ للجنّة باباً يقال له المعروف، لا يدخله إلّا من اصطنع المعروف في الحياة الدنيا، فإنّ العبد ليمشي في حاجة أخيه المؤمن فيوكّل الله عزّوجلّ به ملكين: واحداً عن يمينه وآخر عن شماله يستغفرون له ربّه، ويدعون بقضاء حاجته، ثمّ قال: والله لرسول الله صلى الله عليه وآله أسرّ بقضاء حاجة المؤمن إذا وصلت إليه من صاحب الحاجة[2].

---

(١) أصول الكافي٢: ١٩٢ح١.

(٢) أصول الكافي٢: ١٩٥ح١٠.

الحضارة العالمية والمدينة الكونية

ظهر اصطلاح جديد مر اصطلاح الحضارة العالمية أو الكونية تمشياً مع أدبيات وبحوث الفكر المعولم الذي ينادي بالدمج العالمي أو الأممي، وحين نضع هذه الأطروحة في مكتبة التاريخ مستنطقين عن وجود وتحقّق مثل هذه الحضارة في الزمن الغابر نجد الإجابة عن هذه الأطروحة في الإمبراطوريات التي ظهرت في التاريخ، حيث أوجدت هذه الإمبراطوريات حضارة واضحة انعكست في البلدان التي خضعت لسيطرتها، فالإمبراطورية الفارسية والبيزنطية وغيرها من الإمبراطوريات أوجدت حضارة عالمية في حينها طبقاً لمقاييس تلك الأزمنة.

وحدّثنا القرآن الكريم عن صاحب حضارة عالمية هو ذوالقرنين الذي بسط سلطانه في شرق الأرض وغربها كما يتّضح في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾[1].

وعرّفه النبيّ ﷺ بالقول: كان غلاماً من أهل الروم[2] ناصحاً لله عزّوجل فأحبه الله وملك الأرض فسار حتّى أتى مغرب الشمس ثم سار إلى مطلعها، ثمّ سار إلى جبل يلجوج وملجوج فبنى فيها السدّ[3] وجاء تعريفه في خبر آخر:

أنّ ذاالقرنين كان رجلاً من أهل الإسكندرية يقال له اسكندروس[4].

وفي آخر أنّه: الإسكندربن فيلقوس اليوناني تلميذ أرسطوطاليس الذي

---

(١) الكهف:٨٣-٨٤.

(٢) ويشار للإسكندر أيضاً في فصل حضور الأنبياء في الحضارة.

(٣) قصص الأنبياء للراوندي:٢٩٣ح٣٦٤.

(٤) نفس المصدر:١٣٣ج١٢٦.

بلغ أقصى المشرق والمغرب والشمال وبنى المدن الكثيرة[١].

وظاهر الأخبار أنّه هو الإسكندر المقدوني الذي ظهر اسمه في أعلام التاريخ المبرزين، فأشخاص مثل الإسكندر يقال عنهم أوجدوا حضارة عالية انعكست في أسماء المدن التي أسسوها وفي خضوع الدول والأمم لهم حينذاك، وبما أوجدوا من معالم عمرانية تنسب لهم، وكانت الإسكندرية من أهمّ مدن العالم منذ أن أنشأها الإسكندر سنة ٣٣٢ق.م إلى أن فتحها عمروبن العاص، أي في مدّة ألف سنة، وكان يمكن عدّها، وهي مركز لتجارة البحر المتوسط بأسره، ثانية مدن الإمبراطورية الشرقية، أي المدينة التي تأتي بعد القسطنطينية، وكان البطالة قد اجتذبوا إليها أشهر علماء العالم وفلاسفته، وكانت تشتمل على أشهر المكتبات والمدارس[٢].

وقد أدّت فتوحات الإسكندر الأكبر وتقسيم تركته بعد موته سنة ٣٢٣ق.م إلى انتشار الحضارة الإغريقية في أجزاء كبيرة من آسيا وإفريقيا، ممّا جعل المؤرخين يطلقون على تلك الفترة حتّى الفتح الإسلامي اسم العصر الهلينستي، وفي ذلك العصر وجدت عدّة مراكز للحضارة الإغريقية أشهرها الإسكندرية وبرقة وأنطاكية ونصيبين وجنديسابور[٣].

فتحقّق حضارة عالية ومدينة كونية تجربة أرضية سبقت أطروحات الفكر النظري الحديث الداعي إلى حضارة عالية ومدينة كونية، وقد تداول المعولمون أسماء مدن وعواصم حديثة مرشحة لأن تأخذ موقع المدينة الكونية أو مركز الحضارة العالمية الجديدة، أو عاصمة الثقافة العالمية الواحدة التي يحلم بها المعولمون.

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي٢١: ١٦٣.

(٢) حضارة العرب:٢١٣

(٣) تاريخ الحضارة العربية الإسلامية:٢٨٨.

والعاصمة الكونية التي طرحها تاريخ المسلمين هي يثرب، ومن بعدها مدن أخرى ترشّحت بالتعاقب لتأخذ موقع العاصمة العالمية أو الكونية، كالكوفة ودمشق ومكة وبغداد والقاهرة... فالتجربة الإسلامية ـ بغضّ النظر عن تكاملها أو عدمه، صدقها أو عدمه، -تكاد أن تكون قد حقّقت مفهوم ونظرية العولمة المعاصرة التي ينادي بها أنصار العولمة الجديدة، الذين ينتظرون قيام عاصمة كونية تأخذ زمام العالم وتقوده، فالثقافة العالمية أو الحضارة العالمية أمسكها المسلمون وتحكّموا بها ردحاً من الزمن في عصور متعددة من التاريخ ابتدأت بالنبيّ ﷺ وانتهت بتجربة الدولة العثمانية التي كانت عاصمتها في تركيا، خارج نطاق القومية واللغة العربية، وإنما كان محركها وصانعها ودافعها هو الثقافة والحضارة الإسلامية.

وهنا يُطرح سؤال عما إذا كانت الدولة العثمانية التي تتخذ الإقليم التركي مساحة لها و مأوى لملوكها وخلفائها، فما يعني الإسلام لها إضافة لكونه دينهم، هل هو حضارة لها أم ثقافة هذه الدولة ومنهج التربية والتعليم لديها، وظاهر الأمر أنَّ الدين يعنى لهم أكثر من حضارة وثقافة، بل هو صانع حضارتهم وثقافتهم، وإن كان البعض يرى بأن التجربة الإسلامية لديهم هي مظهر حضارى أكثر مما هو ثقافي.

وتعتبر تجربة تركيا في هذا العنوان أو ذاك محطة وقوف للقائلين بهذه النظرية أو تلك، وعليه يفهم قول باحث معاصر: «حاول بعض علماء الإنسان التمييز بين الحضارة والثقافة، وأعطوا الحضارة صفة العالمية والعمومية والطابع الإنساني، بينما الثقافة، بحسب تصنيفهم، تعبير عن الخاصّ والمحدد في محاولة لتكيف أخلاق مع بيئة معيّنة .

ولكنَّ هذه المحاولة وقعت في مشكلة الوصول إلى تعريف دقيق ومانع يفرّق بين معنى الحضارة والثقافة.

وكان التعريف السائد هو الذي يعتبر الإنجازات والإبداعات الإنسانية المادية هي الحضارة، بينما كلّ ما هو غير ماديّ، أي روحي، فكري أو وجداني، هو الثقافة، والآن يتمّ تداول مصطلح الثقافة المادية والثقافة غير المادّية[١].

وما يزال هناك جدل طويل بين الباحثين الغربيين منذ وصف العالم الإنجليزي تايلور في القرن التاسع عشر الحضارة بأنّها ذلك الكلّ المعقّد الذي يشمل المعارف والعقيدة والفن والقيم الأخلاقية والقانون والتقاليد الاجتماعية، وكلّ القدرات والعادات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع.

في حين يميل الكتّاب العرب إلى استخدام كلمتي الحضارة والمدنية بل والثقافة أحياناً بمعنى واحد[٢].

وإذا كان العلاّمة الفرنسي فرتان بروديل يرى بأنّ فكرة الحضارة تنطوي على معنيين مفترضين أوّلهما تحقيق مستوى أخلاقي معيّن وثانيهما إنجازات ماديّة معيّنة[٣] فهذا متحقق في الحضارة الإسلامية فإنّ تجسيد المعنى الأوّل المفترض في إيجاد نظام أخلاقي رائع يعبّر عن الحضارة الإسلامية التي جاءت بها نصوص الكتاب والسنّة مازال قائماً وموجوداً في نصوص عرضنا بعضها.

وأمّا الإنجازات المادية التي ذكرها تايلور، فأبرزها عمارة المدن والصناعات ومظاهر النشاط الاقتصادي الأخرى التي تعبّر عن مستوى الحضارة ودرجتها، ولا يغيب عن البال بأنّ الإنتاج الزراعي والحرفي يُعدّ في سياقه التاريخي والزمني البعد المادي للحضارة أيّ حضارة كانت، فلا يمكن الحكم والقياس

---

(١) حيدر إبراهيم علي، التيارات الإسلامية وقضية الديمقراطية، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت:١٩.

(٢) عامر رشيد مبيض، موسوعة الثقافة السياسية الاجتماعية الاقتصادية العسكرية:٦١٠.

(٣) ينظر محمد سيد أحمد، الإسلام والغرب، تصاعد الإرهاب وصدام الحضارات :٢١١.

بعقل تكنولوجي حديث يحصر الوجه الحضاري بالماكنة والآلة الحديثة التي استحكمت وارتبطت في ذهن الناس بالرقي والتطور الحضاري، ومع هذا يمكن أن يقال: إذا كانت الإنجازات المادية هي الشرط الثاني لبروديل في توصيف الحضارات، فإنّ المظهر الحضاري المادّي للحضارة الإسلامية هو العمران الذي جرى في يثرب، حيث تُعتبر معالم يثرب، مدينة الرسول ﷺ من أبرز الإنجازات المادية، فالحقيقة التاريخية الثابتة تقول:بأنّ ميلاد يثرب أو طابة أو المدينة لاحقاً كان بعد هجرة النبيّ ﷺ لها، فلم تكتسب هذه الحاضرة مفهوم المدينة، أو قل لم تكتمل صورتها إلّا على يد الرسول الكريم ﷺ، فلولاه لغابت وتلاشت كأيّ قرية من قرى الأرض التي انطفأ ذكرها وتهدّ م مدرها مع ذرّات الرمال الزاحفة من البادية والتي تبيد كلّ شيء وتغمره، وكأنّ شيئاً لم يكن، لقد خلق النبيّ ﷺ من هذه القرية والقرى المتجاورة وحدة حضارية واحدة اتخذت اسم المدينة تحقيقاً وتأكيداً لهذه الصبغة الحضارية التي صبغها النبيّ ﷺ بوجوده المبارك، فتلت ذلك هجرة واستيطان بشري واضح نجم عنه حركة بناء وإعمار من حصون وقلاع ومساكن ومساجد صارت جنّة ومدينة عامرة وسط صحراء الجزيرة العربية، لذا يكون إطلاق لفظ المدينة مناسباً لمدلولها الحضاري والمدني.

وكان لأهمية هذه المدينة النبوية العظيمة أن تعددت لها الأسماء عبر التأريخ«أوصلها بعضهم إلى أربعة وتسعين اسماً... ومن أسمائها المذكورة: المدينة[1] وطيبة وطابة[2]والمسكينة والعذراء وطبابا والمحببة ويثرب والناحية والمسلمة

---

(١) يظهر أنّ الوصف الذي أُلحق بالمدينة-والمشهور: المنوّرة-كان في العصر التركي حيث وصفوا المدينة بالمنوّرة ومكّة بالمكرمة والقدس بالشريف، أمّا الاسم المعروف عند الأقدمين حتّى نهاية القرن السابع الهجري فهو المدينة فقط. في أصول تاريخ العرب الإسلامي:٩١.

(٢) سُمّيت المدينة طابة لأنّها طابت به ﷺ حيّاً وميّتاً بحار الأنوار٦٠: ٢٠٣. وروي عن أبي حميد الساعدي قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك حتّى إذا أشرفنا على المدينة قال:

والعاصمة والمرزوقة والشامية والخيرة والمحبوبة والمرحومة وجابرة والبارّة والمحرّمة، والقاصمة، ودار الأخيار، ودار الإيمان ودار السنّة، ودار الهجرة والمختار، وقبلة الإسلام والمحفوظة والمقدّسة... وغيرها من الأسماء»[١].

ولا ريب فإنّ مثل هذه الأسماء يدلّ دلالة قاطعة على أهميّتها السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية، فتعاور هذه الأسماء ينبيء عن تمركز حضارة وقيام نهضة شاملة عبر عصور التاريخ المختلفة بهذه المدينة المقدّسة، فمظاهر العمران والإنجاز المادي تُستنبط من هذه الأسماء التي خلعت على حاضرة بشرية، فلا يمكن تصوّر هذا الزخم والتعدّد في الأسماء من دون آثار مادية وعمرانية تدفع الناس للاستيطان والهجرة إليها.

ومن المؤكّد أنّ المدينة اليثربية[٢] بعد هجرة الرسول الكريم ﷺ لها دخلت مرحلة جديدة تماماً من تاريخها حيث إنّها لم تكتسب بعداً عالمياً بما قدّرلها بعد تكونه فحسب، بل قد تجددت تماماً بوظيفة ضمنت لها الدوام والاستمرار كمدينة مرموقة بعد ذلك، وهو نوع من الدوام والاستمرار، لم تضمنه التجارة وحدها لأيّ من محطات الطريق التجاري القديم، وهي بعد الهجرة مباشرة

هذه طابة. البحار٢١: ٢٤٨.

(١) الدكتور علي معطي، التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة في عهد الرسول ﷺ مؤسسة المعارف بيروت:٣٤.

(٢) كانت المدينة قبل دخول الرسول ﷺ إليها تُعرف باسم يثرب، وقد سمّاها بطليموس وستيفان البزنطي يثربا yathrippa كما ظهر اسمها في بعض النقوش القديمة باسم إثرب ithrib. ويذكر أن يثرب كانت ناحية من المدينة ثمّ أطلق على المدينة كلّها من إطلاق البعض على الكلّ. موسوعة العتبات المقدسة المدخل ص ١٨. وكذلك كلمة المدينة مأخوذة من كلمة Medinte-Medinta الإرمية، وهي تعني المدينة في عربيتنا. ويثرب نسبة إلى يثرب بن قانية بن مهلائيل بن دارم بن عبيل بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام موسوعة الحضارة العربية للدكتور قصي الحسين، منشورات مكتبة الهلال بيروت٢٠٠٤: ٢٨٨.

أصبحت مركز الدعوة البازغة، وبعد زمن قصير أصبحت عاصمة أولى للدولة الإسلامية المتطلعة إلى آفاق عالمية، وبعد أقّل من ربع قرن أصبحت العاصمة السياسية لمناطق مترامية تمتدّ بين برقة غرباً وحدود فارس شرقاً، ولقد ورثت إمبراطوريتين، وتدفّقت أموال الغنائم والمكوس والجزية وصبّت في خزائنها، وأصبحت معظم طرق التجارة القديمة تحت سيطرة وإدارة حكّامها، فلقد أصبحت المدينة المنوّرة مدينة متعددة الوظائف بمعنى الكلمة،والعاصمة السياسية لدولة مترامية الأطراف، لاينافسها في المنطقة الممتدة بين الصين شرقاً ومراكش غرباً سوى بيزنطة عاصمة الدولة الرومانية الشرقية[١].

وقد أخبر النبيّ ﷺ عن مستقبل يثرب السياسي ودورها في التاريخ من وقت مبكّر حين قال ﷺ: أمرت بقرية تأكل القرى تنفي الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد، والمراد أنَّ أهلها يقهرون أهل القرى فيملكون بلادهم وأموالهم، فكأنهّم بهذه الأحوال يأكلونهم[٢]، فقوله ﷺ يُعدّ من المعجزات والنبوءات التي أخبر بها ﷺ عن مدينة كانت في مطاوي النسيان وإذا بها عاصمة عالمية غيّرت مسار التاريخ، وقد قيل فيها:«لم نعلم في التاريخ القديم والحديث أنّ عاصمة ضمّت خزائنها أموال الدولتين العظيمتين؛ الفرس والروم، سوى المدينة المنوّرة، وليس معنى هذا إلاّ أنّ المدينة قد جمعت ترف الدولتين معاً، وعاشت رخاءهما جميعاً»[٣]، وكانت الحكومات والدول الإسلامية تحلم بأن تكون مكة والمدينة ضمن الأقاليم الخاضعة لها إدراكاً لأهميتهما.

وقد بلغ الصراع والتنازع بين دولتين مهمتين في التاريخ لأجل امتلاك ناصية المدينة، وهما الدولة العباسية والدولة الفاطمية، أوجه، حيث كانايسعيان

---

(١) ينظر الدكتور عمر الفاروق، المدن الحجازية، الهيئة المصرية للكتاب:١٦.

(٢) المجازات النبوية للشريف الرضي: ٢٢٠ح٢٢٥ ط مصر.

(٣) الدكتور محمد السيد الوكيل، الحركة العلمية في عصر الرسول وخلفائه:١٦٥.

للفـوز بقـيادة مكـة والمدينة باعتبار واعتقاد «أنّ أمير المؤمنين الحقيقي هو من كان ملكاً للحرمين»[١].

(١) مسعود أحمد مصطفى، أقاليم الدولة الإسلامية، الهيئة المصرية للكتاب:٢٧٣.

شرط الحضارة ودولة قريش والدول الأخرى

يحاول البعض أن يدفع الشرط المادي للحضارة الدينية فيرى بأنّ علاقة الديانة بالحضارة ليست علاقة دافع وأرضية للتطوّر والتقدّم في البعد المادي للإنسان فحسب.

بل إنّ الديانة نفسها ونوعيتها ومستواها نوع من التحضّر وجانب منه، فالإنسان المتحضّر ليس الإنسان الذي يُتقن استخدام وسائل العيش المتقدّمة فحسب فهذا يمكن أن يصدر من حاسوب أو حيوانات مدرّبة.

بل الإنسان المتحضّر هو الإنسان المثقّف بديانة أو ثقافة رفيعة المستوى وذات أخلاقية نبيلة تميّزه عمّا عداه من الموجودات.

إنّ تدوين الإنسان لقوانين وقواعد تحدّد علاقته بنفسه ومع باقي بني البشر ومع الطبيعة... هي بحد ذاتها تطور وتحضّر وخروج عن البداءة...[1].

والملاحظ أنّه تستعمل كلمة حضارة تارة في معنى معياريّ يتضمّن تقويماً وتعارضاً بين الوحشيّة والحيوانية، ويدلّ تارة أخرى على جملة علاقات اقتصادية واجتماعية:

١-في المنظار التاريخي والفلسفي، تُعتبر الحضارة بمثابة مجمّع أعمّ من الثقافة، التي تشكل بناءها الفكروي الفوقي، أي مجمل النتاجات الخاصّة بروح الأمّة من دينٍ وفنٍ وأساطير... إلخ .

٢- تميل علوم الأنام أو الإناسة إلى توحيد مفهومي الحضارة والثقافة

---

(٢) ينظر تحسين البدري، حوار الحقيقة، المركز العالمي للدراسات الإسلامية قم:٢٢.

واعتبار الثقافة جملة علاقات رمزية في كلّ المستويات والصُعدات.

٣- يُعتبر تنوّع الثقافات موازياً لتنوّع الحضارات التاريخية، تاريخ التقنيات، تاريخ الفكرويات، تاريخ الفنون... إلخ وخاصّة عند ما لا يكون ثمّة اتصال بين ثقافات مختلفة[١] ومن هذا التصوّر يمكن القول بأنّ نصوص الحديث النبوي هي الثقافة الإسلامية أوقل الحضارة الإسلامية، المعبّرة عن روح الأمّة، ولو قبلنا النظرية الأشمل والأبعد القائلة بأنّ مفهوم الحضارة: يعنى عملية التحضّر، أو التقدم والتحوّل الإنساني بشكل عام من مستوى إلى مستوى أكثر تعقيداً وتطوراً من حيث التقنية المستخدمة أو الثقافة السائدة[٢].

فإنّ التحوّل الكبير الذي أوجده النبيّ ﷺ في تاريخ العرب والبشرية كلّها يتطابق مع هذه النظرية وإن كان البعض يضيّق نطاق الحضارة فيجعلها ترمز إلى المظاهر الثقافية والاقتصادية والسياسية في حقبة معيّنه للدلالة على روح الشعب على المستوى القومي والوطني، ومن هذا المنظار قد يعني المصطلح حضارة شعب بعينه أو حضارة منطقة بذاتها[٣].

ومن هذا الوجه يراد باصطلاح الحضارة العربية هو مجمل ما دوّن من مظاهر اقتصادية وثقافية وسياسية انعكست في صفحات التاريخ القديم لحقبة زمنية سبقت البعثة النبوية لتقول لنا: بأنّ دولة وحضارة قامت في وسط الصحراء، وأوّل دولة ومركز حضاري أشير له هو دولة كنده قال المؤرخون فيها:

«هي أوّل دولة عربية قامت في وسط شبه الجزيرة العربية ووحّدت القبائل تحت سلطتها، وذكر بعض المؤرخين العرب أنّ أصل قبيلة كندة يعود

---

(١) مفاتيح العلوم الإنسانية: ١٧ رقم ٥٧٣

(٢) معجم مصطلحات العولمة:٨٢ رقم ٥١٢.

(٣) ينظر المصدر السابق.

إلى اليمن... وتمكّنت هذه القبيلة من التوسّع حتّى امتدّ نفوذها إلى الخليج العربي، ودولة المناذرة في العراق... ولم تبلغ حضارة كندة ما بلغته حضارات الدول الأخرى في أطراف الجزيرة العربية مثل الأنباط أو المناذرة لأنّها قامت أصلاً في وسط الصحراء، وأبرز ما خلّفته الأدب والشعر»[١].

وللمناذرة دورخطير في نشوء الدولة العربية في وادي الرافدين قبل ظهور الإسلام، فضلاً عن دورهم في نهوض الحركات العسكرية التي قامت بوجه السياسة الفارسية، وبالتالي الدور الحضاري للعرب خلال تلك الفترة وما بعدها والمناذرة عرب تنوخيون هاجروا من اليمن على أثر انهيار سدّ مأرب... وكان أوّل ملك لهم هو مالك بن فهم ثمّ أعقبه جذيمة بن مالك، وكان حازماً ثاقب الرأي وهو أوّل من غزا بالجيوش وسعى لتوحيد قبائل العرب.

ويرجع الفضل إلى عمرو بن عدي في تمصير الحيرة وتقدّمها واتساع عمرانها حتّى أصبحت جوهرة العراق في الفترة ما قبل الإسلام، وهي تقع في سهل عذب الماء رقيق الهواء تحيط بها المزارع والحقول، وتبدو قصورها وأديرتها من بعيد شامخة بيضاء اللون، ومن أشهر هذه القصور الخورنق والسدير الذائعا الصيت...[٢].

وقد ارتقت الحضارة في عصر المناذرة فأنشئت المدارس وتقدّمت العلوم والصناعات والثقافة حتّى قيل «أنّ الخطّ الحيرى مشهور في التاريخ وقد تعلّمه منهم عرب الحجاز ثمّ انتشر بعد ذلك في بلاد العرب»[٣].

---

(١) تاريخ الحضارة العربية الإسلامية للتليسي والذويب:٤٠.

(٢) الدكتور عادل البكري، دراسات في الطّب العربي، الطّب العراقي في زمن المناذرة، وزارة التعليم العالي بغداد:٨١.

(٣) نفس المصدر.

وكان لمعالم المناذرة وآثارهم وحضارتهم حضور في أذهان المسلمين امتدَّ لسنوات ليست بالقليلة بعد ظهور الإسلام.

فروي أنّ الصادق عليه السلام لمّا قدم الحيرة ركب دابّته ومضى إلى الخورنق ونزل هناك[١].

فكذلك الحال بالنسبة لنزول علي عليه السلام، كما ذكر أبو بكر أحمد بن مروان المالكي بسنده عن هارون بن عنترة، عن أبيه قال: دخلت على عليّ بن أبي طالب عليه السلام بالخورنق وعليه قطيفة وهو يرعد من البرد، فقلت: يا أمير المؤمنين إنَّ الله قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال نصيباً وأنت تفعل بنفسك هذا! فقال: إنّي والله لا أرزأ من أموالكم شيئاً، وهذه القطيفة التي أخرجتها من بيتي، أو قال: من المدينة[٢].

ولم تخل الجزيرة العربية من مراكز حضارية أخرى لا تقلّ أهميتها عن المراكز المشار لها، وهذه المراكز الحضرية التي كانت في الجزيرة العربية تركّزت في: مكّة والطائف ويثرب واليمامة، وإن وجدت أصغر منها يمكن أن يطلق على مجتمعاتها حضرية كذلك، وتميّزت هذه المدن والمراكز بطابع غلب عليها واشتهرت بها، فمكّة غلبت عليها التجارة، واليمامة كانت الزراعة فيها هي السائدة، أمّا في كلّ من الطائف ويثرب فقد اختلطت في أرجائها الزراعة والصناعة والتجارة، ولكن الزراعة كانت هي الأكثر، وبداهة أنّ هناك فروقاً بين المجتمع المديني التجاري، والمجتمع المديني الزراعي مع بروز الملامح أو القسمات المشتركة التي تفرقها عن مجتمع البادية[٣] ومجمل ما يقال عن

---

(١) فروع الكافي٦: ٣٤٧ح١٥.

(٢) جعفر الخليلي، موسوعة العتبات المقدسة، النجف، ٦ القسم الأول: ٢٥ ط بيروت الأعلمي.

(٣) ينظر قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية:١٦٧.

الحضارات القديمة بأنّها كانت نقط مضيئة وواحات ضيقة وسط محيط بدائي واسع فيقال في أحوال العرب بأنهم متقسمون بين حضر وبداة، وأهل البادية هم الأكثر وأهل الحاضرة كانوا أقلّية في المجتمع آنذاك، ومجمل القول: قد حظي أجداد النبيّ ﷺ بسيادة هذه المجتمعات الحضرية الصغيرة وأشارت هذه المصادر القديمة بالريادة لأجداد النبيّ ﷺ لهذه البقع المضيئة في التاريخ.

فقد روى الشيخ المفيد رواية عن الأصمعي عن مولى من موالى المنصور العباسي رواية تفيد ممارسة عبد المطّلب جدّ النبيّ ﷺ للكتابة، كما أنّها تسجّل مرحلة من مراحل التقدّم الاقتصادي في رسم العقود التجارية وتثبيتها، حيث يقول هذا الراوي: أخرج إليّ بعضُ ولد سليمان بن عليّ كتاباً بخطّ عبد المطّلب، وإذا شبيه بخطّ النساء[1]: بسمك اللهم، ذكر حقّ عبد المطّلب بن هاشم من أهل مكّة على فلان الحميرى من أهل زول صنعاء، عليه ألف درهم فضّة طيّبة كيلاً بالجديد(ضرب من المسكوكات) ومتى دعاه بها أجابه، شهد الله والملكان[2].

وتمتّع عبد المطّلب بالكتابة في أمّةٍ عرفت بالأمّية يعدّ تألقاً حضارياً كبيراً وفقاً لعصره، في حين كانت الأمّية ضاربة بجذورها في جزيرة العرب لأزمنة طويلة أشارها النبيّ ﷺ بالقول : إنّا أمّة أميّون[3]، وقال ص : بعثت إلى أمّة أميين[4].

ويحدّثنا تاريخ ما قبل الإسلام عن الدور الحضاري الذي مارسه أجداد النبيّ ﷺ في مجتمعاتهم آنذاك، حيث كان قصي أوّل من أصاب من قريش ملكاً

---

(١) في رواية البحار١٥: ١٦٠ بخط الصبيان.

(٢) الاختصاص:١٢٣ ط جماعة المدرسين قم.

(٣) المصنّف لابن أبي شيبة الكوفي٢: ٤٩٧ باب ٨٢.

(٤) مسند أحمد: ١٢٣.

أطاعه به قومه، فصار له لواء الحرب وحجابة البيت، وتيمّنت قريش برأيه فصرفوا مشورتهم إليه، فاتّخذوا دار الندوة إزاء الكعبة في مشاوراتهم وجعلوا بابها إلى المسجد، فكانت مجتمع الملأ من قريش في مهماتهم، ثمّ تصدّى لإطعام الحاج وسقايته باعتبار أنّهم أضياف الله وزوّار بيته، وفرض على قريش خراجاً يؤدّونه إليه، فحاز شرفهم كلّه، وكانت له الحجابة والسقاية والندوة واللواء[1]، وفي رأي آخر: شرّفهم وأعزّهم وأبرز وجودهم قُصيّ يقول اليعقوبي: كان قُصيّ أوّل من أعزّ قريشاً مظهر به فخرها ومجدها وسناها وتقرشها فجمعها وأسكنها مكّة، وكانت قبل متفرقة الدار قليلة العزّ ذليلة البقاع حتّى جمع الله الفتها وأكرم دارها وأعزّ مثواها[2].

فيلمس الباحث هذا الوعي الحضاري المبكّر الذي تمتّع به قصي ومن بعده أحفاده في إدارة مجتمعاتهم وتنظيمها، وقد لانجد أنفسنا متجاوزين للحقيقة حين نقول بأنّ شجرة النبيّ ﷺ هي التي ضربت بجذور الحضارة والمدنية في ربوع جزيرة العرب.

ولم يكن النبيّ ﷺ عند تشييد دولته في المدينة قائداً سياسياً عارياً وبدون تراث سياسي، ويخوض تجربة بدون جذور وأساس سياسي، فالنبيّ ﷺ وارث قريش وسليل جدّه قصّي وهاشم روّاد الدولة القرشية الأوائل التي تأسست في مكة، ولو ذهبنا إلى التاريخ البعيد لمكّة لوجدنا أنّ دولة قريش في مكّة كانت من بناة أفكار قصيّ جدّ النبيّ ﷺ وحنكته، ويسجل المؤرخون والباحثون الهيكل التنظيمي للدولة القرشية التي أسسها قصي بتفصيل أكثر مما ذكرنا حيث نظّم قصي أوضاع مكة الداخلية والخارجية وقسّم مكّة خططاً ورباعاً بين

---

(١) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام:٣٣٠.

(٢) تاريخ اليعقوبي١: ٢٤٠.

قـريش حتى اتسقت له طاعتهم، وصارت إليه مشورتهم، ثمّ بنى دار الندوة إزاء الكعـبة، وجعـل بابهـا إلى المسـجد، فكانـت دار حكومته ومجتمع الملأ من قريش، فكانوا ينتدون بها، ويتحدّثون ويتشاورون في مهماتهم، وفي أمور الحرب والسـلم، وفي أمورهـم العامـة والخاصّـة، فكـانوا يـزوّجون مـن أراد الـتزوّج، ويعاقـبون مـن خـرق التقالـيد والأعـراف ويعقـدون الاتفاقـات والمعـاهدات، ويجهزون القوافل.

وهكـذا حـتّى غـدت على هذا النحو أشبه بحكومة يتولّى رئاستها قصيّ بـن كـلاب، ويشترك في عضويتها جميع مشايخ القبائل في مكّة، ويبدو أنّ قصيًا قـد جمـع بـين يديـه جميع وظائف مكّة الدينية والسياسية، فإلى جانب رئاسة دار الندوة،كانـت له حجابـة البيـت، ورفـادة الحجيج وسقايتهم، وحمل لواء الحرب، وقيادة الجيوش.

وكـان القـائم بالحجابـة، يمـتلك مفاتـيح الكعـبة، فهو الذي يأذن للناس بالدخول إليها، وهو الذي يسمح بممارسة الشعائر الدينية فيها.

والـرفادة: وهـي إطعـام من لم يكن له سعة، ولازاد من الحاجّ، وقد فرض قُصـيّ خـرجاً عـلى قـريش، تخـرجه في كلّ موسم حجّ من أموالها وتسلّمه إليه، ليصنع به طعاماً.

والسـقاية: هـي جمـع المـاء مـن آبـار مكّـة، وحملـه عـلى الإبل في المزاود والقـرب، وسـكبه في حـياض مـن أدم توضـع في فـناء الكعـبة، فـيرده الحجيج ويشربون منه.

وكـان قصـيّ قـد حفر آباراً عدّة لحلّ أزمة مياه الشرب التي كانت تشكو منها مكة، وكذلك فعل هاشم بن عبد مناف، عند ما آلت إليه السقاية والرفادة مـن بعـده، ولم يـزل هاشم يقوم بهذه الوظيفة حتّى مات فقام بها من بعده ابنه

عبد المطلب الذي حفر بئر زمزم وأضحت مشرب الحاج[١].

وقد سعى قُصيّ أن لا تفوته شعيرة من شعائر الحج إلّا وقد ظفر بها، والظاهر أنَّ الإجازة التي كانت في موسم الحج آنذاك قد تسلّمها قُصيّ أيضاً.

ويتحدث التاريخ عن الإجازة التي كانت بمكة في موسم الحجّ، وهي الإفاضة.

وكانت العرب إذا حجّت وحضرت عرفة لا تدفع منها حتّى يدفع بها صوفة، وكذلك لاينفرون من منى حتّى تنفر صوفة، فإذا أبطأت بهم قالوا: أجيزي صوفة.

والصوفة: كلّ من ولي شيئاً من عمل البيت، وهم الصوفان، وصوفة: أبو حيّ من مضر وهو الغوث بن مرّ بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر، وكانوا يخدمون الكعبة في الجاهلية ويجيزون الحاج، أي يفيضون بهم.

وكان يقال في الحج: أجيزي صوفة، فإذا أجازت قيل: أجيزي خندف، فإذا أجازت أذن للناس كلّهم في الإجازة، وهي الإفاضة[٢].

وفي هذه الشعيرة تقول بعض المصادر: إنّ الإجازة ظلّت في بني صوفة حتّى جاء قصيّ بن كلاب وانتزع هذه الوظيفة من بني صوفة بالقوّة، واحتفظ بها لنفسه ولأحفاده من بعده[٣].

فحيازة هذه الوظيفة تعني أنّ قصي نال شرفاً كبيراً وموقعاً ريادياً لما لذلك

---

(١) ينظر الدكتور علي معطي، التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة في عهد الرسول ﷺ، مؤسسة المعارف بيروت:٢١.

(٢) لسان العرب(صوف).

(٣) التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة في عهد الرسول ﷺ:٢٥.

من تأثير في نفوس جماهير العرب التي كانت تحج البيت وتعظمه.

وكان قصيّ جدّ النبيّ ﷺ بطلاً قومياً وتاريخياً، أثار انتباه الإمبراطورية البيزنطية والساسانية في حينها، وقد استنبط الدكتور خالد العسلي بأنّ الأمير العربي امرؤ القيس الذي عرفه الروم البيزنطيون كشخصية قوية ذات بعد عالمي هو نفسه قصيّ جدّ النبيّ ﷺ فيقول: إنّ قصي كما يروي حمزة الأصفهاني عاش في زمن فيروز ٤٥٧-٤٨٣م.

وتخبرنا المصادر البيزنطية بأنّه في زمن الإمبراطور البيزنطي ليو٤٥٧-٤٧٤ م كان هناك أمير عربي اسمه امرؤ القيس، حالف البيزنطيين وأطلق عليه لقب فيلارخ (Phylarch)، وكان قبل ذلك في حلف مع الملك الساساني، ولسبب لم تشر إليه المصادر قرر ترك الملك الساساني، وبعد أن قام بعمليات حربية جريئة في شمال الجزيرة العربية جلبت انتباه البيزنطيين ممّا حداهم على التحالف معه، وذلك لامتلاكه قوّة عسكرية ونفوذ سياسي.

وقد أثمر التفاوض مع امرؤ القيس من التحالف معه، حيث دعي إلى القسطنطينية سنة ٤٧٣م ومنحه ليو(Leo) في السنة نفسها لقب فيلارخ، ومن ثمّ ترك البيزنطيين ورحل إلى الجنوب.

ومن هذا يصل الدكتور خالد العسلي أنّ هذا الأمير المشار له هو عينه قصي جدّ النبيّ ﷺ فيقول: وهكذا يمكن أن نفترض أنّ امرؤ القيس المذكور أعلاه هو نفسه، لأنّه عاش في الفترة نفسها التي عاشها قصي وفي المنطقة الجغرافية منها، حيث كان قصي في شمال الجزيرة من أشراف الشام إلى سرغ ومادونها، ليس بعيداً عن تبوك، وهي واليرموك والجابية والرمادة متّصلة، علماً بأنّ المصادر العربية كما أشرنا سابقاً جعلت من قصي بطلاً أعاد الحياة إلى مكّة، وأصبح سيّدها، وذاك بمساعدة البيزنطيين كما ذكر ابن قتيبة، أو بمساعدة قبيلة قضاعة، التي كانت تسكن في أراضي تحت النفوذ البيزنطي.

وعلى هذا يمكن أن نفترض أنّ امرأ القيس هو نفسه قصي وأن اسم امرئ القيس في المصادر البيزنطية ما هو إلاّ تحريف لاسم أمير قصي في المصادر العربية[١].

وشخصية مهمة لعبت دوراً سياسياً كبيراً في جزيرة العرب كقصي، تدفع البلحثين إلى إسناد دور امرئ القيس إلى قصيّ نفسه لخلوّ الجزيرة من شخص قوي يضاهي شخصية جدّ النبيّ ﷺ قصي.

ويسأل القارئ: من هو قصيّ؟

وقصيّ اسمه زيد وكان يُلقّب بالمجمّع، لأنه جمع قبائل قريش بعد ما كانوا في الجبال والشعاب، وإنّما سمّي قصيّاً لأنّ أمّه فاطمة بنت سعد بن سنبل الأزدية من أزد شنوءة، تزوّجها بعد أبيه كلاب[٢] ربيعة بن حزام بن سعد بن

---

(١) دراسات في تاريخ العرب٢: ١١ منشورات وزارة الثقافة بغداد.

(٢) وكلاب أبوقصي ينتسب إلى مرّة بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وقال ابن دريد: قصيّ تصغيرقاص، واسمه زيد، وإنّما سمّي قصيّاً لأنّه قصا عن قومه فكان في بني عذرة مع أخيه لأمّه، وكلاب مصدر كالبته مكالبة وكلاباً... بن مرّة، ومرّة اسم شجرة... ابن كعب..ابن لؤي ، واشتقاق لؤيّ من أشياء إمّا تصغير لواء الجيش أوتصغير لوى الرمل، أو تصغير لأى تقديره لعيً، وهو الثور الوحشي..ابن غالب.. ابن فهر، والفهر: الحجر الأملس يملأ الكفّ أو نحوه..ابن مالك.. ابن النّضْر، وهو أبو جميع قريش.. ابن كنانة. والكنانة: كنانة النّبْل.. ابن خزيمة، واشتقاق خزيمة من الخزم، والخزم: شجر له لحاء يفتل منه حبال، الواحدة خزمة، وخزيمة تصغير خزمة ابن مدركة، واسم مدركة عمرو.. واشتقاق مدركة من أدرك يدرك إدراكاً، أي لحق.. ابن الياس، يمكن أن يكون اشتقاق الياس من قولهم: يئس ييئس يأساً، ثمّ أدخلوا على اليأس الألف واللام. ويمكن أن يكون من قولهم رجل أليس من قوم ليس، أي شجاع.. ابن مضر، واشتقاق مضر من اللبن المضير وهوالحامض.. ابن نزار، واشتقاق نزار من الشيء النزر وهو القليل.. ابن معدّ ، واشتقاق معدّ من شيئين إمّا أن يكون مفعل من العدد وإمّا أن يكون من المعدّ وهو اللحم في مرجع كتف الفرس. ابن عدنان، وعدنان

زيد القضاعيّ، فمضى بها إلى قومه، وكان زهرة بن كلاب كبيراً، فتركته عند قومه، وحملت زيداً معها، لأنّه كان فطيماً، فسُمّي قصيّاً لأنّه أقصي عن داره، وشبّ في حجر ربيعة بن حزام، لايرى إلاّ أنّه أبوه إلى أن كبر فنازع بعض بني عذرة، فقال له العذري: إلحق بقومك فإنّك لست منّا، قال: وممّن أنا؟ قال: سل أمّك تخبرك، فقالت: أنت والله أكبر منهم نفساً ووالداً ونسباً، أنت بن كلاب مرّة، وقومك آل الله في حرمه وعند بيته، فكره قصي المقام دون مكّة، فأشارت عليه أمّه أن يقيم حتّى يدخل الشهر الحرام ثمّ يخرج مع حجّاج قضاعة ففعل.

ولّما صار إلى مكّة تزوّج إلى خليل بن الحبشيّة الخزاعيّ ابنته حبُّي، وكان خليل يلي أمر الكعبة، وعظم أمر قصيّ حتّى استخلص البيت من خزاعة وحاربهم وأجلاهم عن الحرم وصارت إليه السدانة والوفادة والسقاية، وجمع قبائل قريش وكانت متفرقة[1]، وهكذا كانت بداية قصي بداية قيادية تحمل طموحات كبيرة.

فمن سنين عمره الأولى بدأ كفاحه وتفكيره الطموح لأن يأخذ موقعاً ويكتسب قوّة اجتماعية وسياسية في الجزيرة العربية، وتجلّى هذا حين بدأ يبسط نفوذه على بيت الله الحرام، ومن ثمّ خطوته اللاحقة بتجميع القبائل القرشية وترتيب اتحاد قبلي بينها أكسبها قوّة سياسية خطيرة لها انعكاساتها في الأحداث اللاحقة من تاريخها.

وقد لعبت قريش[2] دوراً كبيراً في تاريخ الإسلام وفي الأحداث التي تلت

فعلان من قولهم: عدن بالمكان فهو يعدن عدوناً، وهو عادن أي مقيم.

الاشتقاق:١٩-٣٦، بحار الأنوار١٥: ١٤٨.

(١) بحار الأنوار١٥: ١٢٤و١٠٥.

(٢) قيل: سمّوا بقريش باسم دابّة تكون في البحر لاتدع دابّة إلاّ أكلتها، فجميع الدوابّ

استتباب الدعوة المباركة، ممّا هيأ لبعض الباحثين إطلاق مصطلح الحزب القرشي أو الكتلة القرشية.

ولم تكن مكّة غائبة عن التاريخ الحضاري البعيد، فلقد ظهرت مكّة كبلدة أو كقرية كبيرة منذ زمن بعيد، ربّما قبل الميلاد بألف من السنين، وبزغت مع استثمارها لموقعها الفريد في نقطة تكاد تتوسّط طريق التجارة القديم بين اليمن والشام، وازدهرت كمركز مالي هام مستفيدة من موقفها الحيادي في الصراع الفارسي البيزنطي المستعر خلال الألف الأولى قبل الميلاد، ومن انهيار الدولة المعينية اليمنية عند مدخل البحر الأحمر، وأكّدت مكانتها الدينية الراسخة الموغلة في القدم مركزها كعاصمة، أو شبه ذلك، لمعظم شبه الجزيرة[1].

وارتباط مكّة بقبيلة قريش يعود إلى التاريخ القريب للإسلام، وبعبارة أخرى إلى تاريخ أجداد النبيّ ﷺ، فهذا العمود هو الذي ضرب بأطنابه بمكّة، وإليه يعود الفضل في منح البعد السياسي والقومي لقبيلة قريش.

وما يصطلح عليه بعض الباحثين من القول بأنّ دولة قريش التي تأسست وسط الجزيرة كانت لبنتها هاشمية تؤكّدها مناهج البحث العلمي، يقول الباحث خليل عبد الكريم: إذا كان قصي هو الذي أرسى حجر الأساس

تخافها، وقيل: سمّيت بذلك لتقرشها أي تجمّعها إلى مكّة من حواليها بعد تفرقها في البلاد حين غلب عليها قصيّ بن كلاب، وقيل:سمّيت بقريش بن مخلد بن غالب بن فهر كان صاحب عير قريش، فكانوا يقولون: قدمت عير قريش، وخرجت عير قريش وقيل: سمّيت بذلك لتجرها وتكسّبها وضربها في البلاد تبتغي الرزق، وقيل: سمّيت بذلك لأنهّم كانوا أهل تجارة ولم يكونوا أصحاب ضرع وزرع من قولهم: فلان يتقرّش المال، أي يجمعه. اللسان(قريش).

(١) ينظر عمر السيّد رجب، المدن الحجازية، الهيئة المصرية للكتاب:١٠.

لدولـة قريش فإنّ هاشماً هو الذي أوضح معالمها وأبرز قسماتها، وظلّ دورها فعّـالاً حـتّى إنشائها على يد حفيده محمد ﷺ، ذلك أنّ هاشماً كان صاحب نظرة شمولـية، بمعـنى أنّ نشاطه المتوثّب والمتولّد عن همّة عالية، امتدّ لأكثر من ناحية في تدعـيم الدولة التي كانت في طور البروز، فبدأ بالاقتصاد الذي هو عماد أيّ دولـة، فقـد حـوّل تجارة مكّة من المحلّية، ذلك أنّ قريشاً كانوا قوماً تجاراً، وكانت تجـارتهم لاتعـدو مكّة، إنّما يقدم الأعاجم فيشترون منهم ويتبايعون فيما بينهم ويبـيعون مـن حولـه من العرب، فلم يزالوا كذلك حتّى ذهب هاشم إلى الشام وطلـب مـن قيصـر أماناً لقومه، ليقدموا بلاده لتجاراتهم فأجابه لذلك، وكتب لهـم قيصـر كتاب أمان لمن أتى بهم، فأقبل هاشم بذلك الكتاب، فكلّما مرَّ بحيّ من أحياء العرب أخذ من أشرافهم إيلافاً لقومه، يأمنون به عندهم وفي أرضهم مـن غير حلف، إنّما هو أمان الطريق، واستوفى أخذ ذلك ممّن بين مكّة والشام فأتى قومه بأعظم شيء أتوا به بركة فخرجوا بتجارة عظيمة[1].

وقـد أشار القرآن الكريم لهذا الدور في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾[2] والقـرآن الكـريم هـو النصّ الذي لا شكَّ في صحّته التاريخـية، ولـذا فهـو المصدر الأوّل لتأكيد رحلة الشتاء والصيف وبهذا النصّ تـتأكد مقولـة المؤرخـين بـالدور الهـاشمي في هـذا الـتحوّل الاقتصـادي الكـبير ويسـتنبط الباحـثون بـأن أجـداد الـنبي نقلـوا مكّة والمكّيين من مرحلة التجارة المحلـية إلى مرحلة التجارة العالمية، يقول الباحث فكتور سحّاب:إنّ قريشاً سيّرت عـلى الأقـلّ رحلة في الشتاء ورحلة في الصيف فأجملهما القرآن الكريم بصيغة المفـرد لـيظهر فضـل الله في تمكـين تجّـار مكّة من تسيير الرحلتين معاً، ذلك أنَّ

---

(١) قريش من القبيلة إلى الدولة:٢٩.

(٢) قريش ١و٢.

الرحلتين معاً كانتا تعنيان أنَّ مكّة وسّعت تجارتها وانتقلت من مرحلة التجارة المحلية التي كانت قائمة على أيّة حال منذ أزمنة غير معروفة إلى مرحلة التجارة الدولية التي كانت تتطلّب ربط السوقين: سوق المحيط الهندي وسوق البحر المتوسط بشريان القوافل الصحراوية[١].

وكانت الزعامة السياسية والمدنية لعبد المطلب[٢] لاتقلّ شاناً عن زعامة قصيّ وهاشم.

وقد ساد عبد المطّلب قريشاً وأذعنت له سائر العرب بالسيادة والرياسة، وقد برزت شخصية عبد المطلب السياسية وتأكّد بعده القومي حينما بعثت العرب وفداً من الأشراف والشعراء إلى سيف بن ذي يزن الملك اليمني لتهنئته لمّا ظفر بالحبشة، وكان عبد المطّلب على رأس الوفد[٣]علاوة على زعامته الدينية والروحية التي ورثها في مكة.

وقد بلغت هيبة عبد المطلب لدرجة أنّه كان يفرش له بفناء الكعبة لا يفرش لأحد غيره، وقد روي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: يحشر عبد المطّلب يوم

---

(١) إيلاف قريش: ٢٤٧.

(٢) عبد المطلب كان اسمه شيبة الحمد بن هاشم، ويقال: شيبة.
وقيل: اسمه عامر، وسمّي شيبة الحمد لأنه ولد وفي رأسه شعرة بيضاء. وقيل: كان لعبد المطّلب عشرة أسماء تعرفه بها العرب وملوك القياصرة وملوك العجم وملوك الحبشة. بحار الأنوار١٥: ١١٩و١٢٨.وهذا يدل أنّ شخصية عبد المطلب كانت عالية لم تكن معروفه على صعيد مكّة فقط. وذكر الصدوق رحمه الله لعبد المطلب بعض الأسماء التي تؤكد البعد العالي له ومن هذه الأسماء: عامر، شيبة الحمد، سيّد البطحاء، ساقي الحجيج، غيث الورى، حافر زمزم... الخصال: ٤٥٣.

(٣) بحار الأنوار١٥: ١٨٦.

القيامة أمّة وحده، عليه سيماء الأنبياء وهيبة الملوك[١].

وهذا الخبر يلمّح إلى أنّ عبد المطّلب كان يحمل رسالة تمتد إلى وصايا الأنبياء أو الأنبياء أنفسهم، فقد روي أنّ عبد المطّلب كان حجّة، وأبو طالب كان وصيّه.

وفي هذا قال المجلسي رحمه الله: اتفقت الإماميّة رضوان الله عليهم على أنّ والدي الرسول ﷺ وكلّ أجداده إلى آدم عليه السلام كانوا مسلمين، بل كانوا من الصدّيقين، إمّا أنبياء مرسلين، أو أوصياء معصومين[٢].

فليس من المستبعد أنّ عبد المطلب كان يتّقي قومه لجهالتهم وإيغالهم في معتقداتهم الجاهلية والتي لايمكن زحزحتها إلاّ بظهور نبيّ مرسل وثورة عارمة تطيح وتزعزع هذه الثقافة الضالّة.

وكان تعامل عبد المطلب مع أبرهة الحبشي المكنّى بأبي يكسوم ما ينبئ عن اتصال بقوى غيبية أطلعته إلى ما يؤول إليه أبرهه وجيشه القويّ آنذاك، فقد كان أبرهة يروم هدم الكعبة، وما كانت الكعبة تعنى لسيّد العرب وسيّد قريش ولمشاعر الناس كلّهم، وإذا بعبد المطّلب يواجه هذا الحدث بهدوء وبدون أيّ إثارة إعلامية وعاطفية، وكأنّه موعود بمن يكفي هذا البيت وأهله من هذا الشرّ الداهم، ويظهر للقارئ من سطور ما روي عن لقاء أبرهة به أثر الاتصال السماوي معه، كما تفيد رواية الصادق عليه السلام القائلة: لمّا قصد أبرهة بن الصباح ملك الحبشة لهدم البيت، تسرّعت الحبشة فأغاروا عليها فأخذوا سرحاً[٣] لعبد المطّلب بن هاشم فجاء عبد المطّلب فاستأذن عليه فأذن له وهو في

---

(١) بحار الأنوار١٥: ١٥٧و١٥٩.

(٢) بحار الأنوار١٥: ١١٧.

(٣) السَّرحْ: الإبل والغنم. اللسان(سرح).

قبّة ديباج على سرير له فسلّم عليه فردّ أبرهة السلام، وجعل ينظر في وجهه فراقه حسنه وجماله وهيبته، فقال له: هل كان في آبائك مثل هذا النور الذي أراه لك والجمال! قال عبد المطّلب: نعم أيّها الملك، كلّ آبائي كان لهم هذا الجمال والنور والبهاء، فقال له أبرهة: لقد فقتم فخراً وشرفاً، ويحقّ لك أن تكون سيّد قومك[1] ثمّ أجلسه معه على سريره، وقال لسائس فيله الأعظم، إئتني به- يشير إلى فيله، وكان عظيم الخلق-فجاء به سائسه، وحين قابل وجه عبد المطّلب سجد له، وأطلق الله لسانه بالعربية فسلّم على عبد المطّلب، فلمّا رأى الملك ذلك ارتاع له وظنّه سحراً، فقال: ردّوا الفيل إلى مكانه، ثمّ قال لعبد المطّلب: فيم جئت؟ فقد بلغني سخاؤك وكرمك وفضلك ورأيت من هيبتك وجمالك وجلالك ما يقتضي أن أنظر في حاجتك، فسلني ماشئت، وهو يرى أنّه يسأله في

---

(١) الظاهر أنّ عبد المطلب فاوض الحبشيين على عدم مهاجمة البيت الحرام ولمّا لم يجد بدّاً من استجابتهم سأل أبرهة أن يردّ إبله التي اغتصبها جنوده، وكانت إبله حينذاك جزءاً من الاقتصاد العام لمكّة، فبها تطفأ النائرة ويطعم الضيف وتدفع الديات، فإبقاؤها بيد جنوده يعني حدوث خلل كبير في اقتصاد مكّة وحياتها، لما لعبد المطلب من موقع ديني وسياسي كبير له تأثير في اقتصاد مكّة. وفي هذه القضية: يقول المؤرخ خالد العسلي: إنّ الروايات العربية حول إبل عبد المطلب غير صحيحة،إذ لايعقل أن يفاوض عبد المطّلب عن نفسه ويهمل أو يتجاهل مصالح وممتلكات قومه، علماً أنّ عبد المطّلب كان أحد سادات مكّة وأنّ لدينا رواية تذكر أنّ عبد المطلب ذهب مع وفد من شخصيات مكّة لمفاوضة الحبشيّ وعرضوا عليه ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولايهدم البيت فأبى. ثمّ يقول: وربّما كان عبد المطلب يريد أن يضمن حقوقاً أكثر لأهل مكّة، وأن موقفه في المفاوضات كان مشرفاً، على الرغم من عدم نجاحه، بحيث أنّه بعد أن فشلت الحملة زادت مكانة عبد المطّلب عند أهلها.

دراسات في تاريخ العرب١: ٣٢٦.وظاهر قول أبرهة لعبد المطّلب: بلغني سخاؤك وكرمك وفضلك. يؤيّد ما ذهب إليه العسلي من تفاوض سابق لهذا اللقاء معه، فمن المؤكّد أنّ أسماء المفاوضين تعرض على الملك ويتمّ التعريف بهم.

الرجوع من مكّة، فقال له عبد المطّلب: إنّ أصحابك غدوا على سرح لي فذهبوا به فمرهم بردّه عليّ، قال الراوي: فتغيّظ الحبشيّ من ذلك، وقال لعبد المطّلب: لقد سقطت من عيني، جئتني تسألني في سرْحك وأنا قد جئت لهدم شرفك، وشرف قومك، ومكرمتكم التي تتميّزون بها من كلّ جيل، وهو البيت الذي يُحجّ إليه من كلّ صقع في الأرض، فتركت مسألتي في ذلك وسألتني في سرحك! فقال له عبد المطّلب: لستُ بربّ البيت الذي قصدت لهدمه، وأنا ربّ سرحي الذي أخذه أصحابك، فجئت أسألك فيما أنا ربّه، وللبيت ربّ هو أمنع له من الخلق كلّهم، وأولى به منهم، فقال الملك: ردّوا عليه سرحه، وازحفوا إلى البيت فانقضوه حجراً حجراً، فأخذ عبد المطلب سرحه وانصرف إلى مكّة وأتبعه الملك بالفيل الأعظم مع الجيش لهدم البيت، فكانوا إذا حملوه على دخول الحرم أناخ، وإذا تركوه رجع مهرولاً... .

فقال عبد المطّلب لغلمانه: ادعوا إليّ ابني، فجيء بعبد الله أب النبيّ ﷺ فلمّا أقبل إليه قال: إذهب يا بنيّ حتّى تصعد أباقبيس، ثمّ اضرب ببصرك ناحية البحر، فانظر أيّ شيء يجيء من هناك وخبّرني به، فصعد عبد الله أباقبيس فما لبث أن جاءت طير أبابيل مثل السيل والليل، فجاء عبد الله إلى أبيه فأخبره الخبر، فقال: انظر يا بنيّ ما يكون من أمرها بعد فأخبرني به، فنظرها فإذا هي قد أخذت نحو عسكر الحبشة فأخبر عبد المطلب بذلك، فخرج عبد المطّلب وهو يقول: يا أهل مكّة اخرجوا إلى العسكر فخذوا غنائمكم...[1].

فانتظار عبد المطّلب لطيور السماء هو وعد ربّاني علم به عبد المطلب عن طريق من طرق السماء كان مفتوحاً له كحجة من حجج الله في الأرض، إضافة إلى بصيرته وعلمه بالأمور، لما كان يمتلك من عقل راجح وإدراك ووعي.

---

(١) الأمالي للشيخ المفيد:١٨٤، بحار الأنوار١٥: ١٣٠.

وكانت الأخبار والمواقف التي تنسب إلى عبد المطلب تضاهي ما كان يجري على سيرة الأنبياء عليهم السلام كقصّه النذر الذي نذره عبد المطلب لمّا تعلّق بحلقة باب الكعبة فإنّه دعا الله عزوجلّ أن يرزقه عشر بنين، ونذر لله عزّوجلّ أن يذبح واحداً منهم متى أجاب الله دعوته، فلمّا بلغوا عشرة قال: قد وفى الله تعالى لي فلأفينّ لله عزوجلّ فأدخل ولده الكعبة وأسهم بينهم، فخرج سهم عبد الله أبي رسول الله ﷺ، وكان أحبّ ولده إليه ثمّ أجالها ثانية فخرج سهم عبد الله ثمّ أجالها ثالثة، فخرج سهم عبد الله فأخذه وحبسه وعزم على ذبحه فاجتمعت قريش ومنعته من ذلك، واجتمع نساء عبد المطلب يبكين ويصحن، فقالت له ابنته عاتكة: يا أبتاه أعذر فيما بينك وبين الله عزّوجل في قتل ابنك، قال : وكيف أعذر يا بنيّة فإنك مباركة؟ قالت: اعمد على تلك السوائم التي لك في الحرم فاضرب بالقداح على ابنك وعلى الإبل واعط ربّك حتّى يرضى، فبعث عبد المطلب إلى إبله فأحضرها وعزل منها عشراً، وضرب بالسهام فخرج سهم عبد الله، فما زال يزيد عشراً عشراً حتّى بلغت مائة، فضرب فخرج السهم على الإبل، فكبّرت قريش تكبيرة ارتجّت لها جبال تهامة، فقال عبد المطلب: لا حتّى أضرب بالقداح ثلاث مرات، فضرب ثلاثاً كلّ ذلك يخرج السهم على الإبل، فلمّا كان في الثالثة اجتذبه الزبير وأبو طالب وأخواتهما من تحت رجليه، فحملوه وقد انسلخت جلدة خدّه الذي كان على الأرض وأقبلوا يرفعونه ويقبّلونه ويمسحون عنه التراب، وأمر عبد المطّلب أن تنحر الإبل بالحَزْورة[1]، ولايمنع أحد منها... .

قال الرضا عليه السلام: ولو لا أنّ عبد المطّلب كان حجّة، وأنّ عزمه على ذبح

---

(١) الحَزْورة: المكان الغليظ والتلّ الصغير، وهو هنا موضع بمكّة. اللسان(حزر).

ابـنه عـبد الله شبيه بعزم إبراهيم عليه السلام،على ذبح ابنه إسماعيل عليه السلام، لما افتخر النبيّ صلى الله عليه وآله بالانتساب إليهما لأجل أنّهما الذبيحان في قوله صلى الله عليه وآله: أنا ابن الذبيحين[١].

ولعـبد المطلـب إشـارة في القـرآن الكـريم كما روي عن ابن عبّاس في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾[٢] بأنّه لّما ضلّ النبيّ صلى الله عليه وآله وهو صغير في شعاب مكّة رآه أبو جهل فردّه إلى جدّه عبد المطلب فمنّ الله عليه بذلك[٣].

وكانـت التشـريعات الـتي وضـعها عـبد المطلـب جدّ النبيّ صلى الله عليه وآله تعكس الوعـي المدني المتقدّم الذي اتصف به هذا الشخص العارف بالأوضاع الخاصّة للمجـتمعات، فحـين شـرّع تحـريم نسـاء الآبـاء على الأبناء وضع أساساً متيناً للمجـتمع العـربي آنـذاك الـذي كان يستهين بدور الأب الريادي ولا يضع له حـرمة حـين تعـرض زوجـته كمـتاع رخيص للابن، وكان للمشروع الإروائي الكـبير آنـذاك، وهـو حفـر بـئر زمزم، من أثر في عمارة وتقدّم مكّة وازدهارها الاقتصـادي والسياحي،ووضـع قـانون الديات الجزائي، وتشريع شعيرة الطواف في الحج، وكلّها تشريعات حضارية سبقت زمنها.

وقـد أخـبر الـنبيّ صلى الله عليه وآله عـليّاً عليه السلام بهـذه التشـريعات التي أقرّها الإسلام ضمن قوانينه العامة التي تلائم كلّ المجتمعات البشرية.

حيث قال له: يا علي، إنّ عبد المطّلب سنّ في الجاهلية خمس سنن أجراها

---

(١) عيون أخبار الرضا١:٢١١ ط رضا مشهدي، البحار١٥: ١٢٨.

(٢) الضحى:٧.

(٣) تفسير القرطبي٢٠: ٩٧.

الله عـزّوجل له في الإسلام : حرّم نساء الآباء على الأبناء فأنزل الله عزّوجل: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾[١].

ووجـد كـنزاً فأخرج منه الخمس وتصدّق به فأنزل الله عزّوجل: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾[٢].

ولمّا حفر زمزم سمّاها سقاية الحاج، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[٣].

وسنّ في القتل مائة من الإبل، فأجرى الله عزّوجلّ ذلك في الإسلام.

ولم يكـن للطـواف عدد عند قريش فسنّ لهم عبد المطلب سبعة أشواط، فأجرى الله عزّوجلّ ذلك في الإسلام[٤].

---

(١) النساء:٢٢.

(٢) الأنفال:٤١.

(٣) التوبة:١٩.

(٤) الخصال للصدوق: ٣١٢ح٩، مكارم الأخلاق:٤٤٠.

اليمن والحضارة

يكاد يتفق الباحثون بأنّ مدنية وحضارة الأمّة تعبّر بالضرورة عن منجزات أبنائها في الأعمال الفنية والعمرانية والعلمية، وتدخل نشاطات الإنسان وعطاءاته الإبداعية فيها، والأفكار والآداب والفنون والكتب هي الجانب النظري فيها، وتأخذ العمارة والبناء والهندسة وغيرها جانب الحضارة التطبيقي، فالرسّام يضع بفنه معالم مدينة جميلة غير موجودة في الواقع، ويأتي دور المهندس المعمار الذي يستوحي من هذه الفنون، فيقوم بتشييد مدينة حديثة، فهنا تنشأ لوحة حضارية جانبها النظري الفنّان، وجانبها التطبيقي المهندس الذي صمّم هذه المدينة ووضع لها خريطة في الواقع، فتدخل في تاريخ الحضارة أو المدنية لدى البعض، فعلى هذا الأساس لم تحرم الشعوب والأمم من ملامح الحضارة والمدنية، ولكن تتفاوت درجتها وأهميتها طبقاً للمعايير العلمية الموضوعة في دراسة الحضارات، ومن هذا الاعتبار كان الالتفات إلى تاريخ الأمة العربية للوقوف على آثار هذه الحضارة التي تميّزت بها شأنهم شأن الأمم الأخرى، ويتبادر إلى أذهاننا عند ذلك حضارة تدمر وسبأ ومكّة وغيرها.

وعليه يتّصل مفهوم الحضارة بدرجة معيّنة بالتطور الاجتماعي، وقد يرتدي طابعاً قيمياً يجري على أساسه التفريق بين شعوب متحضّرة وأخرى غير متحضّرة، وعليه يمكن ربط الحياة المتحضرة بظاهرة التمدّن وتطوّر المدن، فيجري تحليل الانتقال من الحياة الفلاّحية إلى الحضارة المدنية، للتدليل على كيفيات اندماج الأولى في الثانية[1].

---

(١) ينظر مفاتيح العلوم الإنسانية:١٧٠ رقم ٥٧٣.

فالقول بأنّ المجتمعات الصناعية هي مجتمعات متحضرة، بناء على تطوّر حياة الإنسان بالنسبة للزمن الراهن، تبدو نظرية ناقصة وفاقدة لحسّها التاريخي، لأنّ الزراعة في فترات زمنية متفرقة كانت معلماً مدنياً، وعليه فلا يمكن لنا سلب الصفة الحضارية للمجتمعات الزراعية، التي كانت في فترة زمنية متحضرة قياساً إلى حياة البداوة والارتحال التي كانت تعيشها مجموعة من الناس، ولكن المظاهر الحضارية المعاصرة التي تطبع المدن الصناعية بطابعها تجعل المجتمعات الزراعية تأخذ درجة أدنى في سلّم الحضارة.

وحكت لنا قصّة الحضارة البشرية عن حضارة زراعية عظيمة عرفت في الشرق هي حضارة اليمن، حيث تمكّن العقل اليمني من إنجاز أروع مشروع في الهندسة الزراعية للاستفادة من الطبيعة والتحكّم فيها لدرجة أنّ القرآن الكريم أشار إلى هذه الحضارة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾[1].

وقد اعتبر المؤرخون أنّ عرب اليمن أوّل من أنشأ الخزانات وهي السدود، وقد تعددت كثيراً في بلادهم حتّى أنّ الهمداني ذكر في يحصب العليا من مخاليف اليمن، ثمانين سدّاً، وأشهرها سدّ مأرب الشهير الذي جاء ذكره في القرآن الكريم[2].

---

(١) سبأ: ١٥-١٦.

(٢) الدكتور حسن سليمان، تاريخ اليمن السياسي في العصر الإسلامي، ط المجمع العلمي العراقي ١٩٦٩: ٣٩.

ممّا أدّى إلى تطوّر اقتصاد اليمن، وقد أدّى النشاط الاقتصادي دوره في التطور الاجتماعي والحضاري في عصور قديمة سابقة، وتمثّل في نشوء مستوطنات ومراكز حضارية متطورة تسمّيها المصادر مدناً مثل الجند وجبأ وجيشان ومنكث وذمار ورداع وحصى وصنعاء وعدن، وتذكر المصادر أيضاً أنّ سكّانها خليط، ولابدّ أنّ هذا الخليط ناتج عن تطوّر النشاط الاقتصادي والاستخدام الواسع للأيدي العاملة[١].

فكانت حواضر اليمن لذلك مستقرّة وقابلة للتطوّر الصناعي والتجاري، وقد سجّل القرآن الكريم الأهمية الاقتصادية لليمن آنذاك باعتبارها مركزاً كبيراً من مراكز التجارة العالمية كما يفهم من قوله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾[٢] حيث كان القرشيون يرحلون رحلتين رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام، وكانت التجارة العالمية آنذاك بيد اليمنيين «وكانوا هم العنصر الظاهر فيها، فعلى يدهم كانت تنتقل غلاّت حضرموت وظفار والحبشة وواردات الهند إلى الشام ومصر، ثمّ انحطّ اليمنيون وحلّ محلّهم في القبض على ناحية التجارة عرب الحجاز»[٣] وأبرز ذلك القرآن الكريم في سورة قريش مبيّناً نشاطهم التجاري المسمّى إيلاف، والإيلاف: هو حماية قوافل قريش وتجاراتها، وهو ضرب من المال يدفع طواعية كهدايا أو منح لرؤساء القبائل التي تمرّ بحرمها القوافل التجارية القرشية.

---

(١) نزار الحديثي، أهل اليمن في صدر الإسلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر:٤٦.

(٢) سورة قريش.

(٣) تاريخ اليمن السياسي في العصر الإسلامي:٤٧.

وقد استنّ هاشم جدّ النبيّ ﷺ رحلتي الشتاء والصيف، الأولى إلى اليمن والحبشة، والأخرى إلى الشام وفلسطين، وكانت العهود التي أبرمها هاشم وأخوته قد نقلت التجارة في مكّة من المحلّية إلى العالمية والدولية[١].

ويصف الباحث فكتور سحاب أثر هذا الإيلاف على مجتمع مكّة وحياتها الاقتصادية فيقول: كان تنظيم القوافل في مواقيتها المعلومة يحدث حُمّى في الجمهور المتجمّع في ساحات مكّة وجوارها، وكانت قافلة البضاعة تُدعى لطيمة، وقافلة الأطعمة تُدعى ركاباً.

وأمّا رحليها وعودتها فكانا حدثين يهتم لها الناس، لأنَّ قُطّان مكة كانوا جميعاً منخرطين على نحو أو آخر بتجارة القوافل بل إنّ القافلة كانت تظلّ على اتصال بحكة طول الطريق، بواسطة بريد بدوي لا ينقطع رواحه وغُدوّه، وكانت القوافل إلى الشام تُلزم أسوافاً رسمية معيّنة في بعض المدن إذ كانت الإدارة البيزنطية تجير كلّ التجارة الأجنبية على ارتياد الأمكنة المخصصة بالغرض، لتظلّ قيد الرقابة المنشودة، وكان غرض هذه الرقابة جباية الضرائب وحصر التجارة بأصحاب الامتياز فيها[٢] وبهذا نصل إلى حقيقة تاريخية مهمة أنَّ الإيلاف كان له بعد عالمي إقليمي أسهم في تنشيط الاقتصاد العالمي أيضاً إضافة إلى اقتصاد مكّة والمنطقة الإقليمية ويرى الباحث أحمد صالح العلي بأنَّ أثر الإيلاف بعد ظهور النبيّ ﷺ قد أخذ بعداً أوسع حيث يقول: وتحقق دولة الإسلام أهداف الإيلاف بتأمين السلم والاستقرار وتيسير سير القوافل

---

(١) ينظر خليل عبد الكريم، قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، سينا للنشر مصر،:٣١و٣٢و١٨٤.

(٢) إيلاف قريش: ٢٥١.

والتجارات، وتثبيت التناسق بينها، وقد توسعت هذه الأغراض لتشمل كافة القبائل المنضوية في دولة الإسلام، كما أنَّ التنسيق والتعاون امتدَّ إلى مختلف جوانب الحياة العامة، فأصبحت أغراضه سياسية عقائدية واسعة دون الاقتصار على الأغراض التجارية[١].

وكان أصحاب الإيلاف المشار له في القرآن الكريم أربعة إخوة:هاشم وعبد شمس والمطّلب ونوفل بنو عبد مناف.

فأمّا هاشم فإنّه كان يؤلّف ملك الشام، أي يأخذ منه حبلاً وعهداً يأمن به في تجارته إلى الشام.

وعبد شمس كان يؤلّف إلى الحبشة ، والمطّلب إلى اليمن، ونوفل إلى فارس، فكان هؤلاء يسمّون المجيرين[٢].

وهذه الحركة التجارية العالمية المتوجهة من وإلى اليمن والتي شكّل القرشيون طرفاً رئيسيّاً فيها لذا احتفظ أهل اليمن بعلاقات وثيقة مع أهل مكّة الذين أمنوا بالإيلاف سير القوافل من اليمن إلى بلاد الشام، وقد أسهم كثير من رجال مكّة البارزين في تنظيم التجارة وتنميتها مع اليمن، وكوّنوا علاقات طيّبة مع أهل اليمن، فتزوّج عدد من المكّيين بنساء من أهل اليمن[٣]، وكلّ هذه العلاقات أدّت إلى نمو الشخصية اليمانية وامتلائها بالأفكار والثقافات كمحصل طبيعي للتماس والاحتكاك الحضاري،ممّا أفرز تكويناً حضارياً مميّزاً عن الشعوب الأخرى.

---

(١) دولة الرسول في المدينة: ٤٤٢.

(٢) تفسير القرطبي٢٠: ٢٠٤.

(٣) دولة الرسول في المدينة: ٤٧٤.

والتكوين الاجتماعي والسياسي لليمن تشكّل من أمشاج وأطياف أممية مختلفة أفرزت مستويات متباينة في التفكير والوعي، وقد وصف المؤرخون الوضع العام لليمن بالقول: إنّ اليمن عند ظهور الإسلام لم تكن موحّدة سياسياً ولم تكن فيها سلطة عليا يتعامل معها الرسول ﷺ، وكتبه التي كتبها إلى عدّة أفراد وجماعات وذكرتها المصادر، وكثرة وتعدّد الوفود التي قدمت إلى المدينة تدلّ على عدم وجود هذه الوحدة.

غير أنَّ أهل اليمن سمعوا بالدين الإسلامي ووصلتهم أخبار الرسول ﷺ في الحجاز من اليمانيين المقيمين في مكة والمدينة والطائف، أو من التجّار الذين يترددون على اليمن أو من الذين يزورون المدينة من أهل اليمن[١].

وأهل اليمن حضر من أقدم أزمانهم، ولذلك لم يطلق عليهم اسم العرب قديماً، لأنّه كان يراد به البدو، على الإجمال، فهم أهل مدن وقصور ومحافد[٢] وهياكل وأثاث ورياش لبسوا الخزّ وافترشوا الحرير واقتنوا آنية الذهب والفضّة، واغترسوا الحدائق والبساتين، قال أغاثر سيدس: للسبأيين في منازلهم ما يفوق التصديق، من الآنية والأوعية على اختلاف أشكالها من الفضّة والذهب، وعندهم الأسرّة والموائد من الفضّة، والرياش من أفخر الأنسجة وأغلاها.

قصورهم قائمة على الأساطين المحلاّة بالذهب أو المزينة بالفضّة يعلّقون على أفاريز[٣] منازلهم وأبوابها صحائف الذهب مرصّعة بالجوهر، ويبذلون في

---

(١) نزار عبد اللطيف الحديثي، أهل اليمن في صدر الإسلام:٩٩.

(٢) الحفد: الوشي، ومحافد الثوب وشيه واحدها محفد ينظر اللسان «حفد».

(٣) الإفريز: ما أشرف خارجاً عن البناء، أو السقيفة تشرع فوق باب الدار، ويقال لها: الطنف اللسان.(طنف) و(فرز).

تـزيين قصـورهم أمـوالاً طائلـة ، لكـثرة مـا يدخلونه في زينتها من الذهب والفضّة والعاج والحجارة الكريمة وغيرها من المواد الثمينة[١].

وقـد سمّيـت بـلاد الـيمن قديمـاً بأسماء تدلّ على أنّها كانت في حقبة من تاريخها ذات حضارة يافعة ومزدهرة.

فقـد ذكـرتها الـتوراة باسـم العربـية الغنـية، وسمّاهـا الـرومان العربـية السعيدة، وسمّاها الفراعنة البلاد المقدّسة.

وذكـرها الإخـباريون باسم بلاد القصور، كما سمّاها اليونانيون Arabia Feley وهـي بـلاد اليمن التي تُسمّى الأرض الخضراء أو البلاد السعيدة التي قامت فيها حضارة سبأ ومعين[٢].

وكـان اليمانـيون أهـل تمـدّن ودولة لاتقلّ عن دول معاصريهم في آشور وفينيقـية ومصـر وفـارس، فابتـنوا المدن وشادوا القصور والهياكل وتبسّطوا في العـيش مثـلهم، ولكـن تمدّنهـم لم يكـن حربـياً كـتمدّن الآشـوريين والفرس والمصريين بل كان تجارياً كتمدّن الفينيقيين.

فكـانوا واسـطة التجارة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب في عهد ذلـك الـتمدّن، فـانقطعوا لأعمالهم وتفرغوا لاستثمار أرضهم، بغرس الحبوب، وحفـر المـناجم، واصـطناع العطـور والأطـياب، وركـوب القوافـل في القفـار، والسـفن في الـبحار لـنقل السلع، وتوالت أجيال منهم كانوا هم وحدهم تجار

---

(١) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام:٢١٥.

(٢) الدكـتور حسـن سـليمان محمـود، تـاريخ اليمن السياسي في العصر الإسلامي، المجمع العلمي العراقي بغداد:١٠١.

العالم، كما كان إخوانهم الفينيقيون في أجيال أخرى، وقد تعاصروا حيناً وتعاونوا على ذلك دهراً طويلاً[١].

وهذا الاستعداد الحضاري أهّلهم لاستقبال رجل المدنية والحضارة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الذي أرسله النبيّ ﷺ نائباً عنه ومبشراً بالإسلام.

وبشكل عام تكون صورة المجتمع اليماني في عصر الرسول ﷺ عبارة عن خليط وكيانات قبلية وسياسية وأفراد تتوزعهم وتتقاسمهم أهواء ومصالح متضاربة يصعب على جماعاتهم الاتفاق والتوادر ممّا أدّى إلى التشاحن ونشوب المنازعات وتفاقم كثير من المشكلات الاجتماعية والسياسية بينهم، وقد نقل عليّ عليه السلام صورة من هذا المجتمع المدني الذي تتداخل فيه تعقيدات الحضارة ومشكلاتها فقال: دعاني رسول الله ﷺ فوجّهني إلى اليمن لأصلح بينهم، فقلت: يا رسول الله، إنّهم قوم كثير ولهم سنّ، وأنا شابّ حدث، فقال: يا عليّ، إذا صرت بأعلى عقبة أُفيق فناد بأعلى صوتك: يا شجر يا مدر يا ثرى، محمد رسول الله يقرئكم السلام.

قال عليه السلام: فذهبت فلمّا صرت بأعلى العقبة أشرفت على أهل اليمن فإذا هم بأسرهم مقبلون نحوي مشرعون رماحهم، مسوّون على أسنتهم متنكّبون قسيّهم، شاهرون سلاحهم، فناديت بأعلى صوتي يا شجر، ويا مدر، يا ثرى، محمد رسول الله يقرئكم السلام.

قال عليه السلام : فلم تبق شجرة ولا مدرة ولا ثرى إلاّ ارتجّ بصوت واحد: وعلى رسول الله وعليك السلام، واضطربت قوائم القوم، وارتعدت ركبهم،

---

(١) ينظر جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام:١٨٣.

ووقع السلاح من أيديهم وأقبلوا إليّ مسرعين، فأصلحت بينهم وانصرفت[١].

وكانت هناك خيوط مواصلات بين أهل اليمن والنبيّ ﷺ منذ انبثاق الأنوار السماوية التي سطعت في الحجاز إلاّ«أنّ الاتصال الواسع بين الرسول ﷺ وأهل اليمن تمّ بعد تحرير مكة سنة ٨هـ، الذي خلق ظروفاً جديدة حيث دخل أهل مكة ومن كان فيها من أهل اليمن في الإسلام وأصبحت دولته تشمل كلّ الحجاز ولها حدود مشتركة مع اليمن، علماً بأنّ الرسول ﷺ لم يقم بعمل استفزازي ضدّ أهل اليمن كأن يتعرّض للتجارة معها، لذا لم يثر التوسّع في دولة الإسلام مخاوف أهل اليمن، بل الراجح أنّه أشعرهم بأهمية وضرورة الارتباط به لما في ذلك من منافع مادية غير قليلة، كما أنّه أصبح يمتلك سلطة واسعة بالإضافة إلى أنّ أفكار التوحيد كانت منتشرة في اليمن منذ مدّة قديمة لذلك لم تصطدم معتقداتهم بالدين الجديد»[٢]، ويتحدّث البلاذري عن الوعي المبكّر لأهل اليمن بالقول: لمّا بلغ أهل اليمن ظهور رسول الله ﷺ وعلوّ حقّه أتته وفودهم فكتب لهم كتاباً بإقرارهم على ما أسلموا عليه من أموالهم وأرضيهم وركازهم فأسلموا ووجه إليهم رسله وعماله لتعريفهم شرائع الإسلام وسننه وقبض صدقاتهم وجز رؤوس من أقام على النصرانية واليهودية والمجوسية منهم[٣].

وكان لقبائل اليمن من الاستعداد للقبول والاستجابة لدعوة النبيّ ﷺ

---

(١) أمالي الصدوق:١٨٥ منشورات الأعلمي بيروت.

(٢) أهل اليمن في صدر الإسلام لنزار الحديثي:١٠٠.

(٣) البلدان وفتوحها وأحكامها: ٨١.

التي جاءتهم على يد عليّ عليه السلام ما يستدعي التأمّل والوقوف، وتقول رواية البراء بن عازب: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام فكنت فيمن سار معه فأقام ستة أشهر لا يجيبونه على شيء، فبعث النبيّ ﷺ عليّ بن أبي طالب سنة عشر للهجرة الموافق ٦٣٢/٦٣١ م إلى اليمن وأمر بأن يقفل خالد ومن معه فإن أراد أحد ممن كان معه أن يبقى تركه.

قال البراء: فكنت ممن بقي، فلمّا قدم عليّ عليه السلام صلّى بنا الفجر وبعدها صفّنا صفّاً واحداً، ثمّ تقدّم بين أيدينا، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قرأ علينا كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان كلّها في يوم واحد،وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ، فلما قرأ كتابه خرّ ساجداً ثمّ جلس وقال: السلام على همدان، ثمّ تتابع أهل اليمن على الإسلام ببركة وجود عليّ عليه السلام بينهم.

وقد استبدّ حبّ قبيلة همدان في وجدان عليّ عليه السلام فدفعه لأن يقول فيهم شعراً:

ولو أنّ يوماً كنت بوّاب جنّة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام[1].

وذكر القلقسندي أنَّ علياً عليه السلام ذكر اسم الحسن عليه السلام على المنبر فنهض رجلٌ من همدان، قبيلة من اليمن، وقال: لتروّجنّه إنْ أمهر كثيفاً، وإنْ أولد شريفاً، فقال عليّ عليه السلام:

---

(١) ينظر تاريخ اليمن السياسي في العصر الإسلامي ص٥٤، الإصابة ١: ١٤٢.
بحارالأنوار ٢١: ٣٦٠وج ٣٨: ١٧.
وقد اختلفت رواية هذا البيت في شطره على هذا النحو:
فلو كنت بوّاباً على باب جنّة. ينظر البحار٤٤: ١٧٢.

ولو كنت بوّاباً على باب جنّة لقلت لهمدان ادخلي بسلام[١].

وقد استوثقت أواصر المودّة والمحبّة بين قبيلة همدان وعليّ عليه السلام لأزمنة لاحقة، انعكست في مواقف الكثير منهم وقد كان سيّد همدان وعظيمها سعيد بن قيس الهمداني ناصراً ومسانداً لعليّ عليه السلام في معاناته السياسية والعسكرية، وقد قال لعليّ عليه السلام حين شكا عليه السلام من تثاقل أصحابه في نصرته: والله لو أمرتنا بالمسير إلى قسطنطينيّة ورومية مشاة حفاة على غير عطاء ولاقوّة ما خالفتك أنا ولا رجلٌ من قومي[٢].

ولا يخفى بأنّ مناطق كثيرة من اليمن تمتّعت بإمكانات اقتصادية وزراعية وحيوانية وصناعية، استغلها السكّان، وبخاصة بعد تطوير نظام الري بالسدود الذي ساعد على زيادة الإنتاج الاقتصادي وتنوّعه وازدهار التجارة، فقد اقتضى الازدهار الاقتصادي أن يتّجه المجتمع نحو نوع من العمل المتخصص، وزيادة استخدام العبيد في المجتمع على نطاق واسع بسبب الحاجة إلى الأيدي العاملة في عدد من جوانب الحياة الزراعية والصناعية وفي الجيش.

إنَّ قيمة وأثر الازدهار الاقتصادي ليسا في زيادة الثروة فحسب، بل في ظهور أساليب وتنظيمات وطرق عمل جديدة، وكلّ هذه الظواهر، تنوّع النشاط الاقتصادي، العمل المتخصص، ظهور العبيد، الأساليب والتنظيمات، طرق العمل الجديدة، لابدّ أن تحدث تأثيراً في البناء الاجتماعي باتجاه تخفيف حدّة النظام القبلي المطلق، وتحوّل الإنسان إلى الاستقرار ونشوء المستوطنات البشرية وظهور علاقات اجتماعية جديدة، وتبلور صيغ اجتماعية للتجمّع البشري أكثر تماسكاً وانسجاماً مع ضرورة استمرار النظام السياسي[٣]فلا غرابة لدى هذه

---

(١) مآثر الإناقة في معالم الخلافة ١: ١٠٥ ط الكويت وزارة الإعلام. بحار الأنوار ٤٤: ١٧٢.

(٢) بحار الأنوار٣٤: ٢٠.

(٣) أهل اليمن في صدر الإسلام:٦٩.

الشرائح الاجتماعية أن تشهد نظاماً مدنياً وحضارياً يدعو له نبيّ مرسل، فائتلفت جماعاتهم مع روح النبيّ ﷺ ودعوته.

وكان النبيّ ﷺ يلحظ النفس الحضاري والروح المدنية لأهل اليمن فتراه ﷺ يقول: من أحبّ أهل اليمن فقد أحبّني، ومن أبغضهم فقد أبغضني[١].

وكان ﷺ إذا دخل عليه أناس من اليمن قال: مرحباً برهط شعيب وأحبار موسى[٢].

وقد بلغ حبّه ﷺ وتقديره لأهل اليمن أن قال:

إنّ الإيمان يمانٍ، والحكمة يمانية، ولولا الهجرة لكنت امرءاً من أهل اليمن[٣].

ولم تكن مقولاته ﷺ صادرة إلاّ عن علم ودراية يدرك فيها أهمية التمدّن الاجتماعي الذي كان طابع الإسلام وغايته.

وقد روي عنه ﷺ أنّه أشار بيده نحو اليمن فقال:

إنّ الإيمان ههنا، وإنّ القسوة وغلظ القلوب في الفدّادين[٤]، عند أصول أذناب الإبل حيث يطلع قرن الشيطان[٥].

وروى أبو سلمة أنّ النبيّ ﷺ قال: الإيمان يمان والحكمة يمانية، وهم قوم فيهم حياء وضعف ودعاء.

---

(١) بحار الأنوار٣٤: ٣٣٣و٦٠: ٢٢٤.

(٢) بحار الأنوار٦٠: ٢٢٢.

(٣) بحار الأنوار٦٠: ٢٣٢و٢٢: ٦٣٦.

(٤) قال ثعلب: الفدّادون أصحاب الوبر لغلظ أصواتهم وجفائهم. يعني بأصحاب الوبر أهل البادية.اللسان(فدد).

(٥) كنز العمال١٤: ١٦٨ح٣٨٢٦١.

وروى ابن جبير بن مطعم عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في مسير له فقال: يطلع عليكم أهل اليمن، كأنهّم السحاب هم خير من في الأرض فقال رجل من الأنصار: إلاّ نحن يا رسول الله ! فقال ﷺ كلمة ضعيفة: إلاّ أنتم.

وروى عمرو بن مرةّ عن خيثمة، قال: سُئل رسول الله ﷺ أيّ الناس خير، فقال ﷺ: أهل اليمن[١].

وروى ثوبان مولى رسول الله ﷺ أنّ النبيّ ﷺ قال: أنا عند عقر حوضي أذود عنه الناس لأهل اليمن، إنّي لأضربهم بعصاي حتّى يرفضّ عليهم[٢] أي يسيل[٣].

ومن هذا ما روى ابن عيينة بن حصين قال: عرض رسول الله ﷺ يوماً خيلاً وعنده أبي عيينة بن حصين بن حذيفة بن بدر فقال رسول الله ﷺ: أنا أبصر بالخيل منك.

فقال عيينة: وأنا أبصر بالرجل منك يا رسول الله، فقال النبيّ ﷺ: كيف؟ فقال: إنّ خير الرجل الذين يضعون أسيافهم على عواتقهم، ويعرضون رماحهم على مناكب خيولهم من أهل نجد، فقال النبيّ ﷺ: كذبت، إنّ خير الرجل أهل اليمن، والإيمان يمانٍ وأنا يمانيّ، وأكثر القبائل دخول الجنّة يوم القيامة مذحج، وحضرموت خيرمن بني الحارث بن معاوية حيّ من كنده، إنْ

---

(١) المصنّف لابن أبي شيبة ٧: ٥٥٢.

(٢) نفس المصدر ٧: ٤١٤.

(٣) يقال: ارفضّ الدمُع ارفضاضاً وتَرفضّ: سال وتفرَّق وتتابع سيلانه وقَطرانه لسان العرب(رفض).

يهلك لحيان فلا أبالي، فلعن الله الملوك الأربعة: جمداً، ومخْوساً، ومشرحاً وأبضعة، وأختهم العمرّدة.

ولحيان: أبو قبيلة، ومِخْوَس ـ كمنبر ـ ومشرح وجمد وأبضعة بنو معدي كرب الملوك الأربعة الذين لعنهم رسول الله ﷺ ولعن أختهم العمرّدة وفدوا مع الأشعث فأسلموا ثمّ ارتدّوا فقتلوا يوم النُجير[1].

وقد كان النبيّ ﷺ معنياً بتفصيلات الممارسات الحضارية حتّى أنّه كان ﷺ يفصّل ذلك أحياناً لأصحابه، فحين وصف ﷺ دخول القبائل في المجتمع الجديد من الحياة المدنية قال: أتتكم الأزد أرقّها قلوباً وأعذبها أفواهاً.

قيل له: يا رسول الله هذه أرقّها قلوباً عرفنا، فلم صارت أعذبها أفواهاً، قال لهم ﷺ: لأنّها كانت تستاك في الجاهلية[2].

فاهتمام النبيّ ﷺ وعنايته بهذه التفصيلات مؤشّر على هذا النفس الحضاري الذي يملكه النبيّ ﷺ، فقد كان ﷺ نفسه مترجماً للحضارة التي كانت هناك وهو ﷺ بحق نموذج للإنسان المتحضر الذي يطرح مرحلة عبور وتجاوز للمرحلة الهمجية للمجتمع البشري.

---

(١) بحار الأنوار٦٠: ٢٣٢والنُجير: اسم حصن باليمن.

(٢) علل الشرائع٢٤٩ باب ٢٢٧.

الحضارة والقرآن الكريم

يقول الباحثون بأنّ مصطلح الحضارة كان جديداً على الفكر الغربي، والذي يظهر بأنّ مصطلح الحضارة كان جديداً على الفكر العربي المدرسي أيضاً.

وترجع اهتماماتهم به على الأرجح إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، واهتمامهم به يرجع إلى متطلبات الدرس والبحث النظري المدرسي المنظم.

في حين أنّ هذا المصطلح كان أحد المفردات التي شغلت بال العرب والمسلمين، سواء في تحديد مفهومه أو بحث موضوعاته، باعتقاد بعضهم ويقول الدكتور نزار الحديثي: ومن البداية سجّل مفكّرونا الأساس النظري الموضوعي والفني لدراسة الحضارة عند ما ربطوا بين الاستقرار والتحضر، واعتبروا الأول أساسياً في نشأة الحضارة دون أن يهملوا ظروفه الطبيعية أو تلك التي تختصّ بطبيعة الإنسان[1].

ويقال: بأنّ كلمة حضارة دخلت مصطلح العلوم متأخرّة في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وأنّ مدلولها الكامل لم يتّضح على الوجه الأمثل، ولم يستقر مشتمله الأوفى إلاّ بعد ذلك بكثير[2]، والمقصود هو المعنى العلمي الاصطلاحي الخاص.

---

(١) حضارة العراق ج١: ١٩المقدمة ط دار الحرية بغداد ١٩٨٥.

(٢) تاريخ الحضارات العام بإشراف موريس كروزيه، منشورات عويدات باريس – بيروت ج١: ١٧.

وقد كان القرآن الكريم سبّاقاً في تداول مفهوم الحضارة في قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾[١]، فالقرية هنا جاءت بمعنى المدينة المستقرّة التي كانت تعيش حياة الاستقرار والرفاه الاقتصادي، لما توفره المياه من تحقيق تقدّم وازدهار تجاري واقتصادي آنذاك وحتّى لأزمتنا الحاضرة[٢].

وكان النبيّ ﷺ واعياً لمفهوم الحضارة وقوانينها حين قال: لايبع حاضر لبادٍ ولايشتر له[٣]، فهذا الاستخدام المبكر لاصطلاح الحضارة مسجّل باسم الكتاب والسنّة النبوية وغير مسبوق عند البحث والتدقيق.

وقد نوّه القرآن الكريم في مواطن من السور إلى صور ومشاهد من الحضارات التي شهدها الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[٤]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾[٥] تنويه لنعمة الحضارة والإعمار، فالدرجات لاتتحقق إلاّ بجهد يقدمه الإنسان، وتدخل عمارة الإنسان وحضارته ضمن هذه الدرجات، وقد فسّرت بملك الأرض والتصرف بها[٦].

وقد هيأ الله سبحانه وتعالى عوامل ومسببات الانتفاع من هذه الأرض

---

(١) الأعراف:١٦٣.

(٢) وقد فسّر العلماء هذه العبارة بالإحاطة والقرب من البحر والمياه، وهذا لا ينافي الطابع الحضاري للمدن والمرافئ البحرية التي عرفت في تاريخ الانسان.

(٣) كنز العمال٤: ٦٧ح٩٥٤٩.

(٤) سبأ:١٣.

(٥) الأنعام:١٦٥.

(٦) ينظر تفسير الكشاف للزمخشري٢: ٨٤.

الطيّبة التي ذللها للإنسان ليعمرها وينتفع بها فقال: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [١] وفي آية أخرى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [٢].

وليس للإنسان إلا السعي والاستثمار والإعمار والبناء ليظهر كنوز الأرض وخيراتها وليؤسس مدنيته وحضارته، فالحضارة والمدنية هنا تكون نعمة كبيرة من الخالق لعباده كما يفهم من الآية الكريمة ومن آيات ذكرناها.

وقد استخدم القرآن الكريم مصطلحاً يرادف مفهوم الحضارة والمدنية أو بعبارة أخرى من لوازم الحضارة ومن شروطها، ومن ضرورات المدنية وأوّلياتها، وهذا المصطلح هو الإعمار والاستعمار، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [٣].

وكما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [٤].

فالعمارة التي اقترنت بمدنية الإنسان وحضارته، والتي شيّدها الإنسان على مسار التاريخ الطويل، كأنّها المرادة بالخلافة التي أشارلها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [٥].

---

(١) الرحمن:١٠.

(٢) الملك:١٥.

(٣) هود:٦١.

(٤) الروم:٩.

(٥) البقرة:٣٠.

وقد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ الخلافة هي إقامة الحقّ وعمارة الأرض، وبعضهم يذهب إلى هذا المعنى فقال: هو إخراج الثمار وإنبات الزرع وشقّ الأنهار[١].

فتأسيس الحضارة وصنع المدنية تكون مبتغاة من الإنسان بالضرورة، لأنّه لايمكن معرفة الله والوقوف على أسرار هذا الكون العجيب، ومابه من طاقات سخرها الله لمخلوقاته، إلاّ بعمارة الأرض وتحريك طاقات الإنسان للتعلّم واكتساب العلم والثقافة، فالترابط بين العلم والمعرفة والعبادة والمدنية لابدّ منها، فصناعة المهندس المعمار يتمّ أولاً في معهد العلم والثقافة، وهذا المعهد لايتحصّل إلاّ بدفع سماوي يحثّ على طلب العلم ومدارسته، فحين يتّصل العباد بخالقهم يجدون كتبه ورسله تدفعهم للتعلّم والدرس، ومن أروقة المعابد والمدارس انطلقت دعوى البناء والإعمار ومن ثمّ تأسست الحضارات وقامت، وأوّل حضارة ومدنية قامت على وجه الأرض هي حركة آدم عليه السلام.

وقد بدأت قصّة الحضارة والمدنية حين أهبط آدم عليه السلام للأرض ومعه عشرون ومائة قضيب وغرارة فيها بذركلّ شيء[٢].

لتفهمه السماء بأنّ الخطوة الأولى لمسيرته الحضارية تبدأ من شقّ الأرض وإعمارها وزرعها، فحين تنبت الأرض بالأشجار تتحرك خيوط الصناعة والنسيج الحضاري، فيبدأ العمل من ثمار الأشجار وأخشابها، ثمّ تبنى البيوت وتتأسس المدن والقرى والجسور، فتهيأة وسائل الحياة والعيش والحركة تنطلق من هذه الأعشاب والعيدان الخضراء التي غرسها آدم عليه السلام ليعلن ميلاد الحضارة والمدنية البشرية.

---

(١) تفسير التبيان للشيخ الطوسي١: ١٣٣ ط النجف.

(٢) الخبر في علل الشرائع للصدوق:١٠٤.

وهنا تتراءى للإنسان النعم الإلهية التي استطاع الإنسان أن يتمتع بها، من آثار وثمار الحضارة والمدنية التي يتباهي بها الإنسان، وقد أشار القرآن الكريم إلى لقطات حضارية ضمن تقرير هذه النعم التي منّ الله بها على عباده، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[1].

وقال تعالى حاكياً عن داود عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾[2].

وكانت وصايا الأنبياء تحثّ على العمل وتبشّر الإنسان بالغد المشرق، فلا يعني التذكير بالآخرة والزهد بالدنيا ترك عمارتها وتحويلها إلى بلاقع وأرض مهجورة، فالباحث يلمس الندب إلى عمارة الأرض وبنائها، فلا تعجب من نبيّنا محمد ﷺ الذي يقول: إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لايقوم حتّى يغرسها فليفعل[3].

فهذا النفس العمراني الذي يتحدّث به النبيّ ﷺ ليس بخافٍ على أحد، ومن المفيد الإشارة إلى أنّ زراعة النخل ليست ذات عائد سريع وثمرة ملموسة بالأيام القليلة فقد يتطلب إنباتها سنوات طويلة كي تنبت النخلة وتعطي ثمراً قابلاً للاستهلاك، كما أنّ النخلة بالنسبة للاقتصاد الزراعي لها قيمة حضارية آنذاك، فزراعة النخيل تعني الاستقرار والاستيطان، فالنبيّ ﷺ كان قاصداً لاختيار الفسيلة بدلاً من ثمرة سريعة النمو يدخلها في ألفاظ الحديث.

---

(١) الأعراف:٧٤.

(٢) الأنبياء:٨٠.

(٣) مسند أحمد بن جنبل٣: ١٩١.

الزراعة والحضارة

عرف الإنسان الزراعة والنشاط الزراعي منذ أمد بعيد، وتعود هذه المعرفة إلى آدم عليه السلام أوّل فلّاح وأوّل نبيّ وأوّل إنسان أودعه الله أمانة هذه الأرض التي ما زالت عامرة بالحركة والنشاط إلى ما شاء الله، فالزراعة هي كشف نبويّ ونعمة سماوية، ولهذا قال الصادق عليه السلام: ما في الأعمال شيء أحبّ إلى الله تعالى من الزراعة، وما بعث الله نبيّاً إلّا زرّاعاً إلّا إدريس عليه السلام، فإنّه كان خيّاطاً[1].

وقد كانت الأرض مفروشة بسيقان خضراء وموشاة بثمار متنوّعة ذللها الله لآدم عليه السلام ولذرّيته تفضّلاً على عباده فقال تعالى مبيّناً ذلك: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[2].

وقد بسط الله تعالى أرضه بنعمة خضراء وضعها الله طوع إرادة أبناء آدم عليه السلام حيث شاءوا، وهذا ما أكّده النبيّ صلى الله عليه وآله لأبي ذرّ بقوله: يا أباذر، إنَّ الله جلّ ثناؤه لمّا خلق الأرض وما فيها من الشجر لم يكن في الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلّا أصابوا منها منفعة، فلم تزل الأرض والشجر كذلك حتّى تكلّم فجرة بني آدم بالكلمة العظيمة «اتّخذ الله ولدا» فلما قالوها اقشعرّت الأرض وذهبت منفعة الأشجار[3].

---

(١) الغايات: ٢١٥، بحار الأنوار١٠٣: ٦٩و٥٦.

(٢) الأنعام: ١٤١.

(٣) مكارم الأخلاق: ٤٦٦.

وهذا يعنى أنَّ النعمة الخضراء ذليلة وطائعة للإنسان مادام هو في طاعة ربّه وشكره، وقال الصادق عليه السلام: إنَّ الله عزَّوجلَّ لمّا أهبط آدم عليه السلام أمره بالحرث والزرع وطرح إليه غرساً من غروس الجنّة فأعطاه النخل والعنب والزيتون والرمان فغرسها ليكون لعقبه وذرّيته[1] وكأن هذه الأثمار كانت مكملة لما سبقها من النعم التي بسطها الله في الأرض احتفاءً بقدوم آدم عليه السلام عليها، وقد تضايق جمع من الأشقياء من تظاهر الخضرة والنعم، وتتابع الأنهار وجريانها بينهم وبين عشائرهم وأقوامهم، فسألوا الله جهلاً وطغياناً بأن يقطع جريان أنهارهم ويمحق بركات السماء عليهم، كما نفهم من رواية الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[2] فقال: هؤلاء قوم كانت لهم قرى متّصلة ينظر بعضهم إلى بعض، وأنهار جارية، وأموال ظاهرة، فكفروا نِعمَ الله عزَّوجلّ، وغيّروا ما بأنفسهم من عافية الله، فغيّر الله ما بهم من نعمة و﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[3] فأرسل الله عليهم سيل العرم ففرّق قراهم، وخرّب ديارهم، وذهب بأموالهم وأبدلهم مكان جنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾[4].

وقد ملأ الله عيون آدم عليه السلام حين خلقه بهذه النعم التي أنبتها من أجله كرامة له في جنّة من جناته التي ملأ بها الأرض والسماء، والثمار والحبوب

---

(١) فروع الكافي٦: ٣٩٣ ح ٢.

(٢) سبأ: ١٩.

(٣) الرعد: ١١.

(٤) الكافي٢: ٢٧٤ ح ٢٣ والآية ١٧ من سورة سبأ.

والفواكه والأشجار التي كانت بين يديّ آدم عليه السلام حين بثَّ تعالى فيه الروح، فمعرفته بهذه النعمة كانت أزلية بدأت مع بداية خلقته، إلّا أنَّ أبناء آدم العاصين تاهوا في صحاري الأرض عازفين عن استثمارها وإبراز كنوز الثمرات الطيّبة التي امتنَّ الله بها على عباده فتهافتوا في صخور الأرض ورمالها العَطْشى نائين عن عطاء الله الثرّ الذي ينزله في شراب طهور طيّب تضحك له ربوع الأرض وتهتز طرباً، فتتلوّن البطاح والسهول بنعم يعجز العبد عن شكر المنعم بها، قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1] وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾[3] فالمياه والأشجار والثمار وضعها الله في خدمة الإنسان وطوع إرادته لتعين الإنسان في حركته الدائبة لإعمار الأرض وبنائها، فنشأت لذلك مدن وحضارات، ولولا هذه النعمة العظيمة ما قامت حضارة ولا نشأت مدنية، فحين تنبت الأرض بالخضرة وتُظلل مساحاتها الخضراء بالأغصان الوارفة يتداعى إلى ذهن الإنسان العمل على استدامة هذه الخضرة ورفدها بالماء، ولذا أشار عليّ عليه السلام إلى ذلك بقوله: كلّ نبات لا غنى به عن الماء[4] فبه يتمّ الحفاظ على غضارة العيش ونعومته، فتراود ذهنه فكرة بناء السدود وشقّ الترع

---

(١) البقرة: ٢٢.

(٢) ق: ٩و١٠.

(٣) النبأ: ١٤-١٦.

(٤) نهج البلاغة: ٢١٦ ضمن خطبة ١٥٤.

والتحكم بالمياه وخدمة البساتين والحقول ورعايتها وما يترتّب على ذلك من نشاط يزاوله الإنسان دخل في تاريخ الحضارة والمدينة وأسس دعائمها بالضرورة من هذه الحشائش والأعواد الخضراء الطرية.

ويتفق الباحثون على أهمية العمل الزراعي في الاقتصاد الإقليمي والعالمي حيث تمثل الزراعة العمود الفقري للهيكل الاقتصادي لأيّة دولة من دول العالم، وهي تمثل أيضاً قاعدة رفاهية أيّة دولة والمقياس الأساسي لمستوى معيشة أيّ فرد أو أيّة أُسرة في أيّة دولة، ولهذا ستظل للأراضي أهميتها المطلقة والمؤثرة في الحياة البشرية، بل وفي الحضارة الإنسانية ذاتها.

والأرض بخصائصها بيئة طبيعية يعيش فيها الإنسان، فالأرض بمواردها الغنية سلع اقتصادية تتحول بواسطة عنصر العمل الإنساني إلى إ عطاء الأرض أهمية خاصّة في تقرير التقدّم الاقتصادي والحضاري للإنسان[1].

ومن هذا الاعتبار نفهم تأكيد النصوص الدينية على أهمية الزراعة والمزارع في دفع عجلة المدنية والحضارة البشرية، بل ارتقى المزارع إلى درجة الإيمان والصلاح في بعض النصوص كما فسّر الصادق عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[2] بقوله عليه السلام: المؤمنون هم الزارعون[3] لأنَّ المزارع هو الذي يصنع الغذاء ويديم الحياة وبالتالي يكون ذكر وعبادة وعلم وبناء.

ويُعتبر الغذاء أهم السلع الاستهلاكية قاطبة، والسبب واضح وأساسي، وهو أنَّ المجتمعات من دونه تفقد حيويتها وتهلك جوعاً، ولهذا اعتاد الناس عن

---

(١) مصطفى عباس الموسوي، العوامل التاريخية لنشأة وتطوّر المدن العربية الإسلامية: ٣٠٠.

(٢) إبراهيم: ١١.

(٣) بحار الأنوار١٠٣: ٦٦ ح ١٦.

حقّ وصف الخطوات الأولى لتسريع عمليات إنتاج الغذاء بأنّها الثورة الزراعية[١].

وقد كانت السيرة النبوية وسيرة المعصومين عليهم السلام تحثّ على الزراعة واستثمار الأراضي التي بسطها الله وذلّلها لكي ينتفع بها أبناء آدم وحتّى البهائم، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وآله: خير المال سكّة مأبورة، ومهرة مأمورة[٢] وقوله صلى الله عليه وآله في وصف خيار المال: زرع زرعه صاحبه وأصلحه[٣] وقوله صلى الله عليه وآله: من بنى بنياناً بغير ظلم ولا اعتداء أو غرس غرساً بغير ظلم ولا اعتداء كان له أجراً جازياً ما انتفع به أحدٌ من خلق الرحمن[٤]، وكان الباقر عليه السلام يقول: خير الأعمال زرع يزرعه فيأكل منه البرّ والفاجر، أمّا البرّ فما أكل منه وشرب يستغفر له، وأمّا الفاجر فما أكل منه من شيء يلعنه، ويأكل منه السباع والطير[٥].

وكان عليّ بن الحسين السجاد عليه السلام يقول: ما أزرع الزرع لطلب الفضل فيه، وما أزرع الزرع إلّا ليتناوله الفقير وذو الحاجة، ولتتناول منه القُبّرة خاصّة من الطير[٦]، ولمّا كان طابع الإسلام الأوّل اقترن بزراعة الأراضي واستغلالها أحسن استغلال فقد طبعت الزراعة المدن الإسلامية بطابعها وفي هذا يقول الباحث شاكر مصطفى: ولمّا كانت حضارة الإسلام زراعية في الدرجة الأولى

---

(١) بوكانان، الآلة قوة وسلطة، بترجمة شوقي جلال: ٩١.

(٢) معاني الأخبار للصدوق: ٢٩٢، البحار ٦٤: ١٦٢. والسكّة: الطريق المصطفّ والسطر المصطفّ من الشجر والنخيل والمأبورة: الملقحة.والمهرة المأمورة: الكثيرة النتاج والنسل.اللسان «سكك» و«أمر» و«أبر».

(٣) الخصال للصدوق: ٢٤٦ ح ١٠٥، البحار٦٤: ١٢١.

(٤) مستدرك الوسائل١٢:" ٤٦٠ باب استحباب الغرس وشراء العقار.

(٥) بحار الأنوار١٠٣: ٦٩.

(٦) أمالي الطوسي٢: ٢٩٩.

والأساسية حتّى في إنتاجها الصناعي أو نشاطها التجاري لذلك فالأمثلة أكثر من أن تُحصى للدلالة على مركز المدن وأهميتها الزراعية، وبالتالي أهمية أسواقها وحركتها التجارية، ولا يكاد جغرافي يؤلّف إلّا كانت تنهل على قلمه البساتين والخيرات وتتصدر أوصافه الأسواق والتجارات، فهنا براهين على شأن المدن وأهميتها الاقتصادية ثمّ ينتهي به القول إلى محصلة علمية يقول فيها: إنَّ هذه الأمثلة التي أسلفت رغم أنّها وصفية انطباعية إلّا أنّها كانت أدقّ ما استطاع الجغرافيون العرب تسجيله من أوصاف المدن ومن حركة العمران في العالم الإسلامي.

ويمكن أن نرى فيها، بعد أن درسنا خاصّة السعة المكانية والسكّانية، الخاصّة الثانية المكملة، وهي ما يتعلّق بدور الخيرات الزراعية وحركة التجارة في عمران المدينة وفي توطيد أهميتها، ثمّ يقول: والاهتمام في هذه الأمثلة يتركز على عدة أمور أساسية للمدينة الإسلامية ففيها:

١-الماء، من نهر أو بئر أو أحواض أو أقنية.

٢-المناخ وكونه معتدلاً أو حاراً أو شديد البرد.

٣-الغذاء وتوفّره وبخاصّة اللحم والأخباز.

٤-الإنتاج الزراعي وما يتوافر من الفواكه والشجر.

٥-طرقات المدينة، وصفها وطولها وضيقها أو سعتها.

٦-التجارات فيها وبضائعها ومسراها.

٧-الأسواق في سعتها وكثرتها وحركتها.

٨-الأسعار ورخصها أو غلاؤها[1].

---

(١) المدن في الإسلام١: ٩١-٩٧.

ومن المناسب للذكر في هذا المجال أنَّ المدينة-يثرب-لم تكن قبل الهجرة النبوية المباركة مركزاً اقتصادياً مهماً لاستهلاك السلع أو تصديرها، فمنتوجاتها الرئيسة، وهي التمور والشعير، كانت تسدّ حاجة السكان المعتمدين عليها، وقد تموّن بهما بعض الأعراب، مثل عبد القيس وأسد وغطفان.

ولم يذكر أنّها كانت تصدر هذه المنتوجات بمقادير كبيرة إلى الخارج، كذلك لم يذكر استيراد مكّة من المدينة مواد غذائية رغم شدّة حاجة المكّيين لها. ومن مظاهر ضعف النشاط الاقتصادي في المدينة عدم وجود سوق كبيرة فيها، فكانت البيوعات تجري في البيوت وفي بعض الساحات التي تكون أسواقاً صغيرة، ثمَّ إنَّ المدينة كانت في موقع جغرافي ناءٍ عن الطرق التجارية الرئيسة بين جزيرة العرب وموانئ البحر الأحمر، أو بين اليمن وبلاد الشام إذ إنَّ التجارة الأخيرة كانت تسلك طريق المعرقة[1] الساحلي أو تمرّ في المناطق الواقعة شرقي المدينة ولا تمرّ بها، ممّا جعلها معزولة نسبياً، وقد أدّت هذه العوامل إلى ضعف النشاط الاقتصادي وانخفاض مستوى المعيشة وقلّة النقود المتداولة، ومن مظاهر ذلك أنَّ معظم المسلمين في أوائل سني الهجرة لم يكن لأحدهم ملبس غير ثوب واحد، وكانت النساء يقمن بأنفسهن بجرش الحبوب والطبخ، كما كنَّ يستعرن ثياب العرس، ثمّ أصبحت المدينة بعد الهجرة مركزاً للحياة الاقتصادية، ويرى الطبري أنَّ تميم الداري كان يفد تاجراً على مكّة فلمّا هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة حوّل متجره إليها[2]، وهذا يعكس الأهمية الاقتصادية والسياسية لخطوات الرسول ﷺ والتي شكّلت منعطفاً كبيراً في تعاظم المدينة

---

(١) المعرقة: بالضم ثمّ السكون، وروي بتشديد الراء أيضاً، الطريق الذي يأخذ نحو العراق، وهي الطريق التي كانت قريش تسلكها إذا أرادت الشام، وفيه سلكت عبر قريش حين كانت وقعة بدر. معجم البلدان ٥: ١٥٤، اللسان «عرق».

(٢) أحمد صالح العلي، دولة الرسول في المدينة: ٣٠.

ومنحها بعداً حضارياً واقتصادياً وسياسياً كبيراً لا يمكن التغاضي عنه، فضلاً عما لحق المدينة من تنظيم وهندسة، ومن هذا الانعطاف يتحدث الدكتور شاكر مصطفى بالقول: ونقطة الارتكاز في المدينة الإسلامية تقوم في مركزها ونواتها، وهناك تتكون دوماً من ثالوث ديني سياسي معاشي لا يفتقد في أيّ مدينة هو: المسجد الجامع، ودار الإمارة، والأسواق.

ويمكن أن نضيف إلى ذلك الرحبة أو الميدان الواسع الذي لابدَّ منه للتجارة وتلاقي الناس وربط خيولهم ومواكبهم.

لكن الثالوث هو الأساس، وهو ما يميّز المدينة الإسلامية، لهذا وجب أن نبحث عنها في كلّ مدينة، فتخطيطها يضعه في الاعتبار الأوّل، وهذا التقليد إنّما جاء من مدينة الرسول ﷺ فظلَّ سُنّة مُتّبعة لارتباطه بالدين والسياسة والمعاش، وتوسطه مواضع هذه العناصر الثلاثة بالنسبة للمدينة،وهو تقليد إسلامي، أمر هام لسهولة اتصال السكّان بمكانهم الديني ومرجعهم السياسي ومواردهم المعاشي، وقد حرصت معظم المدن الإسلامية على ذلك لدرجة أننا نستطيع القول بأنَّ هذا التوسط كان من خصائص المدينة الإسلامية[1].

ومن هذا نستنبط بأنَّ هندسة المدن وتخطيطها العمراني والحضاري كان يستمد من فلسفة الإسلام وحركة النبيّ ﷺ السياسية والعبادية والاقتصادية، بل كلّ خطوة يخطوها النبيّ ﷺ شكّلت معلماً لمعالم المدينة الإسلامية وظلّ لأزمنة لاحقة يشكل هذا نموذج المدينة الإسلامية التي بنيت.

وكانت البصرة أوّل مدن الإسلام بناءً بعد مدينة الرسول، ولذلك أخذت الكثير من الملامح الإسلامية عن يثرب، أخذت توسط الجامع ووجود دار الإمارة بجانبه، كما أخذت فكرة إحاطة الأسواق بهما، وتوزع خطط المدينة ما

---

(١) المدن في الإسلام١: ٣٤٧.

بين مجموعات القبائل، ومع أنّها كانت قبلية السكّان، فإنّها رغم ذلك سرعان ما أخذت صفة المدينة بحركتها التجارية ومربدها الثقافي، ووجود قاعدة الإمداد الحربي للفتوح فيها.

وفي البصرة والكوفة معاً تكاملت صورة المدينة الإسلامية وبرزت ملامحها[١] وكأنَّ صورة المدينة الإسلامية غدت انعكاساً لمدينة الرسالة وحركة النبيّ ﷺ فيها.

وقد كانت حركة النبيّ ﷺ وسيرته المباركة عملية وواقعية تأخذ بنظر الاعتبار البعد الاجتماعي والعبادي مع مراعاة تأمين الحاجات الأساسية للناس في حركتهم وممارسة نشاطهم الحياتي اليومي، آخذاً ﷺ بنظره أنَّ «كلّ مدينة تعتبر بؤرة حضرية تجتمع حولها وترتبط بها الأنماط العمرانية الأخرى كما أنّها تسيطر على النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإدارية والثقافية للأقاليم التي تقع فيها»[٢] ومع كلّ هذا فإنَّ النبي ﷺ لا يرى للمدينة اعتباراً وقيمة إنْ لم تكن عادلة مع سكانها، فالمساواة بين السكان كانت واضحة في سيرة النبيّ ﷺ ويرى ﷺ أنَّ المدينة هي بيت كبير يتشارك فيه الناس في السرّاء والضرّاء، ولا يرى ﷺ أن يكون هناك تفاوت وتفاضل بين عباد الله، فهم أعضاء أسرة بشرية واحدة، فلا يرتضي ﷺ أن يشبع غنيّ المدينة فيمد يديه لرزق الله وعطائه متى شاء ويُحرم فقيرها، ومن هذا كان النبي ﷺ يأمر إذا بلغت الثمار وأدركت أن تسلم الحيطان[٣] لحاظاً منه ﷺ لإشباع الجائعين والمعوزين وسدّ رمقهم، فإنَّ هذه النعم التي أخرجها الله من الأرض اليابسة

---

(١) المدن في الإسلام١: ٣٤٧.

(٢) مصطفى عباس الموسوي، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية: ٢١.

(٣) الكافي٣: ٥٦٩.

كانت هبة لآدم عليه السلام وأولاده فلا ينبغي أن يحرم منها الإنسان، وتأكيداً لهذا **قال النبيّ ﷺ: من أطعم مؤمناً لقمة أطعمه الله من ثمار الجنّة، ومن سقاه شربةً من ماءٍ سقاه الله من الرحيق المختوم، ومن كساه ثوباً كساه الله من الإستبرق والحرير وصلّى عليه الملائكة ما بقي في ذلك الثوب سلك**[١].

وقال ﷺ: **من أطعم مؤمناً من جوع أطعمه الله من ثمار الجنّة**[٢] فإنَّ المدينة التي يجوع فيها الإنسان ويعرى فاقدة لإنسانيتها، وما قيمة هذه الحضارة والمدنية التي تسحق الإنسان وتُجيعه!

إصلاح الأراضي والتنمية الزراعية

والأرض الزراعية دون جدال هي القاعدة الأساسية التي يرتكز عليها الزارع في ممارسة نشاطه الاقتصادي، ومن ثمّ فعلاقته بها تلعب دوراً محورياً ليس فقط في تحديد وضعه الاقتصادي والاجتماعي في مجتمعه ولكن أيضاً في توفير أو عدم توفير الدوافع لديه لصيانتها وحسن استثمارها وتنميتها على المدى القصير، وعلى المدى الطويل وزيادة إنتاجيتها[٣].

ومن هذا المنطلق كانت هناك ضرورة لتنظيم العلاقة بين الزارع والأرض، وقد عرفها المسلمون في بحوثهم بعنوان الحيازة أو إحياء الأرض الموات وغيرها من العناوين، وأمّا لغة العصر فآثرت استخدام عنوان التنمية الزراعية، أو الاقتصاد الزراعي، أو النهضة الزراعية.

---

(١) أمالي الطوسي١: ١٨٦.

(٢) قرب الإسناد: ٥٧.

(٣) محمد السيّد عبد الإسلام، الأمن الغذائي للوطن العربي، عالم المعرفة: ١٣٥.

ومن هذا العنوان وذاك، اتخذت الشعوب المتمدنة مفهوماً واصطلاحاً عرف في عالم السياسة والاقتصاد بمفهوم الإصلاح الزراعي، إلّا انّهم تعسفوا في فهم وتطبيق هذا المفهوم، وإن كان متضمنا لمعنى استصلاح التربة ولكن الذي فاتهم هو التذكير بداعية إصلاح الأراضي الزراعية وإحيائها ومؤسس مفهومه وهو النبي محمد ﷺ، فالنبيّ ﷺ هو الذي بذر هذا المفهوم والذي عرفه المسلمون بإحياء الأرض الموات، وفاتهم أيضاً أنّهم بدأوا بمصادرة أراضي من أصحابها الشرعيين الذين تعبوا وأنكهوا أنفسهم لإصلاحها واستغلالها وإعطائها إلى الفلاحين الذين لم تكن باستطاعتهم استثمارها مع العلم أنَّ الأُسلوب النبوي كان في تشجيع العاطلين عن العمل لاستثمار الأرض الموات لا مصادرة أموال الأخرين.

ويفهم المسلمون المقصود النبوي في إحياء الموات بأنّه بثّ الحياة والحركة في الأرض المهجورة المعطّلة، يقول السيّد باقر شريف القرشي: المراد بالإحياء جعل الأرض صالحة للانتفاع بها بعد ما كانت معطلة، وذلك بجلب الماء لها إنْ كانت خالية من الماء، أو بتجفيفها بعد ما كانت مغمورة بالماء، أو بإصلاح سبخها إنْ كانت سبخة، وغير ذلك من الأمور التي توجب الانتفاع بها بعد ما كانت غير صالحة للنفع[١].

وقد اهتم النبيّ ﷺ بإحياء الأراضي وزراعتها اهتماماً بليغاً، بل منحها ملكية وحقّاً قانونياً عند الشروع بمنحها الحياة وإنقاذها من البوار فقال ﷺ:من أحيا أرضاً ميتة فهي له[٢] وهذا نظر بعيد منه ﷺ في عمارة الأرض وتزويد الأفواه الآكلة بالطعام، لأنَّ الحاجة إلى الغذاء يومية ومتجددة، فلابدَّ من تشريع

---

(١) العمل وحقوق العامل في الإسلام: ١٨٦.

(٢) معاني الأخبار للصدوق: ٢٩٢، المجازات النبوية ١٧٣ ح ٢٠١.

سماوي يشكل دفعاً للإنسان لكي يواصل الإنتاج لسدّ النقص الحاصل في المخزون الغذائي، وقد صدرت النصوص الدينية الموحية بضرورة إحياء الأرض وعمارتها وبضرورة تأمين اللقمة للأفواه الآكلة في آن واحد، وخصوصاً أفواه الفقراء، ويفهم هذا من نهي النبيّ ﷺ عن الجداد في الليل، وقد جاء في الأخبار وإنّما نُهي عنه بالليل لأنَّ المساكين لا يحضرونه[١] ورحمة بهؤلاء قال السجاد عليه السلام كما ذكرنا سابقاً: ما أزرع الزرع لطلب الفضل فيه، وما أزرع الزرع إلّا ليتناوله الفقير وذو الحاجة[٢] وقال النبي ﷺ: **ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلّا كانت له به صدقة**[٣] وقال ﷺ: من غرس شجراً أو حفر وادياً بدءً لم يسبقه إليه أُحد، وأحيا أرضاً ميتة فهي له قضاء من الله ورسوله[٤] ولا يعني إحياء الأراضي الزراعية آنذاك تكريس وتقوية النظام الإقطاعي كنظام اقتصادي واجتماعي وسياسي، يقول باحث مشيراً للإقطاع كنظام: كانت ملكية الأرض الزراعية عند ما كوّن الرسول ﷺ الدولة العربية الإسلامية في المدينة المنوّرة متعددة الأشكال، أوّلها القطائع للأراضي الموات التي ليست في حوزة أحد أو ملك أحد يقوم صاحبها بإحيائها فهي له.

فهذا النوع من الملكية هو ملكية أرض الموات، وتعود جذورها إلى عهد الرسول ﷺ وعلى حدّ قوله ﷺ: **من أحيا أرضاً ميتة فهي له.**

وقد أقطع الرسول ﷺ عدداً من الصحابة في المدينة وفي مناطق أخرى

---

(١) ينظر بحار الأنوار٧٦: ٣٤٣. والجداد هو القطع والجني والقطف.

(٢) أمالي الطوسي٢: ٢٩٩.

(٣) مستدرك الوسائل ١٣: ٤٦٤ باب استحباب الغرس وشراء العقار ط مؤسسة آل بيت لإحياء التراث قم.

(٤) فروع الكافي ٥: ٢٨٠ ح ٦ في إحياء أراضي الموات.

من الجزيرة العربية[١] ويردّ على هذه الإشارة آخر بالقول: وإذا كان بعض المسلمين الأول قد أُقطعوا الأراضي في صدر الإسلام، فإنّما كان ذلك في وجوه تبررها المصلحة العامة وبهدف إحياء الأراضي الموات وتنشيط الزراعة وتشجيع الاستقرار[٢].

وللباحث الحبيب الجنحاني فهم للقطائع الإسلامية التي منحها النبيّ ﷺ لبعض الصحابة فقال: ١-من الخطأ فهم مفهوم الإقطاع في المجتمع الإسلامي، خصوصاً في مجتمع صدر الإسلام بمثل ما يفهم به النظام الإقطاعي الذي عاشه المجتمع الأوربي، فهذا يعكس نظاماً متكاملاً دعامته الأساسية طبقة اجتماعية لها مميزاتها المعروفة في التاريخ الأوربي، وهي طبقة برزت بعد أن تطوّر المجتمع الأوربي وأفرزها على أنقاض طبقة سابقة، وقد مهدت هي نفسها في خضم صراع طبقي عنيف لميلاد طبقة اجتماعية جديدة قادت مرحلة تاريخية جديدة من مراحل تاريخ المجتمع الأوربي، أمّا الإقطاع في المجتمع الإسلامي فهو مصطلح فقهي ومفهوم اقتصادي يعكس، دون ريب، تجربة تاريخية معيّنة عرفها المجتمع الإسلامي.

٢-إن مفهوم الإقطاع في المجتمع الإسلامي عرف بمعان وتجارب تطبيقية مختلفة باختلاف الزمان والمكان، فهو إذن ليس مفهوماً واضحاً وقارّاً طُبّق بأساليب موحّدة في كلّ العصور وفي مختلف مناطق العالم الإسلامي.

٣-إنّ للإقطاع في الإسلام شروطاً دقيقة وضعت في عصر دولة الرسول ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين، ولكن التطبيق تجاوز هذه الشروط ابتداءً من المرحلة الثانية في خلافة عثمان، خصوصاً أيام معاوية ابن أبي سفيان.

---

(١) عوّاد الأعظمي، الزراعة، حضارة العراق ج ٥: ٢٣٣.

(٢) فيصل السامر، ثورة الزنج: ٢٥.

وكان لهذا التجاوز أثر واضح في الصراع السياسي والاجتماعي الذي عرفه صدر الإسلام، وقد لمحنا، إلى أنَّ مفهوم الإقطاع قد تطوّر واتّخذ في التطبيق أشكالاً مختلفة حسب طبيعة النظام السياسي القائم، وحسب البيئة الجغرافية، ثم ينتهي إلى نتيجة فيقول: والقاعدة الأساسية التي اتضحت معالمها في عصر النبوة والعصر الراشدي أنَّ الإقطاع يقع من الصوافي، أو من الأرض الموات التي لم يحيها أحد، ولا يجوز إقطاع أرض هي على ملك مسلم أو معاهد، ولم تُضبط مقاييس منح القطائع، فقد تُركت لاجتهاد الإمام[١] وبهذا يصل الباحث إلى نتيجة فقهية هي أنَّ هذه القطائع التي منحت أو التي ستمنح لا تخضع لضوابط ومقررات مسبقة، وإنّما يمنحها الإمام طبقاً لمقتضيات الأحداث وتطورات الظروف السياسية والاجتماعية، كأن يكون هناك وضع عسكري يتطلّب تشجيع المقاتلين، كما حصل للنبيّ ﷺ في حربه مع اليهود حين أقطع ﷺ الزبير بن العوّام أرضاً من أرض بني النضير ذات نخل[٢] وغير ذلك، ولهذه النتيجة يصل السيد محمد باقر الصدر فيقول: فالإقطاع كما يحدده الشيخ الطوسي في المبسوط وابن قدامة في المغني والماوردي في أحكامه والعلّامة الحلّي، هو في الحقيقة: منح الإمام لشخص من الأشخاص حقّ العمل في مصدر من مصادر الثروة الطبيعية، التي يُعتبر العمل فيها سبباً لتملكها أو اكتساب حقّ خاص فيها...[٣].

وقد حاول عدد من الباحثين أن ينأى بمفهوم الإقطاع الإسلامي عن المفهوم الغربي له، لذلك أوضح السيد الصدر أنَّ كلمة الإقطاع أشرطت في تاريخ القرون الوسطى، وبخاصّة في تاريخ أوربا، بمفاهيم ونظم معيّنة، حتّى

---

(١) المجتمع العربي الإسلامي، الحياة الاقتصادية والاجتماعية: ٥٩.

(٢) ينظر البلدان وفتوحها للبلاذري: ٢٥.

(٣) اقتصادنا:٥٠٩.

أصبحت نتيجة لذلك تثير في الذهن لدى استماعها كلّ تلك المفاهيم والنظم، التي كانت تحدد علاقات المزارع بصاحب الأرض وتنظم حقوقهما، في العصور التي ساد فيها نظام الإقطاع في أوربا ومناطق مختلفة من العالم، وفي الواقع أنَّ هذه الإثارة والأشراط باعتبارهما نتاجاً لغوياً لحضارات ومذاهب اجتماعية لم يعشها الإسلام ولم يعرفها[١].

وتقريباً لهذا الفهم في فلسفة التشريع قال السيد باقر القرشي: وملكية المحيي للأرض من أفضل الطرق وأصحّها لتوزيع الأراضي وعمرانها، وإيصالها إلى أكبر عدد ممكن لجهتين:

الأولى: إنَّ حلّية الأراضي مجاناً من دون أن يكون لأحدٍ حقّ الاحتكار أو فرض الأجور عليها تؤدّي حتماً إلى مبادرة جميع المواطنين وقيامهم بالإحياء للظفر بأرباحها الأمر الذي يوجب القضاء على البطالة، واستفادة الأمّة حكومة وشعباً بوارداتها.

الثانية: إنَّ الإسلام جعل سبب التمليك هو الإحياء، والإنسان مهما بلغ من القوّة لا يتمكّن بحسب العادة أن يحيي أرضاً واسعة، ومن المستبعد جدّاً لمّا كان الإحياء حقّاً عاماً للجميع أن يقوم شخص بإحياء الأرض لغيره ويترك نفسه.

إنَّ ملكية المحيي للأرض هي أعظم طريق وقائي يقي المجتمع الإسلامي من تضخم الملكيات في الأرض الزراعية المسمّاة في العصر الحديث الإقطاع[٢] فكان هذا التشريع من هذه النقطة أو تلك نظراً للناس ورحمةً بهم، فإنَّ النعم الإلهية التي غطّت الأرض خُلقت ليتناولها الإنسان ويتنعّم بها، وحينها لابدّ من

---

(١) نفس المصدر.

(٢) العمل وحقوق العامل في الإسلام: ١٨٨.

جهد وعمل يبدأ بالمعول، واستخراج هذه النعم والكنوز لا يتمّ إلّا بملاحظة الأرض وإعمارها.

ومن هذا الإدراك كتب عليّ عليه السلام إلى الأشتر حين ولاه مصر: وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأنَّ ذلك لا يُدرك إلّا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد، وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلّا قليلاً[١].

وهذا الإدراك العمراني لعليّ عليه السلام نعتبره موقفاً إنسانياً وسياسياً ودينياً، فمطالبة الأرض والفلّاح بالعطاء والإنتاج ليس له مسوّغ بدون عمارة وإصلاح ومقدمات ضرورية لإدامة الحياة الزراعية وإغنائها.

وقد كانت سياسة الإصلاح الزراعي والإروائي نصب عين عليّ عليه السلام ومحور سياسته الاقتصادية، وقد أشار اليعقوبي إلى ذلك حيث قال: إنّ الإمام علي عليه السلام قد أمر بحفر الأنهر وشقّ الترع وتطهيرها فكتب إلى عامله قرظة بن كعب[٢]: أمّا بعد فإنَّ رجالاً من أهل الذمّة من عملك ذكروا نهراً في أرضهم، قد عفا وادفن وفيه عمارة على المسلمين، فانظر أنت وهم ثمّ اعمروا ما يصلح النهر، فلعمري لئن يعمروا أحبّ إلينا من أن يُخرجوا، وأن يعجزوا أو يقصروا في واجب من صلاح البلاد والسلام[٣].

ومع حاجة الأرض إلى جهد الإنسان وهمّته، فإنَّ الإنسان يبقى في كلّ خطوة يخطوها في أمل المدد السماوي والرحمة الربّانية، ولذلك لا يمكن للمزارع أن يبتعد عن السماء التي تظلّ الأرض بمسافة زمنية مهما قصرت، فانتظار

---

(١) نهج البلاغة : ٤٣٦ كتاب رقم ٥٣ للأشتر النخعي.

(٢) قَرظة كان والياً لعلي عليه السلام على فارس. ينظر تنقيح المقال ٢: ٢٨ رقم ٩٦٦٣.

(٣) نقل الخبر مصطفى عباسي الموسوي في العوامل التاريخية لنشأة وتطوّر المدن العربية الإسلامية ط وزارة الثقافة بغداد ١٩٨٢: ٣٠٢.

قطرات الماء التي تنبت الزرع والرياح والطاقة الشمسية كلّها عوامل خارجة عن إرادة الإنسان وجهده، وبدون إذن الزارع وعلمه تعمل هذه العوامل بما سخّر لها من ملائكة وقوانين فيزيائية وكيمائية تصنع له وللمجتمع البشري غذاءه الذي يحتاجه كلّ يوم، «قد أشار النبيّ ﷺ إلى ذلك بقوله: **أكرموا الخبز فإنّه قد عمل فيه ما بين العرش إلى الأرض وما فيها من كثير من خلقه**»[1].

وقد ذكّر القرآن الكريم بنعمة المزروع وسلامته من الآفات، وما هيأ له الكريم من عوامل الإنبات بقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾[2].

وانطلاقاً من هذا أوصى الباقر عليه السلام الزرّاع بالقول: إذا أردت أن تزرع زرعاً فخذ قبضة من البذر بيدك ثمّ استقبل القبلة وقل: ﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾[3] ثلاث مرّات ثمّ قل: اللهم اجعله حرثاً مباركاً وارزقنا فيه السلامة والتمام واجعله حبّاً متراكباً ولا تحرمني خير ما أبتغي ولا تفتنّي بما متّعتني بحقّ محمد وآله الطيبين الطاهرين، ثمّ ابذر القبضة التي في يدك إن شاء الله[4].

وقد جعل النبيّ ﷺ الزرع أفضل رأسمال اقتصادي قابل للنماء حين يغنمه الإنسان فقال ﷺ حين سُئل أيّ المال خير؟ فأجاب: **بأنّه زرع زرعه**

---

(١) فروع الكافي٦: ٣٠٢ ح ٢.

(٢) الواقعة: ٦٣-٧٢.

(٣) الواقعة: ٦٤.

(٤) مكارم الأخلاق: ٣٥٣.

صاحبه وأصلحه وأدّى حقّه يوم حصاده[١].

ولا بـدَّ لنا هنا التنويه بحضارة اليمن الزراعية والإروائية وقد عُرفت بلاد الـيمن بزراعـتها وتجارتهـا، ممـا يجعل الباحث يقف على سر النصوص النبوية الـتي تكيل المدح لأهل اليمن، حيث ساعد على تكون الدول في اليمن وظهور حضـارة مزدهـرة فيها خصوبة التربة وتوفّر الأمطار الموسمية الصيفية، ودفع هذا بالتالي إلى شيوع حالة الاستقرار وبناء الدول[٢].

وتمـيّز جـنوب جزيـرة العـرب عن شمالها من حيث طبيعة الأرض والحياة والمـناخ وسـقوط الأمطـار، هـو الذي جعل الزراعة أكثر ازدهاراً في بلاد اليمن والجـنوب، عـن بـلاد الحجـاز والشمال... وكان لأهل اليمن فضل السبق على سـائر أهـل جزيـرة العـرب في نشاطات الزراعة، ويُستدل على ذلك من خلال ألفـاظ الـزراعة المصـطلحات الزراعية التي تنصّ عليها معجمات اللغة وكتب النبات والأدب، والتي وجد العلماء اللغويون أنّها تعود للغات أهل اليمن.

أمّـا أهـل الـبادية وما أتّصل بها من الأعراب فقد كانوا يزدرون الزراعة ويتنقّصـون مـن قـدر المـزارع والقَـيْن[٣]، وقد بلغت هذه النظرة الازدرائية إلى المـزارع أهـل الحضـر في الحجـاز وشمـال الجزيـرة العربـية، إذ يُحكى أنَّ بعض الصـحابة كـرهوا تعـاطي العمـل في الأرض حـتّى بعد الفتح تاركين ذلك إلى أهل الذمّة[٤].

---

(١) الخصال: ٢٤٦ ح ١٠٥.

(٢) ينظر تاريخ الحضارة العربية للتلسي: ٣٧، وأشير إلى هذا في فصل اليمن والحضارة.

(٣) القين: الحدّاد. وقيل: كلّ صانع قين. اللسان «قين».

(٤) قُصيّ الحسين، موسوعة الحضارة العربية، العصر الجاهلي ٨٧و٨٨.

وقد مارس النبيّ ﷺ العمل الزراعي بيده الكريمة حين غرس النخل الذي اشترطه أرباب سلمان الفارسي ثمناً لعتقه ﷺ، وهم رهط من يهود المدينة كانوا قد اشترطوا على سلمان ﷺ أن يغرس لهم عدداً من النخل ويعمل عليها حتى تدرك هذه النخيل بثمارها، لينال حريته ويتخلص من عبوديته لهم[١].

وقد كان أوصياء النبيّ ﷺ يمارسون العمل الزراعي ويمتهنونه تأكيداً لدورهم الديني والحضاري في تاريخ المسلمين، وحين وَلي علي عليه السلام أمر الخلافة أمر بتقسيم بيت المال على الناس، ثمّ أخذ مكتله ومسحاته ثمّ انطلق إلى بئر الملك[٢] ليمارس عمله الزراعي هناك[٣] وليعلن بداية مسيرة حضارية في عهد جديد يستدعي نهضة زراعية تنموية تدعم وترفد اقتصاد الدولة، وتساهم في إشباع الجياع وتأمين معيشتهم، إضافة إلى تأكيد هوية الحاكم الذي ينبغي أن يُحتذي ويتّخذه الناس إماماً، فالحاكم الزاهد العامل الباني تجسّد في سلوك عليّ عليه السلام رجل المدنية والحضارة وارث النبيّ المصطفى ﷺ مؤسس الحضارة والمدنية وواضع أصولها ومفاهيمها.

وتتحدث الأخبار عن سيرة عليه السلام فتصفه بأنّه كان عليه السلام منهمكاً في زراعة الأرض وضربها بمسحاته ضربات كثيرة، بحيث روت بعض هذه الأخبار أنَّ الدنيا الهنية الناعمة تمثّلت له بصورة فتاة حسناء بضّة، قيل هي صورة بثينة بنت عامر الجمحي_وهي من أجمل نساء قريش_وكان عليه السلام في أرض فدك العامرة بالنخيل والخضرة والمياه الدافقة، يضرب بمسحاته والعرق يتصبب منه

---

(١) ينظر الاستيعاب في معرفة الأصحاب٢: ٥٧، بحار الأنوار٢٢: ٣٩٠.

(٢) بئر الملك: موضع بالمدينة عند قُبا منسوبة إلى تبّع الملك. معجم البلدان١: ٣٠٢.

(٣) ينظر الخرائج والجرائح١: ١٨٧ ح ٢١.

فقالت له: يا أمير المؤمنين، هل لك أن تزوّجني وأغنيك عن هذه المسحاة؟[١] فكان يأبى لدنيا الدعة والكسل والنوم.

وكان عليّ عليه السلام يدعو إلى العمل والجدّ والمثابرة والبناء للأرض، وأنّه يعنى من هذا عمارتها لتحقيق معنى الخلافة في الأرض، ولكنه يأبى دنيا الترف والبذخ والطغيان والتجبّر لذا كان يقول: أُحذّركم الدنيا فإنّها منزل قُلعة، وليست بدار نُجعة، قد تزيَّنت بغرورها وغَرَّت بزينتها[٢].

ومع هذا الترفع والزهد بمتاع الدنيا لم يضع عليه السلام آلة الأرض جانباً مستنيماً أو لاهياً عن إحيائها، ولطالما كان عليه السلام يوصي بعدم الركون إلى اللذات والشهوات والإخلاد إلى الأرض والانعكاف على الذات والانغلاق عليها وأمّا جهاد البناء والإعمار فماضٍ فيه.

وتشهد وثائق التاريخ على جهاد عليّ الزراعي والإروائي من أجل المصالح العامة، ومن ذلك ما رواه أبو نيزر قال: جاءني عليُّ بن أبي طالب عليه السلام وأنا أقوم بالضيعتين عين أبي نيزر والبغيبغة، فقال: هل عندك من طعام؟ فقلت: طعام لا أرضاه لأمير المؤمنين قرع من قرع الضيعة صنعته بإهالة سنخة، فقال: عليّ به، فقام إلى الربيع فغسل يده ثمّ أصاب من ذلك شيئاً ثمّ رجع إلى الربيع فغسل يديه بالرمل حتّى أنقاهما، ثمّ ضمّ يديه كلّ واحدة منهما إلى

---

(١) ينظر البحار ٧٣: ٨٤ وج ٧٧: ١٩٥.

(٢) نهج البلاغة: ١٦٧ خطبة ١١٣. وقد روى البيهقي أنَّ عدي بن حاتم الطائي وصف موقف عليّ عليه السلام من الدنيا بالقول: لقد رأيته ليلة وقد مَثُل في محرابه وأرخى الليل سربال وغارت نجومه، ودموعه تتحادر على لحيته وهو تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، فكأني الآن أسمعه وهو يقول: يا دنيا، إليّ تعرّضت أم إليَّ أقبلت! غرّي غيري، لا حان حينك، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيك، فعيشك حقير، وخطرك يسير، آهٍ من قلّة الزاد وبُعد السفر وقلة الأنيس. المحاسن والمساوى: ٤٦.

أُختها وشرب بهما حساً من ماء الربيع، ثم قال: يا أبا نيزر، إنَّ الأكُفّ أنظف الآنية ثمَّ مسح ندى ذلك الماء على بطنه وقال: من أدخله بطنه في النار فأبعده الله! ثمّ أخذ المعول والمحدر في العين فجعل يضرب وأبطأ عليه الماء فخرج وقد تفضّج جبينه عليه السلام عرقاً فانتكف العرق عن جبينه، ثمّ أخذ المعول وعاد إلى العين فأقبل يضرب فيها، وجعل يُهمهم فانثالت كأنّها عنق جزور فخرج مسرعاً وقال: أُشهد الله أنّها صدقة، عليَّ بدواة وصحيفة، قال: فعجّلت بهما إليه فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تصدّق به عبد الله عليّ، تصدَّق بالضيعتين المعروفتين بعين أبي نيزر والبُغيبغة على فقراء أهل المدينة وابن السبيل ليقي الله بهما وجهه حرّ النار يوم القيامة، لا تُباعا ولا تُوهبا حتّى يرثهما الله وهو خير الوارثين إلّا أن يحتاج إليهما الحسن والحسين فهما طِلق لهما، وليس لأحدٍ غيرهما[1].

وكذا كانت سيرة المعصومين عليهم السلام العمل في زراعة الأرض واستثمارها فقد روى عليّ بن أبي حمزة-وهو من أصحاب الكاظم عليه السلام-قال: رأيت أبا الحسن عليه السلام يعمل في أرض له قد استنقعت قدماه في العرق، فقلت: جُعلت فداك، أين الرجل! فقال: يا عليّ، قد عمل باليد من هو خير منّي، في أرضه، ومن أبي، فقلت: ومن هو؟ فقال: رسول الله وأمير المؤمنين وآبائي صلوات الله عليهم، كلّهم كانوا قد عملوا بأيديهم، وهو من عمل النبيين والمرسلين والأوصياء والصالحين[2].

وكانت الزراعة هي الحرفة الرئيسة لسكّان يثرب، وأهم المزروعات هي النخيل والشعير، وتُزرع إلى جانب ذلك بعض الخضر بكميات قليلة كالقرع والقثّاء، وكان الغذاء الرئيس لأهل المدينة عند الهجرة التمر والشعير، ويقال

---

(١) الكامل في اللغة والأدب للمبرد٢: ١٥٣ ط بيروت مؤسسة المعارف.

(٢) فروع الكافي ٥: ٧٥ ح ١٠.

لهما الأسودان[١] فكان النبيّ ﷺ يواسي أهل المدينة وفقراءها في غذائه فلم يكن يأكل خبز البُرّ، وقد جاء في حديث الباقر عليه السلام أنَّ النبيّ ﷺ ما شبع من خبز بُرٍّ ثلاثة أيّام متوالية منذ بعثه الله تعالى إلى أن قبضه[٢] وهذا نظر منه ﷺ لعموم الناس الذين يعايشهم وتقديراً لمشاعرهم.

وكانت هناك محاصيل أُخر إلى جانب التمر والشعير عُرفت في حقول المدينة، لها جودتها ووفرتها، من الفواكه، كالعنب والرمّان والموز والليمون والبطّيخ[٣].

وكان النبيّ ﷺ يستبشر بها ويبشّر أهل المدينة حين تنضج لأنّها تؤمن سلعة اقتصادية مهمّة تساهم في تنشيط اقتصاد المسلمين لما ينجم عنها من حركة بيع وشراء ونقل وتخزين وصناعات غذائية: إضافة إلى الفوائد الصحية الكثيرة فيها حيث ترفع المستوى الصحي للناس، لذا قال ﷺ: **ربيع أمّتي العنب والبطّيخ**[٤] ولم يتخلّ النبيّ ﷺ عن حلواه وغذائه الملازم له وهو التمر، الذي لازم ظلّه ﷺ، وكيف ينأى عنه وهو غذاء أمّته وشعبه وجماهيره التي كانت تتحرك حوله وأمامه؟

وكان ﷺ يرزق أهل الصفّة من طعام عاصمة الإسلام الشائع، وهو التمر، فقد كان ﷺ يرزقهم كلَّ يوم مُدّاً مُدّاً من تمر، فقام رجلٌ منهم فقال: يا رسول الله، التمر الذي ترزقنا قد أحرق بطوننا! فقال رسول الله ﷺ: **أما إنّي لو استطعتُ أن أطعمكم الدنيا لأطعمتكم، ولكن من عاش منكم بعدي يُغدى**

---

(١) صالح أحمد العلي، دولة الرسول في المدينة: ٢٨و٢٩.

(٢) الروضة من الكافي ٨: ١٣٠ ح ١٠٠.

(٣) ينظر التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدنية: ٣٢.

(٤) طب النبيّ: ٢٧.

عليه بالجفان، ويغدو أحدكم في خميصة ويروح في أخرى، وتنجّدون بيوتكم كما تُنجّد الكعبة، فقام رجلٌ فقال: يا رسول الله، إنّا إلى ذلك الزمان بالأشواق، فمتى هو؟ قال ﷺ: زمانكم هذا خيرٌ من ذلك الزمان، إنّكم إنْ ملأتم بطونكم من الحلال توشكون أن تملأوها من الحرام[١]، فكان هذا كتلميح منه ﷺ في ضرورة ترشيد الاستهلاك وإمساك البطون وصونها عن اللقمة الحرام.

وكان ﷺ يحرص أن تصطبغ ربوع المدينة بالمروج الخضراء فتراه ﷺ يحرّم قطع الأشجار والنخيل حتّى عند الضرورات الحربية، ويفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٢] فهنا نشهد إجازة شرعية لقطع الأخشاب الخضراء لضرورات دفاعية وعسكرية، وقد تعجّب اليهود من ممارسة عملية قطع النخيل من قبل أبي ليلى المازني وعبد الله بن سلام حين أمرهما النبيّ ﷺ بذلك[٣].

وقد روي من الأخبار في عقاب قاطع الأشجار ما يدلل على حرص النبيّ ﷺ على تغطيته الأرض باللون الأخضر وحفظ البيئة من التلوث والتصحّر، ومن هذا ما روي: أنّه ﷺ قال: **من قطع سدرة صوّب الله رأسه في النار**[٤].

---

(١) نوادر الرواندي: ٢٥.

(٢) الحشر: ٥.

(٣) حكى الشيخ القمي لمّا غدر اليهود من بني النضير في المدينة، كان رسول الله ﷺ إذا ظهر بمقدم بيوتهم حصنوا ما يليهم وخرّبوا مايليه، وكان الرجل منهم ممّن كان له بيت حسن خرّبه، وقد كان رسول الله ﷺ أمر بقطع نخلهم فجزعوا من ذلك وقالوا يا محمد، إنَّ الله يأمرك بالفساد؟ إن كان لك هذا فخنه، وإنْ كان لنا فلا تقطعه. ينظر تفسير علي بن إبراهيم ٢: ٣٤٠ والمغازي للواقدي ١: ٣٨١.

(٤) النهاية لابن الأثير ٢: ٣٥٣«سدر».

وقال ﷺ أيضاً: **الطيبُ يسرُّ والنظر إلى الخضرة يَسرُّ**[١] وفي هذا النصّ دليل على احترام البيئة والحرص على رعايتها وإعمارها وإغنائها.

ومع الاهتمام المتزايد للنبيّ ﷺ في الحفاظ على بيئة يثرب الزراعية وإدامة خضرتها، فإنَّ الله بما هيّأ لها من عوامل جغرافية أسعفتها وأحيتها فكان لاعتدال المناخ وتوافر المياه وخصوبة التربة أثرها في ازدهار الزراعة في يثرب ازدهاراً نسبياً.

فكانت يثرب أشبه بمدينة أو واحة خضراء وسط جزيرة العرب، فهي تقوم على بسط من الأرض كثير المياه والشجر والدوحات، ولها حرّات ثلاث: هي حرّة واقم في الشرق، وحرّة الوبر في الغرب، وحرّة قُباء في الجنوب.

وتُعتبر حرّة واقم من أشهر حرّات بلاد العرب، وتربتها من أخصب بقاع يثرب.

لذا كانت يثرب تستمد مكانتها الاقتصادية من أرضها البركانية الخصبة، والتي تتوافر فيها مياه الأودية والآبار والعيون ومن محاصيلها الزراعية الكثيرة[٢].

وكانت الملكية الفردية في المدينة مثبتة، والغالب أنَّ الأفراد يمتلكون الأراضي التي يعملون فيها، غير أنَّ بعضهم كان يمتلك مزارع كبيرة، ولا يستطيعون وحدهم القيام باستثمار أراضيهم فيستخدمون في ذلك عمّالاً يأخذون لقاء عملهم نصيباً من الحاصل يبلغ الخُمس أو الثلث أو النصف تبعاً لأحوال الأرض وظروف الاتفاق، وقد نشأت من المعاملات الناجمة عن تنوّع

---

(١) مستدرك الوسائل للنوري ٣: ١٠٩ ط حجر.

(٢) ينظر علي معطي التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة في عهد الرسول: ٤٦ و٣٠ و٣٢.

الأراضي وأساليب الري وأساليب العمل في الزراعة أعراف وقواعد أقرّها الإسلام[١] في الأعم الأغلب، وكانت الأراضي الزراعية المستثمرة حين ظهور فجر الإسلام إمّا يملكها كبار القوم من الوجهاء والمالكين، أو يملكها صغار المزارعين، لأنَّ الملكية الجماعية للأرض كانت قد تلاشت في الطور الأخير من الجاهلية، أي في حدود ثلاثمائة عام قبل ظهور الإسلام، على أقلّ تقدير، وكان أصحاب الملكيات الكبيرة يستثمرون الأرض بطرق مختلفة مثل الإيجار، أو المحاقلة، أو المزارعة، أو المخابرة، أو المساقاة[٢] والمحاقلة: وهي بيع الزرع وهو في سنبله بالبُر[٣] وقد نهى النبيّ ﷺ عن هذا الأسلوب في المبايعة[٤] لما فيه من الغبن والجهالة وما يدخله من الربا.

والمخابرة: وهي المزارعة بالنصف والثلث والربع وأقلّ من ذلك وأكثر[٥]، وقالوا: أصل المخابرة من خيبر، لأنَّ النبيّ ﷺ أقرّها في أيدي أهلها على النصف من محصولها، فقيل خابرهم، أي عاملهم في خيبر[٦] وقد أمضى النبيّ ﷺ أساليب استثمار الأرض بإقرار بعضها والنهي عن بعض الأساليب الأُخر، كالمزابنة والمخاضرة.

والمزابنة وهي بيع التمر في رؤوس النخل بالتمر[٧] لأنّها تؤدّي إلى

---

(١) دولة الرسول في المدينة: ٢٨.

(٢) موسوعة الحضارة العربية: ٩٠.

(٣) غريب الحديث للهروي ١: ١٣٩. وفي حديث المناهي فسّرت المحاقلة ببيع التمر بالرطب والزبيب بالعنب وما أشبه ذلك. مكارم الأخلاق: ٤٢٦.

(٤) ينظر معاني الأخبار للصدوق: ٢٧٧.

(٥) معاني الأخبار: ٢٧٨.

(٦) النهاية في غريب الحديث والآخر ٢: ٧«خبر».

(٧) معاني الأخبار: ٢٧٧.

المنازعة والمدافعة[١].

وأمّا المخاضرة: فهي أن تُباع الثمار قبل أن يبدو صلاحها وهي خضر بعد، ويدخل في المخاضرة أيضاً: بيع الرطاب والبقول وأشباههما[٢] وكان هذا من النبيّ ﷺ نظر حضاري بعيد في تثبيت دعائم الاقتصاد الزراعي للدولة الإسلامية وتنظيمه للعقود والمعاملات.

المياه والأنهار

لا يخفى على الباحثين والعقلاء بأنَّ كلّ مدنية وتقدّم للإنسان كان منشؤه الماء.

ورحمة للإنسان ولكلّ الكائنات الحيّة جعل الخالق هذه المادة ميسورة ومتوفرة بين يدي الإنسان وكلّ المخلوقات مهما كانت، فحياة كلّ كائن حيّ يعتمد بالدرجة الأولى على الماء، وانعدامه يعني نهاية هذه المخلوقات وانهدامها، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[٣].

وحين تجف المياه وتنقطع روافد الماء تموت المدن وتتهافت الحضارات وتتقهقر، وأشار الكتاب العزيز إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ

---

(١) مجمع البحرين ٢: ٧٦٥ «زبن».

(٢) معاني الأخبار: ٢٧٨. قيل سُمّي هذا البيع مخاضرة لأنَّ المتبايعين تبايعا شيئاً أخضر بينهما، مأخوذ من الخضرة. ينظر لسان العرب«خضر».

(٣) الأنبياء: ٣٠.

﴿مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [١] وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [٢].

وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [٣] وغيرها من الآيات التي تفيد حاجة الإنسان المتعاظمة للماء في إدامة حياته، وتشييد حضارته ومدنيته التي يفتخر بها، فالصناعة والزراعة يرتبط ظهورهما بتوفر الماء واستغلال الإنسان له وتطويعه في مشاريعه الزراعية والصناعية.

والماء هو أهم مكوّنات قاعدة الموارد الطبيعية الزراعية التي تستند إليها الزراعة في أيّ مكان... والمصادر الرئيسية للموارد المائية المتاحة للزراعة ثلاثة:

١-الأمطار، وهذا المورد يمكن اعتباره ثابتاً.

٢-الأنهار، وجزء كبير من هذا المورد تمّ استثماره بالفعل في مشاريع الري الصناعي في معظم دول العالم.

٣-الماء الجوفي، واستثمر في العديد من الدول إلى الحدّ الأقصى [٤].

ويقسّم الفقهاء المسلمون المياه وفقاً للغتهم العلمية إلى قسمين: أحدهما المصادر المكشوفة التي أعدّها الله للإنسان على سطح الأرض، كالبحار والأنهار، والعيون الطبيعية، والآخر المصادر المكنوزة في أعماق الطبيعة التي يتوقّف

---

(١) الأعراف: ٥٧

(٢) الفرقان: ٤٨-٤٩.

(٣) الروم: ٢٤.

(٤) محمد السيد عبد السلام، الأمن الغذائي للوطن العربي: ١٨و١٩.

وصول الإنسان إليها على جهد وعمل، كمياه الآبار التي يحفرها الإنسان ليصل إلى ينابيع الماء.

فالقسم الأوّل من المياه يُعتبر من المشتركات العامة بين الناس، والمشتركات هي الثروات الطبيعية التي لا يأذن الإسلام لفرد خاص بتملكها، وإنّما يسمح للأفراد جميعاً بالاستفادة منها مع احتفاظ أصل الماء ورقبته بصفة الاشتراك والعموم، فالبحر أو النهر الطبيعي من الماء لا يملكه أحد ملكية خاصّة ويُباح للجميع الانتفاع به، وعلى هذا الأساس نعرف أنَّ المصادر الطبيعية المكشوفة للمياه تخضع لمبدأ الملكية العامة[1] استنباطاً من الخبر المشهور: «ثلاثة أشياء الناس فيها شرع سواء: الماء، والكلأ، والنار»[2].

وبذلك جعل الإسلام شريان الحياة وعنصر إدامتها مباحاً لكلّ فرد، وما على الإنسان إلّا الجدّ والسعي لينتفع من هذه النعمة الكبيرة.

ولأهمية الماء في حياة الإنسان جعل النبيّ ﷺ وأهل بيته المعصومون عليهم السلام صدقة الماء من أفضل الصدقات فقال ﷺ: **أفضل الصدقة صدقة الماء**، وقال ﷺ أيضاً: **أفضل الأعمال إبراد الكبد الحرّى**، يعني سقي الماء، وروي عن أبي علقمة مولى بني هاشم أنّه قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ الصبح ثمَّ التفت إلينا فقال: **معاشر أصحابي، رأيتُ البارحة عمّي حمزة بن عبد المطّلب رحمه الله وأخي جعفر بن أبي طالب رحمه الله وبين أيديهما طَبَق من نَبْق، فأكلا ساعة فتحوّل لهما النبق عنباً، فأكلا ساعة فتحوّل العنب رطباً، فدنوتُ منهما فقلت بأبي أنتما أيّ الأعمال أفضل؟ فقالا: وجدنا أفضل الأعمال الصلاة عليك، وسقي**

---

(١) اقتصادنا: ٥١٩.

(٢) ينظر بحار الأنوار ٦٦: ٤٤٦.

الماء وحبّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام[١].

وروى الصادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام: إنّ أوّل ما يُبدأ به يوم القيامة صدقة الماء[٢].

وقد حظيت بعض المياه والأنهار ببركة سماوية خاصّة بها، ومن ذلك ماء زمزم، فروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله قوله: **ماء زمزم لما شُرب له، من شربه لمرض شفاه الله، أو لجوعٍ أشبعه الله، أو لحاجة قضاها الله**[٣].

وروى ابن عباس أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: **التضلّع من ماء زمزم براءة من النفاق**[٤].

وقد وردت روايات في فضل ماء الفرات منها بأنّه يُصبّ فيه ميزابان من ميازيب الجنة وأنّه ينبع من الجنة، وأنّ ملكاً يهبط من السماء في كلّ ليلة معه ثلاثة مثاقيل مسك من مسك الجنة فيطرحها في الفرات[٥]، وغيرها.

ومن هذه الروايات أنّ الصادق عليه السلام لما قدم الكوفة في زمن أبي العبّاس جاء على دابّته في ثياب سفره حتّى وقف على جسر الكوفة ثمّ قال لغلامه: اسقني، فأخذ كوز ملّاح فغرف له به فأسقاه فشرب والماء يسيل من شدقه على لحيته وثيابه، ثمّ استزاده فزاده، فحمد الله ثمّ قال: نهر ماء ما أعظم بركته! أما إنّه يسقط فيه كلّ يوم سبع قطرات من الجنّة، أما لو علم الناس ما فيه من

---

(١) كتاب الغايات للقمي: ١٨٥و١٩٥.

(٢) ثواب الأعمال للصدوق: ١٦٨ ح ٢.

(٣) تفسير الدر المنثور للسيوطي ٣: ٢٢١، بحار الأنوار ٦٠: ٤٥.

(٤) كنز العمال ١٢: ٢٢٤و٢٢٥.

(٥) ينظر الكافي ٣: ٢٤٦ ح ١ والبحار ٦٠: ٣٨ والخصال: ٢٥٠ ح ١١٦.

البركة لضربوا الأخبية على حافتيه، أما لو لا ما يدخله من الخاطئين ما اغتمس فيه ذو عاهة إلّا برئ[١]، ومع كلّ ما جاء فيها من فضيلة وبركة فهي قوام حياة الإنسان وسرّ بقائه فعلى ضفاف نهر الفرات كانت حضارات مهمّة شيّدها الإنسان، وأبرز حضارة بُنيت من ماء وطين الفرات هي حضارة بابل وأور، وجاور الفرات إبراهيم خليل الله عليه السلام ونوح عليه السلام وجمع كثير من الأنبياء، كانوا يعبدون الله من بركاته، ويغتسلون من مائه، فانعجن طين الفرات وحوضه من قطرات دموعهم وفضلات وضوئهم، فنزلوا على ضفافه مسبّحين شاكرين فيسبّح معهم هذا النهر المبارك الخالد، فجدد الحسين عليه السلام ذكريات الأولياء والأنبياء حين اغتسل بمائه غسل الشهادة.

وقد حُرمت بقاع كثيرة في الأرض من نعمة الأنهار التي تمنح الخير والعطاء للإنسان، وبالتالي فقدت نعمة حضارة كان لها أن تقوم على ضفة نهر، ومن هذه البقاع المحرومة كانت مسلحات كبيرة من الجزيرة العربية.

يقول الباحثون والجغرافيون والرحّالة: إنَّ الجزيرة العربية لم تعرف الأنهار الكبيرة بالمعنى المعروف من لفظة نهر، مثل نهر دجلة والفرات والنيل أو نهر العاصي، أو حتّى نهر الليطاني، بل فيها أنهار صغيرة أو جعافر[٢].

وهي لذلك تُعدّ من جملة الأصقاع التي تقلّ فيها الأنهار والبحيرات، ويتغلّب على أرضها الجفاف، ويقلّ فيها سقوط الأمطار... ومع ذلك فهي كثيرة الأودية التي تطغى عليها السيول عند سقوط المطر فتجعل منها أودية طاغية

---

(١) كامل الزيارات: ٤٨.

(٢) الجعفر: النهر الصغير دون الجدول. لسان العرب «جعفر».

مربدة وتتحول إلى مدافع عظيمة للمياه[١].

ومن هذا السبب وذاك لم تشهد أرض الجزيرة حضارة مهمة وذات شأن كما شهدت أرض مصر والعراق، فالنيل والفرات احتضنا حضارات قديمة لعبت دوراً كبيراً في التاريخ، ولكنّ الله عوّضهم بالبيت الحرام الذي جعله مثاباً للناس وأمناً، وتمّم نعمته على جزيرة العرب بالمصطفى ﷺ خاتم الرسل الذي فاق بوجوده وذكره كلّ حضارة وثقافة قامت على وجه الأرض.

النخلة والحضارة

تُعدّ النخلة من أهم الأشجار وأقدمها وألصقها بحياة الإنسان، وتتحدث مدونات التاريخ القديم عن هذه الشجرة المقدسة التي وهبها الله لعباده تفضلاً وكرماً، وأسهبت النصوص الدينية في الحديث عن النخلة.

وقد نالت النخلة من التكريم ما نال الإنسان الذي كرمه الله، ويتحدث الباقر عليه السلام عن جانب من هذا التكريم فيقول: إنَّ لله عزوجل ملائكة وكلهم بنبات الأرض من الشجر والنخل، فليس من شجرة ولا نخلة إلّا ومعها من الله عزَّوجلّ ملك يحفظها وما كان فيها[٢].

وللنخلة حديث مع سمرة بن جندب يعكس لنا أهميّة النخلة الواحدة في المجتمع الزراعي، وكان من خطورتها أن أفتى النبيّ ﷺ بحكم قضائي ما زال مورد بحث الفقهاء، حيث كان له عذق ـ النخلة بحملها ـ في حائط لرجل من الأنصار، وكان منزل الأنصاري بباب البستان، فكان يمرّ به إلى نخلته ولايستأذن،

---

(١) موسوعة الحضارة العربية العصر الجاهلي: ٥١.

(٢) علل الشرائع: ٢٧٨.

فكلّمه الأنصاري أن يستأذن إذا جاء، فأبى سمرة، فلمّا تأبّى جاء الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فشكا إليه وخبّره الخبر، فأرسل إليه رسول الله ﷺ وخبّره بقول الأنصاري وما شكا، وقال: إذا أردت الدخول فاستأذن، فأبى، فلمّا أبى ساومه حتّى بلغ من الثمن ما شاء الله فأبى أن يبيع فقال ﷺ: **لك بها عذق مذلّل في الجنّة فأبى أن يقبل فقال رسول الله ﷺ للأنصاري: اذهب فاقلعها وارم بها إليه فإنّه لاضرر ولاضرار**[١].

وترتبط النخلة بالحضارة ارتباطاً عريقاً تبدأ من لبنات خلق الإنسان الأوّل آدم عليه السلام، إلى تاريخ الحضارات الشرقية كلّها، وقد ذكر الصادق عليه السلام تاريخ النخلة وارتباطها بآدم عليه السلام فقال: إنّ الله تبارك وتعالى لمّا خلق آدم من الطينة التي خلقه منها فضل منها فضلة، فخلق منه نخلتين ذكراً وأنثى، فمن أجل ذلك أنّها خلقت من طين آدم عليه السلام تحتاج الأنثى إلى اللقاح كما تحتاج المرأة إلى اللّقاح، ويكون منه جيّد ورديّ، ودقيق وغليظ، وذكر وأنثى، ووالد وعقيم.

وكانت النخلة عجوة فأمر الله تعالى آدم أن ينزل بها معه حين أخرج من الجنّة فغرسها بمكّة، فما كان من نسلها فهي العجوة، وما كان من نواها فهو سائر النخل الذي في مشارق الأرض ومغاربها[٢].

ولذا قال النبيّ ﷺ: **استوصوا بعمّتكم النخلة، فإنّها خلقت من طينة آدم**عليه السلام[٣]، ولهذا وصفها علي عليه السلام بالقول: مثلها مثل ابن آدم، إذا قطع رأسه هلك، وإذا قطع رأس النخلة فهي جذع ملقى[٤].

---

(١) فروع الكافي٥:٢٩٢ح٢.

(٢) المحاسن للبرقي:٥٢٨ح٧٦٧.

(٣) بحار الأنوار٦٦: ١٢٩.

(٤) بحار الأنوار١٠: ٨٨.

وتعدّ النخلة سيّدة البستان وملكة الأشجار، وقد أشار القرآن الكريم، في تقريره للنعم الممنوحة لعباده لأهمية النخلة بقوله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (١) وكما في قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ (٢)، وفسّر الصادق عليه السلام قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ (٣)، بأنّه التمر (٤).

وقد اختار الله النخلة لتكون أنيسة مريم بنت عمران عليها السلام وملاذها لما تمتلك النخلة من أهميّة عظيمة وفوائد جليلة يحتاجها الإنسان، إضافة إلى أنّ النخلة لها من الأحاسيس والمشاعر ما ليس لبقية النباتات، فمعاناة مريم عليها السلام وما جرى لها لا يمكن تحمّلها، لأنّ البشر عاجزون عن مشاركة مريم عليها السلام أحاسيسها ولوعتها.

إلاّ أنّ السماء جعلت هذا المخلوق النابت على وجه الأرض يتلقّى مريم عليها السلام بحنان ورأفة خففّت عليها معاناتها ومقاساتها، وتقصّ علينا آيات القرآن الكريم هذه القصّة المثيرة وما رافقها من حديث فتقول: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ (٥)، ولنخلة مريم عليها السلام مكانة خاصّة لدى المعصومين عليهم السلام كما يظهر من رواية حفص بن

---

(١) الأنعام:١٩.

(٢) الرحمن:١٠و١١.

(٣) الكهف: ١٩.

(٤) المحاسن للبرقي ٥٣٦ ح٧٧٩، بحار الأنوار٦٦: ١٣١.

(٥) مريم:٢٣-٢٥.

غياث قال: رأيت أبا عبد الله عليه السلام يتخلل بساتين الكوفة فانتهى إلى نخلة فتوضأ عندها ثمّ ركع وسجد، فأحصيت في سجوده خمسمائة تسبيحة ثمّ استند إلى النخلة فدعا بدعوات ثمّ قال: يا حفص إنّها والله النخلة التي قال الله جلّ ذكره لمريم عليها السلام: «وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً»[١].

وبلغت النخلة من القدسية والتكريم درجة عالية ظهرت حين سئل الصادق عليه السلام عن قطع الشجرة والنخلة، فقال عليه السلام: قطع النخل مكروه، وحين سئل عن قطع الشجرة، فقال عليه السلام: لا بأس[٢] إلاّ أنّه عليه السلام جوّز الاستفادة من النخلة حتّى في مكّة[٣] وقد نالت النخلة من قلب علي عليه السلام مكاناً كبيراً، فروى الصادق عليه السلام أنّه كان عليّ عليه السلام يخرج ومعه أحمال النوى، فيقال له: يا أبا الحسن ما هذا معك؟ فيقول: نخل إن شاء الله، فيغرسه فلم يغادر منه واحدة[٤] إشعار منه بأهميّة النخلة ودورها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للأمّة، وللنصوص التاريخية القديمة تعريف بفوائد النخلة وضرورتها، فقد جاء في نص بابلي متأخر ٣٦٥ فائدة للنخلة، وعددت أغنية تدمرية فوائدها بثمانمائة[٥].

ودخلت النخلة في مسائل قيصر التي بعثها لعمر بن الخطاب واصفاً هذه الشجرة بالقول أنّها جارية بكر لأخوين في الدنيا، وفي الآخرة لواحد، وقد أجاب علي عليه السلام بالقول بأنّها في الدنيا لمؤمن وكافر من ولد آدم، وفي الآخرة

---

(١) روضة الكافي٨: ١٤٣ ح١١١.

(٢) فروع الكافي٥: ٢٦٤ح٨.

(٣) روى الشيخ الطوسي عنه عليه السلام قال: لا ينزع من شجر مكّة شيء إلاّ النخل وشجر الفاكهة. التهذيب ٥: ٣٧٩ح١٣٢٤ باب الكفّارة عن خطأ المحرم. وهذا يعكس أهمية النخلة وضرورتها في حياة الإنسان.

(٤) فروع الكافي٥: ٧٥.

(٥) سامي سعيد الأحمد، حضارة العراق ح٢: ١٦٧.

تكون لمسلم دون الكافر المشرك فهي شجرة في الجنة وليست في النار[١].

وأشار علماء التاريخ والآثار إلى الدور الكبير الذي لعبته النخلة في اقتصاد وحضارات الشرق القديم، لما للنخلة من مزايا تؤهلها للاستخدام التجاري والصناعي، حيث كانت صناعة الخشب والأسرّة والبيوت والفرش والأواني تتخذ جميعها من هذه الشجرة المعطاءة... وقد سجل الباحث الآثاري ليوأوپنهايم موقع النخلة في بلاد ما بين النهرين في العصور القديمة بالقول:لاتوجد شجرة مثمرة مثل شجرة النخيل حصلت على رعاية واهتمام، حيث أنّها تحتلّ مكانة شجرة الزيتون في منطقة البحر الأبيض المتوسط.

ثم يقول: وقد لعبت البساتين دوراً اقتصادياً مهما في حضارة وادي الرافدين.

وإنّ النخلة كانت شجرة التمر الأساسية الوحيدة في المنطقة، ويبدو أنّ تدجين هذه الشجرة قد حصل على السواحل الشرقية للمحيط الهندي إلى الغرب باتجاه الخليج العربي والبحر المتوسط ووادي النيل.

لقد منحت هذه الشجرة أهمية فريدة بسبب تحملها للملوحة والماء الآسن والتربة القلوية في جنوب بلاد ما بين النهرين.

إضافة إلى محصولها ذي القيمة الغذائية العالية الذي من الممكن حفظه وخزنه.

هذا وأنّ منتوجاتها كثيرة، ومنها السعف والليف والخشب، وتتطلّب النخلة طاقة بشرية قليلة إلاّ أنّها تتطلّب خبرة دقيقة عند القيام بعملية الشتل

---

(١) بحار الأنوار١٠: ٦٢.

والتلقيح ومعالجة أمرها[١].

وقد وردت النخلة في القصيدة البابلية، المعروفة بين المختصّين بالمساريات بقصيدة العدالة الإلهية، التي تقول: يا من أشبّهه بالنخلة، شجرة الخير والعطاء[٢].

واشتهر العراق وما يزال بزراعة الشجر المبارك النخيل، وقد خلّف لنا العراقيون القدماء كتابات مطوّلة عن النخيل وأنواعه وأوصافه ومنتجاته... .

وقد دلّت المخلفات الآثارية من عصور قبل التاريخ في العراق على معرفة العراقيين بهذه الشجرة وغيرها من خلال المتفحّمات التي اكتشفوها، ويؤيّد ذلك ويدعمه وجود العلامة الصوريّة الخاصّة بالنخل على أقدم الرقم[٣] الطينية التي يرقى زمنها إلى حوالي نهاية الألف الرابع وحتّى منتصف الألف الثالث ق.م، وبتقدّم الزمن وزيادة التدوين كثرت الإشارات إلى النخل وأنواعه وما يمكن أن يعمل منه.

وكان العراقيون يقدّسون هذه الشجرة العظيمة لما تقدّمه لهم من منافع حتّى أنّ المؤرّخ سترابو قال بحقها في معرض حديثه عن أهل العراق: تجهزهم النخلة بجميع حاجاتهم ما عدا الحبوب، وقال بلجريف: بأنّها خبز البلاد ومادة الحياة وعماد التجارة[٤].

---

(١) بلاد ما بين النهرين، ليواوينهايم، ترجمة سعدي فيضي عبد الرزاق، وزارة الثقافة بغداد: ٤١٢.

(٢) فاضل عبد الواحد علي، حضارة العراق، الفصل التاسع الأدب ج١: ٣٦٥.

(٣) أصل الرقم الختم والكتابة. والمراد هنا الألواح والقطع الطينية.

(٤) فاروق ناصر الراوي، العلوم والمعارف، المبحث السادس الحيوان والنبات، حضارة العراق ج٢: ٣٥٧.

فمن الثابت لدى علماء الآثار بأنّه في عصور العراق القديمة كانت النخلة أهم شجرة في البساتين... وقد كثرت زراعتها في الجنوب، فهي برغم كونها من الأشجار بطيئة النمو التي لاتعطي ثمرها إلاّ بعد مدّة بين ٤-٦ سنوات إن كانت مزروعة بالفسائل، وبين ٨-١٥ إنْ كانت مستنبتة من النوى، إلاّ أنّها كانت محور الحياة الاقتصادية.

فقد عرفت منذ القدم فوائد أجزاء النخلة المختلفة فاستعملوا ثمرها واستخرجوا منه أنواعاً... من الدبس والخّل.

واستخدموا النواة كوقود ثمّ علف بعد سحقه، وكذلك السعف والجريد لعمل الأثاث ولوازم الحياة اليومية والألياف لصنع الحبال والخوص لعمل الحصران والسلال ثمّ الجذوع للوقود وتسقيف البيوت... الخ .

وحوت شريعة حمورابي مواد لحماية النخلة ففرضت غرامة على من يقطعها دون موافقة صاحب البستان، وأجبرت مادة أخرى البستاني الذي يترك البستان دون تلقيح أن يدفع لصاحبها قدر إنتاج بستان جاره[1].

وهذا الاهتمام المتزايد في احترام النخلة في مدوّنات التاريخ القديم يلتقي مع النصوص الإسلامية التي قدّست النخلة وأوصت بها، وكأنّها مخلوق مخلص ومؤازر للإنسان، لا يمكنه العيش بدونها، وواقع الحال بالنسبة للمجتمعات المدنية كانت النخلة ومازالت عامل مساعد لإرساء حضارة المدينة وترتيب أمورها، فيتعذّر على الإنسان المدني الاستغناء عنها، وخصوصاً في المجتمعات التي كانت تعتمد على الاقتصاد الزراعي، فهي كالناقة للبدوي في الصحراء، فحين يفقد ناقته يفقد حياته ووجوده، وحين سئل النبيّ ﷺ: عن أيّ المال بعد الغنم والبقر فيه الخير، قال ﷺ: **الراسيات في الوحل، والمطعمات في**

---

(١) الدكتور سامي سعيد الأحمد، الزراعة والري حضارة العراق ج٢: ١٦٧و١٦٨.

النخل، نِعْمَ الشيء النخل، من باعه فإنّما ثمنه بمنزلة رماد على رأس شاهق اشتدّت به الريح في يوم عاصف[١] فهنا وضع ﷺ للنخلة صورة جميلة لمخلوق واقف بين الماء والطين باسطاً يديه السخية لكي يمنح الأفواه الجائعة قطع حلوى ذهبية تقطع عرق الجوع والغرث، حتى أنّ النبيّ ﷺ عدّ البيوت الخالية من تمر النخل بأنّها بيوت جائعة فقيرة بائسة، فروي عنه ﷺ أنّه قال: **بيت لاتمر فيه جياع أهله**[٢].

ووصف ﷺ بعض أنواعه بوصف غير قابل للتصديق لمحدودية عقولنا حيث قال أنّه يدفئ من البرد، ويشفي المريض، ويدفع التعب ويشبع جوعة الجائع، وهذا ما لايحتمله أي ثمر وشجر خلقه الله تعالى فيقول ﷺ: **عليكم بالبرني،فإنّه يذهب بالإعياء، ويدفئ من القرّ، ويشبع من الجوع، وفيه اثنان وسبعون باباً من الشفاء**[٣].

ويروى له ﷺ أنّه قال: **يزيد العبد قرباً لربّه ويبعده من إبليس، وقال ﷺ أيضاً: فيه تسع خصال: يقوّي الظهر، ويخبل الشيطان ويمرئ الطعام، ويطيّب النكهة، ويزيد في السمع والبصر،ويقرّب من الله عزّوجلّ، ويباعد من الشيطان، ويزيد في المباضعة ويذهب بالداء**[٤].

ووضع النبيّ ﷺ عواطفه الكريمة مع من يحبّ التمر فقال ﷺ: **إنّي لأحبّ الرجل التمريّ**[٥].

---

(١) الخصال للصدوق:٢٤٦ح١٠٥.
(٢) بحارالأنوار٦٦: ١٤٤.
(٣) مكارم الأخلاق:١٦٩.
(٤) نفس المصدر:١٦٩.
(٥) مكارم الأخلاق:١٦٩.

وروى سليمان الجعفريّ قال: دخلت على أبي الحسن الرضا عليه السلام وبين يديه تمر برنيّ، وهو مجدٌّ في أكله يأكله بشهوة، فقال: يا سليمان، ادنُ فكل، قال: فدنوت فأكلت معه وأنا أقول له: جعلت فداك، إنّي أراك تأكل هذا التمر بشهوة! فقال: نعم، إنّي لأحبّه، قال قلت: لم ذاك؟ قال: لأن رسول الله صلى الله عليه وآله كان تمرياً، وكان أمير المؤمنين عليه السلام تمرياً،وعدّ آباءه عليهم السلام، هكذا إلى نفسه، ثم قال: وأنا تمريّ وشيعتنا يحبّون التمر لأنّهم خلقوا من طينتنا، وأعداؤنا يا سليمان يحبّون المسكر لأنّهم خلقوا من مارج من نار[1] فالسعيد من حظي بحبّه صلى الله عليه وآله ، وهذا من أسرار هذه الشجرة الكريمة المقدّسة التي بقيت في ذاكرة التاريخ ومازالت.

---

(١) فروع الكافي٦: ٣٤٦ح٦.

الصناعة والمعادن

عرفت الأمم من قديم الأزمان أشكالاً بدائية للصناعة، فالحاجة إلى الأسلحة والدروع والسكاكين والأدوات المنزلية، وكذا المستعملة في حراثة الأرض وحفر الأرض ودقها وإعمارها كلّها عوامل تدفع الإنسان إلى الفكر الصناعي ليسدّ حاجاته، ومن هنا لا يمكن نفي الصناعة عن المجتمعات البشرية أبداً، فالحاجة مثلاً إلى استخدام الأخشاب للأغراض الصناعية والعسكرية[1] والمنزلية تجسدت في نشاط بشري تحويلي عرف التاريخ أبسط صورة منه في تحويل هذه الأشجار والأخشاب إلى فحم يدّخره الإنسان كوقود منزلي أو صناعي، ونجد إشارة إلى استخدام الفحم في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِـُٔونَ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾[2] وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾[3] فهنا نلمس التنويه بها بصفتها صناعة أولية وبدائية لصناعات أخرى، ولغير هذه الصناعة الأوّلية نجد إشارات في القرآن الكريم لصناعات أُخرى، وكذلك نجد الإشارة إلى صناعة السفن مثلاً، في عصر العبد الصالح نوح عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾[4].

---

(١) قالوا: أقدم سلاح عرفه الإنسان هو الفأس اليدوية التي كانت عبارة عن كتلة حجرية مهذّبة مربوطة على قطعة خشبية مأخوذة من أغصان الأشجار لا يزيد طولها على طول ساعد الإنسان. فوزي رشيد، حضارة العراق٢: ٤٠.

(٢) الواقعة: ٧١-٧٣.

(٣) يس: ٨٠.

(٤) القمر: ١٣.

والدُسُر هي المسامير التي شُدّت بها سفينة نوح عليه السلام[١]، ومهما كانت المادة الأولية للمسامير فهي صناعة تتطلب مهارة وتقنيّة ليست سهلة، ويفهم الباحث أنَّ هذه الصناعة كانت رائجة ومعروفة آنذاك، وبالنظر إلى عصر نوح عليه السلام وما يعني عندها للباحث من تقدم صناعي في النجارة التي مارسها نوح عليه السلام في صناعته لسفينته التي استوعبت المخلوقات التي حملها نوح عليه السلام فيها، وأعجب ما في الأمر قدرة هذه السفينة في مقاومة هذه الأمواج العاتية التي رافقت الطوفان مما يَستدعي التأمّل.

فيبدو أنّ سفينة نوح عليه السلام كانت على قدر عال من الصناعة المتقنة لكي تتحمل هذه الأعاصير والرياح العاتية التي أتت علىً كلّ شيء زمن الطوفان، وقد وصفها تعالى بقوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾[٢] مشيراً لقوّتها وقدرتها على مقاومة الأمواج التي تتلاعب بها الرياح والأعاصير القويّة.

ونجد أيضاً الإشارة إلى الصناعات الإنشائية في قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾[٣].

والمراد من قوله تعالى هنا هو قطع الصخور ونقبها واتخاذ البيوت منها[٤] وهو عمل صناعي حضاري ينبئ عن التقدّم في استغلال الطبيعة وتسخيرها لخدمة الإنسان.

ويحدّثنا القرآن الكريم أيضاً عن نمط من الهندسة الإنشائية التي كانت

---

(١) ينظر مجمع البيان مجلد ٥: ١٨٩. وجاء في الخبر أنَّ هذه السفينة كانت عظيمة مكوّنة من ثلاث طبقات طبقة للدوابّ والوحش وأخرى للإنس وطبقة فيها للطير،ينظر البحار٦٥: ٦٦.

(٢) هود: ٤٢.

(٣) الفجر: ٩.

(٤) ينظر مجمع البيان ٥: ٤٨٧، الكشاف للزمخشري ٤: ٧٤٨.

عليه أمّة من الأمم الموحّدة في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾[1] فتلاحظ في هذه الإشارة منعة السدّ وقوّته التحصينية، وهو عمل هندسي كبير.

ويروي الأصبغ بن نباتة عن عليّ عليه السلام أنَّ ذا القرنين أوّل من بني ردماً على الأرض -وهو السد- ثمّ جمع عليه الحطب وألهب فيه النار ووضع عليه المنافيخ فنفخوا عليه، فلمّا ذاب قال: ائتوني بقسر، وهو المسّ[2] الأحمر، فاحتفروا له جبلاً من مِسّ فطرحوه على الحديد فذاب معه واختلط به[3].

ويُفهم من هذه الرواية أنَّ ذا القرنين استخدم صناعة السبائك التي صنعها من معدني الحديد والنحاس لتكون مقاومتها أكثر، وهذا جهد عظيم يبين أهمية هذه الصناعة في حضارة الإنسان ومدنيته.

ويحدّثنا القرآن الكريم عن معدن له أهمية صناعية كبيرة، هو معدن الحديد الذي يدخل في كثير من الصناعات بما في ذلك الصناعات الستراتيجية التي رسمت ملامح الحضارات والمدنيات التي شهدتها المعمورة فقال تعالى في ذلك: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ

---

(١) الكهف: ٩٤-٩٧.

(٢) المِس: النحاس. اللسان «مسس».

(٣) تفسير العيّاشي ٢: ٣٤٢.

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ (١).

وقد امتنَّ الله تعالى على نبيّه داود عليه السلام بتذليل وتطويع هذا المعدن الذي يدخل في حياة الإنسان دخولاً لابدَّ منه فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢) وقد رُوي عن الصادق عليه السلام في نشاط داود الصناعي بأنَّ الله أوحى إلى الحديد: أن لن لعبدي داود، فألان الله تعالى له الحديد وكان يعمل كلّ يوم درعاً(٣) فهنا جهد صناعي كبير لا يستهان به.

وللإشارات القرآنية في الاستفادة البشرية للتقنية من الأشجار والحديد أهمية كبيرة في تاريخ التكنولوجيا التي رافقت الحضارة البشرية، فيتحدّث لويس ما مفورد في كتابه التقنيات والحضارة عن مراحل التقدم الصناعي والتكنولوجي فيقول: أولى المراحل مرحلة فجر التقنيات « Eotechnic phase » وترتكز هذه المرحلة على الخشب والطاقة المائية، وامتدت حتّى القرن الثامن عشر، وتميزت بالتكنولوجيات البسيطة السهلة بطبيعتها، وأعقبتها مرحلة التقنيات البدائية «Plaaeo technic phase» وترتكز على استغلال الفحم والحديد(٤) وهذا ما نبّه عليه القرآن الكريم في الإشارة إلى النار والخشب والحديد(٥) عماد الصناعة وأساسها، ومن هذا الأساس يمكن القول بأنَّ

---

(١) الحديد: ٢٥.

(٢) سبأ: ١٠و١١.

(٣) من لا يحضره الفقيه ٣: ١٦٢ ح ٣٥٩٤.

(٤) الآلة قوة وسلطة: ٤٣.

(٥) وكما أشرنا لذلك في سورة الواقعة ويس والحديد، ويمكن للباحث أن يستنبط من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ الأعلى: ٤و٥، بما اصطلح عليه الفحم

مقدمات الحرف والصناعات كانت معروفة للإنسان وموجودة، إلّا أنّها وجدت المناخ المساعد لنموها وتطورها في البيئة الإسلامية لذا مال مؤرخو الحضارة الإسلامية إلى الاعتقاد بأنَّ «المدينة الإسلامية أساس الحضارة وازدهار الحرف والصناعات، ففي مساحتها المحدودة يتجمع عدد كبير من العمال من مختلف الأجناس والأديان متقاربين في السكن ومتّصلين بعضهم ببعض في حياتهم اليومية بالأسواق، تجمعهم روابط اقتصادية واجتماعية وفكرية، كلّ في مجال تخصصه، ومن هنا نشأ نظام الطوائف والتكتلات الصناعية التي عُرفت بأسماء متعددة لكلّ الأصناف وأرباب الصنائع وأصحاب المهن، وأهل الحرف، وهي كلّها تعابير تُعطي معنى الجماعة لأبناء الصنعة الواحدة، وإنْ كان قد أُطلق اسم على أصحاب الحرفة كالصبّاغين والبزّازين والعشّابين»[1].

وحين هاجر النبيّ ﷺ إلى يثرب كان يواجه مدينة صناعية زراعية بالنسبة إلى سقفها الزمني وحجمها السكّاني، فقد اكتسبت يثرب شهرة عالمية في صناعات متعددة، كصناعة الخشب والأثاث وصناعة الحلي وأدوات الزينة وصناعة السلاح والمكاتل والقفف... فانتقاله لها بمثابة انفتاح على بقعة حضارية، بالقياس إلى أماكن أخرى.

ولإبراز أهمية هذه الصناعات وشهرتها العالمية يُكتفى بالإشارة إلى ما غنمه المسلمون من يهود بني قينقاع من آلات الصياغة وأدوات القتال، كالدروع والأقواس والسيوف التي كانت مخبّأة في حصونهم وآطامهم[2]، وعلى سبيل المثال لا الحصر، فقد غنم المسلمون ألفاً وخمسمائة سيف، وألفي رمح،

والذي يصفه العرب بالحوّة. ينظر أساس البلاغة ١: ٢٠٩ «حوى».

(١) تاريخ الحضارة العربية الإسلامية للتليسي: ٢٣١.

(٢) الأُطم: حصن مبني بحجارة، والجمع القليل آطام والكثير أُطوم. وقيل: الأُطوم: القصور. اللسان «أطم».

وألفاً وخمسمائة ترس وجحفة، وثلاثمائة درع من يهود بني قريظة بعد إجلائهم[١] وفي هذه الأرقام دلالة على نوع من التوسّع الصناعي الذي شهدته يثرب حينذاك.

ومن هذا الأساس، وباعتبار أنَّ الجهد البشري هو الذي يقوم بصناعة الآلات والعدد والأثاث التي لا تستطيع الجموع البشرية الاستغناء عنها قال النبي ﷺ: **العمل كنز والدنيا معدن**[٢]، فالعمل هو الذي يضع الناتج الصناعي الواسع الحضاري، يقول الاستاذ فوربز: أثرت المعادن في الاقتصاد القديم، لأن المعدن ساعد بشكل ملحوظ على ظهور المدن وربّما تكوين الإمبراطوريات القديمة[٣].

وأمّا بالنسبة للعرب القدماء فكانوا يقومون بالصناعات التي تقتضيها ضرورات عيشهم والتي تمسّ حاجاتهم، ولا غنى لهم عنها.

وبالجملة فالصناعات الحرفية شهدت نمواً نسبياً في الحواضر الإسلامية، فالتطور الصناعي لديهم كان موجوداً، ومن العوامل الرئيسية لتطوّر الصناعة الحرفية ازدياد وتنوّع حاجات العرب إلى السلع الصناعية، وتوافر الخامات المحلية، واستخدام المزيد من الأيدي العاملة، ونموّ الزراعة، بالإضافة إلى توسّع الحركات التجارية ونشاط الأسواق المحلية والموسمية العامة، واستثمار جزء من رأس المال التجاري وتوظيف المهارات والخبرات المهنية المتراكمة المحلية والمستوردة، ويتحدث صاحب موسوعة الحضارة العربية عن الحضارة الصناعية لديهم فيقول: وبالعودة إلى كتب المصادر والمراجع فإنَّ أسماء المعادن التي استخدموها في ميدان صناعة التعدين وتنقية المعدن من شوائبه كانت كثيرة

---

(١) ينظر التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدنية في عهد الرسول: ٤٦.

(٢) أعلام الدين للديلمي: ٣٤٠، وللحديث معانٍ كثيرة، وإنّما استعنا بظاهر اللفظ.

(٣) فاروق الراوي، حضارة العراق ج ٢: ٣٦٠.

للغاية، وذكر الهمداني أنَّ الناس كانوا يجمعون التبر من موضع بيشة أو بيش، ويستخلصون منه الذهب ومن ضنكان بمخلاف[١] تهامة اليمن وكان به معدن غزير من التبر.

أمّا ابن رسته فقد أشار إلى وفرة الذهب في مأرب، وذكرت المصادر أنَّ ذمار كانت مركزاً قديماً لإنتاج الذهب، وقد سُمّيت بعض قراها مثل: سامة العليا وسامة السفلى... .

أمّا أرض مدين وما والاها في شمال وادي إضَم[٢]، فقد عرفت بوجود التبر فيها، وقد عدّن من هناك قبل الميلاد بمئات السنين، ولا تزال آثار المناجم التي كانت تستخرج منها المعادن مبعثرة في مواضع عديدة حتّى اليوم.

ويخبرنا الهمداني أنّ الفضّة كانت من جملة المعادن المعروفة في اليمن أمّا موضعها فهو بالرضراض، وعرفت أهل اليمن الرصاص، بين فَهْم وخَوْلان[٣]، وقد استخدموه في كثير من الأعمال إذ صُبّ في أُسس الأعمدة... ومن هذا المعدن صُنعت حليّ ونقود لأنّه من المعادن النفيسه المستعملة كالذهب.

وقد استخرج من اليمن العقيق في موضع قرب صنعاء، وكذلك استخرج من ألهان[٤]، وكان عقيق ألهان ذا نوعية جيدة، يصنع بعضه في اليمن ويُحمل بعضه الآخر إلى الأُبُلَّة[٥]، ويُستخرج من منطقة صنعاء أيضاً العقيق

---

(١) المخلاف واحد المخاليف عند أهل اليمن وهي كُورها، ولكلّ مخلاف اسم يُعرف به، وهي كالرستاق، قال ابن برّي:المخاليف لأهل اليمن كالأجناد لأهل الشام والكور لأهل العراق والرساتيق لأهل الجبال، والطساسيج لأهل الأهواز. لسان العرب «خلف».

(٢) إضَم، بكسر الهمزة وفتح الضاد قيل: هو اسم جبل، وقيل موضع. اللسان «أضم».

(٣) فهم وخولان حيّان في اليمن. اللسان «خول» و«فهم».

(٤) وقيل لَهان. وهو حيّ. وبنو لهان: إخوة هَمْدان. اللسان «لهن».

(٥) وهو الجانب البحري للبصرة والأُبلة كانت تُسمّى بالنبطية بامرأة كانت تسكنها يقال

الأحمر والأصفر[١] وهذا كان مفهوماً للنبيّ ﷺ ؛ لذا حين سأله عليّ عليه السلام عن العقيق، قال ﷺ: **العقيق جبل في اليمن**[٢].

وللعقيق فضل كبير شهد له النبيّ ﷺ ، وفي ذلك روى ابن شهر آشوب أنَّ النبيّ ﷺ قال لعليّ عليه السلام: **يا عليّ، تختّم بالعقيق تكن من المقرّبين**، قال: يا رسول الله، وما المقربون؟ قال: **جبرئيل وميكائيل**، قال: فبم أتختّم يا رسول الله؟ قال: **بالعقيق الأحمر**[٣].

وللعقيق إحساس وتبصّر كما للعقلاء والعارفين فقد روى الصدوق أنَّ النبيّ ﷺ قال لعليّ عليه السلام: **بأنّه أقرَّ لله عزّوجلّ بالوحدانية، ولي بالنبوّة، ولك يا عليّ بالوصيّة، ولولدك بالإمامة، ولمحبّيك بالجنّة، ولشيعة ولدك بالفردوس**[٤].

ويقول الباقر عليه السلام: إنَّ العقيق جبل تُسبّح الله وتقدّسه وتمجّده وتستغفر لمحبّي آل محمد، فمن تختّم بشيء منها من شيعة آل محمد عليهم السلام لم ير إلّا الخير والحُسنى والسعة في رزقه والسلامة من جميع أنواع البلاء، وهو أمان من السلطان الجائر ومن كلّ ما يخافه الإنسان ويحذره[٥].

وقال ﷺ في فضل التختّم بالعقيق أيضاً: **تختّموا بخواتيم العقيق، فإنّه لا يصيب أحدكم غمّ ما دام عليه.**

وقال ﷺ: إنَّ جبريل أتاني به من الجنّة، فقال: **يا محمد تختّم بالعقيق ومر**

لها هوب...فماتت فجاء قوم من النبط فطلبوها فقيل لهم: هُوب ليكا، أي ليس، فغلطت الفرس فقالوا: هُوب كتْ فعرّبتها العرب فقالوا: الأُبُلّة...ترتيب جمهرة اللغة ١: ٤١ «أبل».

(١) موسوعة الحضارة العربية، العصر الجاهلي ٨-٩.

(٢) مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٣٠٢.

(٣) مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٣٠١.

(٤) علل الشرائع: ١٥٨ ح ٣.

(٥) أمالي الطوسي ١: ٣٦.

أمّتك أن يتختّموا به، وشكا رجل إلى رسول الله ﷺ أنّه قطع عليه الطريق، فقال له: **هلّا تختّمت بالعقيق! فإنّه يحرس من كلّ سوء**[١].

وإضافة إلى العقيق الذي عُرفت به اليمن فإنّها عرفت الجزع بأنواعه المتعدّدة، كالجزع النقمي في نقم، وضهر[٢] وسِعوان، والسروفي، والشزب جنوب صنعاء.

أمّا الجزع العِشاري ففي وادي عِشار قرب صنعاء، والجزع البَقَراني في أَنَس، وأشهره المثلث الألوان[٣].

وأخذ الجزع اليماني موقعه في الحديث النبوي ومن ذلك الخبر الذي رواه الرضا عليه السلام، عن آبائه عن عليّ عليه السلام قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده خاتم فصّه جزع يمانيّ فصلّى بنافيه، فلمّا قضى صلاته دفعه إليّ وقال: **يا عليّ، تختّم به في يمينك وصلّ فيه، أما علمت أنّ الصلاة في الجزع سبعون صلاة، وأنّه يُسبّح ويستغفر وأجره لصاحبه**[٤].

وقد كان الحديد متوافراً في مضارب قبيلة سُلَيم، الواقعة إلى الشرق من يثرب، كما كان يوجد في مواضع نَقم وغُمدان حول صنعاء، وكان التجار يبتاعونه عند نزولهم صنعاء، ويوجد أيضاً في جبل الحديد بعدن، علماً أنّ بني أسد قد اشتهروا بصناعة الحديد، وكان يقال لهم القُيون... وقد صنع العرب من الحديد أسلحتهم كالسيوف والدروع وغيرها، وكانت الأسلحة المصنوعة في اليمن، ومنها السيف اليماني والدرع اليماني، مشهورة بجودتها، وكان الناس

---

(١) مكارم الأخلاق: ٨٧و٨٨.

(٢) الضَهْر: خِلقة في الجبل من صخرة تخالف جِبِلّته. اللسان «ضهر».

(٣) موسوعة الحضارة العربية: ٩.

(٤) عيون أخبار الرضا ٢: ١٣٢ ح ١٨.

يقبلون على اقتنائها[١]، ومن هذا يمكن تفسير ما جاء في الخبر عن عليّ عليه السلام أنّه قال: جاء جبرئيل إلى النبيّ ﷺ فقال: يا محمّد، إنّ باليمن صنماً من حجارة مقعد في حديد، فابعث إليه حتّى يُجاء به، قال: فبعثني النبيّ ﷺ إلى اليمن فجئتُ بالحديد فدفعتُ إلى عمر الصيقل فضرب عنه سيفين: ذا الفقار ومخدماً، فتقلّد رسول الله ﷺ مخذماً وقلّدني ذا الفقار[٢].

وكانت بعض المناطق مراكز لصناعة النسيج، وخاصّة في اليمن وصحار وقطر، التي كان كلّ منها يصدّر مقادير كبيرة من هذه المنسوجات إلى الأقاليم الأخرى من جزيرة العرب.

ومن الطبيعي أنّ صناعات أخرى ازدهرت أيضاً، وخاصّة ما يتّصل منها بالأسلحة، كصنع السيوف والرماح والنبال ودباغة الجلود التي اشتهرت بها الطائف والمناطق الشمالية من اليمن.

وقامت على سواحل الجريرة موانئ يعمل أهلها في صناعة السفن وإصلاحها والملاحة فيها، ومن أشهرها عند ظهور الإسلام دارين في البحرين وصحار في عمان وعدن في جنوب اليمن والشعيبة في الحجاز[٣].

وكان النبيّ ﷺ يبارك بأيّ جهد صناعي يقوم به الإنسان، ويظهر هذا من رواية ابن شهر آشوب المازندراني حيث روى أنّ النبيّ ﷺ مرّ بعبد الله بن جعفر بن أبي طالب عليه السلام وهو يصنع شيئاً من طين من لعب الصّبيان فقال

---

(١) موسوعة الحضارة العربية العصر الجاهلي: ١٠.

(٢) بحار الأنوار ٢٦: ٢١١.

(٣) صالح أحمد العلي، دولة الرسول في المدينة: ٢٧٩.

ﷺ: **مـا تصنع بهذا؟** قال: أبيعه، قال ﷺ: **ما تصنع بثمنه؟** قال: أشتري رطباً فآكلـه، فقـال له الـنبيّ ﷺ: **اللهم بارك له في صفقة يمينه**، فكان يقل: ما اشترى شـيئاً قـطّ إلّـا ربـح فـيه، فصار أمره إلى أن يُمثَّل به، فقالوا: عبد الله بن جعفر الجـواد، وكان أهل المدينة يتداينون بعضهم من بعض إلى أن يأتي عطاء عبد الله بن جعفر[1].

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ٨٤، بحار الأنوار ١٨: ١٧.

التجارة والحضارة

تُعدّ التجارة من أبرز مظاهر الحضارة الإسلامية وأقواها، وكانت تمثل ازدهار المسلمين الاقتصادي لمختلف العصور الإسلامية[1]، وقد كان النبيّ ﷺ يحثّ على التجارة ويندب لها فروي عنه ﷺ قوله: **البركة عشرة أجزاء، تسعة أعشارها في التجارة والعشر الباقي في الجلود**[2].

وقال ﷺ: **العبادة سبعون جزءاً أفضلها جزءاً طلب الحلال**[3] وارتقى التاجر الصادق في عمله ومع الناس درجة الإمام العادل والعابد الزاهد التي وقف عمره للعبادة فقال الصادق عليه السلام: ثلاثة يُدخلهم الله الجنّة بغير حساب: إمام عادل، وتاجر صدوق، وشيخ أفنى عمره في طاعة الله عزّوجلّ[4].

وعدّ الصادق عليه السلام التجارة عامل نمو وارتقاء للعقل البشري فقال عليه السلام: التجارة تزيد في العقل[5].

وقد دعا عليّ عليه السلام للأعاجم الذين شكوا له عليه السلام الحيف والظلم الاجتماعي بالبركة في تجارتهم فقال لهم: إنَّ هؤلاء قد صيّروكم بمنزلة اليهود والنصارى يتزوّجون إليكم ولا يزوّجونكم ولا يعطونكم مثل ما يأخذون،

---

(١) بلغ العقل التجاري لدى المسلمين مبلغاً أن ألّف الشيخ أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي من أهل القرن الخامس الهجري كتاب الإشارة إلى محاسن التجارة، فيه فوائد اقتصادية لم يسبقه أحد إليها وأبحاث في معنى النقود والسلع... ينظر كتاب من التمدن الإسلامي للسيد محمد الشيرازي: ٣٤٣.

(٢) بحار الأنوار ١٠٣: ٥، الخصال للصدوق: ٤٤٥ ح ٤٤.

(٣) ثواب الأعمال : ٢١٥ مكتبة الصدوق طهران.

(٤) بحار الأنوار ٧١: ١٧٩.

(٥) من لا يحضره الفقيه ٣: ١٩١ ح ٣٧١٧ ط جماعة المدرسين قم.

فاتجروا بارك الله لكم[١] فكان بركة التجارة تعويض للحيف والظلم الذي يلحق بالناس.

وقد تحوّل المجتمع الإسلامي خلال القرن الثاني الهجري إلى طور صارت فيه التجارة من أهم أركان الحياة الاقتصادية، واحتلّت المكان الأوّل في التجارة العالمية[٢].

وللتجارة دور كبير في نشأة المدن وتطوّرها الحضاري، وحتّى النظرية التي تفسّر نشأة المدن لأسباب عسكرية وحربية تعود إلى عامل التجارة في استقرار المدن وتطوّرها، ويعدّ المؤرخون لجوء الدول والحكام للتحصينات والقلاع العسكرية من عوامل نشأة المدينة وتطورها، وهذا العامل يرتبط بالتجارة أيضاً «إنَّ التفسير العسكري لأصل المدينة يمتّ بصلة كبيرة إلى التفسير السياسي، ذلك التفسير الذي يُبيّن أنَّ الناس من تجّار وحرفيين كانوا يجتمعون في هذه الحصون والقلاع لأجل حماية أنفسهم وتجارتهم من خطر الغزوات والهجمات، وبمرور الزمن تتزايد أهمية ذلك الموضوع بزيادة حجم التبادل التجاري فيتحوّل إلى مدينة»[٣].

وظاهر النصّ القرآني يؤيّد هذه النظرية ويؤكّدها، فلو تأمّلنا قوله تعالى الذي ينقل لنا حوار الفتية في قصة أهل الكهف حين تساءلوا: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا

---

(١) بحار الأنوار ٤٢: ١٦٠.

(٢) صباح الشيخلي، الأصناف في العصر العباسي: ٢١.

(٣) الدكتور عبد الجبار ناجي، المدن العربية الإسلامية، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع بيروت: ١٦.

﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ (١).

نفهم دور العامل التجاري في تكوين هذه المدينة التي كانت قريبة من هؤلاء الفتية الفارّين من الشرك، وظهور نظام مالي يُعتبر متطوراً تسبياً، لديهم بالإشارة القرآنية للورق-وهو الفضّة-في معاملاتهم التجارية والاقتصادية ما يكفي لأثر العامل التجاري في إرساء المدن وتأكيد وجودها وتطوّرها في مسيرة الحضارة، كما أنَّ قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (٢).

يشير إلى المدينة التي تقع في مفترق طرق تجارة عالمية تستورد ما شاء لها من البضائع والسلع، أو أنّها مدينة غنيّة تحمل الأُمم والشعوب لها بضاعتها لتصريفها هناك، أو أنّها ميناء ومرفأ واقع على ساحل البحر... وغير ذلك من التصورات، فهنا نجد أنفسنا أمام مثل قرآني يذكّرنا بالحركة التجارية وفي هذا المثل تلميح لأهمية التجارة، ودروها في حياة المدن واستمرارها، والقرآن الكريم يذكرنا بهذا المثل بنعمة التجارة، فالتجارة والأسواق وحركتها الاقتصادية في مجمل حياة الإنسان نعمة كبيرة تضع مختلف النعم بين يدي الناس يتداولونها لسدّ حاجاتهم وإكمال نواقصهم... إلى غير ذلك من المنافع.

ولعبت التجارة والأسواق دوراً كبيراً في حياة المكيين وغيرهم فتاريخ مكة والمكيين هو بالضرورة تاريخ حركتهم الاقتصادية والاجتماعية بل وحتى السياسية وأبرز شيء هو تجارتهم على مرّ العصور يقول سيمون: إنّ معظم

---

(١) الكهف: ١٩.

(٢) النحل: ١١٢.

المصادر الإسلامية تربط ظهور مكّة بقيام التجارة عبرها، ربط السبب بالنتيجة[١].

ولم تُعدم بقية طوائف العرب المعرفة والدراية بالتجارة، وأبرز مظهر معرفي لديهم هو السوق الموسمي، فقد عرف العرب في جاهليتهم الأسواق، وكانت أغلبها أسواقاً موسمية تقوم في ملتقى الطرق التجارية ويفد عليها الناس من أماكن مختلفة كأسواق عكاظ ودومة الجندل وأسواق عدن وصنعاء، وقد وصلتنا أخبار كثيرة من هذه الأسواق وأيّامها[٢]، ويُعد تجمع العرب في عكاظ أهم حدث سياسي واقتصادي واجتماعي في الجاهلية قياساً إلى بقية الأسواق والنشاطات الاقتصادية التي عرفت آنذاك، ويجمع المؤرخون على أنَّ عكاظ كانت موسم اجتماع عام، تلتقي فيه وفود القبائل لإعلان خلع من يريدون خلعه أو لدفع ديات القتلى أو لتبادل الأسرى، أو للسعي في فدائهم أو للنظر في الخصومات بين العشائر، وإيجاد الحلول أسباب خلافاتهم ومنازعاتهم، وعقد اتفاقات صداقة وتعاون، أو اتفاقات حسن الجوار، وهي أيضاً منبر لشرح الإصلاح، ففيها استمع النبيّ ﷺ قبل ظهور الدعوة الإسلامية إلى قُس بن ساعدة الإيادي، وهو يخطب في الناس داعياً إيّاهم إلى التفكّر في شؤون الخلق والهداية إلى الخير والبعد عن الشرّ[٣].

وكان رسول الله ﷺ يسأل من يَقدم عليه من إياد عن حكمته ويُصغي إليها، بل يسأل عن شعره أيضاً، وكان قُسّ أوّل من آمن بالبعث من أهل الجاهلية، وأوّل من توكّأ على عصا.

ويقال: إنّه عاش ستمائة سنة، وكان يعرف النبيّ ﷺ باسمه ونسبه، ويبشّر

---

(١) فكتور سحّاب إيلاف قريش: ٢٨٩.

(٢) صباح إبراهيم الشيخلي، الأصناف في العصر العباسي، ط وزارة الأعلام بغداد: ٣٨.

(٣) موسوعة الحضارة العربية، العصر الجاهلي: ١٨.

الناس بخروجه، وكان يستعمل التقيّة ويأمر بها من خلال ما يعظ به الناس.

وكان يتكّلم بما يخفى معناه على العوام ولا يدركه إلّا الخواصّ.

ومن ذلك دعاؤه: اللهم ربّ هذه السبعة الأرقعة، والأرضين الممرعة، بمحمد ﷺ والثلاثة المحامدة معه، والعليين الأربعة، وسبطيه النبعة الأرفعة، والسرى اللامعة، وسميّ الكليم الضرعة، أولئك النقباء الشفعة، والطريق المهيعة، دَرسَة الإنجيل، وحفظة التنزيل، على عدد النقباء من بني إسرائيل، مُحاة الأضاليل، ونُفاة الأباطيل، الصادقو القيل[1] يشير بذلك إلى الأئمة المعصومين عليهم السلام.

وروى الباقر عليه السلام عن اهتمام النبيّ ﷺ بقُس بن ساعدة ومتابعته ﷺ لأخباره فقال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بفناء الكعبة يوم افتتح مكّة إذ أقبل إليه وفدٌ فسلّموا عليه، فقال رسول الله ﷺ: **من القوم؟** قالوا: من وفد بكر بن وائل، قال: **فهل عندكم علم من خبر قُس بن ساعدة الإيادي؟** قالوا: نعم، يا رسول الله قال: **فما فعل؟ قالوا: مات، فقال رسول الله ﷺ: الحمدُ لله ربّ الموت وربّ الحياة، كلّ نفس ذائقة الموت، كأنّي أنظر إلى قُس بن ساعدة الإيادي وهو بسوق عكاظ على جمل له أحمر وهو يخطب الناس ويقول: اجتمعوا أيّها الناس، فإذا اجتمعتم فأنصتوا، فإذا أنصتم فاستمعوا، فإذا سمعتم فَعُوا، فإذا وعيتم فاحفظوا، فإذا حفظتم فاصدقوا، ألا إنّ من عاش مات، ومن مات فات، ومن فات فليس بآتٍ، إنّ في السماء خبراً، وفي الأرض عِبَراً، سقف مرفوع، ومِهاد موضوع، ونجوم تمور، وليل يدور، وبحار ماءٍ لا تغور، يحلف قُس ما هذا بلعب، وإنّ من وراء هذا لعجباً، ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون! أرضوا بالمقام فأقاموا؟ أم تُركوا فناموا؟ يحلف قُس يميناً غير كاذبة، إنّ لله ديناً هو خيرٌ من**

---

(١) ينظر بحار الأنوار ١٥: ٢٤٦و ١٨٢ والمناقب لابن شهر آشوب ١: ٢٨٧.

الديـن الذي أنتم عليه، ثمّ قال رسول الله ﷺ: رحم الله قُسّاً يوم يُحشر يوم القيامة أمّة واحدة[١].

ولسـوق عكـاظ مكانـة ممتازة بين أسواق العرب في نظر الباحثين أسباب ثلاثـة عـلى الأقـل: الأول: هـو أنَّ المصادر العربية الإسلامية تزخر بأخبار هذه السوق كما لم تزخر بأخبار أيّ سوق غيرها.

والـثاني هو أنَّ سوق عكاظ فيما يختصّ بهذا المبحث كانت مكان اختيار لأداء مكّـة السياسـي والعسـكري في إدارتهـا للإيـلاف خلال حروب الفجار، والثالـث: هـو أنَّ وفـرة الحوادث والمرويات عن هذه السوق تنيح أفضل فرصة لدراسـة أسـواق العـرب وأثـرها في تطـوّر الحـياة المشـتركة فـيما بين القبائل، ولملاحظـة العوامـل التي جعلت هذه الأسواق مراجل تنصهر فيها القبائل سنة بعد سنة على نار المواسم الحامية[٢].

وسـوق عكـاظ كانـت بالقـرب مـن مكة يجتمعون بها كلّ سنة فيقيمون شـهراً يتبايعون ويتفاخرون ويتناشدون ما نظموا من شعر، فهي مؤتمر اقتصادي وسياسـي واجـتماعي يـتعرف العرب بعضهم ببعض[٣] وكأنّ فرصتهم الوحيدة قـبل ظهور الإسلام كانت هي عكاظ ولعب القرشيون دوراً كبيراً بالحضور في هـذه السـوق، ويـبدو أن الأديـم العكـاظي[٤]، الـذي يُنسـب لهـذه السوق كان

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة للصدوق: ١٦٦ ح ٢٢، بحار الأنوار ١٥: ١٨٣.

(٢) إيلاف قريش: ٣٨٩.

(٣) ينظر لسان العرب «عكظ».

(٤) كانـت هناك صناعة تحويلية في مكّة تخصصت في الأدم، أي الجلود، ولو أنّها كانت أقلّ شـأنا مـنها في الطـائف. ويذكـر الأخـباريون أنّ قريشـاً عـند مـا أرسلت عمرو بن العاص وعمـارة بـن الولـيد إلى النجاشـي بعثـت معهمـا هدا يا قيمة من الأدم إليه وإلى بطارقته. قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية : ١٦٨.

صناعات جلدية تُحمل إلى هذه السوق فيباع فيها، وقد اتصفت بالجودة والشهرة، وقد أشار الإمام عليّ عليه السلام لهذا الجلد بقوله: كأنّي بك ياكوفة تُمدّين مدَّ الأديم العُكاظي، تُعركين بالنوازل وتُركبين بالزلازل[١] وتفيد إشارته عليه السلام إلى تجذّر هذه البضاعة في أذهان الناس والدقّة في صناعتها وغزوها للأسواق التجارية، وبالتالي فالعرب والقرشيون على وجه الخصوص لهم معرفة ودراية بالتجارة، ويبدو أنَّ التجارة لديهم أعرق من الصناعة وامتهان الحرف، فهي تُعدّ لهم كمركز اجتماعي وطبقي له اعتباره وأهميته في مجتمع تراتبي كان ملتقى القوافل ومركزاً للتجارة العالمية ومستقراً لجواسيس الدولتين العظميين الرومانية والفارسية[٢].

ولقريش عراقة وجذر قديم في التجارة يمتّ إلى النبط، وهم أهل حضارة قديمة معروفة، ويعود أصل النبط إلى جغرافية العراق القديم، حيث إنّ النبط جيل كانوا ينزلون سواد العراق، وينسب إلى ابن عباس قوله: نحن -معاشر قريش- من النبط من أهل كُوثى[٣] ويعرّف المؤرخون هذه الحضارة بأنّها حضارة تجارية يقول مؤلفا تاريخ الحضارة: قامت حضارة الأنباط على أساس التجارة، حيث كانت البتراء مركزاً تجارياً رئيسياً وملتقى للطرق والقوافل في بلاد الشام وامتدت حتّى مصر، وساعد ذلك بعض الصناعات التي اشتهرت بها، لاسيّما صناعة الخزف والأواني الفخارية.

وتُعدّ لغة الأنباط من اللغات العربية الشمالية التي كُتبت بالخطّ

---

(١) نهج البلاغة: ٨٦ رقم ٤٧ من كلام له عليه السلام.

(٢) ينظر قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية: ٨٤.

(٣) ينظر بحار الأنوار ٦٧: ١٧٧ ولسان العرب «نبط».قيل إنَّ المقصود بالنبط بنايوت وهو ابن إسماعيل في النوراة وأمّا كوثى فهو موطن إبراهيم، وقيل أنّه من أهل العراق كما ذكر في التوراة. موسوعة الحضارة العربية، العصر الجاهل: ٢٨٤

الآرامي، واستخدم الملوك والسكّان الأسماء العربية المعروفة آنذاك[١].

وقد روي أنّ الإمام الصادق عليه السلام كان يُجيد اللغة النبطية ويتكلّم بها[٢].

ويبدو أنَّ للنبط دوراً في التجارة الدولية منذ أمد بعيد، تشهد لهم الوثائق والآثار التاريخية «وقد عُثر في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد على نقود نبطية على الطريق بين البتراء وغزّة، فيما تلّ الآثار النبطية بين العقبة وغزّة من حصون وصهاريج وبقايا أدوات فخارية على ازدهار أعمالهم التجارية قروناً قبل الميلاد.

كذلك اكتشفت آثار نبطية في الجوف[٣]، ممّا يدل على امتداد الخطوط النبطية شرقاً وجنوباً، عبر وادي سِرحان في وسط الطرف الشمالي لجزيرة العرب، ويؤيّد رأي بعض المؤرّخين أنَّ هذا الوادي كان ممرّاً مهمّاً لتجارة الأنباط من الجزيرة العربية إلى حوران[٤].

وكأنَّ الجذر النبطي كان ضارباً بدماء قريش، بحيث ظلَّ أهالي مكة لسنين وعقود ليست محصورة ملوك التجارة وأربابها، حتّى النبيّ ﷺ نفسه مارس هذه المهنة لشيوعها في هذا المجتمع وتوفر أسباب ممارستها.

وقد بلغت مكة في التاريخ قمّة مجدها من خلال تجارتها فقيل «أصبحت مكة جمهورية تجارية يتولّى رئاستها أغنياء قريش»[٥].

---

(١) تاريخ الحضارة العربية الإسلامية للتليسي : ٣٤.

(٢) ينظر بحار الأنوار ٤٧: ٨٠.

(٣) الجوف: موضع باليمن. والجَوف: اليمامة. وباليمن وادٍ يقال له الجوف. اللسان «جوف».

(٤) فكتور سحّاب، إيلاف قريش، المركز الثقافي العربي: ٤٣.

(٥) الدكتور حسّان حلّاق، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية بيروت: ١٠.

وبدأت ممارسة النبيّ ﷺ للتجارة أو مشاهدته لها والتعرّف عليها في وقت مبكر من سني حياته، نظراً لاتصاله المباشر بعمّه الكريم أبي طالب ﷺ، ولمّا كان أبو طالب مثل سائر أهل مكّة في زمانه تاجراً يقصد بلاد الشام للاتجار خرج أبو طالب لتجارة له إلى بصرى، سوق التجارة مع البلاد العربية في ذلك الحين، وكان يقصدها تجار مكة لبيع ما عندهم من بضاعة ولشراء ما فيها من سلع بلاد الشام وحوض البحر المتوسط، وقد أشفق أبو طالب على ابن أخيه محمد ﷺ أن يصحبه في هذه الرحلة وهو في الثانية عشرة من عمره أو أقلّ من ذلك، إلّا أنَّ إصرار النبيّ ﷺ على مرافقة عمّه أجبر أبا طالب على القبول بمرافقة ابن أخيه معه[١].

وفي هذه الرحلة التجارية رأى النبيّ ﷺ بحيرا الراهب الذي أخبر عمّه أبا طالب بشأنه وشأن النبوّة التي كانت تشعّ أنوارها هناك[٢]، وبدخول النبيّ ﷺ في نادي مكّة التجاري بدأ فصل جديد في حياة مكّة التجارية، عندها عظمت مكّة وسرى حديثها في الآفاق فقد كان الكهّان واليهود يتتبعون حركة النبيّ ﷺ ويترصدونها كما أنَّ عدداً من تجّار مكة كانوا على قدر من المعرفة والاطلاع فانضمام النبيّ ﷺ إليهم كان إثارة إعلامية مهمة آنذاك، فليس سكّان مكّة كسكان الحواضر الأخرى، فاحتمال تواجد جمهرة من المثقفين والعارفين قائم، ومن هذا يصف الدكتور جواد علي ثقافتهم بالقول: وبلدةٍ مثل مكة مقدّسة ومتاجرة وعاصمة للثقافة وللحياة الدينية ولها اتصال بالخارج، وبأرقي الأماكن بالنسبة إلى ذلك العهد لا بدَّ أن يكون بين سكانها جماعة من المثقفين ومن الباحثين في أمور الدين ومن القُرّاء والكاتبين والواقفين على

---

(١) ينظر الدكتور جواد على، تاريخ العرب في الإسلام: ١٣٢.

(٢) ينظر بحار الأنوار ١٥: ٤٠٩ وسيرة ابن هشام ١: ١٩١.

أخبار العالم وعلى الحركة العلمية في الخارج[١].

فإذا كانت مكة مشرّفة بين البلدان فإنَّ النبيّ ﷺ زادها شرفاً وعزّاً وتألّقاً على ألسنة الباحثين والمؤرخين وما زال.

وقد وصف الباحث أحمد السباعي وضع مكة التجاري بالقول: كانت مكة بحكم موقعها في طريق تجارة الطيوب والغلال وأنواع الأقمشة بين دول الجنوب وممالك الشمال ذات مركز استراتيجي ممتاز، وكانت أسواقها تزدحم بالتّجار صاعدين في الشمال إلى الشام أو هابطين في الجنوب إلى اليمن كانوا ينقلون من منتوجات أفريقيا عن طريق اليمن، الرقيق والصمغ والعاج والتِبر، كما ينقلون من اليمن الجلود والبخور والثياب، كما ينقلون من العراق توابل الهند، ومن مصر والشام الزيوت والغِلال والأسلحة والحرير... فمهروا في التجارة وتضخمت رؤوس أموالهم وبلغت قوافلهم التجارية ألف بعير في عهد غزوة بدر مضافاً إليها خمسون ألف دينار منقولة بين أثقالهم كما بلغت في بعض المرّات ألفين وخمسمائة بعير، وهي نسبة لها قيمتها المادية إذا قيست بالثروات في عهدها، وبلغ من ثراء قريش أنّها استطاعت في غزوة بدر أن تفتدي أسراها من المكيين بأربعة آلاف درهم للرجل إلى ألف درهم إلّا من عفا عنهم النبيّ ﷺ من المعدمين.

وكانت إلى جانب هذا من أهم مراكز الصرافة في العالم القديم، وكان التاجر من أيّ بلدٍ في الآفاق يستطيع أن يؤمن فيها على بضائعه صادرة أو واردة، وربّما احتاج إلى كثير من المال لسداد ما تطلبه بضائعه فتقرضه المصارف في مكّة كما تفعل البنوك اليوم، وربّما أفحشت في الفوائد فتضاعف الربا

---

(١) تاريخ العرب في الإسلام: ٨٦.

واضطهد المدين حتّى جاء القرآن بتحريم الربا عليهم[١].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٢] ومن هذا الاتجاه في تحريم الربا قال النبي ﷺ: **من أكل الربا ملأ الله بطنه نار جهنم بقدر ما أكل، فإنْ كسب منه مالاً لم يقبل الله شيئاً من عمله، ولم يزل في لعنة الله وملائكته مادام معه قيراط.**

وقال ﷺ: شرّ المكاسب كسب الربا[٣].

وقال ﷺ: إنّ الله عزوجل لعن آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه[٤].

وروى الصادق عليه السلام أنّ النبيّ ﷺ قال: لمّا أُسري بي إلى السماء رأيت قوماً يريد أحدهم أن يقوم فلا يقدر أن يقوم من عظم بطنه، فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلّا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ، فقام خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ربا أبي في ثقيف وقد أوصاني عند موته بأخذه، فأنزل الله تبارك

---

(١) تاريخ مكة، ط دار مكّة للطباعة والنشر، الرابعة: ٣٩.

(٢) البقرة: ٢٧٥-٢٧٨.

(٣) بحار الأنوار ١٠٣: ١٢٠و١١٥و١١٦.

(٤) أمالي الصدوق: ٣٤٦.

وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[١].

وكانت ظاهرة الربا في المجتمع الجاهلي قد أدّت إلى ظهور ما يُسمّى عبودية الدين، فقد كان الفرد يقترض لسدّ رمقه ويعجز عن سداد الدين فيحقّ للمقرض استرقاقه أو بيعه أو يبيع منه ولده[٢].

فلم يوافق هذا القانون الجائر نقس النبيّ الكريمة ﷺ فأعلن إلغاءه ووضع مواثيقه تحت قدميه، وإنْ كان ميثاقه صادراً من بني أبيه فقال ﷺ: **ألا وكلّ ربا كان في الجاهلية فهو موضوع، وأوّل موضوع منه ربا العبّاس بن عبد المطّلب**[٣].

فلقد كان القرض قبل الإسلام قيداً وعبودية وعناءً يسلب الإنسان حريته وإنسانيته فلذا كان النبيّ ﷺ يستعيذ بالله منه ومن الكفر الذي يجحد النعم، حيث روى أبو سعيد الخدري أنه سمع النبيّ يقول: **أعوذ بالله من الكفر والدين**، قيل يا رسول الله أيعدل الدين بالكفر؟ قال: **نعم**[٤] وروي عنه ﷺ: **أنّه همّ بالليل وذلّ بالنهار**[٥].

أمّا إذا كان المُقرض رحيماً ومتعاونا مع من يقرضه فهذا له من الدرجة الرفيعة والثواب الكثير، لأنَّ للقرض أثراً في تنمية الاقتصاد القومي وتحريكه، كما أنَّ القرض له أثر اجتماعي واقتصادي كبير في تمشية وتيسير معاملات

---

(١) تفسير القمي ١: ٩٣ والآية في سورة البقرة: ٢٧٨و٢٧٩.
(٢) قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية : ١٦٩.
(٣) تفسير القمي ١: ١٧١.
(٤) الخصال للصدوق: ٤٤ ح ٣٩.
(٥) علل الشرائع للصدوق: ٥٧ ح ١.

الناس وتدبير أمورهم، وفي ذلك نزل الكتاب: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾[١] للذي ليس له قدرة على تسديد القرض، أن يُرحم ويُنظر لا أن يوضع في زنزانة العبودية يقدم رقبته ورقبة أولاده ثمناً للدائن.

وكأن العملية مقامرة، فيُمنى المقترض بهزيمة نفسية تجعله يفكر في خسارة مسبقة تنتظره وحتى الدائن فكانﷺ يقول: **من أراد أن يظلّه الله في ظلّ عرشه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه فلينظر معسراً أو ليدع من حقّه.**

وقالﷺ: من سرّه أن يقيه الله من نفحات جهنم فلينظر معسراً أو ليدع له من حقّه... .

وقالﷺ لعدّة من أصحابه: **أيّكم يُحبّ أن ينفصل من فور جهنم؟** فقال القوم: نحن يا رسول الله، فقالﷺ: **من أنظر غريماً أو وضع لمعسر**[٢] وقالﷺ: **أحبّ الأعمال إلى الله تعالى ثلاثة: إشباع جوعة المسلم، وقضاء دينه، وتنفيس كربته**[٣].

لأنَّ الدين إذا تراكم وتراكب يكون هماً ثقيلاً وعبئاً على صاحبه يأخذ بخناقه، وحتّى صاحب المال الذي أقرضه لا يخلو من قلق يصاحبه لاسترجاع ماله الذي أودعه الشخص المدين، وكأنَّ العملية تكون له أشبه بمغامرة أو انتظار غائب قد لا يعود، فهو هنا يعيش وضعاً نفسياً مأزوماً لأنّه يخاطر بماله، «لأنَّ إقراض الدائن لماله نوع من المغامرة قد تفقده ماله، إذا عجز المدين في المستقبل عن الوفاء وتنكّب له الحظّ، فلا يظفر الدائن بشيء»[٤].

---

(١) البقرة: ٢٨٠.

(٢) تفسير العياشي ١: ١٥٣و١٥٤ ح ٥١٣-٥١٤.

(٣) المحاسن للبرقي: ٢٩٤ ح ٤٥٧.

(٤) السيد محمد باقر الصدر، اقتصادنا: ٦٣٥.

وبالنتيجة تكون هناك في القروض معاناة مشتركة بين الدائن والمدين، وإدراكاً وتفهماً لهذه المعاناة قال بعض المفكرين الرأسماليين: إنَّ الفائدة يدفعها المدين إلى الرأسمالي تعويضاً له عن حرمانه من الانتفاع بالمال المسلف، ومكافأة له على انتظاره طيلة المدة المتّفق عليها، أو أجرة يتقاضاها الرأسمالي نظير انتفاع المدين بالمال الذي اقترضه منه كالأجرة التي يحصل عليها مالك الدار من المستأجر لقاء انتفاعه بسكناها[١].

ولهذا ينظر التشريع الإسلامي إلى الروابط الاجتماعية في جريان عقود القروض ولا يمنع من حصول صاحب المال على قدر من الفائدة برضا المدين كحافز لصاحب المال.

وفي هذا الموضوع تحدّث الإمام الصادق عليه السلام بالقول: أنَّ الربا رباء ان أحدهما حلال والآخر حرام، فأمّا الحلال فهو قرض الرجل أخاه طمعاً أن يزيده ويعوّضه بأكثر ممّا يأخذه بلا شرط، فإنْ أعطاه أكثر مما أخذه على غير شرط بينهما فهو مباح له، وليس له عند الله ثواب فيما أقرضه، وهو قوله: ﴿فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾[٢] وأمّا الربا الحرام فالرجل يقرض قرضاً ويشترط أن يردّ أكثر ممّا أخذه فهذا هو الحرام[٣].

وليست النقود إلّا وسيلة من وسائل الفائدة المعنوية فلا يمكن أن تصير غاية ومنتهى الإنسان، فالنهي عن الربا يتضمن فلسفة تشريع إنسانية عللها الصادق عليه السلام بالقول: لئلّا يمتنع الناس عن اصطناع المعروف[٤] وكذا قال الباقر

---

(١) المصدر السابق: ٦٣٧.

(٢) الروم: ٣٩.

(٣) تفسير القمي ٢: ١٥٩.

(٤) الشرائع للصدوق: ٤٨٢.

عليه السلام: حرّم الربا لئلّا يذهب المعروف[١].

وأجاب الصادق عليه السلام هشام بن الحكم حين سأله عن علّة تحريم الربا فقال عليه السلام: لو كان الربا حلالاً لترك الناس التجارات وما يحتاجون إليه فحرّم الله الربا لينفر الناس عن الحرام إلى التجارات وإلى البيع والشراء فيفضل ذلك بينهم في القرض[٢].

ومشكلات القروض تبرز حين يماطل المدين وهو قادر على تسديد الدين، ومنعاً لهذه المماطلة التي تؤدّي إلى تضييع حقّ الدائن وغلق أبواب المعروف فإنّ النبي صلى الله عليه وآله **قال: من يمطل على ذي حقّ حقّه وهو يقدر على أداء حقّه فعليه كلّ يوم خطيئة عشّار**[٣] وقال صلى الله عليه وآله: **مطل الغنيّ ظلم**[٤] وقال صلى الله عليه وآله: **لي الواجد يحلّ عقوبته وعرضه**[٥].

وروي أنّ رجلاً من الأنصار مات وعليه دين فلم يصلّ عليه النبيّ صلى الله عليه وآله وقال: **لا تصلوا على صاحبكم حتّى يُقضى عنه الدين**، فقال الصادق عليه السلام: إنّما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك ليتعاطوا الحقّ ويؤدّي بعضهم إلى بعض، ولئلّا يستخفّوا بالدين[٦].

وجعل الصادق عليه السلام من بذمّته دين فلم ينو قضاءه بمنزلة السارق فقال عليه السلام: من استدان دَيْناً ونوى قضاءه فهو في أمان الله عزّوجلّ حتّى يقضيه، فإنْ لم

---

(١) علل الشرائع: ٤٨٣.
(٢) علل الشرائع: ٤٨٢.
(٣) أمالي الصدوق: ٣٥١.
(٤) من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٨٠ ح ٥٨١٩.
(٥) غوالي اللآلي ٤: ٧٢ ح ٤٤.
(٦) علل الشرائع: ٥٩٠ ح ٣٧.

ينو فهو سارق[١] وقد نظرت الشريعة إلى طرفي العقد الدائن والمدين وما بينهما بعين الرحمة، فكلاهما محتاج، الدائن يحتاج إلى رصيد من المعروف لترجح كفّة حسناته، والمدين يحتاج إلى تحريك المال ليسدّ خصاصته ويشبع حاجاته، كما أن الاقتصاد العام للبلد ينتعش حين تنساب المعاملات ويتحرك المال، فقد تنشط تجارة وتحرث أرض وتتصنع بضاعة، ويُبني بيت أو يزوّج أعزب، وغير ذلك من الظواهر، فتجميد صاحب المال ثروته بنقود وسكك وأوراق ومعادن تأخذ موقعاً في خزانة النقود يعني موت الاقتصاد الوطني وإيقافه عن النمو، ناهيك عن إيقاف حركة حياة الإنسان ونشاطه ووضعه في حالة انتظار لا جدوى فيها، وعليه نفهم حديث الصادق عليه السلام: مكتوب على باب الجنّة القرض بثمانية عشر والصدقة بعشرة[٢].

فصاحب المال عليه أن يدفع ماله إلى من يحركه ليأخذ موقعه في خلايا المجتمع ليتشكل نسيج الحياة وتندفع اليد البشرية إلى مواقع العمل والبناء، فتحديد ربح وفائدة على المال نفسه لا معنى في فلسفة التشريع، لأن الشريعة الإسلامية ترى الربا والنماء في الاقتصاد العام وحياة الإنسان وصناعته وزراعته وتجارته، وإنهاضه ودفعه نحو حياة أفضل، فالإسلام يرى الربا والنماء في زيادة البضاعة والإنتاج وتوسيع البنى التحتية والفوقية للاقتصاد العام ورفده وإغنائه، ولا يرى في تراكم الأوراق والمعادن بعضها على بعض في خزانات النقود أيّ جدوى وفائدة في هذه المستندات الموقوفة والمحفوظة لنفسها.

وبهذا المبدأ اللاربوي وضع النبيّ ﷺ وأهل بيته المعصومون عليهم السلام القواعد والأسس التي ينبغي أن تنتظم العلاقات والروابط الاقتصادية... .

---

(١) الهداية للصدوق: ٨٠.

(٢) تفسير القمي ٢: ٣٥٠.

ومن هذا يتحدّث السيد محمّد باقر الصدر عن فلسفة النظام اللاربوي في الإسلام بالقول: حرّم الإسلام الربا تحريماً قاطعاً لا هوادة فيه، وبذلك قضى على الفائدة ونتائجها الخطيرة في مجال التوزيع، وما تؤدّي إليه من إخلال بالتوازن الاقتصادي العام، وانتزع من النقد دوره بوصفه أداة تنمية للملك مستقلّة بذاتها، وردّه إلى دوره الطبيعي الذي يباشره بوصفه وكيلاً عامّاً عن السلع، وأداة لقياس قيمتها وتسهيل تداولها[1].

وعلى رغم أنّ الربا قد تغشى في معاملات قريش التجارية إلّا أنّ ظواهر إيجابية كثيرة طبعت وظهرت على جمهرة من المتعاطين بالتجارة، فقد عُرف أبو طالب عم النبيّ ﷺ وخديجة عليها السلام وعدد آخر من بني هاشم وغيرهم بالأمانة والصدق والوفاء بالعهد، وبالتالي كان هذا الانعطاف الأخلاقي الذي سرى في الوسط التجاري المكّي نقطة تحوّل كبيرة لهم أدّت إلى زيادة أرباحهم وتوسّع نشاطهم التجاري لما عُرف من زعمائهم وأسيادهم القرشيين من خلق ومبادئ سرت في أوساط المجتمعات الأخرى، ومن هذا السبب وذاك تمرّست قريش بالتجارة حتّى صارت مهنتها اليومية وتداخلت مع أوضاعهم السياسية والاجتماعية، وطمحت للسيطرة على خطوط التجارة الدولية، فلذا مال بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأنّ النبيّ ﷺ بدعوته الإسلامية سيفقد هذه الدولة القرشية كيانها، لأنّ دولة النبيّ ﷺ ستحلّ كلّ هذه الدولة بل تنفيها من الوجود الدولي، يقول الباحث الحبيب الجنحاني: إننا نميل إلى الاعتقاد أنّ سيطرة قريش على المسالك التجارية الرابطة بين الجزيرة من جهة، خصوصاً الحجاز، وبين الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط عن طريق بلاد الشام، وبحر العرب عن طريق المرافئ الجنوبية من جهة أخرى، وخشية فقدان

---

(١) اقتصادنا ط دار التعارف بيروت: ٣٧٢.

امتيازاتها، وموارد ثرائها المرتبطة بدور وسيط ذي شأن في الدورة التجارية الدولية يومئذ، يمثلان العامل الحاسم والفعّال في مقاومتها للدعوة الإسلامية، وقد رأينا أنَّ جلّ أنصارها الأوائل كانوا من فئة الضعفاء والمساكين العائشين على هامش مجتمع الأرستقراطية التجارية المكية[1].

فحركة النبيّ ﷺ وسط هذا المجتمع كانت تناسب المرحلة الحضارية التي كان المكّيون يعيشونها إلّا أنَّ العناد والمكابرة والحسد دفعهم لتجاهل هذا المد الحضاري الراقي الذي جاء به النبيّ ﷺ لإنهاضهم ورفعهم، فقد كان المكّيون مجاورين لأقدم صرح حضاري، وهو البيت الحرام الذي كان وما زال قطباً جاذباً لمختلف الناس والثقافات والحضارات، وعن هذا يتحدث الدكتور قصي الحسين فيقول: وتعلّمت قريش من أسفارها أموراً كثيرة تتصل بأسباب الحضارة والثقافة التي كانوا يجدونها في البلاد التي ينزلون فيها مثل العراق والشام وشواطئ البحر الأحمر، كذلك كانت الطبيعة لقريش خير معلّم، إذ عرفوا أنّهم في هذا الوادي الجاف، غير ذي زرع، لا يمكن لهم أن يكسبوا رزقاً إلّا إذا عاشوا هادئين مسالمين، يدفعون الإساءة بالحسنة، والشرّ بالصبر والحلم، ووقفوا إلى جانب المظلوم والمستجير والغريب، فصارت مكّة معرضاً للناس جميعاً، وبلداً آمناً، إذ أخذ سادته على أنفسهم عهداً بألّا يتعدّى أحدٌ منهم على غريب، لأنَّ في ذلك ضرراً لهم جميعاً، وقد اصطلحت قريش على أن تأخذ مقابل ذلك ممّن ينزل عليها في الجاهلية حقّاً دعته حقّ قريش[2].

وكأنَّ هذا التمدن والتحضّر الذي عرف عن القرشيين لم يوفّقهم إلى الوقوف على الحضارة الجديدة التي جاء بها النبيّ ﷺ وهو بين أظهرهم فانبروا

---

(١) المجتمع العربي الإسلامي، الحياة الاقتصادية والاجتماعية: ٣١.

(٢) موسوعة الحضارة العربية، العصر الجاهلي : ٢٨٥.

لـه بسـهامهم وسـيوفهم، ولم يكفهـم هذا، بل وضعوا أموالهم وتجارتهم في خدمـة الشـيطان ليقوّض هذه الثقافة والحضارة المشرقة التي جاء بها النبيّ ﷺ، فنشأ نوع من التصادم الثقافي والحضاري بين النبيّ المصطفى ﷺ وأتباعه وبين قـريش وحـزبها ومـن تجمهـر معهـا من سائر الأعراب وكأنّه جرى تصادم بين ظـلام وضـياء، وخلـف وأمـام، فانمحقـت هـذه الـثقافة الضـالّة، أو قـل غابت وضمرت لتجد من هنا وهناك من يتغنّى بها ويحنّ إليها.

المراعي والثروة الحيوانية

عرفت الأرض حركة الحيوان قبل أن تطأها أقدام أبينا آدم عليه السلام، فالله سبحانه وتعالى في محكم كتابه يشير إلى لفظ الدابّة، وهي لفظة جامعة لا تختصّ بالإنسان وحده، فالحيوان والجنّ وكلّ ما لا نعرف يدخلون في هذا العنوان، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (١).

وقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢).

وقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣)... وغيرها من الآيات التي تقرر هذه الموجودات التي تتعايش مع الإنسان وتتحرك كما هو يتحرك.

ومهما كانت المخلوقات التي كانت تدبّ على الأرض قبل أن يهبط آدم عليه السلام فإنّها كانت بحاجة إلى الحيوانات بمختلف صنوفها، فإنّها تُعدّ هنا مكملة لحياة الخلائق وضمان وجودها، فلولاها لما استطاعت بمفردها أن تتعامل مع الأرض.

ويظهر من رواية الدميري التي تقول بأنَّ الله تعالى لما أهبط آدم عليه السلام إلى

---

(١) الأنعام: ٣٨.

(٢) النحل: ٤٩.

(٣) النور: ٤٥.

الأرض جاءته وحوش الفلاة تسلّم عليه وتزوره[١] بأنّ الدور المرسوم لهذه المخلوقات هو خدمة الإنسان، وعليه كان خلقها وإعدادها قبل أن يخلق آدم عليه السلام بأزمنة وعهود ليست معدودة، وحينما شاءت الإرادة الربّانية تطهير الأرض بالطوفان العارم من العُتاة الطُغاة نظرت بعين العطف والرحمة إلى الإنسان الباقي على سطح الأرض فإنّه محتاج لهذه الحيوانات لإدامة حياته وتحقيق سعادته ورفاهه.

فقال تعالى لنبيّه نوح عليه السلام حين ركب سفينته: ﴿احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾[٢] فعليه حين يفكّر الإنسان باستغلال هذه الثروة الحيوانية التي خلقها الله وأعدّها له يُعدّ تفكيره بمثابة عمل حضاري ومقدّمة مدنية مهمة أعقبها خطوات من صيد هذه الحيوانات أو تدجينها أو تذليلها لغرض النقل أو لأغراض عسكرية أو غيرها، كلّ ذلك حفز العقل البشري إلى تحسين معيشته وطَرْق أبواب الصناعة والتجارة لكي يمارس حياته ووجوده في الأرض.

وقد فهمت البهائم دورها في خدمة الإنسان، إلّا أنّه لم يكن هناك من يحترم هذا الدور، ويتمثله في أعماقه فيعكسه في شكر الخالق والرفق بهذا الحيوان المسحوق.

وكان النبيّ ﷺ وأوصياؤه المعصومون عليهم السلام يفهمون احساسات هذه الحيوانات المسخّرة لأبناء آدم لذا قال النبيّ ﷺ: **للدابّة على صاحبها خصال ستّ: يبدأ بعلفها إذا نزل، ويعرض عليها الماء إذا مرّ به، ولا يضرب وجهها، ولا يحمّلها فوق طاقتها، ولا يكلّفها من المشي إلّا ما تطيق**[٣].

---

(١) حياة الحيوان ٢: ١٠، بحار الأنوار ٦٥: ٩٠.

(٢) هود: ٤٠.

(٣) بحار الأنوار ٦٤: ٢٠١ ح ١.

وجعل الصادق عليه السلام للدابّة حقوقاً ينبغي أن تؤخذ بنظر الاعتبار أسوة بحقوق بني آدم فقال عليه السلام: للدابّة على صاحبها سبعة حقوق: لا يحمّلها فوق طاقتها، ولا يتّخذ ظهرها مجلساً يتحدّث عليه، ويبدأ بعلفها إذا نزل، ولا يَسمها في وجهها، ولا يضرب بها في وجهها فإنّها تُسبّح، ويَعرِض عليها الماء إذا مرَّ به، ولا يضر بها على النفار ويضربها على العثار لأنّها ترى ما لا ترون[1].

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله يندب للرفق واللطف بها ومراعاة طاقتها: **إنّ الله تبارك وتعالى يُحبّ الرفق ويُعين عليه، فإذا ركبتم الدوابّ العجاف فأنزلوها منازلها، فإن كانت الأرض مجدبة فالجوا[2] عليها، وإنْ كانت مُخصبة فأنزلوها منازلها**[3].

وروى الصادق عليه السلام عنه صلى الله عليه وآله قوله: **لا تأتوا الفراخ في أعشاشها ولا الطير في منامه حتّى يصبح**، فقال له رجل: وما منامه يا رسول الله؟ قال: **الليل منامه فلا تطرقه في منامه حتّى يصبح**، وقال صلى الله عليه وآله: **ولا تأتوا الفرخ في عشّه حتّى يريش ويطير، فإذا طار فأونز له قوسك وانصب له فَخّك**[4] وهذا منه صلى الله عليه وآله رأفة ولطف واحترام لحقّ الحيوان بالراحة، وكأنّه في هدنة مع الإنسان حين يأوي إلى عشّه ووكره، فتراه صلى الله عليه وآله يمنع من مداهمة هذا المخلوق حين يضع سلاحه ويبتعد عن ميدان المعركة.

وروى الصادق عن آبائه عليهم السلام أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله أبصر ناقةً معقولةً وعليها جهازها، فقال: **أين صاحبها؟ مروه فليستعدّ غداً للخصومة**[5] حيث جعل النبيّ صلى الله عليه وآله لها حقّ الدعوى والمخاصمة كما لبني آدم.

---

(١) بحار الأنوار ٦٤: ٢٠٢ ح ٢.

(٢) أي أسرعوا عليها في السير.

(٣) بحار الأنوار ٦٤: ٢١٣.

(٤) فروع الكافي ٦: ٢١٦ ح ٢.

(٥) بحار الأنوار ٦٤: ٢٠٣.

ولوجه الدوابّ حرمة كما لوجوه بقيّة مخلوقات الله حيث إنَّ للوجه كرامة ينبغي أن تُحفظ ولهذا قال النبيّ ﷺ: **لا تضربوا وجوه الدوابّ وكلّ شيء فيه الروح، فإنّه يُسبّح بحمد الله**[١].

وللدوابّ دعاء كما لبني آدم دعاء ورجاء من الخالق، وفي هذا روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: رُئي أبوذرّ رضي الله عنه يسقي حماراً له بالربذة فقال له بعض الناس: أمالك يا أباذرّ مَن يسقي لك هذا الحمار! فقال: سمعت رسول الله ﷺ: **يقول: «ما من دابّة إلّا وهي تسأل كلّ صباح اللهم ارزقني مليكاً صالحاً يشبعني من العلف، ويرويّني من الماء، ولا يكلّفني فوق طاقتي»** فأنا أُحبّ أن أسقيه بنفسي[٢].

وبلغت الدابّة في حديث النبيّ ﷺ والمعصومين عليهم السلام مبلغ العاقل القاصد لبيت الله وحرمه فكأنّها ترجو ثواب الحاج الذي يقف على جبل عرفات، وفي ذلك روى الصادق عليه السلام عن النبيّ ﷺ: **أنّه ليس من دابّة عُرّف بها خمس وقفات إلّا كانت من نَعَم الجنّة**[٣].

وروى الصادق عليه السلام أنَّ عليّ بن الحسين عليه السلام قال لابنه محمد الباقر عليه السلام حين حضرته الوفاة: إنني قد حججت على ناقتي هذه عشرين حجّة فلم أقرعها بسوط قرعة، فإذا نفقت فادفنها لا تأكل لحمها السباع، فإنَّ رسول الله ﷺ قال: **ما من بعير يُوقف عليه موقف عرفة سبع حجج إلّا جعله الله من نَعم الجنّه وبارك في نسله، فلمّا نفقت حفر لها أبو جعفر عليه السلام ودفنها[٤] وقد تأثّرت هذه الناقة بهذا الخلق الكريم فلم تأنس بمخلوق آخر غيره.**

---

(١) بحار الأنوار ٦٤: ٢٠٤.

(٢) بحار الأنوار ٦٤: ٢٠٥.

(٣) بحار الأنوار ٦٤: ٢٠٧.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ٧٤.

ففي خبر أنّه لما مات عليّ بن الحسين عليه السلام خرجت ناقته فأتت قبره وتمرَّغت عليه وضربت بجرانها عليه ورغت وهَملت عيناها فلم تلبث إلّا ثلاثة حتّى نفقت[1].

وقد أشار القرآن الكريم إلى ضرورة الحيوان في نسيج الحضارة والمدنية في قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

فما زالت الشعوب في الأرض في حاجة متزايدة للحيوانات سواء الاستخدام الصناعي أو التجاري، ومن ذلك دخولها في السباقات الرياضية للأمم الراقية كدعاية سياسية وإعلام حضاري يعكس رقي الأمّة واستفادتها من هذه البهائم، ومن هذا نفهم الإشارة القرآنية في قوله تعالى «منافع» و«زينة».

ويرتبط الحيوان في عالمنا المعاصر بشبكة واسعة من المؤسسات الخدمية والإنتاجيه تشتمل على مؤسسات التمويل وتوفير مستلزمات الإنتاج والتسويق والتصدير، وكلّ هذه المؤسسات ظهورها في المجتمعات المتحضرة والمتقدمة في التكنولوجية الحديثة أكثر من المجتمعات المتخلّفة حضاريا، إضافة إلى أنَّ الحيوان والنبات يدخل في النظام التربوي والتعليمي للكليات والمعاهد ومراكز البحث العلمي المعاصرة بشكل واضح، فكليات الزراعة والطب والصيدلة والاقتصاد وغيرها لها مناهجها الخاصّه بهذا المخلوق الذي سخّره الله لخدمة الإنسان، ويفهم العقلاء إشارة القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا

---

(١) بحار الأنوار ٤٦: ١٤٨.

(٢) النحل: ٤-٨.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾[١] فكانت مشيئة الله ورحمته لعباده أن غطى الأرض بالحيوانات التي وجدت لخدمة الإنسان، وما عليه إلّا استغلالها والعمل على تدجينها ورعايتها، وحتّى الحيوان غير المأكول فله دور في حضارة الإنسان ودورة حياته.

وعرفت أرض الجزيرة العربية أنواعاً من الحيوانات الوحشية والمستأنسة استطاعت أن تعيش في ظروف مناخها وفي ظروف طبيعتها، ولذلك كانت هذه الحيوانات بجملتها من الحيوانات التي تعيش في البلاد الصحراوية أو شبه الصحراوية، فتتنقل بين بواديها وفيافيها وأوديتها وهضباتها وجبالها، متقلّبة على رمالها، منسرحة في سهوبها متأقلمة مع جميع ألوان الحياة المتغيّرة بتغير فصولها.

وإذ عرفت الطبيعة في أرض الجزيرة العربية قلّة انتشار النبات على مسلحات واسعة، وقصر فترةً عمره، وجدنا ظهور أنواع من الحيوانات الوحشية التي تقتات من الأعشاب، مثل الظباء والغزلان والوعول وحمر الوحش والثيران الوحشية وبقر الوحش والأرانب والنعام.

وقد ورد ذكر هذه الحيوانات وغيرها من حيوان الصحراء في قصائد الشعراء الجاهليين، خصوصاً عند لبيد والأعشى وزهير وطرفة والنابغة.

كذلك عرفت شبه الجزيرة العربية أنواعاً أُخرى من الحيوانات المستأنسة التي كانت تعيش إلى جانب الإنسان وتدخل في خدمته اليوميّة، مثل الإبل والخيل، أو تلك التي يفيد من لبنها ولحمها مثل قطعان الأغنام والعنز[٢] ولذلك نجد اهتمام النبيّ ﷺ والمعصومين عليهم السلام بهذه الحيوانات نظراً لأهميتها

---

(١) الزخرف: ١٣. قال ابن عباس: مقرنين مُطيقين مالكين. تنوير المقباس: ٤١٢.

(٢) موسوعة الحضارة العربية: ٦٢و٦٣.

الاقتصادية، وكونها تدخل في نسيج كثير من الصناعات، وكانت تشكل، إضافة إلى المنتوجات الزراعية الأخرى، مادة التجارة المحلية والعالمية وما زالت إلى يومنا هذا.

وأكثر الحيوانات أهمية في وقتنا الحاضر هي الأغنام، حيث لها أهمية كبيرة في توفير اللحوم والألبان، كما أنَّ جلودها وأصوافها لهما أهمية اقتصادية كبيرة لا يمكن لأي بلدٍ الاستغناء عنها في الصناعة والتجارة.

وفي ذلك روى عليّ عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: **عليكم بالغنم والحرث فإنّهما يروحان بخير ويغدوان بخير**[1].

وروى عليّ عليه أيضاً أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله سُئل أيَّ المال خير؟ قال: **زرع زرعه صاحبه وأصلحه وأدّى حقّه يوم حصاده**، قيل: فأيّ المال بعد الزرع خير؟ قال: **رجل في غنمه قد تبع بها مواضع القطر يُقيم الصلاة ويؤتي الزكاة**، قيل: فأيّ المال بعد الغنم خير؟ قال: **البقر تغدو بخير وتروح بخير**، قيل: فأيّ المال بعد البقر خير؟ قال: **الراسيات في الوحل والمطعمات في المحل، نِعم الشيء النخل، من باعه فإنّما ثمنه بمنزلة رماد على رأس شاهق اشتدَّت به الريح في يوم عاصف إلّا أن يخلف مكانها**[2] ونالت الأغنام رعاية النبيّ صلى الله عليه وآله لها ولا يخفى على الباحث بأنَّ وصيّته صلى الله عليه وآله بذلك يفسّر لنا أهمية هذا الحيوان حيث يقول: **نظّفوا مرابض الغنم وامسحوا رغامهنّ، فإنّهنّ من دوابّ الجنّة**[3].

وقال الرضا عليه السلام في فضل الغنم: لو خلق الله عزَّوجلَّ مضغةً هي أطيب

---

(١) بحار الأنوار ٦٤: ١٢٠ ح ٤.

(٢) بحار الأنوار ٦٤: ١٢١ ح ٥.

(٣) المحاسن للبرقي: ٦٤١ ح ١٥٧.

من الضأن لفدى بها إسماعيل[١].

وفي فضل البقر جاءت نصوص منها نستنبط أهميتها للاستهلاك البشرى، حيث روى أبو جعفر الباقر عليه السلام: إنَّ بني إسرائيل شكوا إلى موسى عليه السلام ما يلقون من البياض فشكا ذلك إلى الله عزَّ وجلّ فأوحى الله عزَّ وجلّ إليه: مرهم يأكوا لحم البقر بالسلق[٢].

وعن الصادق عليه السلام: مرق لحم البقر يُذهب بالبياض، وعن الكاظم عليه السلام: السويق ومرق لحم البقر يذهبان بالوَضح[٣].

وقال الصادق عليه السلام: ألبان البقر دواء وسمونها شفاء، وسأل زرارة الصادق عليه السلام عن الشحمة التي تخرج مثلها من الداء، أيّ شحمة هي؟ قال: هي شحمة البقر[٤].

وللخيول أهمية كبيرة في البيئة العربية حيث تستوجب وتتطلب البيئة حضورها بصفتها وسيلة نقل هامة، علاوة على أنّها كانت تمثل تجهيزاً وعدّة عسكرية مهمة في تقوية الجيش وتنظيم أموره الإدارية والتموينية، فكانت رافداً مهماً وسريعاً لتحقيق فتوحات في تاريخ المسلمين ونشر مبادئ الدين الإسلامي الحنيف فاقترن ذكرها بذكر المجاهدين والفرسان، وقد حثَّ النبيّ ﷺ على العناية بها فقال ﷺ: **الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة، والمنفق عليها في سبيل الله كالباسط يده بالصدقة لا يقبضها.**

وروي عنه ﷺ أنه قال: **لا تجزّوا نواصي الخيل ولا أعرافها ولا أذنابها،**

---

(١) فروع الكافي ٦: ٣١٠ ح ١.

(٢) فروع الكافي ٦: ٣١٠ ح ١.

(٣) الوَضَح: البياض من كلّ شيء، وقد يُكنى به عن البرص اللسان «وضح».

(٤) فروع الكافي ٦: ٣١١ ح ٢-٧.

فإنّ الخير في نواصيها، وإنّ أعرافها دفؤها وإنّ أذنابها مذابّها[١].

وقد سرت بركة الخيول ومنافعها الاقتصادية إلى خارج الجزيرة العربية بحيث كانت الخيول إلى عصور متأخرة تجارة رابحة، ويتحدّث الدكتور شوقي عبد القوي عن السلع التي كانت تلاقي رواجاً في الهند فيقول: راجت سلعة أخرى مهمة ألا وهي تجارة الخيل، وكانت تستورد من الساحلين العربي والفارسي إلى الهند، وكما يذكر البعض فإنّه كان يصدّر سنويا عشرة آلاف رأس من الخيل، ويبدو أنّ أرباحها كانت طائلة، حيث يذكر بعض الباحثين أنّ سعر الحصان الواحد ٢٢٠ ديناراً ذهباً، ثمّ يقول: ويراودني الشكّ في أنّ هذا السعر مبالغ فيه إلى حدّها؛ لأنّه إذا كان عدد الخيول المصدّرة حوالي عشرة آلاف حصان فإذاً يبلغ إجمالي قيمتها حوالي مليوني دينار وربح مليون دينار، وهذا مبلغ كبير[٢].

ونحن لا نرى المبلغ كبيراً مع قول النبيّ ﷺ: **الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة**[٣] ويمكن القول أيضاً بأنّ هذه المبالغ الطائلة كانت تعطى للخيول المميّزة النادرة، فهي مصدر خير وبركة ونفع لا تنفكّ عنها أبداً.

أمّا عن وضع المراعي في أرض العرب قبل الإسلام فقد نهض الاقتصاد في شبه الجزيرة العربية على ما كانت توفره المراعي والثروة الحيوانية من مال عظيم للناس في العصر الجاهلي.

وكانت البوادي والسهوب تشكّل المساحة العظمى من الأرض، كما كان سكّانها يعرفون بالبدو الذين يعيشون على تربية ورعي المواشي كاقتصاد وحيد لهم.

---

(١) مكارم الأخلاق: ٢٤٦.

(٢) تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية: ٢٣٢.

(٣) وفي خبر: الخير معقود بنواصي الخيل. ثواب الأعمال للصدوق: ٤٣٨، من لا يحضره الفقيه ٢: ٢٨٣ ح ٢٤٥٩ ط جماعة المدرسين قم.

أمّا المراعي فمنها ما كان خاصّاً، ومنها ما كان عامّاً.

والمراعي الخاصّة، هي الأحماء التي لا يدخلها غير أصحابها، سواء كان رجلاً أو أُسرة أو قبيلة، غير أنَّ المراعي العامة هي مشتركة وهي لا تدخل في ملكية أحد، لأنَّ عدداً كبيراً من القبائل يتعاقب على الرعي فيها، ولم يكن مسموحاً لأحدٍ من القبيلة أن يأخذ مالاً من أصحاب المواشي مقابل الرعي، لأنَّ المراعي هي للجميع[1].

وقد أقرَّ النبيّ ﷺ ملكية الدولة للمراعي الخاصة لحاجة الجيوش والمجاهدين لها؛ فقد روى البلاذري أنَّ رسول الله ﷺ حَمى النقيع لخيل المسلمين[2].

فالمراعي الخاصة، أو الأحماء لم يقرّها الإسلام لترتيب ملكية خاصة بها، يقول السيد محمد باقر الصدر: ومن الطبيعي أن ينكر الإسلام الحمى، لأنَّ الحقّ الخاصّ فيه يقوم على أساس السيطرة، لا على أساس العمل، ولهذا لا يسمح بذلك لأحد من المسلمين، وجاء النصّ يؤكّد شجب هذا الأسلوب من التملّك والاحتكار للمصادر الطبيعية ويقول: لا حمى إلّا لله ولرسوله وورد في بعض الروايات أنَّ شخصاً سأل الإمام الصادق عليه السلام عن الرجل المسلم تكون له الضيعة فيها جبل ممّا يُباع يأتيه أخوه المسلم وله غنم قد احتاج إلى جبل يحلّ له أن يبيعه الجبل، كما يبيع من غيره، أو يمنعه من إنْ طلبه بغير ثمن، وكيف حاله فيه وما يأخذ؟ فقال: لا يجور له بيع جبله من أخيه.

فمجرد وقوع مصدر طبيعي في سيطرة فرد لا يُعتبر في الإسلام سبباً

---

(١) موسوعة الحضارة العربية، العصر الجاهلي: ٩٤.

(٢) البلدان وفتوحها وأحكامها بتحقيق سهيل زكّار: ١٠. والنقيع: موضع قريب من المدينة كان يستنقع فيه الماء، أي يجتمع. اللسان «نقع».

لإيجاد حقّ للفرد في ذلك المصدر.

والحمى الوحيد الذي سمح به الإسلام هو حمى الرسول، فقد حمى النبيّ ﷺ بعض المواضع من موات الأرض لمصالح عامة، كالبقيع إذ خصصه لإبل الصدقة ونعم الجزية وخيل المجاهدين[١].

وتشرّفت جبل مكّة ومراعيها بدبيب الأغنام التي كان النبيّ ﷺ يرعاها لعمّه أبي طالب في زمان فتوته[٢]، وكأنَّ إعداده للرسالة يستوجب ذلك، حيث يمرّ كلّ نبيّ بدور المربيّ الراعي للغنم، وبذلك جاءت الرواية: ما بعث الله نبيّاً قط حتّى يسترعيه الغنم، يعلّمه بذلك رعية الناس[٣]ومن هذا المعنى جاء قول عليّ عليه السلام: أنا الراعي راعي الأنام، أفترى الراعي لا يعرف غنمه! فقام إليه جويرية وقال: يا أمير المؤمنين، فمن غنمك؟ قال: صُفر الوجوه ذُبل الشفاه[٤]وكأنّه أراد عليه السلام أتباعه وناصريه الزهّاد العبّاد.

---

(١) اقتصادنا: ٥١٨.

(٢) ينظر المناقب لابن شهر آشوب ١: ٤٤.

(٣) بحار الأنوار ١١: ٦٦.

(٤) فضائل الشيعة للصدوق: ٢٦ ح ٢٠.

التجمل والنظافة

تُعدّ الملابس والأزياء ومستحضرات التجميل مؤشراً على بلوغ الحضارات قدراً من الرقي، والإنسان المتحضّر يبدي اهتماماً بملابسه وبيته ومتجره، يتخيّر لنفسه أفضل العطور وأحسن الأثاث وأجمله؛ كي يظهر بمظهر يناسب طبقته وترتيبه الاجتماعي، في حين أنَّ حياة العرب في البادية لم تكن حياة راقية في مظهرها؛ لذا لم يظهر البدوي بأزياء فاخرة أو يسكن في مسكن أنيق يزخر بأثاث وسجاجيد وبسط عُرفت بأنّها من مظاهر الحضارة والتمدن فيما بعد، والحضارات بشكل عام على مرّ التاريخ والعصور تتميّز بملابس وأزياء خاصّة بها تعبر عن نكهتها، فالعصور الإسلامية وغيرها، وكذا ما تقدم من عصور الأمم لها لون خاصّ بها يُعبّر عن روح العصر وثقافته وأخلاقه ومذاقه.

ولم تقف حركة الإسلام أمام توجّه الإنسان بهذا النمط من الحضارة، بل نجد النصوص على عكس ذلك تشجع المسلم على الاهتمام بالزينة والملابس والنظافة، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾[1].

وروى الصادق عليه السلام أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله أبصر رجلاً شعثا شعر رأسه، وسخة ثيابه، سيّئةً حاله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: **من الدين المتعة وإظهار النعمة.**

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً: **بئس العبد القاذورة**[2].

وقال علي عليه السلام: إنَّ الله جميل يُحبّ الجمال، ويُحبّ أن يرى أثر النعمة

---

(١) الأعراف: ٣١و٣٢.

(٢) فروع الكافي ٦: ٤٣٩ ح ٥و٦.

على عبده[١].

وقال الصادق عليه السلام لعبيد بن زياد-من أصحابه عليه السلام-إظهارُ النعمةِ أحبُّ إلى الله من صيانتها، فإيّاك أن تتزيَّن إلّا في أحسن زيّ قومك.

قال راوي الخبر: فما رُئي عبيد إلّا في أحسن زيّ قومه حتّى مات[٢].

وقال الصادق عليه السلام: إذا أنعم الله على عبده بنعمةٍ أحبَّ أن يراها عليه لأنّه جميل يُحبّ الجمال، وقال عليه السلام: إذا أنعم الله على عبده بنعمة فظهرت سُمّي حبيب الله محدّثاً بنعمة الله، وإذا أنعمَ اللهُ على عبدٍ بنعمةٍ فلم تظهر عليه سُمّي بغيض الله مُكذّباً[٣].

وقد كان لباس النبيّ ﷺ والأئمة المعصومون عليهم السلام هو لباس الحضارة الإسلامية وتطورات المرحلة الزمنية التي كانوا يعاصرونها، فقد روى الباقر عليه السلام أنَّ رسول الله ﷺ لبس الطاق والساج والخمائص[٤].

والطّاق ضربٌ من الثياب...قالوا: هو الطَّيْلَسان، وبعضهم يقول:هو الطيلسان الأخضر، والطيلسان لباس ليس بعربي بل هو فارسي حملته رياح الحضارة إلى أرض العرب[٥].

والساج: هو الطَّيلَسان الأخضر، وقيل:هو المقوّر، وقيل:الضخم، وقيل:هو الأسود[٦]ومهما قيل فيه فهو لون حضاري وسم زمانه به، والخمائص : ثياب

---

(١) الخصال للصدوق: ٦١٣ ح ١٠.
(٢) فروع الكافي ٦: ٤٤٠ ح ١٥.
(٣) فروع الكافي ٦: ٤٣٨ ح ٢و٤.
(٤) فروع الكافي ٦: ٤٤١ ح ٢.
(٥) ينظر اللسان «طوق» و«طلس».
(٦) ينظر اللسان «سوج».

من خَزّ ثخان سود وحُمر ولها أعلام بِخان أيضاً، وقالوا: هو كساء أسود مربّع له عَلمان، فإنْ لم يكن مُعْلماً فليس بخميصة[١]، وغير ذلك من الأقوال، فكلّ هذه الأقوال والآراء تعكس ضرباً من الثياب الفاخرة والجديدة لم تكن معروفة لمجتمع البادية، فهي من آثار الحضارة وانعكاساتها، وارتداء النبيّ ﷺ لهذه الأضرب من الثياب يعكس تفاعل النبيّ ﷺ واستقباله لزي العصر؛ لأنّه يشكل معلماً من معالم حضارة العصر وثقافته ونمط معيشته التي استساغها النبيّ ﷺ وقبلها واستحسنها.

وروى صفوان عن يونس بن إبراهيم قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام وعليَّ جُبّة خزّ وطيلسان خزّ فنظر إليَّ فقلت: جعلت فداك عليّ جبّة خزّ وطيلسان خزّ فما تقول فيه؟ فقال عليه السلام: وما بأس بالخزّ! قلتُ: وسداه[٢] أبريسم؟ قال: وما بأس بأبريسم فقد أُصيب الحسين عليه السلام وعليه جبّة خزّ! ثمّ قال: إنّ عبد الله بن عبّاس لمّا بعثه أمير المؤمنين عليه السلام إلى الخوارج فواقفهم لبس أفضل ثيابه وتطيَّبَ بأفضل طيبه وركب أفضل مراكبه فخرج فواقفهم فقالوا: يا ابن عبّاس بينما أنت أفضل الناس إذ أتيتنا في لباس الجبابرة ومراكبهم! فتلا عليهم هذه الآية: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[٣] فالبس وتجمّل، فإنّ الله جميل يُحبّ الجمال، وليكن من حلال[٤].

وروى عبد الله بن سنان عن سيّده الصادق عليه السلام القول: بينا أنا في

---

(١) ينظر اللسان «خمص».

(٢) السَّدى: خلاف لحمة الثوب، وقيل: أسفله. وقيل: ما مُدَّ منه، واحدته سَداة. واللحمة: ما سُدّي بين السَّدْيين، يُضم يُفتح. ويقال: لحم الثوب ولحمه. وقيل: لُحمة الثوب: الأعلى منه. اللسان «سدى» و«لحم».

(٣) الأعراف: ٣٢.

(٤) فروع الكافي ٦: ٤٤٢ ح ٧.

الطواف وإذا برجلٍ يجذب ثوبي وإذا هو عباد بن كثير البصري فقال: يا جعفر بن محمد تلبس مثل هذه الثياب وأنت في هذا الموضع مع المكان الذي أنت فيه من عليّ عليه السلام! فقلتُ: ثوبٌ فرقُبي[1] اشتريته بدينار، وكان عليّ عليه السلام في زمان يستقيم له ما لبس فيه، ولو لبستُ مثل ذلك اللباس في زماننا لقال الناس: هذا مُراءٍ مثل عباد[2].

وروى حمّاد بن عثمان قال: كنتُ حاضراً عند أبي عبد الله عليه السلام إذ قال له رجلٌ: أصلحك الله ذكرتَ أنَّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام كان يلبس الخشن، يلبس القميص بأربعة دراهم وما أشبه ذلك ونرى عليك اللباس الجيّد؟ قال: فقال له: إنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام كان يلبس ذلك في زمان لا ينكر ولو لبس مثل ذلك اليوم لشهر به، فخير لباس كلّ زمان لباس أهله غير أنَّ قائمنا إذا قام لبس لباس عليّ عليه السلام وسار بسيرته[3].

وروى معاوية بن ميسرة عن الحكم بن عتيبة قال: دخلتُ على أبي جعفر عليه السلام وهو في بيت منجَّد[4] وعليه قميص رطب وملحفة مصبوغة قد أثَّر الصبغُ على عاتقه فجعلت أنظر إلى البيت وأنظر إلى هيئته، فقال: يا حكم، ما تقول في هذا؟ فقلت: وما عسيت أن أقول وأنا أراه عليك! وأمّا عندنا فإنّما يفعله الشاب المُرْهَق، فقال لي: يا حكم من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيّبات من الرزق! وهذا ممّا أخرج الله لعباده، فأمّا هذا البيت الذي ترى فهو بيت المرأة

---

(١) يقال: ثوب فُرقُبيّ وثُرقُبيّ، بمعنى واحد. ويقال بقافين أيضاً منسوب إلى قُرقوب. وهذا الثوب أبيض مصنوع من كتّان مصر. اللسان «فرقب».

(٢) فروع الكافي ٦: ٤٤٣ ح ٩.

(٣) فروع الكافي ٦: ٤٤٤ ح ١٥.

(٤) التنجيد: التزيين. وبيت مُنجَّد، إذا كان مزيّناً بالثياب والفُرُش، ونُجوده: ستوره التي تُعلّق على حيطانه يُزيّن بها. يُنظر اللسان «نجد».

وأنا قريب العهد بالعرس وبيتي البيت الذي تعرف[١].

ففي مثل هذه الأخبار التي تقدّمت يلمس القارئ بأنَّ المناخ الحضاري الذي خلق شكلاً من اللباس والأثاث انعكس في حياة المعصومين عليهم السلام وجعلهم يتلبسون بلباس حضارة عصورهم.

والأهم من هذا كان حديثهم عليهم السلام يؤكّد على نظافة هذا الثوب الحضاري وطهارته، فلا قيمة لثوب حضاري فضفاض يستبطن نتناً وقذارة تتراكم بين طياته، وفي ذلك يقول النبيّ صلى الله عليه وآله: **من اتّخذ ثوباً فلينظّفه**[٢].

وروى الصادق عليه السلام عن علي عليه السلام قوله: النظيف من الثياب يذهب الهمّ والحزن، وهو طهور للصلاة[٣].

وقد كانت أحاديث المعصومين عليهم السلام تندب إلى اختيار الثياب البيض، لأنَّ الثوب إذا كان أبيضاً تظهر فيه آثار الوساخة بشكل مبكر ممّا يدفع الإنسان للعناية به ومداومة غسله وتنظيفه، ومن ذلك قول النبيّ صلى الله عليه وآله: **البسوا البياض فإنّه أطيب وأطهر وكفّنوا فيه موتاكم**[٤] وقد كان اللون الأبيض شعار الصادق عليه السلام وزينته التي يظهر بها في الوسط الاجتماعي، وقد سرى هذا الاختيار حتى للون الدابة، كما روى صفوان الجمّال قال: حملتُ أبا عبد الله عليه السلام الحملة الثانية إلى الكوفة وأبو جعفر المنصور بها، فلمّا أشرف على الهاشمية أخرج رجله من غرز الرَّحل ثمّ نزل ودعا ببغلة شهباء ولُبس ثياب بيض وكمّة بيضاء فلمّا دخل عليه قال له أبو جعفر:لقد تشبّهت بالأنبياء! فقال أبو عبد الله عليه السلام: وأنّى

---

(١) فروع الكافي ٦: ٤٤٦ ح ١ باب لبس المعصفر.
(٢) فروع الكافي ٦: ٤٤١ ح ٣.
(٣) فروع الكافي ٦: ٤٤٤ ح ١٤.
(٤) فروع الكافي ٦: ٤٤٥ ح ١.

تبعدني من أبناء الأنبياء[١]!

وقد أفرزت الحضارة والمدنية على مراحل التاريخ صناعة المنسوجات بمختلف أنواعها، ومنها المنسوجات الكتّانية والقطنية، وهي صناعة مناسبة للأثاث المنزلي وللملابس الشخصية للإنسان، لما لها من خواصّ نافعة للإنسان، كما أنها تتسم بالخفّة، ولذا تكون الاستفادة من هذه المنسوجات عملية، وقد ورد ذكرها في الحديث، ومن ذلك روي عن علي عليه السلام أنّه قال: البسوا ثياب القطن فإنها لباس رسول الله ﷺ وهو لباسنا[٢].

وفي خبر آخر عنه عليه السلام قال: البسوا الثياب من القطن فإنّه لباس رسول الله ﷺ ولباسنا، ولم يكن يلبس الصوف والشعر إلّا من علّة[٣].

وقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: الكتّان من لباس الأنبياء وهو يُنبت اللحم[٤].

وقد برز منسوج حضاري مهم عبر التاريخ يقال له القَزّ، وهو منسوج يدخله الإبريسم، أو كأنّه هو الإبريسم نفسه، ويُفهم من سؤال العبّاس ابن موسى عن أبيه الذي قال: سألته عن الإبريسم والقزّ، قال: هما سواء[٥]، بأنَّ القزّ هو الإبريسم، وقد كان الأئمة المعصومون عليهم السلام يبيحون هذا النوع من النسيج، ولم تصلنا نصوص تنهى عنه، فهو مظهر حضاري مقبول، فقد روى عبيد بن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا بأس بلباس القزّ إذا كان سداه أو لحمته مع القطن أو كتّان.

---

(١) فروع الكافي٦: ٤٤٥ ح ٣.
(٢) فروع الكافي ٦: ٤٤٦ ح ٤.
(٣) فروع الكافي ٦: ٤٥٠ ح ٢.
(٤) فروع الكافي ٦: ٤٤٩ ح ١.
(٥) فروع الكافي ٦: ٤٥٤ ح ٩ وينظر لسان العرب «قزز».

وروى أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: سأل الحسن بن قياما أبا الحسن الرضا عليه السلام عن الثوب الملحم بالقزّ والقطن والقَزّ أكثر من النصف أيُصلّى فيه؟ قال عليه السلام لا بأس، وقد كان لأبي الحسن عليه السلام منه جباب كذلك[1].

وكلّ المظاهر الحضارية التي تجلّت في الأزياء والملابس والفرش والمنسوجات على مختلف أنواعها-والتي ظهرت في تاريخ المسلمين-أوصت النصوص الدينية بضرورة نظافتها وطهارتها، وعلى العموم فنصوص السنّة ندبت إلى النظافة والطهارة، وإذا قلنا بأن حضارة المسلمين هي أنظف حضارة وأنظمها لا نغالي بذلك.

وتحدّث الشيخ عباس تبريزيان عن هذا الجانب بالتفصيل فقال: إنَّ في توصية رسول الله صلى الله عليه وآله بالنظافة وعدّها من الإيمان وأمره بغسل الوجه واليدين عدّة مرّات في اليوم، وغسل البدن بالحرض والأشنان والصابون في كلّ جمعة، وبعد كلّ جنابة وحيض واستحاضة ونفاس وغيرها ممّا لا يُحصى، وأمره بالخلال بعود نظيف، وبالمسواك عند كلّ صلاة، والمضمضة والاستنشاق عند كلّ وضوء، وتوقيه من النجاسات العشر، وأمره بتطهير البدن والثياب منها ومن القاذورات، وتكرار الغسلات، وتجنّبه من كلّ خبث وقاذورة، كفضلات الحيوانات، وتركه التحفّي والتعرّي، وأمره بغسل اليد في مَسّ الكلب والخنزير، وسنّه صلى الله عليه وآله نزح البئر من سقوط القذارات، ومنعه من الغسل بالماء المغسول به، وإلزام الحائض وغيرها بتطهير الموضع، ووضع القطنة وتأكيده على إزالة الشعر من الجسم بالنورة وغيرها، ورعاية المشط لما لا يُحلق، وإصراره على قص الأظفار ودفنها، وأمره بالاختتان، وكذا مطالبته بكنس البيوت وإخراج القمامة والتراب من المنزل وإزالة حوك العنكبوت والسعي في توسعة الدار.

---

(١) فروع الكافي ٦: ٤٥٤و٤٥٥ ح ١٠و١١.

وبعد ذلك النظافة في الطعام، وتغطية الأواني وغسلها وتكرار الغسلات، وغسل اليد والفم قبل وبعد الطعام، وترك مسّ المنديل بعد غسل اليد وقبل ذلك.

وبعد كلّ ذلك أمره بعدم إدخال المُصحّ على المريض، والكون من المريض على بعد رمح أو ذراع، وعدم تطويل الجلوس عنده، والفرار من أهل البلاء، وترك البلاد هرباً من الوباء، والفرار من المجذوم، وترك دخول بلاد الطاعون والتحوّل عنها.

ويليه غسل جميع البدن من مسّ الأموات والأمر بدفنهم بعد غسلهم مع تعميق القبور، كلّ ذلك وغيره بالإضافة إلى ما سبق لآيات على علم النبي ﷺ بما يُسمّى بالمكروب والفيروس وغيرهما، وعلمه بأفضل الطرق للتخلّص من أذاها، وبذلك قام بتعليم الناس وإرشادهم إلى ما بقي منها ويدفع أضرارها[1].

وكلّ ذلك مؤشر على حضارة ومدنية راقية جاء بها النبيّ ﷺ.

---

(١) دراسة في طبّ الرسول المصطفى «الأمراض»، موسوعة الرسول المصطفى: ٢٩٠.

الارتباط الوثيق بين الحضارة والمدنية والعلم

ولا يقتصر الخلط لدى الباحثين على مفهومي الحضارة والثقافة، بل يتعدّي ذلك عندهم إلى مصطلحي الحضارة والمدنية أيضاً كما أشرنا.

ويظهر ذلك واضحاً من اشتقاق مصطلح الحضارة Civilization من المدنية Civilian.

وقد عرّف ديورانت المدنية بصورة قريبة إلى الحضارة فاعتبر المدنية هي رقّة المعاملة والسلوك المهذّب الذي ابتدعه سكّان المدن، ويساعد على ذلك ما تقدّمه الصناعة من وسائل الراحة والترف في الحياة، كذلك تفرّغ بعض الناس للعلوم المختلفة والفلسفة في حين ينشغل الآخرون بالإنتاج المادي[1].

وقد فهم البعض المدنية والحضارة بأنّها سبب ونتيجة، فقال الباحث الدكتور شاكر مصطفى: المدنية وليدة الحضارة، أو أنّها في الواقع هي الحضارة[2] ويرى الزحيلي:بأنّ التمدّن هو التحضّر، والمدنية الجانب المادي من الحضارة كالعمران ووسائل الاتصال والترفيه، ويقابلها الثقافة التي هي الجانب الفكري والروحي والخلقي من الحضارة[3].

وبعضهم يرى اختلاف الحضارة عن معنى المدنية بالدرجة، باعتبار أنّ الحضارة تعني بلوغ الفن في المهن والصناعة والفلاحة، أمّا المدنية فتعني بلوغ المجتمع الدور الحضاري الذي يهيئه لانتقال اجتماعي تهذيبي، من أدنى إلى أرقى، وذلك بظهور العلم والرسم والموسيقى والكتابة والدين[4].

---

(١) ينظر تاريخ الحضارة العربية الإسلامية:١٠، قصة الحضارة ج١: ٥.

(٢) المدن في الإسلام ٩:١ط الكويت منشورات ذات السلاسل.

(٣) القرآن الكريم بنيته التشريعية وخصائصه الحضارية:١٣.

(٤) عبد الله برّي، العرب والإسلام في أيام الرسول، دار التعارف للمطبوعات بيروت:٤١.

ومن هذا الفهم يعتبر ظهور الإسلام في الجزيرة العربية مرحلة مدنية متقدّمة لما نجم عن ظهوره من تحوّل اجتماعي كبير وظهور علوم كثيرة وشيوع الكتابة بين المسلمين، وهذا بدوره يشكّل بداية الحركة العلمية التي رافقت حركة النبيّ ﷺ السياسية والجهادية فقد اتخّذ الرسول ﷺ خطوات عملية لتحقيق هذه الغاية.

فجعل فداء أسرى بدر الذين يحسنون الكتابة أن يعلّم كلّ واحد منهم عشرة من المسلمين، وأمر سعيد بن العاص أن يعلّم المسلمين القراءة والكتابة، وكان كما ذكر ابن عبد البرّ كاتباً محسناً، وكان يساهم في تعليم المسلمين عبادة بن الصامت، وهكذا انتشرت الكتابة بين المسلمين حتّى أصبح عدد كتّابه ﷺ اثنين وأربعين كاتباً[1] ولايخفى هنا أنّ الكتابة وظهورها يعدّ أهم محصلة حضارية وأبرزها، فلولاها ما استطاع الإنسان إظهار علومه وثقافاته وتسجيل تاريخه وفنّه وآثاره، وحيثما وجدت كتابة ظهرت العلوم وبرزت الحضارة والمدنية.

وقد عبّرت نصوص القرآن الكريم بشكل واضح وجليّ عن الدعوة الجادّة في تعليم الناس وإنهاضهم بالمعارف والعلوم والثقافة كما في قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[4].

---

(١) ينظر الدكتور محمد السيّد الوكيل، الحركة العلمية في عصر الرسول وخلفائه دار المجتمع جدّة:١٣، الاستيعاب ٢: ٣٦٩.

(٢) المجادلة:١١.

(٣) الزمر:٩

(٤) فاطر:٢٨.

وقوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[2].

وغيرها من الآيات التي يستنبط منها حرص هذه الدعوة المباركة إلى نشر العلم والثقافة بين الناس.

وقد كان النبيّ ﷺ يندب إلى العلم والثقافة مكوناً كياناً علمياً عظيماً مازال امتداده إلى يومنا الحاضر، والنصوص المروية عن النبيّ ﷺ كانت ومازالت عامل تشجيع ودفع لهذا المكوّن العلمي الذي أسسه النبيّ ﷺ، فتواترت الأحاديث القائلة بفضل العلم والتعلم، ووصل العلم في الإسلام درجة عالية وضعها المشرّع الإسلامي للعالم فيقول ﷺ: **من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنّة، وأنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىً به،وأنّه ليستغفر لطالب العلم من في السماء ومن في الأرض حتّى الحوت في البحر**، و في خبر عنه ﷺ: **فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر**، وقال ﷺ أيضاً: **العلماء ورثة الأنبياء**[3].

وقال ﷺ: **أعلم الناس من جمع علم الناس إلى علمه، وأكثر الناس قيمة أكثرهم علماً، وأقلّ الناس قيمة أقلّهم علماً**[4] وقال ﷺ: **اغد عالماً أو**

---

(١) العلق:١-٥.

(٢) طه:١١٤.

(٣) بحار الأنوار١: ١٦٤، الأمالي للشيخ الصدوق:٥٨ح٩.

(٤) بحار الأنوار ١: ١٦٣، أمالي الصدوق ٢٧ ح ٤.

متعلّماً[١] وقال ﷺ: أفضل العبادة الفقه[٢] وقال ﷺ: أقلّ الناس قيمة أقلّهم علماً[٣] وقال ﷺ: العلم أمام العمل والعمل تابعه[٤] وقال ﷺ: كن عالماً أو متعلّماً أو مستمعاً أو محبّاً ولا تكن الخامس فتهلك[٥] وقال ﷺ: لو علم الناس بما في العلم لطلبوه ولو بسفك المهج[٦].

---

(١) الخصال للصدوق: ١٢٣ ح ١١٧.

(٢) الخصال: ٣٠ ح ١٠٤.

(٣) مواعظ الصدوق: ٨٥.

(٤) الخصال: ٥٢٣ ح ١٢.

(٥) إرشاد القلوب للديلمي ١: ١٦٦.

(٦) غوالي اللآلي ٤: ٧٠ ح ٣٥.

دور المسجد في صنع الحضارة

تلازمت فصول المعرفة والثقافة مع مؤسسات العبادة ودورها، حيث اقترن ذكر العلم في تاريخ المسلمين بدور العبادة ومساجدها، وليس العلم وحده انبثق من باحات المساجد وأروقتها، بل انثبقت مدنية المسلمين وحضارتهم وفنونهم وإدارتهم وسياستهم كلها، أو معظمها من هذه البقعة المقدّسة، والملاحظ أن المسجد النبوي كان بداية تشكيل العاصمة العالمية، أو قل نقطة البداية لصنع الإنسان الجديد، لذا كان لأوّل مسجد في وجدان المسلمين حضور دائم يبعث على ذكريات عزيزة، ويوقد أنوار الهداية والإيمان في قلوب المسلمين.

ومسجد قبا[1] هو أوّل مساجد التقوى والصلاح، وإليه أشارت الآيات الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[2].

فتزكية هذا المسجد العظيم جاءت من الخالق أوّلاً ومن نبيّه بعد، لأنّ أصحابه صدقوا الله ورسوله فاستحقّوا هذا التكريم، بأن جعل الله ورسوله مسجد قبا نقطة البداية للمسجد الإسلامي.

وقد أخبر الصادق عليه السلام عن هذا المسجد الذي تشرفت تربته بحضور

---

(١) وقبا بضم القاف: موضع بقرب المدينة من جهة الجنوب نحو ميلين منها، وإليه نسب اسم المسجد .معجم البلدان٤: ٣٠٢.

(٢) التوبة:١٠٧و١٠٨.

شخص النبيّ ﷺ، وجعل الصادق ﷺ له فضيلة وأولوية عبادية، فقال لعقبة بن خالد حين سأله: إنّا نأتي المساجد التي حول المدينة فبأيّها أبدأ؟ فقال عليه السلام: ابدأ بقباء فصلّ فيه وأكثر، فإنّه أوّل مسجد صلّى فيه رسول الله ﷺ في هذه العرصة[1].

وحين سأل الحلبي الصادق عليه السلام عن المسجد الذي أسّس على التقوى، أخبره عليه السلام بأنّه مسجد قُباء[2].

وكان النبيّ ﷺ بنى هذا المسجد في قباء قبل أن يدخل المدينة، ولم يكن مكثه بقباء غير بضعة أيّام فلمّا دخل المدينة كان أوّل ما فكّر فيه أن يبني مسجده[3].

وشهد المسجد في التاريخ الإسلامي حركة علمية وثقافية واسعة، حيث كان يمارس مسجد المسلمين دوراً مزدوجاً، يمثل الدور الأوّل في تقديم الخدمات العبادية، وبجنبها الخدمات العلمية والاجتماعية في الدور الثاني، فقد كانت جموع من المسلمين تلتقي في الأوقات المخصصة للعبادة لقاءاً جمعياً عفوياً يؤدّون مراسم الصلاة ويتناول إمام المسجد والمصلّون هموم الناس الاجتماعية ومشكلاتهم، وعلى مسار التاريخ ومعظم الأوقات كانت حلقات الدرس في علوم الدين والعلوم الأخرى تجد موضعاً لها في باحات المسجد وفي ظلّ سقوفه، وكانت جموع من طلبة العلم تجتمع هناك تحت سقوف المساجد وفي مؤسات العبادة والذكر في كلّ الأزمنة، فدور المسجد التعليمي كان واضحاً ومسجلاً في عقود مضت، بدءاً من حضور النبيّ ﷺ الذي اختطّ أوّل مسجد في يثرب مدينة الرسول المنورّة إلى أزمنة متأخرة، فالحديث عن المدرسة العلمية، أو الجامعة أو

---

(١) فروع الكافي٤: ٥٦٠ح٢.

(٢) فروع الكافي٣: ٢٩٦ح٢.

(٣) أمين دويدار، صور من حياة الرسول ﷺ، دار المعارف مصرط الرابعة:٢٥٩.

المعهد أو المركز العلمي بلغة أخرى في التاريخ الإسلامي يعني المسجد والجامع الذي كانت تمارس فيه الصلاة والعبادات الأخرى، وحين بدأت مسيرة النبيّ ﷺ في يثرب كانت ناقته ﷺ تبحث عن بقعة تبرك فيها، فصادف بروكها عند مسجد بني سالم، وكان بنو سالم بنوا مسجداً قبل قدوم رسول الله ﷺ فنزل في مسجدهم وصلّى بهم الظهر وخطبهم[1] ليعلن ميلاد هذه المؤسسة الحضارية في التاريخ، وحتّى الفنون التي عرفت في تاريخ الحضارة الإسلامية نشأت وترعرعت وعُرفت في المسجد أوّلاً، وارتبطت بمعاني دينية وأغراض عبادية، فنقش الآيات القرآنية ورسومها كانت تتخذ المساجد معرضاً لها وساحة لها، وتميّزت فنون العمارة الإسلامية بجاذبيتها وشكلها المميّز بزخرفتها وطابعها الخاصّ بها «فإنّ العمارة الإسلامية قد أخذ طابعاً مميّزاً تمثّل في الأعمدة التي اتخذت تيجاناً وعقوداً مدببة وروابط خشبية حتّى أنّه ظهر ما يعرف بعلم عقود الأبنية.

وقد أصبحت الأقواس التي أخذت شكل حدوة الفرسHorse-shoe تدلّ على الفن المعماري الإسلامي، وإنْ وجدت الأقواس قبل ذلك فإنّها تغيّرت في شكلها على يد المسلمين، كذلك كانت المقرنصات من سمات الفن المعماري الإسلامي، وتعني الأجزاء المتدلية من السقف، وكذلك فإنّ بناء القباب والمآذن العالية دليل على براعة الفن الإسلامي... .

وبالرغم من أنّ المسجد النبوي كان النموذج الذي اقتدت به مساجد الأمصار، في هيأته البسيطة ومكوّناته الذي بناه الرسول ﷺ، فإنّ كثيراً من الباحثين يجعلون مسجد دمشق مشاركاً للمسجد النبوي بصفته نموذج المساجد الكبرى الأولى ذات الصحن المكشوف الذي تحيط به الأروقة...»[2].

---

(١) بحار الأنوار١٩: ١٠٨.

(٢) تاريخ الحضارة العربية الإسلامية للتليسي: ٣١٧و٣١٩.

وقد اعتبر بعض الباحثين أنّ المسجد النبوي هو التاريخ العلمي للمدينة، فقال: المسجد النبوي أو التاريخ العلمي، ويعلل هذا الاعتقاد بالقول: لأنّ المسجد النبوي هو تاريخ المدينة العلمي، والتاريخ العلمي هو المسجد النبوي ثم يقول: وقد ألّف المؤرخون كتباً في الجامع الأزهر وجامع الزيتونة والجامع الأموي والجامع الأقصى تضمنت هذه الكتب تاريخ الإعمار والتاريخ العلمي.

ولكنّي لم اقرأ كتاباً مستقّلاً في تاريخ المسجد النبوي يتحدّث عن تاريخه العلمي عبر العصور، وأكثر ما يكتب الكاتبون عن تاريخ عمرانه، والتوسعات التي تمّت عبر القرون...[1].

وقد بلغت عناية النبيّ ﷺ بالمسجد وفقاً لرواية كتب السيرة أنّه كان الخطوة الأولى له ﷺ في برنامج عمله، ومارس هو عملياً دور الباني والمؤسس لهذه المؤسسة الدينية والمدنية، وفي هذا تقول رواية المجلسي رحمه الله: فحين كان ﷺ يصلّي بأصحابه في المربد، أمر سعد بن زرارة بشراء هذا المربد، فقال ﷺ له: **اشتر هذا المربد من أصحابه**، فساوم اليتيمين عليه فقالا: هو لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **لا، إلاّ بثمن** فاشتراه بعشرة دنانير، وكان فيه ماء مستنقع، فأمر به رسول الله ﷺ فسيل، وأمر باللبن فضُرب، فبناه رسول الله ﷺ فحفره في الأرض، ثمّ أمر بالحجارة فنقلت من الحرَّة، فكان المسلمون ينقلونها، فأقبل رسول الله ﷺ يحمل حجراً على بطنه، فاستقبله أسيد بن حُضيْر، فقال: يا رسول الله أعطني أحمله عنك، قال: **لا، اذهب فاحمل غيره**، فنقلوا الحجارة ورفعوها من الحفرة حتّى بلغ وجه الأرض، ثمّ بناه أوّلاً بالسعيدة: لبنة لبنة، ثمّ بناه بالسميط وهو لبنة ونصف، ثمّ بناه بالأُنثى والذكر: لبنتين مخالفتين، ورفع حائطه قامة، وكان مؤخّره مائة ذراع، ثمّ اشتدَّ عليهم الحرّ فقالوا: يا رسول الله،

---

(١) محمد محمد حسن شرّاب، في أصول تاريخ العرب الإسلامي:١٥٥.

لـو أظللت عليه ظلاً، فرفع صلى الله عليه وآله أساطينه في مقدّم المسجد إلى ما يلي الصحن بالخشب.

ثـم ظلـله وألقى عليه سعف النخل فعاشوا فيه، فقالوا: يا رسول الله لو سـقفت سـقفاً، قـال: **لاعـريش كعـريش موسى، الأمر أعجل من ذلك**، وابتنى رسـول الله ﷺ منازلـه ومـنازل أصـحابه حول المسجد، وخطّ لأصحابه خططاً فبـنوا فـيه مـنازلهم، وكـلّ شرع منه باباً إلى المسجد وخطّ لحمزة وشرع بابه إلى المسـجد، وخـطّ لعليّ بن أبي طالب ﷺ مثل ما خطّ لهم، وكانوا يخرجون من منازلهم فيدخلون المسجد، فنزل عليه جبرئيل فقال: يا محمد إنّ الله يأمرك أن تأمر كـلّ مـن كـان له باب إلى المسجد أن يسدّه، ولايكون لأحدٍ باب إلى المسجد إلاّ لـك ولعلـيّ ﷺ، ويحـلّ لعليّ فيه ما يحلّ لك، فغضب أصحابه وغضب حمزة، وقـال: أنـا عمّـه يأمرني بسد بابي، ويترك باب ابن أخي وهو أصغر منّي! فجاء فقـال: **يـا عـمّ لا تغضـبنّ مـن سـدّ بـابك وترك باب عليّ، فو الله ما أنا أمرت بذلك، ولكنّ الله أمر بسدّ أبوابكم وترك باب عليّ**، فقال: يا رسول الله رضيت وسـلّمت لله ولرسـوله[1] فالـرواية تعكـس لنا الممارسة التفصيلية للنبيّ ﷺ في عمليـة بـناء المسـجد الـذي يشـكل الجامعـة العلمـية ومركـز الرئاسة الدينية والدنيوية.

ويـرى الـنبيّ ﷺ أنّ المسـاجد بيوت ربّانية فتحت للعباد رحمةً لهم فيقول ﷺ: **قـال الله تـبارك وتعالى: إنّ بيوتي في الأرض المساجد تضيء لأهل السماء كمـا تضـي الـنجوم لأهل الأرض، ألاطوبى لمن كانت المساجد بيوته، ألاطوبى لمـن توضّـأ في بيـته، ثمّ زارني في بيتي، ألا إنّ على المزور كرامة الزائر، ألا بشّر المشّائين في الظلمات إلى المساجد بالنور الساطع يوم القيامة**[2].

---

(١) بحار الأنوار١٩: ١١١.

(٢) المحاسن للبرقي:٤٧ح٦٥.

وقد كان المسجد والذي يشكل القصر الرئاسي أو الملكي في لغة العصرآية في البساطة، ومع هذه البساطة والإمكانات المتواضعة التي يتمتع بها المسجد فقد رسم سياسة أمة قادت العالم، وكان تاريخ المسجد النبوي الذي بناه النبيّ ﷺ والذي رواه أبو عبد الله عليه السلام وثيقة صادقة حيث يقول: إنّ رسول الله ﷺ بنى مسجده بالسميط[1] ثمّ إنّ المسلمين كثروا فقالوا: يا رسول الله لو أمرت بالمسجد فزيد فيه، فقال: **نعم**، فأمر به فزيد فيه وبنى جداره بالأنثى والذكر، ثمَّ اشتدَّ عليهم الحرّ فقالوا: يا رسول الله لو أمرت بالمسجد فزيد فيه، فقال: **نعم**، فأمر به فزيد فيه وبنى جداره بالأنثى والذكر، ثمّ اشتدّ عليهم الحرّ فقالوا: يا رسول الله لو أمرت بالمسجد فظلّل؟ فقال: **نعم**، فأمر به فأقيمت فيه سواري من جذوع النخل، ثمّ طرحت عليه العوارض والخصف والإذفر فعاشوا فيه حتّى أصابتهم الأمطار، فجعل المسجد يكفّ عليهم فقالوا: يا رسول الله لو أمرت بالمسجد فطيّن، فقال لهم رسول الله: **لا، عريش كعريش موسى** عليه السلام، فلم يزل كذلك حتّى قبض رسول الله ﷺ، وكان جداره قبل أن يظلل قامة فكان إذا كان الفيء ذراعاً وهو قدر مربض عنز صلّى الظهر، فإذا كان ضعف ذلك صلى العصر[2] كان بهذه الصورة وبهذا الشكل، وكانت تصاغ قرارات تتحكم بمستقبل الأرض وسكّانها، وتخرجت جموع من القادة والعلماء من هذه البقعة هزت شرق الأرض وغربها.

وكانت هذه المؤسسة الإسلامية، أوّل مؤسسة لشورى الدولة، كما أنّها تشكل نواة الهياكل التنظيمية للمجتمع الإسلامي، وقد حظيت هذه المؤسسة الاجتماعية المهمة لدى النبيّ ﷺ مكانة عظيمة بأن جعلها توازي وتشاكل دور الأسرة والبيت الشخصي للفرد المسلم فقال ﷺ: **المؤمن مجلسه مسجده،**

---

(١) وقال عليه السلام السميط لبنة لبنة والسعيدة: لبنة ونصف والذكر الأنثى لبنتان مخالفتان.

(٢) بحار الأنوار١٩: ١١٩.

وصومعته بيته[١]، وجعلها ﷺ متجر المؤمنين فقال ﷺ: **المساجد سوق من أسواق الآخرة، قراها المغفرة، وتحفتها الجنّة**[٢].

وفي خبر آخر قال ﷺ: **من كان القرآن حديثه والمسجد بيته بنى الله له بيتاً في الجنّة**[٣]، وجاء في خبر عنه ﷺ: **كونوا في الدنيا أضيافاً، واتخذوا المساجد بيوتاً، وعوّدوا قلوبكم الرقّة، وأكثروا من التفكر والبكاء من خشية الله، واجعلوا الموت نصب أعينكم**[٤]، وجعل النبيّ ﷺ للمسجد دعوى قضائية فقال ﷺ: **يجيء يوم القيامة ثلاثة يشكون: المصحف، والمسجد، والعترة، يقول المصحف: يا ربّ حرّقوني ومزّقوني، ويقول المسجد: يا ربّ عطّلوني وضيّعوني، وتقول العترة: يا ربّ قتلونا وطردونا وشرّدونا**[٥].

وهذا يعنى أن التربية الاجتماعية تمارس من خلال دور العبادة، فهذه الدور تعنى بإيجاد فضاءات ومساحات للتربية الفردية والاجتماعية في أسرة جديدة هي الأسرة الدينية يتعلّم وينزّود بثقافة ومعرفة تكمل حياته وتسدده، ومن هنا ندرك التأكيد على حضور المسجد وصلاة الجماعة، لأنّ الجانب التربوي ومعطيات الصلاة في إطارها الجمعي لا يمكن مقارنتها بمعطيات الصلاة لو صلاّها العبد لوحده، لأنّ المسجد وصلاة الجماعة جزء من البرنامج التعليمي للنبيّ ﷺ.

---

(١) تهذيب الأحكام ٣: ٢٤٩ح٦٨٤.

(٢) بحار الأنوار٨٤: ٤.

(٣) تهذيب الأحكام ٣: ٢٥٥ح٧٠٧.

(٤) بحار الأنوار٨٣: ٣٥١.

(٥) بحار الأنوار٨٣: ٣٦٨.

النبيّ والتعليم والتنشئة الاجتماعية

كان النبيّ ﷺ يحرص على منح الصفة التربوية والتعليمية للمسجد، لذا تراه ﷺ ينهى عن تحويل المسجد إلى سوق اقتصادي أو ورشة تصليح أو دكان تصرّف فيه البضاعة، فحين رأى ﷺ رجلاً جاء إلى المسجد ينشد ضالّته قال له رسول ﷺ: **قولوا له: لا ردَّ الله عليك فإنّها لغير هذا بُنيت**، وفي خبر آخر مرّ رسول الله ﷺ برجل يبري مشاقص[1] له في المسجد فنهاه وقال: **إنّها لغير هذا بنيت**[2].

فالمساجد مدارس ومنشآت تعليمية تصنع الفكر والثقافة الإسلامية، وتوسيع دور المسجد كان مهمة جديدة في حياة المسلمين، فمنه تُتَّخذ القرارات السياسية العليا وتُعبّأ الجيوش، وبه تطرح مشكلات الناس وهمومهم، وفيه ينعقد مجلس القضاء وغير ذلك مما كان يستجد في حياتهم.

وقد أدركت امرأة عمران أمّ مريم عليها السلام أنّ المسجد سيعدّ هذه المرأة العظيمة، أمّ عيسى عليه السلام الذي هزّ كيان العالم في حينه ومازال صداه قائماً.

وبتأمّلنا للنصوص القرآنية نلحظ أنّ مفهوم التربية والتعليم والتنشئة الاجتماعية قد ظهر على لسانها واضحاً في قوله تعالى الذي عكس لنا تاريخ المفهوم التربوي في قصة مريم عليها السلام: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[3].

فهي قاصدة في قولها هذا إلى تنشئتها في المؤسسة العبادية التي كانت

---

(١) المِشْقص: سهم فيه نصل عريض يُرمي به الوحش. اللسان «شقص».

(٢) علل الشرائع للصدوق:٣١٩.

(٣) آل عمران:٣٥.

قائمة آنذاك والمتمثلة في المعابد والتي كانت مدرسة إعداد ديني وإجتماعي، وقد كانت الآية اللاحقة تؤكّد مفهوم التربية الاجتماعية والدينية فتقول: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1]، وقد فسّرها العلماء وفقاً لمفهوم التربية والتنشئة الاجتماعية بقولهم: تكفّل بها في تربيتها[2].

والتربية في المعنى اللغوي تفيد الزيادة والتنشئة، قال الأصمعي: ربوت في بني فلان أربو، نشأت فيهم، ربّيت فلاناً أربّيه تربيةً وتربّيته ورَبَبْتُه وربَّيْته بمعنى واحد ورَبَّيته تربيةً وتَرَبّيته، أي غَذوته، ويقال هذا لكلّ ما ينمي كالولد والزرع[3].

فالمعنى اللغوي والمعنى الديني يقترب من المعنى الاصطلاحي العلمي الحديث الذي يعرّف التربية بتعريفات تلتقي عند مصبّ واحد، وهو كلّ ما يعمله غيرنا بقصد تقريبنا من كمالنا الطبيعي، فهي بأوسع معانيها تشمل الآثار غير المباشرة التي تحدثها في الأخلاق، والقوى الإنسانية من الأمور التي لها أغراض مباشرة مختلفة كالقوانين،وأشكال الحكومات، والفنون، والصناعة، وأنواع الحياة الاجتماعية، بل حتى العوامل الطبيعية التي لاسلطان لإرادة البشر عليها كالمناخ وطبيعة الأرض وموقع البلاد الخاص... وغيرها من العوامل.

وقد كان النبيّ ﷺ مدركاً لعملية التنشئة والتعليم الاجتماعي كما علّمته السماء، فكان يؤكّد على الحضور الجماعي في المساجد، لأنّ المسجد

---

(١) آل عمران:٣٧.

(٢) مجمع البيان للطبرسي١: ٤٣٦.

(٣) لسان العرب ١٤: ٣٠٧(ربا).

آنـذاك هـو مدرسـة ومؤسسـة تعليمـية، تمـثل دور المدرسة والمعهد والجامعة العلمـية المعاصرة، فشدّ المسلم إلى المسجد يعني تشكيل نادي اجتماعي وتربوي لهم، فكان ﷺ يقول: **من صلّى أربعين يوماً في جماعة يدرك التكبيرة الأولى كتب له براءتان: براءة من النار وبراءة من النفاق**[1].

فإدامـة الحضـور وتـتابعه هـو عملـية تلقـين اجـتماعي، ورفـع للسلوك الاجـتماعي فتراتـب الاجتماع واستمراريته يهذّب الشخص ويخلق منه إنساناً واعياً مطواعاً متقبلاً للإرشاد والتوجيه الاجتماعي والسياسي.

وقـد صحّت كثيرٌ من الأحاديث المروية عن النبيّ ﷺ والمعصومين عليهم السلام في تأكـيد لزوم الجماعة والمساجد، و تقول هذه الأخبار ليست الطقوس وحدها هي المعنية، وإنّما من يقوم بأداء هذه الطقوس،ومن يحضر المسجد، ومن يخطب، وتفيد بعض النصوص بأنَّ الابتعاد عن هؤلاء هو المعني بالأخبار.

وقـد فسّـر العلماء هذا التأكيد على أنّه ابتعاد عن إمام الحقّ، فلا ينبغي الابتعاد عنه بمسافة كبيرة[2].

وقـد سلب النبيّ ﷺ عمّن يتبعد عن مؤسسة التعليم الاجتماعي صفته الاجتماعـية واعتـبره كـياناً مـنفرداً لوحـده فقال ﷺ: **إذا سُئلت عمّن لايشهد الجماعة فقل لا أعرفه**[3]، بإعتبار أنّه لاينتسب إلى الجماعة الإسلامية.

ولعـلّ الـبعض يتسـاءل عمّا يروى عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في أنّ قومـاً جلسوا عن حضور الجماعة فهّم رسول الله ﷺ أن يشعل النار في دورهم

---

(١) ذكرى الشيعة للشهيد:٢٦٤.

(٢) ينظر البحار٨٨: ١٣.

(٣) النفلية للشهيد:٣٨.

حتّى خرجوا وحضروا الجماعة مع المسلمين[١].

ونحن نرى، من خلال البعد الاجتماعي والتربوي للصلاة اليومية المؤدّاة في جماعة، وفي المؤسسة التعليمة العبادية، وهي مساجد المسلمين، بأنّ النبيّ ﷺ كان يؤكد ويؤسس نظرية التربية والتعليم والتنشئة الاجتماعية، فترسيخ هذه النظرية كان يتطلّب نوعاً من الحزم والضبط الاجتماعي، فالرأفة بالأمّة والعاطفة الجيّاشة التي يمتلكها النبيّ ﷺ تأبى أن تترك الفرد منزوياً عن الجماعة وبعيداً عن حلقات الدرس الاجتماعي الذي يتلقّاه الفرد المسلم، فانزواء الفرد في صومعة بيته يحرمه فرص التعليم والتوعية الاجتماعية، لأنّ الفرد لا يتلقّى في دائرته الضيقة دروس الحياة الاجتماعية التي تجعله يتكيّف وينسجم مع العائلة الكبيرة، وهي المجتمع.

وقد كان النبيّ ﷺ يتابع ساعات الصلاة اليومية التي يصلّيها جماعة ومن يحضر هذه الصلاة، فحتّى أخصّ الناس إلى روحه وقلبه عليّ عليه السلام كان مورد مساءلته ﷺ حين يخلو المسجد من حضور عليّ عليه السلام، مع أنّ علياً عليه السلام كان كامل الشخصية.

فروي عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام أنّه قال: قام عليّ عليه السلام الليل كلّه حتّى إذا انشقّ عمود الصبح صلّى الفجر وخفق[٢] برأسه، فلمّا صلّى رسول الله ﷺ الغَداة لم يره، فأتى فاطمة عليها السلام فقال: **أيْ بنية، ما بال ابن عمّك لم يشهد معنا صلاة الغداة**، فأخبرته الخبر، فقال: **ما فاته من صلاة الغداة في جماعة أفضل من قيامه ليله كلّه**، فانتبه عليّ عليه السلام لكلام رسول الله ﷺ، فقال له: **يا عليّ، إنّ من صلّى الغداة في جماعة فكأنّما قام الليل كلّه راكعاً وساجداً، يا عليّ**

---

(١) الأصول الستّة عشر، أصل زيد النرسي:٤٥.

(٢) يقال: خفق فلان خفقةً، إذا نام نومةً خفيفة. وخفق الرجل، أي حرّك رأسه وهو ناعس. وخفق برأسه إذا نَعَس نعسةً ثمّ تنبّه. اللسان «خفق».

أما علمت أنّ الأرض تعجّ إلى الله تعالى من نوم العالم عليها قبل طلوع الشمس[١].

إنّ التفكير الاجتماعي الذي كان لديه ﷺ هو الذي دعاه إلى التأكيد على فضل التجمع العبادي لأداء الفرائض، وإلاّ ما يعنى في قوله لعليّ عليه السلام إلاّ الآخرين.

وكان النبيّ ﷺ يدفع المسلمين للمواظبة على الحضور في مدرسة الإسلام الاجتماعية المسجد، لما للمسجد من أثر تربوى كبير ينعكس في سلوك وثقافة المسلم، وفي ذلك روى الحسين عليه السلام عنه ﷺ القول: **من أدمن المسجد أصاب الخصال الثمانية: آية محكمة، أو فريضة مستعملة، أو سنّة قائمة، أو علم مستطرف، أو أخ مستفاد، أو كلمة تدلّه على هدى، أو تردّه عن ردى، وتركه الذنب خشية أو حياء**[٢].

والتنشئة الاجتماعية: هي عملية تعليم وغرز للقيم الاجتماعية والتربوية، ولها أدوات فاعلة تساهم في عملية التعليم والتنشئة، منها: الجامعة والمدرسة والحوزات العلمية والأسرة ودور العبادة المتمثلة بالحسينية والمسجد والتكية والهيئة الاجتماعية الصغيرة، وهذه العملية هي عملية تطويرية ترفع السلوك الاجتماعي إلى الوجه الأمثل والأحسن، وبهذا الفهم انطلق الفقهاء المسلمون ووعّاظهم لدعوتهم الناس في حضور هذه المؤسسات الاجتماعية.

وتبدأ عملية التعليم والتنشئة من المجتمع الصغير، وهو الأسرة، ثمّ المدرسة ثمّ المسجد أو الحسينية الذي يوازي المدرسة في عملية التوجيه والتنشئة الاجتماعية.

---

(١) دعائم الإسلام١: ١٥٣.

(٢) المحاسن للبرقي٨٤ح ٦٦.

ومن المناسب لهذا البحث أن نقول بأنَّ التعليم الاجتماعي يفترق عن التعلّم الاجتماعي، فالأوّل يكون شبه منظم ومبرمج للشخص، أمّا الثاني فهو تلقائي عفوي يحصل في وجود الفرد في الوسط الاجتماعي بشكل انسيابي، فإرسال الأفراد إلى مدارس ومؤسسات معينة، هو تعليم إجتماعي، وأمّا حركة الفرد ضمن هذه المؤسسات وتردّده عليها يعتبر تعلماً إجتماعياً تلقائياً، ويكون لمسجد المسلمين دور مكون من شقين الأول هو الدور التلقائي، والثاني وهو المقصود، وعليه يفهم ما جاء في الأخبار في ضرورة حضور المسجد والجماعة.

وقد فهم الفقهاء مغزى قوله ﷺ : **لاصلاة لمن لم يصلّ في المسجد مع المسلمين إلاّ لعلّة**[1] وهو انتفاء فضيلة صلاة المسلم لوحده، وهم على حقّ في هذا الفهم.

إلاّ أنّ تطورات الحياة ودراسات علماء الاجتماع تفسر لنا تأكيد النبيّ ﷺ على حضور الفرد للمسجد وعدم ترك هذا الحضور إلاّ لعلّة، وهو لغرض التعليم والتنشئة الاجتماعية فمسجد المسلمين مدرسة إعداد وتهذيب للأفراد.

وقد بلغ من تأكيد النبيّ ﷺ على حضور هذا الوسط الاجتماعي الفاعل أن روى الصادق عليه السلام عنه ﷺ قال:**لاغيبة لمن صلّى في بيته ورغب عن جماعتنا، ومن رغب عن جماعة المسلمين سقطت عدالته ووجب هجرانه وإن رفع إلى إمام المسلمين أنذره وحذّره، ومن لزم جماعة المسلمين حرمت عليهم غيبته وثبتت عدالته**[2].

ولا يعني ﷺ بالوقوف على الممارسات البدنية للصلاة من قيام وقعود، وإنّما عنايته ﷺ بالامتدادات السلوكية للمصلّي، فالحياة المدنية التي تتطلّب

---

(١) النفلية للشهيد:٣٨.

(٢) بحار الأنوار ٨٨: ٥و٣٧.

الأمانة والصدق واحترام القوانين والمواثيق قد حظيت باهتمام النبيّ ﷺ وملاحظته ﷺ لها، لذا قال ﷺ: **لاتنظروا إلى كثرة صلاتهم وصومهم، وكثرة الحجّ والمعروف وطنطنتهم بالليل، ولكن انظروا إلى صدق الحديث وأداء الأمانة**[1].

وقد روى عنه ﷺ وصيّه عليّ عليه السلام فقال: أقسم لسمعت رسول الله ﷺ يقول لي قبل وفاته بساعة مراراً ثلاثاً: **يا أبا الحسن، أدِّ الأمانة إلى البَرّ والفاجر فيما قلّ وجلّ، حتّى في الخيط والمخيط**[2].

---

(١) عيون أخبار الرضا٢: ٥١ح ١٩٧.

(٢) بحار الأنوار٧٧: ٢٧٣.

حضور الأنبياء في الحضارة

من المحقّق أنَّ استيعاب وفهم التاريخ والحضارة لايتحقّق إلاّ بفهم الشرائع السماوية، فتغييب دور الشرائع السماوية ومبلّغيها من الأنبياء والأوصياء، يعني إقفال أوسع نافذة من العلم والمعرفة بهذه الحضارات وتاريخها، وإذا كان من ينكر دور السماء وأتباعها في تأسيس هذه الحضارات فإنّ معاصرة هذه الحضارات ومزامنتها لنبيّ مرسل لايكاد ينكر.

فيشير أهل التاريخ إلى أنّ التمدّن والحضارة التي كانت في بلاد ما بين النهرين قد عاصرها نبيّ مرسل حيث تقول رواية التاريخ بأنّه في أواسط الألف الثالث قبل الميلاد دخل الأراميون في دور جديد فتدرجوا في الرقيّ بما امتازوا به من النشاط، فحازوا الأرضين وملكوا الإقطاع، وفي جملة المالكين«سمورابي» جدّ عائلة حمورابي، فاستعان بأبناء قبيلته في توسيع دائرة سلطته... حتّى امتدّ لواء سلطانهم على معظم المدن العامرة في غربي آسيا، وعرفت دولتهم بالدولة البابلية الأولى، وعدد ملوكها ١١ملكاً حكموا ثلاثة قرون بين القرن٢٤ والقرن ٢١ قبل الميلاد... وفي أثناء هذه الدولة ظهر إبراهيم الخليل عليه السلام وهاجر من أور الكلدانيين[١].

ويقدّر المؤرخون بأنّ سيّدنا إبراهيم عليه السلام ولد بين قومه في أور الواقعة بين دجلة والفرات في قلب الجزيرة العربية في حدود العام ١٩٤٠ ق.م على أصدق تقدير، ومن أور انتقل إبراهيم عليه السلام إلى حاران، وهناك راح يدعو إلى عبادة الله الواحد الأحد ويحاجج أباه كما ذكر القرآن الكريم[٢]، بلغة الحوار

---

(١) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، مكتبة الحياة بيروت:٥٩.

(٢) نجيب زبيب، التاريخ الحقيقي لليهود، دار الهادي بيروت:١٦.

والمحاججة العقلية.

والاحتجاج مظهر حضاري يُنبئ عن تقدّم عقلي كبير، فالاستنتاج والمقايسة والاستقراء هي التي يتّكل عليها أهل الاحتجاج، والمحاورة تحكي تراث وثقافة وحضارة جيل وأمّة، وسواء كانت المعارف والمعتقدات التي يحملها أهل الحوار صحيحة أم غير صحيحة فهي مؤشر حضاري ومدني.

يقول الدكتور غوستاف لوبون: المعرفة هي عنصر الحضارة الأساسي وهي العامل الكبير في ارتقائها المادي، وأمّا المعتقد فهو الذي يرسم وجهة الأفكار ومن ثمّ وجهة السير.

وكان الناس فيما مضى يُعزون المعتقدات إلى مصدر إلهي فكانوا يعتنقونها غير مجادلين فيها، وعلى رغم علمنا في الوقت الحاضر أنّها صادرة عن أنفسنا فإنّها لاتزال ذات سلطان علينا، وما تأثير قوّة البرهان فيها إلاّ كتأثيره في الجوع والعطش، فلمّا نضج المعتقد في منطقة اللاشعور حيث لايصل إليها العقل عاناه المرء غير محاج فيه.

و مصدر المعتقدات اللاشعوري وغير الإرادي يمنحها قوّة عظيمة، فللمعتقدات، دينية كانت أم سياسية أم اجتماعية، شأن كبير في التاريخ على الدوام، إذ لا تلبث المعتقدات بعد أن تصير عامة أن تصبح قطوباً جاذبة تجذب حواليها كيان الشعوب، وتطبع سمتها على كلّ عنصر من عناصر حضارتها، فتوصف الحضارة حينئذ باسم الدين الذي أوحى إليها، ولذلك كانت أسماء الحضارة البوذية والحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية أسماء صحيحة صائبة إلى الغاية، ومتى صار المعتقد قطب جذب أصبح قطب تغيير أيضاً، لأنّ عناصر الحياة الاجتماعية المختلفة من فلسفة وفنون وأدب تتبدّل لتلتئم به[1].

---

(١) الآراء والمعتقدات، ترجمة عادل زعيتر، ط مصر المطبعة العصرية،٩.

وقد تجلّت ثقافة التوحيد والدين السماوي في مقابلة إبراهيم الخليل عليه السلام مع ممثل الثقافة الطاغوتية والإشراكية الملك نمرود، « فقد واجهه بالمحاججة والقياس العقلي، وحين كسر أصنامهم تساءلوا عن الفاعل فأجابهم في منهج مدروس ذكره الكتاب العزيز: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ »[1].

ولأهمية احتجاج إبراهيم الخليل عليه السلام ودوره الحضاري سجّل القرآن الكريم هذا الاحتجاج في قوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[2].

ويلاحظ أنّ الثقافة التوحيدية التي قابلت الثقافة الوثنية لم تكن منفصلة عن تاريخ الحضارات والمدنيات البشرية، فالارتباط الوثيق بين التمدّن البشري وبين الثقافات النبوية المستمدة من الوحي السماوي كانت واضحة في مجمل التاريخ ... بل هي المظهر الخارجي للحضارات كلّها.

---

(١) الأنبياء: ٦٢-٦٧.

(٢) الأنعام: ٨٠-٨٣.

وإذا كان الإسلام يدفع بجذوره الأولى إلى إبراهيم عليه السلام قبل ٢٥٠٠-٣٠٠٠ سنة، تسبق الإسلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[١] فإنّه في الوقت نفسه يكشف أنّ جذور الفكر العمراني الإسلامي ترجع بدورها إلى ذلك العهد البعيد: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾[٢]، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا﴾[٣].

وهكذا فالبيت والبلد والأمن، وجدت معاً مع الإسلام، منذ ولادته الأولى، وأثبت بها حضريته.

وكلّ من البيت والبلد والأمن لاتتوافر إلاّ في فكر عمراني ذي منظور حضاري عريق.

والواقع أنّ الإسلام في روحه الأعمق وفي جوهره دين مدني، مرتبط بالحضر وبالمدن والعمران، وبالحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية المتطوّرة، وبالتنظيم المستقر للناس، وبالاجتماع الأوسع المتعاون[٤].

فالسياسة المدنية التي كانت واضحة في سيرة النبيّ محمد ﷺ ومن سبقه من الأنبياء تعكس الحضارة السماوية التي وضعتها الشرائع الدينية ومنها انبثقت أعلام السياسة المدنية، فالتاريخ السياسي يحتفظ في خزانته بداود وسليمان عليهما السلام وهما نبيّان مرسلان عكسا فلسفة السماء ومبادئها في الإدارة السياسية التي ناسبت زمانهما، فالتاريخ يقول:إنّ تأسيس مملكة داود أعطى الاسم محتوى جديداً بحيث أضحى يشير لكافة السكّان الواقعين ضمن إطارها،

---

(١) الحج: ٧٨.

(٢) البقرة: ١٢٧.

(٣) البقرة: ١٢٦.

(٤) ينظر شاكر مصطفى، المدن في الإسلام ج١: ٢٣.

وهذه نقطة أساسية لايمكن تجاهلها.

فالقراءة الدقيقة للعهد القديم، تبيّن أنّ داود لم يعتبر نفسه رئيساً دينياً أوزعيماً لقبيلة، بل حاكماً على كافة الأقوام التي كانت تعيش ضمن حدود مملكته، ولم تكن مسألة ديانتهم لتؤثر في سياسته تجاههم، هذا رغم أنّه كان على دين «يهوه» على ما يروى عنه ـ حسب لغتهم واعتقادهم ـ كما أنّ النصوص ذات العلاقة تظهره كسياسي ذي حنكة، أي رجل دولة، وبأنّه عامل كافّة السكّان بشكل متساوٍ، ودون تفريق بين بني إسرائيل الأصليين وبين المنضمّين لهم[1].

وأهم معلم ومظهر حضاري ومدني يسجّله المؤرخون في تاريخ الدول والملوك هو النظام المالي والتجاري الذي يعكس التطوّر الاقتصادي للدول وتحقيق الرفاه والمعيشة الجيّدة واللائقة آنذاك للمواطن.

والحياة الاقتصادية المزدهرة للناس لاتتم إلاّ بتحقيق الأمن والاستقرار للناس لكي يمارسوا نشاطهم الاقتصادي والتجاري، ويذكر التاريخ القديم أنّ النبيّ سليمان عليه السلام توجّه بمشاريعه نحو التجارة والصناعة واستخراج المعادن، وبنى بمساعدة ملك صور أسطولا من السفن للتجارة في البحر الأحمر، وكان قاعدة هذا الأسطول مدينة «عصيون غابر» وسمّيت إيلات فيما بعد.

وقد أدرك رسول السماء سليمان بن داود عليه السلام بثاقب بصره وهو النبيّ المرسل أنّ نشر ديانة التوحيد التي جاء بها تكون أكثر انتشاراً إذا كان هناك عهد من الاستقرار والتفاهم مع ما يحيط به من الممالك العربية، وبذلك يكون

---

(١) ينظر زيادمني، جغرافية العهد القديم، بنو إسرائيل، جغرافية الجذور، منشورات الأهالي دمشق:١٢٨و١١٧.

مجال الدعوة إليها أكثر سهولة وأيسر عملاً، فالتفت إلى أبناء شعبه أوّلاً فراح يعلمهم فضل القانون والنظام والتمسّك بالأخلاق والفضائل، ومازال بهم حتّى أقنعهم بنبذ الشقاق والحرب والالتفات إلى الصناعة والسلم حتّى اعتبر عهده بحق عهد سلام فعاد ذلك عليه بثروات كثيرة.

وتذكر التوراة أنّ سليمان قد عظم على جميع ملوك الأرض في الغنى والحكمة، وكانت الأرض كلّها تلتمس مواجهة سليمان لتسمع حكمته التي أودعها الله في قلبه، وكان كلّ واحد يأتيه بهداياه من آنية فضة وذهب ولباس وسلاح وأطياب وخيل وبغال حتّى جعل الفضة في أورشليم مثل الحجارة وجعل الأرز في مثل الجميز[1] الذي في السهل كثرة.

وهكذا وصلت مملكته في عهده ذروة فائقة من المجد والأبهة وبلغت مستوى من الترف هائلاً في المعيشة.

وبعد أنّ تحقّق لسليمان كلّ ذلك راح يعمل على تمتين أواصر الصداقة وحسن الجوار والمسايرة مع الممالك المحيطة به فوطّد صداقته مع مصر وفينيقية بصورة خاصّة، فتزوج ابنة فرعون مصر فعاد عليه ذلك الزواج بقلعة كنعانية هي إقليم جازر الذي كان قد احتله الفرعون وقدمه هدية لابنته بمناسبة زواجها، ثمّ ارتبط بعد ذلك بعلاقات المصاهرة مع العمونيين والموآبيين والأدوميين والحثيين والكنعانيين والآراميين وأهل جت وأهل صيدا صور فأثمرت سياسته تلك أمناً ورخاءً، ولم يبق أحد من الملوك المجاورين له والمحيطين به إلاّ هاداه وراسله وبعث إليه وجوه وأعيان دولته، ومنهم بلقيس ملكة سبأ، وقد تكلّم

---

(١) الجُمَّيز والجُمَّيزى: ضرب من الشجر يشبه حمله التين ويعظم عظم الفرصاد. والفرصاد: التوت. اللسان (جمز) و(فرصد).

القرآن الكريم عن بعض فصول قصّتها معه ومراسلتها له[١]، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾[٢].

فالآيات تشير إلى قوّة سليمان عليه السلام وسطوته السياسية والعسكرية آنذاك ممّا لم تتهيأ لملك آخر.

وهناك علم حضاري عرفته الدراسات التاريخية هو ذوالقرنين وهو شخصية دينية عرّفتها السماء وأمدّتها بما عرفت به من انجازات عظيمة، وقد عرّفه الفخر الرازي بأنّه هو الإسكندر بن فيلقوس اليوناني تلميذ أرسطاطاليس، وهو الذي بلغ أقصى المشرق والمغرب والشمال، وبنى الإسكندرية، وغزا الأمم البعيدة، وبنى المدن الكثيرة[٣].

وقد أشار القرآن الكريم لهذا العلم الفذّ بقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾[٤].

وقد بلغت قوّته بحيث أنّه إذا مرّ بقرية زأر فيها، كما يزأر الأسد

---

(١) ينظر التاريخ الحقيقي لليهود:١٢٢-١٢٤.

(٢) النحل: ٢٩-٣٥.

(٣) التفسير الكبير٢١: ١٦٣.

(٤) الكهف: ٨٣-٨٤.

المغضب، فيبعث في القرية ظلمات ورعد وبرق وصواعق، يهلك من ناواه وخالفه، فلم يبلغ مغرب الشمس حتّى دان له أهل المشرق والمغرب فقال أمير المؤمنين علي عليه السلام ذلك قول الله عزّوجل: «إنّا مكنّا له في الأرض وآتيناه من كلّ شيء سبباً» أي دليلاً[1].

وروى الباقر عليه السلام: أنّ الله تعالى لم يبعث أنبياء ملوكاً في الأرض إلاّ أربعة بعد نوح عليه السلام: ذوالقرنين واسمه عيّاش، وداود وسليمان ويوسف، فأمّا عيّاش فملك ما بين المشرق والمغرب، وأمّا داود فملك ما بين الشامات إلى بلاد اصطخر، وكذلك ملك سليمان، وأمّا يوسف فملك مصر وبراريها ولم يجاوزها إلى غيرها.

وهنالك رأي يقول بأنّ ذا القرنين لم يكن نبيّاً إنّما كان عبداً صالحاً، شأن طالوت الذي كان ملكاً في تاريخ بني إسرائيل الذي أشار له القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾[2]، فهو لايخرج عن نطاق الثقافة التوحيدية، فهو إنْ لم يكن نبيّاً كان شَعبة من شعب الإيمان غرست فيها السماء بذور الصلاح والهداية والمعرفة.

قال الصادق عليه السلام في وصف سلطانه: أحبّ الله فأحبّه الله، وطوى له الأسباب وملّكه مشارق الأرض ومغاربها[3].

فشخصية حضارية مهمة، كشخصية ذي القرنين، غير قادرة بإمكاناتها الذاتية من أن تعطف رقبة التاريخ، وتصنع آثاراً ومعالم لازالت قائمة باسمها، من غير توجيه نبويّ.

---

(١) بحار الأنوار١٢: ١٧٩. وتقدّم هذا البحث في الفصل السابق. الحضارة العالمية والمدينة الكونية: ٤٠.

(٢) البقرة: ٢٤٧. ينظر بحار الأنوار١٨١: ١٢.

(٣) فروع الكافي٥: ٧٠.

وقد روي أنّ ذا القرنين حجّ في ستمائة ألف فارس، ولاقى إبراهيم الخليل عليه السلام فمشى مع أصحابه إليه، فقال إبراهيم عليه السلام: بم قطعت الدهر؟ قال: بإحدى عشرة كلمة:سبحان من هو باقٍ لا يفنى، سبحان من هو عالم لا ينسى، سبحان من هو حافظ لا يسقط، سبحان من هو بصير لا يرتاب، سبحان من هو قيّوم لا ينام، سبحان من هو ملك لا يرام، سبحان من هو عزيز لا يضام، سبحان من هو محتجب لا يرى، سبحان من هو واسع لا يتكلّف، سبحان من هو قائم لا يلهو، سبحان من هو دائم لا يسهو[1].

كما إنّ ذا القرنين أوّل من صنع السدود وهو أول من استخدم السبائك المعدنية... وقد أشير لذلك في فصل الصناعة، وهذا مؤشر على دور الأنبياء في صنع الحضارة.

وحضور نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله في التاريخ الحضاري أوضح من حضور كلّ الأنبياء، حيث إنّ النبيّ عطف التاريخ وأوقفه عند حافات ومقتربات وقفت حضارة الإنسان وما زالت حائرة مترددة عن هذه الإنجازات التي فرضت نفسها وتداخلت في مسيرة المدنية، حيث تناولت السيرة النبوية مجمل حياة الإنسان ومدينته وبيته، وحتّى طرقات المدينة التي يسكنها الإنسان وأحيائها وسككها وشعبها، فلم تترك السنّة موضوعاً إلّا طرقته ولم تترك زاوية من زوايا المجتمعات إلّا وتناولتها.

فنجد حضور السنّة في تنظيم شوارع المدينة ومنعطفاتها والعناية بنظافتها وترتيب حركة المرور فيها، ومن هذا جاء قوله صلى الله عليه وآله: **إنّ على كلّ مسلم في كلّ يوم صدقة**، قيل: من يطيق ذلك؟ قال: **إماطتك الأذى عن الطريق صدقة**،

---

(١) بحار الأنوار١٢: ١٩٥، وج٩٣: ١٨٢.

وإرشادك الرجل إلى الطريق صدقة[١].

فتنظيم المدن ونظافتها يُعدّ من أرقى المظاهر الحضارية التي تعكس الذوق الرفيع، وترغيباً للفرد في هذا السلوك جعل النبيّ ﷺ له أجر العابد القارئ للقرآن فقال ﷺ: **من أماط عن طريق المسلمين ما يؤذيهم كتب الله له أجر قراءة أربعمائة آية كلّ حرف منها بعشر حسنات**[٢].

وتحضر السنّة في ترتيب البيت الشخصي للإنسان ونظافته فيقول ﷺ: **لا تؤوا منديل اللحم في البيت فإنّه مربض الشيطان، ولا تؤوا التراب خلف الباب فإنّه مأوى الشيطان**[٣] وقال ﷺ: «**أجيفوا أبوابكم، وخمّروا آنيتكم، وأوكوا أسقيتكم فإنّ الشيطان لا يكشف غطاءً ولا يحل وكاءً**»[٤].

وقال ﷺ: **لا تبيّتوا القمامة في بيوتكم وأخرجوها نهاراً، فإنّها مقعد الشيطان**[٥]، وقال ﷺ: **بيت الشيطان من بيوتكم بيت العنكبوت**[٦] وغير ذلك من الأحاديث، لما في ذلك من ضرر ناشئ عن تكاثر الجراثيم جراء تراكم الأقذار والأوساخ وبالتالي يكون البيت موطنا للأمراض والعاهات، وهذا توجّه حضاري مهم نبهنا النبي ﷺ على مراعاته[٧].

فكأنّ النبيّ ﷺ مشرف على تفاصيل سيرورة الحضارة ويعيش بين

---

(١) دعوات الراوندي: ٩٨ ح ٢٣٠.
(٢) أمالي الطوسي ١: ١٨٦.
(٣) فروع الكافي ٦: ٢٩٩ ح ١٨.
(٤) علل الشرائع: ٥٨٢ ح ٢١.
(٥) من لا يحضره الفقيه ٤: ٣ ح ١.
(٦) فروع الكافي ٦: ٣٢ ح ١١.
(٧) وأشرنا لذلك في فصل: التجمل والنظافة في الحضارة.

أظهرنا، ويلحظ يوميات الإنسان المتحضر الذي يتحرك في الأزقة والطرقات فتراه يوصي بتنظيف المدينة وتنظيمها وترتيبها والعمل على احترام المدينة واستيفاء حقّها.

الكتابة والتدوين

من المؤكّد أنَّ الكتابة وظهورها في تاريخ الأمم والحضارات معلم مهم في التعبير عن أصالة الحضارة والأمّة التي كتبت بها ثقافتها وعلومها، ويشير الباحثون إلى أنّ في بلاد وادي الرافدين قبل خمسة آلاف سنة، وبالتحديد في أواسط الألف الرابع قبل الميلاد، اخترع الإنسان القديم أوّل كتابة معروفة في العالم حتّى الآن، وهي التي سميت من قبل الباحثين المحدثين بالكتابة المسمارية، وكانت آلاف الألواح الطينية المكتشفة والمدونة بالكتابة المسمارية سجلاً حافلاً نقل لنا لغة العراقيين القدماء وكثيراً من أفكارهم ومعتقداتهم وعلومهم ومعارفهم.

وقد أخذ الأكديون الكتابة المسمارية ودوّنوا بواسطتها لغتهم الأكدية منذ أواسط الألف الثالث قبل الميلاد، فكانت اللغة الأكدية أولى اللغات العربية التي وجدت طريقها إلى التدوين والحفظ، واللغة الأكدية تسمية مشتقّة من اسم الأقوام الأكدية، وهي الأقوام العربية القديمة، وهذه التسمية استخدمت بديلاً من التسمية القديمة للأقوام السامية، وقد استخدمت مفردة اللغة الأكدية عام ١٨٥٢ من قبل العالم رو لنصن[١].

ويعتبر الباحثون أنّ اللغة الأكدية هي أولى اللغات العربية القديمة المدوّنة، واللغة الأكدية واللغة العربية المعروفة تتفرعان من أصل شجرة واحدة كان منبتها الأوّل في شبه الجزيرة العربية... وقد امتدَّت أغصان تلك الشجرة لتغطّي معظم أنحاء الشرق الأدنى القديم منذ أقدم العصور التاريخية المعروفة وحتى الآن...[٢].

---

(١) عامر سليمان، التراث اللغوي، حضارة العراق١: ٢٧٣ و٣٠٣ و٢٨٥.

(٢) المصدر السابق١: ٣٠٧.

ومن هذا فاللغة العربية هي لغة تدوين وثقافة منذ أقدم العصور ومازالت، وهذا ما أهّلها لأن تحمل رسالات السماء وشرائعها منذ عصور قديمة، وقد أشار الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام إلى ذلك بالقول: ما أنزل الله كتاباً ولا وحياً إلاّ بالعربية فكان يقع في مسامع الأنبياء بألسنة قومهم[1]، والعربية هي اللغة التي اصطفاها الله لخطابه، قال الصادق عليه السلام: تعلّموا العربية، فإنّها كلام الله الذي يكلّم به خلقه[2].

والظاهر أنّ اللغة العربية كانت لغة الحضارة والسماء في آن واحد، ضمن فترات تاريخية نجهل الكثير منها، إلاّ أنّ ما جرى من دور وموقع للغة اللاتينية في ديانة عيسى عليه السلام وفي تاريخ أوربا وعلومها وثقافاتها يقرب أذهاننا لقبول التاريخ العريق والدور الذي كانت تمارسة اللغة العربية في وضع ثقافة الإنسان وحضارته وديانته القديمة.

وبالنتيجة من كلّ ذلك يقال: كانت حضارة محمد ﷺ امتداداً لحضارات السماء التي تجلّت في داود وسليمان وذي القرنين عليهم السلام وغيرهم من أنبياء التوحيد من الذين ذكرتهم الكتب السماوية أو لم تذكرهم.

فمسار الحضارة التي بدأت بآدم عليه السلام تداوره الأنبياء ليصل إلى تكامله الحضاري في شخص خاتم الأنبياء محمد ﷺ وثقافته.

وإليك نصوصاً توحي باهتمام النبيّ وحثّه على التدوين والكتابة.

ومن ذلك رواية عمر بن شعيب عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله أكتب كلّما أسمع منك؟ قال: **نعم**، قلت: في الرضا والغضب؟ قال: **نعم، فإنّي لا أقول**

---

(١) علل الشرائع: ١٢٦ح ٨.

(٢) الخصال للصدوق: ٢٥٨ح١٣٤.

في ذلك كلّه إلّا الحقّ[١].

وروى أبو هريرة أنَّ رجلاً شكا حفظه إلى رسول الله ﷺ فقال ﷺ: **استعن على حفظك بيمينك**، يعني اكتب، وروى أيضاً أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، إنّي لا أحفظ شيئاً، قال استعن بيمينك على حفظك، يعني الكتاب، وروي أيضاً أنَّ رجلاً من الأنصار كان يجلس إلى رسول الله ﷺ فيسمع منه الحديث يعجبه ولا يقدر على حفظه فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال: **استعن بيمينك**[٢].

وقد روى عطا عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: **قيّدوا العلم**، قلت: يا رسول الله، وما تقييده؟ قال: **الكتاب**، وروي عن أنس أنَّ رسول الله ﷺ قال: **قيّدوا العلم بالكتاب**[٣].

---

(١) غوالي اللآلي ١: ٦٨ ح ١٢٠.

(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادي: ٦٥و٦٧.

(٣) تقييد العلم: ٦٨و٧٠.

النبيّ والحضارة والحسّ القومي والدولة القومية

يتردّد مفهوم الوعي القومي في الأدب السياسي للمسلمين وغيرهم، فالوعي القومي يعني لديهم هو تمتين الحسّ الوطني أو القطري أو الإقليمي أو القومي باللغة الأبعد، وهذا الوعي يعني الإحساس بالمواطنة والولاء للتربة ووضع العواطف والهتافات والشعارات السياسية والاقتصادية، للقيام بمسئولية اجتماعية وسياسية وأمنية تجاه جغرافية محدودة لجاميع من المواطنين يقتضي تآلفهم وتراصّهم وانصهارهم في علبة واحدة لا يمكن اختراقها أو تقديمها بضاعة مجانية لطامع أو محتلّ، وإذا كان أصحاب النظريات السياسية يستحسنون هذا الوعي، فإننا نرى أنَّ النبيّ ﷺ هو أوّل من قدح الوعي الوطني والقومي[1] بقوله وفق هذا المصطلح «**حبّ الوطن من الإيمان**»[2].

وينشأ الشعور أو الفكر القومي غالباً حينما يتراكم شعور لدى الجماعة بأنّهم يشكلون مجموعة متماثلة يربط بينهم رابط اللغة والدم والعادات والتقاليد الاجتماعية والديانة المشتركة، وهذه الروابط قد شطب عليها الرسول صلى الله عليه وآله «حتماً»، وبقيت الديانة المشتركة فقط، بغض النظر عن المذاهب والطوائف التي تتقسّم هذه الديانة، فالمسلمون الذين يُنسبون إلى المذاهب الأربعة المشهورة، والشيعة الذين أغلبهم إمامية اثنا عشرية، يشكلون خريطة المجتمعات الإسلامية.

وباحتساب ما ينتسب إلى هذه الديانة العظيمة، من طوائف وفرق هنا وهناك، يتشاطرون المشاعر والأحاسيس الدينية في كثير من المشتركات، كصوم

---

(١) يُستخدم المصطلح القومي بمعنى الوطني في اللغة السياسية المعاصرة. ينظر مقدمة الدكتور عبد الغفار مكاوي: ٣٩ لكتاب الإسلام شريكا، تأليف فريتس شتيبات ط عالم المعرفة الكويت ٢٠٠٤.

(٢) أمل الأمل للحرّ العاملي١: ١١.

شهر رمضان وأداء فرائض الحج وأداء الصلاة اليومية، فهم هنا في موقف واحد وأمام قبلة واحدة تفرز وتخلق إحساس الانتماء والرجوع إلى المدرسة الواحدة التي تجعلهم يسيرون في طريق واحد، ويزيد هذا الإحساس ويرتفع حين يتجاورون في بقعة جغرافية واحدة مشتركة ذات تضاريس ومناخ سياسي وجغرافي واحد.

فالأشكال الأولى للجماعة أو العشيرة أو القبيلة نشأت من خلال قرابات الدم بين الناس.

ومفهوم العشيرة في هذا السياق يدلّ على أنَّ لهؤلاء الأعضاء الأصل والجذر نفسه.

ففي المراحل الأولى من تاريخ البشرية كان الأفراد يتجمعون ويعتبرون أنفسهم متّحدين قبل كلّ شيء بالرباط الدموي ومنحدرين من جدّ مشترك.

وهذه التجمعات كانت تعيش مع بعضها البعض بدافع الحاجة الاقتصادية لكن مع استمرار حركة الزمن ازدادت التجمعات البشرية ونمت أكثر فانفصلت عنها جماعات، لكن الجماعات المتقاربة اتحدت بشكل قبيلة... .

فالقبيلة تحتوي على المئات بل الآلاف من الناس، فهي تمتلك رقعة أرض محددة بحيث يمكنها أن تعيش فيها وتصطاد... .

وغالباً يتكلّم أبناء القبيلة الواحدة نفس اللغة ويمارسون قناعات دينية مشتركة وعادات وتقاليد متقاربة.

وفي الحقب المتأخرة تكوّنت تحالفات بين القبائل المتقاربة، والسبب في ذلك هو الحاجة الاقتصادية والدفاعية... .

وقد ظلَّ قربى الدم هو اللُحمة الأساسية التي تجمع بين مختلف القبائل المتحالفة.

وانفصل رابطة الدم عن الرابطة الإقليمية ظهر مع تطور الاقتصاد الذي قاد إلى تكوّن الجنس ثمّ الأمّة.

إنَّ وحدة القبائل كانت تشكّل تنظيما واسعاً حتّى تتمكن من الدفاع عن نفسها على أساس رابطة الدم، ويتطوّر ونمو العلاقات الاقتصادية لعب التقارب الإقليمي دوراً أساسياً في خلق قرابة أوسع حتّى بين الناس الذين لا تجمعهم روابط قرابة، وتكوّن تجمع واسعٌ على أساس وجود أرض واحدة تجمع هذه التجمعات في وحدة اجتماعية وسياسية.

وأساس هذا التجمع كان اللغة والعادات والتقاليد[1]، بناءً على هذه النظرية، وهنا نشأت عواطف وأحاسيس سمّيت بالأحاسيس القومية، أو الوطنية، أو الإقليمية، أو القطرية، وغير ذلك من التسميات التي دخلت القاموس السياسي الحديث.

وقد يضيق معنى المصطلح القومي ويتّسع حسب الظروف السياسية والدولية ومستوى الوعي والثقافة الحاكمة.

فتجربة جمهوريات الاتحاد السوفيتي في القرن العشرين أعطت معنى أوسع لمفهوم القومية، فكانت مجموعة من الجمهوريات التي تختلف لغاتها وعاداتها وأصولها الدينية والمذهبية والعرقية، تخضع لموقف وشعور واحد هو الشعور بالانتماء السوفيتي الشرقي قبل الكتل السياسية الأخرى التي تضادّها في العقيدة السياسية والثقافة والعادات والتقاليد، حتى أنَّ الفنّ والسينما السوفيتية آنذاك كانت ذات طابع متميّز يشعر المراقب بأنَّ هذه الجمهوريات السوفيتية كانت تنحدر من أصل واحد وثقافة واحدة دون الإحساس

---

(١) ينظر تفصيل البحث: واسنى الأعرج، في نظرية التطوّر الاجتماعي: ٢٠ ط دار دمشق ١٩٨٢.

بالاختلافات الناشئة من اللغة والدين واللون والعرق... .

وحين يدرس الباحث التأثير القومي والتأثير الديني يجد التأثير الديني أكثر وضوحاً وأبقى من القومي، فتجربة الفتح العربي الإسلامي لإسبانيا أظهرت للباحث المؤرخ كاسترو التأثير الإسلامي الديني في الحياة الإسبانية حيث ظهر له تراث الإسلام واضحاً في: الحمّامات العامة، طقوس غسل الموتى، حجاب النساء، إكرام الضيف، عادة تقبيل اليد، عادات الترحيب والتمنيات الطيبّة التي تتضمن اسم الله، والعبارات المستعملة في طلب الصدقة، وفي الاعتذار عن تلبية الطلب.

والمكانة الأساسية للدين في نفس الإنسان الإسباني منظوراً إليه من الناحية الفردية والاجتماعية، لا يضاهيها إلّا مكان الإسلام في نفس الفرد المسلم وفي مجتمعه.

ولقد وصف الإنسان الإسلامي بأنّه نزّاع إلى الله أو متمركز حول الله، وهذا ينطبق على الإنسان الإسباني[1].

فهذا التصوير للعلاقة بين الإسلام والتاريخ الإسباني أوضح من العلاقة المتصورة بين العرب والتاريخ الإسباني، وقد كان وجود الإسلام في البحر المتوسط خلال القرون الوسطى كلّها تقريباً يعود إلى العنصر العربي وهو العنصر المكون الأقدم والأكثر ديناميكية، أمّا البربر فقد دخلوا تحت لافتة العنصر العربي.

وقد حلّ محلّ العنصر العربي العنصر التركي، فلم يعد الصليبيون مضطرّين لمواجهة قوّة عسكرية عربية بصورة رئيسية، بل قوّة تركية وكردية[2]،

---

(١) ينظر تراث الإسلام، عدد من المؤلّفين١: ١٢٩.

(٢) ينظر تراث الإسلام١: ١٤٤.

تمثل حضوراً دينياً قبل أن يكون قومياً يمثل أعراقاً وجغرافيات مخصوصة، وعلى العموم: فإنَّ آثار هذه القوميات وانعكاساتها كانت باهتة في شرق أوربا، على العكس من الآثار الدينية التي كانت ومازالت في البلقان ودول البحر المتوسط تبدو واضحة.

فاضمحلال الآثار القومية لبلدان البحر المتوسط والبلقان كان سريعاً، فلم يبق لهذه القوميات إلّا هوية تاريخية ملغاة، بينما نجد آثار الديانة الإسلامية ظلّت حتى إلى عصورنا الحديثة التي كانت من أسباب اندلاع الحرب بين الصرب والمسلمين في جمهوريات يوغسلافيا الاتحادية المنحلّة.

وقد ظهر العامل والشعور الديني واضحاً في الحرب الأهلية اللبنانية التي اندلعت بعد حرب تشرين عام ١٩٧٣، فقد كانت بيروت الشرقية تُطلق النار على أختها الغربية لأنَّ الأحزاب الوطنية واليسارية كانت تنحدر من أصول دينية إسلامية، واحتفظت جبهة اليمين السياسي، المسيحي بوحدتها الدينية ذات الأصل الديني الماروني، ولم تنطفئ نيران العداوة الدينية إلّا بعد مداخلات دولية لأنّها صارت تشكل تهديداً للأمن والسلام الدولي، فوجدت الفصائل المتناحرة نفسها توقع هدنة الاتفاق الوطني الإقليمي متناسية الأصول الدينية التي قسمتهم إلى فئات متضادة، ولم تؤثر الوحدة القومية والانتساب إلى العنصر العربي شيئاً في نزع فتيل الحرب التي عصفت بالقطر اللبناني ومزّقته.

ويتضاعف الشعور القومي عند حدوث خطر أو حرب يهدد الجماعة أو الإقليم الذي يقلّ هذه الجماعة، ويتزايد الشعور والحس بالانتماء إلى القومية عند ما يقوم داعي التنافر أو التنافس الاجتماعي في وسط اجتماعي معيّن، حيث ينحاز إلى جماعة تضمن حقوقه وتدافع عنه وتدرأ عنه الخطر الذي يدهمه.

وقد تفهّم النبيّ ﷺ وأهل بيته المعصومون حالات خاصّة تدفع الإنسان

إلى الاعتزاز والفخر القومي فلم تتناول النصوص من حالاتٍ مثل هذه، وإنّما حظرت ومنعت النصوص حين تمتلئ العواطف القومية بمشاعر الباطل والجور، لذا قال عليّ بن الحسين عليه السلام حين سُئل عن العصبية، فقال عليه السلام: العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين[1].

وبهذا المعنى قال النبيّ ﷺ: **من تعصّب أو تُعصّب له فقد خلع ربق الإيمان من عنقه، وقال ﷺ أيضاً: من كان في قلبه حبّة من خردل من عصبية بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية**[2].

وكانت ممارسات المعصومين عليهم السلام العملية ومواقفهم تجاه القوميات والعناصر غير العربية تؤكّد على ردم الفوارق والتمييز في الحقوق والواجبات، وقد لمست أمّ هاني بنت أبي طالب«رضوان الله عليه» ذلك من أمير المؤمنين عليّ عليه السلام فأثار حفيظتها، تقول رواية الشيخ المفيد: دخلت على عليّ عليه السلام أخته أمّ هاني بنت أبي طالب فدفع إليها عشرين درهماً، فسألت أم هاني مولاتها العجمية فقالت: كم دفع إليك أمير المؤمنين عليه السلام فقالت: عشرين درهماً فانصرفت مسخطة، فقال لها: انصرفي رحمك الله، ما وجدنا في كتاب الله فضلاً لإسماعيل على إسحاق[3].

ويمكن تصعيد الحسّ القومي أو الوعي القومي وتوسيع أفقه في العولمة الإسلامية، فإذا كانت الحكومات الفيدرالية نجحت في خلق الحسّ القومي الأمريكي مثلاً في نظام الولايات المتحدة، فإنَّ الحس الإسلامي الذي يضع المسلم في جغرافية الوطن الإسلامي الكبير أو في إقليم من أقاليم الوطن

---

(١) أصول الكافي٢/ ٣٠٨ح٧. البحار ٧٣/ ٢٨٨.

(٢) أصول الكافي٢: ٣٠٨ح و٣.

(٣) الاختصاص: ١٥١.

الإسلامي الكبير هو صورة موسّعة ومكبّرة للحسّ القومي... .

نعم قد يكون هناك تعارض وتزاحم واضح، ولا نفترض وجود تعارض وتزاحم بين الحسّ القومي والحسّ الإسلامي يؤدي إلى التصادم واللاعودة بينهما، فوجود بعض المقتربات ممكنة.

إلّا أنَّ الوعي القومي غير النظرية القومية السياسية التي تطرح أيديولوجيا تفوّق وتسلّط العنصر والجنس في الجغرافيه السياسية والبشرية للإنسان.

وقد رحّب الغرب والشرق المسيحي بتنامي الفكر القومي لدى الشرق المسلم، ويتحدّث مفكرو الفلسفة الاشتراكية عن هذا الانعطاف السياسي بالقول: وتُعد النزعة القومية بدون شكّ_حسب اعتقادهم_أحد قواسم وعي المثقفين في أقطار آسيا وأفريقيا النامية وسمته المميزة الأهم.

وهذه السمة المميزة بالطبع غير مطلقة ففي أقطار أوربا وأمريكا الشمالية فيما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت النزعة القومية بارزة جداً في الفكر الاجتماعي.

لكن إذا كانت هذه النزعة قد خفّت نسبياً في مهد الرأسماليه الأوّل بفعل تأثير اتجاه كاسح معاكس، قيام الرأسمالية كنظام عالمي تخطّى الحدود القومية، فإنّها في دول آسيا وأفريقيا الفتية التي قامت عبر صراع مرير مع الامبريالية، قد ألفت وبخاصّة في المراحل الأولى للحركة الشكل الرائد للوعي الاجتماعي[1].

وقد ظهر أنَّ الحسّ الديني الإسلامي أقوى من الحسّ القومي في التاريخ السياسي الحديث لفترة ما قبل الحرب العالمية الأولى، فقد كان طرح مفهوم

---

(١) المثقفون والتقدم الاجتماعي، معهد الاستشراق في أكاديمية العلوم السوفيتية، ترجمة شوكت يوسف، ط وزارة الثقافة دمشق: ٢٢١.

الجامعة الإسلامية في زمان السلطان العثماني عبد الحميد الثاني مورد توجّه السياسة الدولية آنذاك، فقد جاء في تقرير سفير بريطانيا في الاستانة عام ١٩٠٧ ما نصّه: يمكننا أن نقرر بأنّ من بين حوادث السنوات العشر الأخيرة على الأقلّ يوجد عنصران بارزان في الموقف السياسي العام، الأوّل هو خطة السلطان الماهرة التي استطاع بها أن يظهر أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين في ثوب الخليفة الذي هو الرئيس الروحي في الدين الإسلامي، وأن يقيم لهم البرلمان على قوّة شعوره الديني وغيرته الدينية ببناء سكة حديد الحجاز التي ستمهد الطريق في القريب العاجل أمام كلّ مسلم للقيام بفريضة الحجّ، وقد ترتّب على هذه السياسة التي أصبح حائزاً على خضوع رعاياه له خضوعاً أعمى بشكل لم يسبق له مثيل[١].

ويلاحظ انعكاس تأثير الحسّ الديني الإسلامي واضحاً لدى مؤرّخي الحضارات والتاريخ السياسي حيث كان الوجود العربي الإسلامي في أوربا متبلوراً ومؤثراً، وقد وصف هذا التبلور باحث غربي فقال: ورغم الخليط غير المتجانس في اسبانيا والمغرب العربي، فإنّ النظام الإسلامي هناك استطاع أن يمتصّ ويتمثل بصورة تدريجية عناصر مختلفة في العرق واللغة والثقافة المحلية من إيبيرية ولاتينية وقوطية ويهودية، ومن هذه كلّها نشأ ذلك التوفيق الرائع للحضارة العربية الإسبانية الذي فتن الرومانتيكية والذي يأبى إلّا أن يفرض نفسه على أكثر محاولات التقييم العصرية رزانة[٢].

فالوجه العربي للحضارة رسمته الملامح والريشة الإسلامية، فإبراز الطابع العربي مجرداً من بعده الإسلامي يبدو ناقصاً ومبتوراً، ومن هنا كانت محاولة التقاط نظرية قومية مجردة من الدين الذي أحياها تبدو متعسرة.

---

(١) اليهود والدولة العثمانية، أحمد النعيمي: ١١٩.

(٢) فرانشيسكو غابرييلي، تراث الإسلام: ١٤٤.

وقد كانت محاولات هنا وهناك للملمة نظرية قومية سياسية شرقية تحاول منح العصر القومي الذي ولد في جمهورية مصر العربية كمنطلق وشرارة ثورية.

والظاهر أنَّ هذا العصر قد بدأ منذ عام ١٩٥٢-إلى عام ١٩٧٠وأخذ بعده السياسي العالمي نسبياً، وحاول القوميون أن يركبوا سفن الدول الكبرى مجاراة لموازين القوى العالمية التي عصفت بالبلدان النامية، فكانت أطروحة دول العالم الثالث ومنظومة دول عدم الانحياز، وغيرها من الكتل التي برزت آنذاك.

وكانت جمهورية مصر العربية تحتضن الأفكار القومية الناهضة التي تحاول وضع ملامح نظرية جديدة تتزعم الساحة العربية، التي امتلأت بثروة نفطية ذات قيمة ستراتيجية تتحكّم بالاقتصاد العالمي ومازالت.

ومن هذا السبب وغيره تعاورت أرض العرب نظريات وأفكار تدعو إلى إبراز العنصر العربي كأفضل عنصر، وإيقاد شعور قومي بأفضلية العرب على بقية الشعوب والأقوام، إلّا أنَّ الاتجاهات القومية لم تكن متجانسة في دعواها فبعضها يرى أنَّ القومية العربية إذا كانت عارية عن الإسلام فلا قيمة لها، وأنَّ العرب ملزمون بطرح الشعارات الدينية إلى جانب الشعارات القومية.

وقد تحدّث جيل من المفكرين القوميين عن العودة إلى الذات القومية أو العربية... ويقول الباحث محمد امزيان عن هؤلاء: حينما يدعو كاتب ما إلى العودة إلى الذات القومية أو العربية، فهو يدعو إلى موروث هائل عن التراكمات والرواسب التي شكلت الشخصية العربية عبر التاريخ، والتي تكوّنت روافدها من ثقافات وعادات متباينة، والدعوة إلى العودة إلى الذات العربية بالشكل الذي انتهت إليه في العصر الحالي هي عودة إلى ذوات مختلفة ومتعددة بحسب الخلفيات العقائدية التي انتهت إليها القومية العربيه والتي جعلت منها قطاعات أيديولوجيه متعارضة ومتأرجحة بين اليمين واليسار... ثم

يقول: إنَّ التراث الاجتماعي الذي يتحدث عنه هؤلاء هو الإنتاج الفكري الذي خلّفه كلّ من الجاحظ والغزالي والتوحيدي والفارابي وابن مسكويه وعموم الفرق الكلامية والمتصوّفة وإخوان الصفا وابن رشد وابن خلدون... وهذه الجهود بغض النظر عن التزامها بالمذهبية الإسلامية أو عدمه، لم تكن أبداً نتاجاً حضارياً عربياً، ولم تظهر انعكاساً لظروف البيئة العربية والحياة الاجتماعية داخل المجتمع العربي بمعزل عن الثقافة الإسلامية، وإنّما هي جهود ناتجة عن تفاعل هذه العقول مع الثقافة الإسلامية، وظهرت مع المدّ الحضاري الذي وفّرته هذه الثقافة[1].

ويبدو أنَّ بعض الباحثين لم يحصل لهم وضوح في تصوّر واستيعاب مصطلح الثقافة والحضارة العربية، فالمعنى الاصطلاحي يشير ويومي إلى أنَّ الثقافة الإسلامية قد دوّنت وحفظت بلسان ولغة العرب، ولا يعني أنَّ العنصر العربي أو جماعة ذات عرق عربي خالص صنعت هذه الحضارة والثقافة، فإطلاق لفظ الحضارة الفارسية، والثقافة الإيرانية لا يعني حرمان القوميات الأخرى في هذه البلاد التي ساهمت في تشكيل ملامح هذه الحضارة والثقافة، وإنّما يُفهم هنا تدوين هذه الحضارة والإعلان عنها بهذا الثوب والبيان، وقد نبّه القرآن الكريم إلى الإعلان بلغة معيّنة كوسيلة بيان وتوضيح كما في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[2] وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[3] وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[4] وقوله: ﴿كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾[5] ولا يعني هذا إلغاء

---

(١) منهج البحث الاجتماعي بين المعيارية والوضعية: ٢١٣و٢١٨.

(٢) النحل: ١٠٣.

(٣) الزخرف: ٣.

(٤) يوسف: ٢.

(٥) الأحقاف: ١٢.

وتذويب اللغات والقوميات الأخرى، وإنما منح هذه اللغة التوصيلية بعداً جديداً منشؤه الدين.

ويميل أكثر الباحثين إلى أنَّ الإسلام نقل اللغة العربية والخطّ العربي من الصعيد المحلّي-والمعبّر عنه باللغة الحديثة الصعيد القومي-الذي كان يقتصر على شبه الجزيرة العربية وأطرافها إلى لغة عالمية لأكثر من نصف العالم المعروف آنذاك، فقراءة القرآن الكريم وفهم أحكامه يتطلّب بلاريب إتقان اللغة التي نزل بها، فدفع هذا الأمر المسلمين من غير العرب إلى تعلم اللغة العربية لفهم واجباتهم الدينية، وبالتالي فإنَّ التراث الفكري الكبير الذي خلفته الحضارة الإسلامية قد كتب باللغة العربية، ومن هنا أطلق على هذه الحضارة الحضارة العربية الإسلامية، لأن الإسلام ملهمها، وظلّت داخل إطار فلسفته، وكانت لغتها العربية، وساعد على تبوئ اللغة العربية هذه المكانة الرفيعة وتحوّلها إلى لغة للثقافة والحكم مميزاتها التي تتمثل بكثرة مفرداتها ومترادفاتها، وغنى الاشتقاقات فيها وبلاغتها ومخارج الحروف فيها، وينطبق الأمر ذاته على الخط العربي الذي انتشر مع اللغة العربية، وزاد الإسلام من إبداع العرب في استنباط أنواع جديدة في كتابته فظهر الخط الكوفي والبصري والأندلسي والنسخ وغيره ومن شدّة تأثر الشعوب الإسلامية بهذا الخط أخذت تكتب لغاتها به مثل اللغة الأوردية في الباكستان، واللغة التركية حتّى أوائل القرن العشرين، واللغة الكردية وغيرها[1].

وبلغ تأثّر الشعوب غير العربية بلغة القرآن أن راودت زعماءهم أفكار بإحلال العربية محلّ لغتهم القومية بقول باحث معاصر: لمّا كانت اللغة التركية لغة قوم رعاة ليس لهم حظّ من الحضارة ولم تستخدم في تدوين أدب أو إنتاج فكري، فإنّ العثمانيين لجأوا عقب دخولهم الإسلام إلى تشرب العديد من

---

(١) ينظر تاريخ الحضارة العربية الإسلامية للتليسي: ٥٥.

الألفاظ والمصطلحات والتعابير العربية مع بعض الفارسية، ومازالت لغة الأتراك، رغم الانقلاب الذي قام به مصطفى كمال سنة ١٩٢٨ باستخدام الأبجدية اللاتينية، مليئة حتّى اليوم بعدد من الألفاظ العربية.

ويقال: إنَّ السلطان سليم نفسه أدرك أنَّ لغة العرب بثرائها أقدر على خدمة مصالح الدولة من اللغة التركية القاصرة، فأخذ يفكر بعد فتح مصر والشام في جعل العربية لغة دولته الرسمية لولا وفاته التي حالت دون تنفيذ فكرته[١].

وتمازج الثقافة والآداب العربية مع الإسلام ومنطلقاته لا يمكن فكاكه وعزله، لأنَّ هذه اللغة والثقافة نمت واصبطغت بصبغة الدين ومن وحي علومه، فالبلاغة والنحو وعلوم القرآن والكلام والمنطق والفلسفة والحكمة كلّها علوم شريعة ودين ولغتها الناطقة بها هي العربية، فالعربية وجه ولسان ويد وذراع تتلقى توجيهاً وتعليماً من عقل ودماغ نبيّ مرسل اسمه محمد ﷺ.

ولكن النبيّ ﷺ كان يدرك أنَّ اللغة واللسان وحده لا يزكي الإنسان ولا يعنى شيئاً لديه، فحين بحث موضوع اللسان والأصل العربي في قصّة ذكرها المفيد خطب وقال ﷺ :

إنَّ الناس من عهد آدم إلى يومنا هذا مثل أسنان المشط، لافضل للعربي على العجمي، ولا للأحمر على الأسود إلّا بالتقوى[٢].

والنظريات العالمية الاجتماعية تتخطّى المسائل العرقية والاعتبارات القومية، فالنظرية الماركسية والوجودية ونظريات الغربيين الأخرى التي نشأت مع موجات الفكر الحداثي قد تجاوزت في نظرياتها ورؤاها الحس القومي.

---

(١) سعيد عاشور، بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص ٤٢٩.

(٢) الاختصاص: ٣٤١.

فافتقار النظرية القومية إلى تصوّر كامل حول الإنسان والكون والمجتمع يُفقد هذه النظرية الديمومة والانتشار، فأصحاب الفكر لم يطرحوا نظرية علمية كافيه يتم من خلالها تفسير حركة الإنسان والتاريخ ووضع الحلول العملية لها.

فالتعصّب للجنس والعرق لا يمكن أن يتحول إلى مذهب أيديولوجي وتصور عقائدي له نظرياته وتفسيراته لوجود الإنسان وتاريخ العالم، لذلك استعارت الحركات القومية بعض منطلقاتها الفكرية من النظرية الماركسية، فإطلاق تسمية حزب البعث الاشتراكي والحركة القومية والتجمع الناصري الاشتراكي في الأرقام العربية القومية كان مؤشراً على هذه الاستعارة السياسية، وكانت العصبية القومية التي أوقد شرارتها عدد من مفكري النصارى قد ظهرت في نشاطات نجيب عازوري الداعية إلى فهم الإسلام عن العرب، وطرح فكرة القومية الخالية من أي مضمون إسلامي، والكثير من المؤرخين يقولون بأنَّ تاريخ القومية العلمانية يبدأ بنجيب عازوري الذي أسس في سنة ١٩٠٤ جمعية عصبة الوطن العربي، وأصدر كتاباً بالفرنسية هو يقظة الأمّة العربية، وفي سنة ١٩٠٧ أصدر جريدة شهرية أطلق عليها اسم الاستقلال العربي.

وفي كتاب العازوري «يقظة الأمة العربية» تشخيص واضح لعلاقته بفرنسا وبريطانيا إذ يعلن بأنَّ روسيا تشكّل الخطر الأكبر وأنَّ التوسع الألماني في آسيا الصغرى هو خطر أيضاً، لذلك فهو يستثني من الخطورة بريطانيا وفرنسا ويعوّل عليهما الكثير.

ويحاول عازوري من خلال مطالبته بفصل الدين عن الدولة إلحاق العالم الإسلامي بالأفكار والعقائد والقيم الغربية[1].

---

(١) نجاح عطا الطائي، الفكر القومي إسلامياً وتاريخياً، منظمة الإعلام الإسلامي طهران:٨٥.

وقد نشأ شعور قومي ضيق يدعو إلى بعث الدولة السورية أو خلق سوريا الكبرى، وقد عُرف هذا الاتجاه في مبادئ الحزب السوري القومي الذي أسسه أنطوان سعادة عام ١٩٣٢، وكان انطوان سعادة مسيحياً لبنانياً، نشأ في البرازيل وربّما تشرب هناك ذلك النوع من الوطنية السورية الذي كان شائعاً بين الطبقة اللبنانية في أواخر القرن التاسع عشر، والذي حافظت عليه الجاليات اللبنانية المتحجرة في المهجر، بينما كان آخذاً في الزوال في الوطن الأم.

كان الحزب على غرار الفاشستية الشائعة في أوربا الثلاثينات... وقد لعب هذا الحزب بشكل منقطع دوراً مهماً في شؤون كلّ من لبنان وسوريا... .

ويرى أنطوان سعادة بأنَّ الأمّة هي الوحدة الأساسية للتاريخ الإنساني وبأنّها تنشأ عن المصلحة والإرادة، لا عن اللغة أو الدين، وبأنّها قائمة بذاتها، وقد وسّع مفهومه لسوريا بحيث شمل جميع البلدان التي كانت سريانية اللغة[1].

وهذه النظرية من أغرب النظريات وأضيقها، وكأن الذي يجمعها الإرادة التي كونها حزبه وجماعة من أتباعه الذين لا يفقهون من العلم والثقافة السياسية شيئاً، سوى تاريخ ضاع في أزمنة لا يمكن إعادتها.

وحين تنشط النزعات القومية والعرقية وتنفلت من عقالها تنطلق وتنفجر العبوات النارية وتتصاعد سحب الدخان والاقتتال، مخلفة ركام العداوة والشحناء والحرب الأهلية التي تبدأ معها مسيرة الهرب من الأوطان والتشرد وعندها يندم الإنسان ويراجع نفسه لم هذا الدمار وإلى مصلحة من يكون هذا الحصاد لأرواح البشر؟

وحين حدث انهيار الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١ انهارت معه جدارات

---

(١) الفكر العربي في عصر النهضة: ٣٣٢.

الأمن والاستقرار الاجتماعي والتوافق العرقي والقومي والديني.

كان عدد الجمهوريات خمس عشر، لكن النزعات القومية والتي كان الاتحاد السوفيتي قادراً نسبياً على احتوائها وتجميدها قد أوقعتها في أتون صراع جديد، وقد انفجر النزاع في إقليم القوقاز في منطقة قرباغ، وهي الأرض التي سكنها الأرمن وضمّها ستالين إلى أذربيجان؛ فلما بدأت حركة إعادة البناء البير يسترويكا تفجرّت القضية وتحولت إلى حرب أهلية بين أرمينيا التي تريد الأرض وأذربيجان التي تضع اليد عليها وتمّ تشريد ١/٦ مليون إنسان[١]، من هنا كانت الحاجة إلى نظريات سياسية أرفع من النظر إلى الأحاسيس القومية فقد استطاعت النظرية الشيوعية من إيقاف الحسّ القومي وحاولت من إلغائه إلى حين من الزمان، ولو أنَّ نظرية الإسلام المحمدي كانت هي الحاكمة في الجمهوريات السوفيتية لاستطاعت أن تصهر هذه الجمهوريات وتصنع منها مجتمعاً جديداً ينسى المواطن انتماءاته السابقة.

وإيرادنا على النزعة التي غزت الفكر العربي المسماة الحركة القومية نابع من أنَّ النزعة القومية باعتبارها نزعة عرقية، وليست مذهبية عقائدية لا تأخذ نموذجها الاجتماعي، والنمط الحياتي من التوجيهات والمبادئ الإسلامية وإنّما ترى مثالها في التراث الاجتماعي الذي يضع الدين جنباً إلى جنب مع العادات التي استقرّت عليها العلاقات الاجتماعية وأسلوب الحياة في المجتمع .

فالنظرة القومية نظرة انتقائية تركيبية في نفس الوقت.

وعلى أساس من هذه الانتقائية تحدد تعاملها مع التراث الاجتماعي الإسلامي، تأخذ منه ما يصلح أن يكون عنصراً إيجابياً في تصوّراتها ومنطلقاتها، وفي نفس الوقت تدير ظهرها لكلّ ما هو مناهض لهذه التصورات والمنطلقات،

---

(١) محمود المراغي أرقام تصنع العالم: ١٣٧، كتاب العربي.

وهي بذلك تمارس تشويهاً عميقاً لهذا التراث بعد تجريده من إطاره المذهبي العقائدي وإخضاعه لإطارات عقائدية مستوردة[1].

ولا يعني أنَّ الأديان تخلق مشاعر عدائية تجاه القوميات، بل قد تخلق لديها نوعاً من الفخر والاعتزاز المسموح به ضمن حدود الرسالات السماوية التي ترى عدم وجود أفضلية لقومية على قومية، إلّا أنَّ فترات الوحي وتأسيس الرسالة السماوية وبداية نشرها يرتبط بذكريات وتاريخ قومية معيّنة من بني البشر، فالأديان لا تنتشر إلّا بواسطة أداة التعبير القومي، أي اللغة، ولكلّ دين علاقة جوهرية مع لغة معيّنة، تنشأ عن التبشير به وعن كتبه وطقوسه المقدّسة، ولا يمكنه أن ينتشر إلّا بواسطة هذه اللغة، ولا ينتشر إلّا إذا كان للأمّة الناطقة بتلك اللغة مصلحة قومية في انتشاره، فيستخدم الشعور القومي الدين كوسيلة لتأكيد ذاته، وفي هذا يقول ساطع الحصري: «إنَّ الدين إذا اتّحد بلغة من اللغات قوّى جذور تلك اللغة وحافظ على كيانها أكثر من جميع العوامل الاجتماعية الأخرى، ومما يلاحظ في سير الوقائع التاريخية أنَّ الديانة عند ما تتفرع إلى مذاهب عديدة، قد تربط مقدرات بعض هذه المذاهب ببعض اللغات بوجه خاص، وتنتشر اللغة المذكورة مع انتشار المذهب الذي تبناها وتتوسع سيطرة الأمّة التي كانت الصاحبة الأصلية للغة المذكورة بفضل هذا الانتشار... وعلى سبيل المثال، من المعلوم أنَّ المذهب الأرثذوكسي قد اعتمد على النص اليوناني من الإنجيل ممّا أدّى إلى اصطباغ الكنيسة الأرثوذكسية بصبغة يونانية، وهذه الصبغة قويت بوجه خاص في بلدان البلقان، وصارت الكنيسة اليونانية تسيطر على الأمم المسيحية في مقدونيا وبلغاريا سيطرة معنوية شديدة من الوجهة الدينية، على الرغم من أنّها كانت هي بدورها تحت سيطرة الدولة العثمانية من الوجهة السياسية... .

---

(١) ينظر منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية: ٢١٩.

ولهذا السبب بدأت النهضة القومية البلغارية أولاً بالقيام ضدّ الكنيسة اليونانية، وضدّ رجالها اليونانيين، وأوجدوا كنيسة قومية قائمة بنفسها، إنَّ البلغار وضعوا بذلك حدّاً للخلافات التي كانت تظهر في بلادهم بين السياسة القومية وبين السياسة الدينية، وضمنوا استقلالهم القومي عن الكنيسة اليونانية، قبل أن يتموا استقلالهم السياسي عن الدولة العثمانية، إنّي أعتقد أنَّ هذه الأمثلة كافية لإظهار قوّة النزعات القومية تجاه الروابط الدينية، وللبرهنة على أنَّ الأديان العالمية نفسها لا تستطيع أن تقضي على النزعات القومية»[1].

وإذا كان الحصري يرى مثالب المسيحية قد ساهمت في تعزيز الحس القومي على حساب الحس الديني، فهذا لم يحصل في صفوف المسلمين بترجيح الحس القومي على الحس الديني الإسلامي.

وكذلك لم تحظ نظرية العنصر العربي الخالص في الوطن العربي بتنظيم أو حركة سياسية قوية تتبناها كما حدث للنازية في ألمانيا، وظلّت هذه الأفكار حبيسة في صدور أصحابها ولم تلق تجاوباً وتفاعلاً من أهل الفكر والثقافة لتدخل ميدان النشاط السياسي كحركة سياسية تدخل التاريخ السياسي كرقم له أهميته وحضوره.

وإنّما كانت الحركة القومية نسخاً للحركات الشيوعية واليسارية والاشتراكية، واستعارت نظرياتها الاقتصادية والسياسية من وحي أفكارها، وقد خضع بعض روّاد الفكر القومي إلى الحسّ الديني الموجود عند الناطقين بالعربية فتبنوا هذا الفكر وهم ممّن ينحدرون من أصول غير عربية كساطع الحصري، فلم يقطع الحصري الخيط الإسلامي الذي شد أركان القومية العربية،

---

(١) البرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة: ٣١٩.

إلّا أنَّ المؤاخذات التي سُجّلت على الحصري وغيره هو تضخيم الشعور والحس القومي على الحس الديني، فنشأ تيار مصاب بالتضخم الشعوري للعنصر العربي دون غيره من المسلمين، وهذا ممّا أضعف الامتداد القومي وحجّمه داخل التشعبات الإقليمية التي وجدت أنَّ الإسلام هو الذي يجمع العواطف ويفرّقها أكثر من الانتساب العرقي.

ويلاحظ أنَّ انبثاق الحركة القومية أو النظرية القومية في الغرب الأوربي قد تزامن مع حركة التوجّه العلماني الذي طبع الحياة السياسية والمدنية للغرب المسيحي، فأعلام القوميات التي عرفت في أوربا كانوا علمانيين، وضعوا الكنيسة والثقافة الدينية في مقابر منسية خارج مدن الثقافة والمعرفة العلمية... لذا حين يُشار للفكر القومي يعني الفكر المنسلخ عن جذوره الدينية، فالحكم على الحركات القومية الشرقية من خلال رؤية الحركات القومية الغربية يكون إجحافاً بحقّها، ولا يعنى أنَّ هذه الحركات اتخذت دين الإسلام مرجعاً ومنبعاً أيديولوجياً لها، وإنّما تجنبت الصراع الفكري مع الأديان والدين الإسلامي، بل أكثرها كان يتحدث عن الإسلام حديثاً إيجابياً، فكانت تظهر رجالات الفكر القومي أحياناً وكأنّها متصالحة مع رجل الفكر الديني.

يقول الأستاذ أحمد محمد عبد الرازق:

إنّ الدواعي والأسباب التي أدّت إلى ظهور الفكرة القومية في الغرب ترجع إلى ضعف حدّة الارتباط بين الدين وأنماط الحياة الفردية، ولكن الأمر ليس كذلك في الإسلام، إذ هناك ترابط وثيق بين الدين وأنماط الحياة الفردية، إذ تحكم الشريعة الإلهية أشكال التصرفات والأنشطة الإنسانية وفي الوقت الذي لا تكون فيه العقيدة مصدر سلطة في الغرب، فإنَّ الأمر ليس كذلك في

الإسلام، إذ الدين مصدر سلطة وإلزام[١].

وقد انعكس هذا في التاريخ السياسي الحديث حين اتخذت الأقطار العربية والإسلامية الدين الإسلامي أحد مصادر التشريع القانوني إدراكاً منها بحيوية هذا الدين.

وقد يكون من الضروري الإشارة إلى تاريخ النظرية القومية، فقد ظهرت النظرية القومية كنظرية سياسية في القرنين التاسع عشر والعشرين، وهي تقوم على أساس تجميع العنصر الواحد تحت لافتة كبيرة ترى أنَّ العرق أو العنصر الخالص الذي يجمع الأمّة الواحدة في مجتمع معيّن قادر على إنشاء شعب متّحد منظم ينهض حضارياً وسياسياً.

وقد طرحت النظرية القومية «لأوّل مرة في منتصف القرن التاسع عشر من قبل غوبينو، وبعد برهة قصيرة أصبحت ركيزة لسياسة العنف التوسعية التي انتهجها موسوليني وهتلر، وكانت أحد الأسباب الرئيسة في الحربين العالميتين إذ دمّرت العالم، وبثَّ الألمان هذه النظرية اللاإنسانية بغية تحقيق دعاواهم على صعيد الأرض والسياسة»[٢].

وقد عكست نصوص الأدب الألماني هذا الحسّ القومي العنصري بشكل واضح وسافر تجاه الرؤى والأفكار السياسية التي كانت سائدة آنذاك كما في هذا النص المأخوذ من مسرحية شلاتر للأديب الألماني هانز جوست في ١٩٢٣: آخر شيء يمكن أن أدافع عنه هو أن تنتصر هذه الأفكار علي إنني أعرف هذه القمامة من العام ١٨.. الأخوه.. المساواة.. الحرية.. الجمل.. الكرامة.. لا..

---

(١) فلسفة المشروع الحضاري١: ٤٨٦.

(٢) عباس علي العميد الزنجاني، القانون الدولي في الإسلام: ١٢٣. ترجمة علي هاشم ط مشهد البحوث الإسلامية.

فليظلّوا بعيدين عنّي مع فوضاهم الأيديولوجية تلك.. إنني أطلق عليهم الرصاص حين أسمع كلمة الثقافة، أزيح صمام الأمان عن البراوننج[١].

وأمّا ظهور الحركة السياسية القومية في الشرق الإسلامي فقد تمثّل واضحاً في تركيا، وقد اختلف الباحثون في تاريخ وسبب هذا الظهور المبكر في تركيا، وقد عُزي إلى:

أولاً: وجود تركيا ضعيفة وبلدان أوربية قوية، أدّى إلى اعتقاد بعض الأتراك بعدم كفاية الدين الإسلامي لمواكبة الحياة المتطورة وضرورة تقليد الأوروبيين في مبادئهم وعقائدهم.

ثانياً: الحروب القومية ضدّ الامبراطورية التركية، في دول البلقان، أدّت إلى سريان مفعولها في الجنود المقاتلين هناك وفي عقول المعلمين والموظفين الذين أرسلتهم الأستانة إلى تلك المناطق ومنهم داعية القومية العربية ساطع الحصري.

ثالثاً: موقف الاستانة من الإسلام والمسلمين أدّى إلى فقدان الروح والعقيدة الإسلامية من بين فئات كثيرة من المسلمين.

رابعاً: انكسارات تركيا في حروبها ضد الامبراطوريات المجاورة.

خامساً: الجهد الأوربي لدفع تركيا في هذا المجال.

سادساً: ظهور جمعيات واحزاب عديدة تهدف إلى تطبيق المبادئ القومية ولمّ شمل القومية الطورانية التي ينتمي إليها أتراك تركيا[٢].

وأبرز تيّار قومي برز في تاريخ تركيا هو تيار جمعية الاتحاد والترقّي، وقد

---

(١) نهاية اليوتوبيا: ٤٩ والبراوننج بندقية حربية سميت باسم جون م. براوننج.

(٢) نجاح الطائي، الفكر القومي: ٢٨ ط الإعلام الإسلامي.

كانت تؤكّد على المفاهيم الطورانية[1] على المستويين الداخلي والخارجي.

وهناك اتجاهان في داخل الحركة الطورانية فيما يتعلّق بالتحرك السياسي حيث يرى الاتجاه الأوّل أنَّ العثمانيين وإن كانوا من الترك أصلاً، فقد اختلط دمهم بكافة القوميات، ومنذ قرون طويلة ابتداءً من غربي آسيا وجنوبي أوربا من فرس وعرب وكرد وچركس وكرج وأرمن وبلغار وأرناؤط، وهذا يعني أنَّ الأتراك قد ابتعدوا عن الأتراك الأصليين ولا سيّما من المغول، والذين اشتهروا بقبح المنظر وغلظ الطبع وكره الحضارة، والشغف بسفك الدماء وتخريب الديار ونسف العمران... .

وأمّا الاتجاه الثاني فإنّه يؤكد أنَّ الترك هم أقدم أمم البسيطة وأعرقها وأسبقها إلى الحضارة، وأنّهم هم والجنس المغولي واحد في الأصل، ويلزم أن يعودوا واحداً ويسمّون ذلك بالجامعة الطورانية ولم يقتصروا فيها على الترك الذين في سيبريا وتركمنستان والصين وفارس والقوقاس والأناضول وروسيا.

بل مبدأهم من هذه الرابطة إلى المغول في الصين وإلى المحار والقنلنديين في أوربا وكلّ من يقال إنّه ينتمي إلى أصل طوراني، وهم يقولون بخلاف ما يقول الأوّلون، فهم ترك أوّلاً ومسلمون ثانيا، وشعارهم عدم التدين وإهمال الجامعة الإسلامية، إلّا إذا كانت تخدم القومية الطورانية، فتكون عندئذٍ واسطة لا غاية.

وهذا يعني أنَّ هذا الاتجاه يدعو إلى إحياء عقائد الترك الوثنية السابقة على أسلافهم، كالوثن التركي القديم بورقورت، أو الذئب الأسود_الأبيض الذي صوروه على طوابع البريد ووضعوا له الأناشيد وألزموا الجيش أن

---

(١) الطورانية تشير إلى وطن الأتراك الأصلي في جبل توران الواقع في المنطقة الشمالية الشرقية من إيران.

يصطف لإنشادها عند كلّ غروب، وكأنهم يحلّون تحية الذئب محل الصلاة، ومبالغةً منهم في إقامة الشعور العرقي محلّ الشعور الإسلامي.

وقد تطرّف هؤلاء في الطورانية إذ قالوا: نحن أتراك فكعبتنا طوران، وهم يتغنون بمدائح جنكيزخان ويعجبون بفتوحات المغول ولا ينكرون شيئاً من أعمالهم[1].

وحاول بعض المفكرين اليساريين بلورة المفهوم القومي العلماني للتنظيم الاجتماعي والسياسي للحركات والقوى السياسية والاجتماعية للشرق الإسلامي، وبنحو واضح ظهر هذا في القرن العشرين، وخصوصاً بعد الحرب العالمية الأولى والثانية التي دفعت بمجمل نظريات عصر التنوير إلى ساحة الشرق الإسلامي جراء الاكتساح العسكري والسياسي للشرق الذي انحنى للغرب المسيحي في تقسيم أقاليم المشرق الإسلامي لدول التحالف، ممّا سهّل طرح هذه الأفكار والنظريات في المؤسسات التعليمية والإعلامية والنوادي الاجتماعية، كنتيجة طبيعية لقانون الانتصار والهزيمة الحربية التي توجب للطرف المنتصر التحكم بثقافة وسياسة الدول المترنّحة تحت سلطة الاحتلال، فخلقت لديهم روح الهوس العرقي والقومي، ودفعتهم إلى الوقوع في فخ الغطرسة البدوية التي ترى أفضلية الذات رغم خوائها.

ولكن على العموم لم تحظ النظرية القومية كعقيدة سياسية بنجاح كبير، لأنَّ الفهم الإسلامي لا يرى للقومية بعداً قوياً في حياة الإنسان، فلدى المفكّرين الإسلاميين تصوّر واضح مستمدّ من الآية الكريمة التي تقول: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾[2]، فالتمزّق البشري الذي استهوى البعض لا يكون سبباً

---

(١) اليهود والدولة العثمانية: ١٧٤.

(٢) يونس: ١٩.

لتجميعهم مرّة أخرى.

فاختلاف الدم واللغة والعنصر ليست إلّا مؤشراً على تفكك المجتمع البشري الذي يعيد تركيبه الإسلام، فالنبيّ ﷺ يضع القوميين المتعصبين للدم والعنصر من غير وعي في عداد الجاهليين يقول ﷺ: **من كان في قلبه حبّة من خردل من عصبية بعثه الله تعالى يوم القيامة مع أعراب الجاهلية**[1].

وإذا كان اللحن القومي يُطرب بعض العازفين على هذا الوتر فإنَّ عليّاً عليه السلام وجههم ووجّه شعورهم هذا بقوله: فإنْ كان لابدّ من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ومحامد الأفعال ومحاسن الأمور[2].

ولمّح عليّ ﷺ إلى خطورة الإيغال والإفراط في الحسّ القومي الذي يتجاوز حدوده ومداره فقال عليه السلام: إنَّ الله تبارك وتعالى يعذّب الستّة بالستّة: العرب بالعصبية، والدهاقنة بالكبر، والأُمراء بالجور، والفقهاء بالحسد، والتجّار بالخيانة، وأهل الرستاق بالجهل[3].

أمّا تأكيد الانتساب إلى قومية والإعلان عنها فليس بالأمر المكروه والمرجوح، فعليّ عليه السلام يؤكّد هويته القومية بقوله عليه السلام: السبّاق خمسة، فأنا سابق العرب، وسلمان سابق فارس، وصهيب سابق الروم، وبلال سابق الحبش، وخبّاب سابق النبط[4].

وكان النبيّ ﷺ يحرص على أن يكون التفاضل بين الأفراد والأمم هو الإيمان وصالح الأعمال، فلا يمكن لقومية أيّ قومية كانت أن ترفع أو تضع من

---

(١) أصول الكافي ٢: ٣٠٨ح٣.

(٢) بحار الأنوار١٤: ٤٧٢.

(٣) المحاسن للبرقي: ١٠ح٣٠.

(٤) الخصال للصدوق: ٣١٢.

كيان الإنسان، فالانتساب القومي لا يعني معياراً مهماً لدى النبيّ ﷺ يزن به الأفراد، وفي هذا يقول عليّ عليه السلام حين سأله الأصبغ بن نباتة عن سلمان الفارسي رضي الله عنه: ما أقول في رجلٍ خلق من طينتنا، وروحه مقرونة بروحنا، خصّه الله تعالى، من العلوم بأوّلها وآخرها وظاهرها وباطنها وسرّها وعلانيتها، ولقد حضرت رسول الله ﷺ وسلمان بين يديه، فدخل أعرابي فنحّاه عن مكانه وجلس فيه، فغضب رسول الله ﷺ حتّى درّ العرقُ بين عينيه واحمرّتا عَيناه، ثمّ قال: **يا أعرابي أتنحّي رجلاً يحبّه الله تبارك وتعالى في السماء ويحبّه رسوله في الأرض! يا أعرابي أتنحّي رجلاً ما حضرني جبرئيل إلّا أمرني عن ربّي عزّوجلّ أن أُقرئه السلام! يا أعرابي، إنّ سلمان منّي، من جفاه فقد جفاني، ومن آذاه فقد آذاني، ومن باعده فقد باعدني، ومن قرّبه فقد قرّبني، يا أعرابي لا تغلطنّ في سلمان، فإن الله تبارك وتعالى قد أمرني أن أُطلعه على علم البلايا والمنايا والأنساب وفصل الخطاب**[1].

ويتحدَّث الشيخ المفيد عن جمع من الصحابة كانوا بين يدي الصادق عليه السلام وفيهم أبو بصير فقال بعضهم: إنَّ سلمان كان مجوسيّاً ثمّ أسلم،_عندها_ استوى أبو عبد الله عليه السلام جالساً مغضباً وقال: يا أبا بصير، جعله الله علويّاً بعد أن كان مجوسيّاً، وقرشيّاً بعد أن كان فارسيّاً[2].

وفي هذا الخبر إيماء إلى أنَّ العرق والقومية والانتساب الإقليمي لا يمكن أن يكون ميزاناً ثابتاً تقف عنده النفوس البشرية فلا تتحرك، وكأنّها صُبّت في هذه القوالب فلا تتخلص منها، فالصادق عليه السلام حرّك قوميته ونسبه مع تحرّك عقيدته ودينه وتبدّله باتجاه الانتساب الكبير وهو الإسلام والنبيّ محمد ﷺ.

وممّا يروى في هذا أنَّ سلمان رضي الله عنه كان جالساً مع نفر من قريش في

---

(١) الاختصاص للمفيد: ٢٢١.

(٢) الاختصاص: ٣٤١.

المسجد، فأقبلوا ينتسبون ويرفعون في أنسابهم حتّى بلغوا سلمان ﷺ فقال له عمر بن الخطاب: أخبرني من أنت، ومن أبوك، وما أصلك؟ فقال سلمان: أنا سلمان بن عبد الله، كنت ضالاً فهداني الله جلَّ وعزَّ بمحمّد ﷺ، وكنت عائلاً فأغناني الله بمحمّد ﷺ، وكنت مملوكاً فأعتقني الله بمحمّد ﷺ، هذا نسبي وهذا حسبي[١].

وروي أنّه وقع بين سلمان ﷺ وبين رجل كلام وخصومة، فقال له الرجل: من أنت يا سلمان؟

فقال سلمان: أمّا أوّلي وأوّلك فنطفة قذرة، أمّا آخري وآخرك فجيفة منتنة، فإذا كان يوم القيامة ووضعت الموازين، فمن ثقل ميزانه فهو الكريم، ومن خفَّ ميزانه فهو اللئيم[٢].

وفي خبر قال منصور بذرج: قلت للصادق عليه السلام: ما أكثر ما أسمع منك سيّدي ذكر سلمان الفارسي! فقال: لا تقل سلمان الفارسي ولكن قل: سلمان المحمدي، أتدري ما كثرة ذكري له؟ قلت:لا، قال: لثلاث خلال، إحداها إيثاره هوى أمير المؤمنين عليه السلام على هوى نفسه، والثانية حبّه الفقراء واختياره إيّاهم على أهل الثروة والعدد، والثالثة حبّه للعلم والعلماء.

إنَّ سلمان كان عبداً صالحاً حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين[٣].

وقد كان سلمان ﷺ مستوعباً وواعيا لانتسابه الجديد فكان إذا قيل له: من أنت؟ يقول: أنا سلمان ابن الإسلام، أنا من بني آدم[٤].

---

(١) روضة الكافي٨: ١٨١ح٢٠٣.

(٢) أمالي الصدوق: ٤٨٩ ح٧.

(٣) بحار الأنوار٢٢: ٣٢٧.

(٤) ينظر بحار الأنوار٢٢: ٣٨٩ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد١٨: ٣٤.

وقد كان سلمان رضي الله عنه مندمجاً ومتفاعلاً مع الإسلام بشكل لا يمكن تجاهله حتى أنَّ النبيّ ﷺ -على ما روي- قال: **لو كان الدين في الثريا لناله سلمان.**

وروت عائشة أنّه كان لسلمان مجلس من رسول الله ﷺ ينفرد به الليل حتّى كان يغلبنا على رسول الله ﷺ[1] فلا يمكن تصنيف سلمان رضي الله عنه ووضعه في الخانات والصفوف الأممية والقومية والإقليمية إلّا أن تقول كان إنساناً محمدياً إسلامياً علوياً قرشياً، وكما وصفه الصادق عليه السلام.

فتجريده من هويته القديمة ضرورة تاريخية وعلمية ومنحه هوية عالمية أقرب إلى حقائق التاريخ تبدو واردة.

وقد قال عليّ عليه السلام لمن سأله عن سلمان: بخ بخ، سلمان منّا أهل البيت، ومن لكم بمثل لُقمان الحكيم!،[2] وقال عليّ عليه السلام فيه أيضاً: **عُلِّم الأوّل والآخر، بحرلاينزف، هو منّا أهل البيت**[3].

وهناك من يعتقد بأنّ سلمان كان مؤمنا بالرسول ﷺ قبل الوصول إليه، وقيل بأنّه وصل إليه ﷺ قبل البعثة وآمن به[4].

وينسب لأبي هريرة قوله: كان سلمان صاحب الكتابين، يعنى الإنجيل والفرقان[5].

وهذا يعني الإدراك والتسلط على الثقافة المسيحية والإسلامية.

لأنَّ سني عمره الطويلة كانت كافية لإدراك العصر المسيحي والإسلامي

---

(١) بحار الأنوار٢٢: ٣٩٠.

(٢) بحار الأنوار١٠: ١٢٣.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب٢: ٥٩.

(٤) بحار الأنوار٣٥: ٣٣٤.

(٥) الاستيعاب في معرفة الأصحاب٢: ٥٩.

معاً، فشخصية سلمان هنا شخصية عالمية مركبة تهضم القوميات والأصول والأعراق وتصهرها في كيان بشري واحد، هو الإسلام والتوحيد والمحمدية.

وكانت النهضة الإسلامية التي قدحها المنورون من العلماء في القرن التاسع عشر الميلادي قد اندمجت مع النهضة القومية والفكر القومي لاعتبارات سياسية أملتها ظروف البلدان العربية والإسلامية التي تدين غالبيتها بالإسلام... .

وقد كانت فكرة الجامعة الإسلامية التي استحوذت على اهتمام السلطان عبد الحميد الثاني ذات هدف سياسي هو استقطاب الرأي العام الإسلامي إلى جانبه في محاربة خصومه السياسيين في الأقطار الغربية[1].

فكانت الهوية الدينية تعبّر بالضرورة عن مجموعة قوميات ذائبة في بوتقة إسلامية تضم العرب والأكراد والترك والفرس وغيرهم ممّا أفزع الدول الكبرى في تلك الحقبة الزمنية لذا أخذت تفكر بإسقاط هذه الدولة وتفتيتها، وكانت عبارة الرجل المريض تعبيراً عن حس استعماري يخطط لاستلاب ميراث هذا الرجل الذي يحتضر، ولذا صار التأكيد على مفهوم الإقليم والقطر بدلاً من المفاهيم التي كانت تفرض نفسها في السياسة العامة للدول الإسلامية والتي كانت تحظى بقبول معظم رجال الدين، على رغم السياسة الطائفية المنحازة لمذهب ديني معيّن، مقابل المذاهب الدينية الأخرى، فأقاليم الدولة العثمانية كانت تتوزع على المذاهب الإسلامية الخمسة التي يعرفها المسلمون، إلّا أنَّ علماء الدين كانوا يتفاعلون مع الدولة العثمانية باعتبار أن الخليفة أو السلطان العثماني هو مسلم لا يعارض شعارات المسلمين ومعتقداتهم

---

(١) اليهود والدولة العثمانية: ٤٥٨.

الدينية[١].

فالأجواء النفسية والثقافية لكافة المسلمين لم تتعرض لما يعكّر صفوها آنذاك، ولكن تغيير المناخ السياسي للشرق الإسلامي بدأ يظهر في الأفق يقول برناردلويس: وأوّل هذه التغييرات هو الانحلال السياسي الذي أدّى إلى تفتيت المنطقة وتجزئتها، والأهمّ من ذلك أنّه لم يكن هناك خلاف على مشروعية الحكم، فالسلطان هو الحاكم بلا منازع لأنّه عاهل لآخر خلافة إسلامية تضمّ جميع مسلمي العالم تقريباً، ثمّ عزل السلطان وهدمت الخلافة، وقام مقامه عدد من الملوك والرؤساء والديكتاتوريين الذين دبّروا لمدّة معيّنة أمورهم وربحوا تصفيق وتأييد شعوبهم، ولكنهم لم يكونوا أبداً موضع الرضى التام والقبول الطبيعي والولاء الأكيد الذي كان ممنوحاً لحكومة السلطان الشرعية، وهذا الولاء والرضى جعل السلطان غير محتاج للضغط والعنف والإرهاب، أو للغوغائية السياسية في الحكم... وبضياع الشرعية والولاء خسر أهل الشرق الأوسط هويتهم الواحدة القديمة «الهوية الإسلامية»[٢].

وهذا الطلاق الذي شهدته سياسة الشرق مع الغطاء الديني الظاهري الذي كانت تمثله تركيا انعكس في فلسفة ونظريات الفكر السياسي للبلدان الإسلامية، يقول الباحث أحمد محمد عبد الرازق:

وربّما كانت الظروف التاريخية التي أعقبت سقوط الخلافة العثمانية في تركيا على يد كمال أتاتورك وإقامة النظام العلماني المتطرف فيها، لعبت دوراً

---

(١) ففي العراق مثلاً كان الوالي العثماني يزور العتبات المقدّسة لطائفة الشيعة الإمامية، ونقل عن الخليفة العثماني سليمان القانوني، أنّه زار مرقد عليّ عليه السلام في إحدى جولاته في ممالك الدولة العثمانية، وترجل من مركبه على مسافة أربعة فراسخ لما رأى قبّة عليّ عليه السلام تعظيماً لها. ينظر جعفر آل محبوبة، ماضي النجف وحاضرها١: ٢٢٠.

(٢) نقل هذا إسماعيل الكيلاني في فصل الدين عن الدولة: ١٦.

أساسياً في أفكار علي عبد الرازق في نفي الارتباط بين الرسالة والحكم، إذ تطلّع الكثير لملء هذا الفراغ الذي نجم عن إلغاء الخلافة العثمانية، وكان في مقدّمة المتطلعين لملء هذا الفراغ أحمد فؤاد، ومن ثم فإنّ كتاب «الإسلام وأصول الحكم» لم يكن بحثاً أكاديمياً من أبحاث السياسة أو علم الكلام عند المفكّرين والمثقفين المسلمين، وإنّما كان بالدرجة الأولى وقبل كلّ شيء جهداً سياسياً في معركة سياسية حامية بل ضارية وقائمة على قدم وساق، كما كانت تحدّياً للملك يملك كلّ القوى والإمكانيات، وفوق كلّ ذلك كان أحد العوامل التي أفسدت على الاستعمار البريطاني في مصر والشرق العربي الاستفادة من لعبة الخلافة هذه، ثمّ يتحدّث عن المفهوم القومي الذي برزعقب سقوط واندحار مفهوم الخلافة الإسلامية: لقد جاء مفهوم القومية الإقليمية التي ترتكز على حبّ الوطن بمفهومه المحلّي الضيّق والولاء له من خلال اتصال المثقفين العرب بالثقافة الغربية، ولعلّ أوّل من دعا إلى مفهوم الوطنية القومية في مصر هو الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي في كتابه «مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية»، وقد تأثر في ذلك بالثقافة الأوربية محاولاً بنحو ما مزج الأفكار الإسلامية بالقيم الغربية.

ولكن القومية المصرية لدى الطهطاوي لا تأخذ شكلاً علمانياً، بل إنّ المفكّر المسلم يحاول أن يجد سنداً من التعاليم الإسلامية التي تدعو إلى حبّ الوطن والولاء له، فليس لدى الطهطاوي تناقض بين الوطنية بمعنى حبّ الوطن والعمل له وبين الإسلام عقيدة الأمّة وأساس وعيها الحضاري، فالرابطة الدينية لا تتناقض عنده مع الرابطة القومية[1].

وهذا التوجه الفكري قد سرى لعقود كثيرة في فلسفة الفكر القومي لدى المسلمين، فانحازت مع القوى الإسلامية بشكل عفوي.

---

(١) فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي٢: ٦٤٤و٦٥٦.

يقول أركون:

وهذا الشيء يفسّر لنا كيف أنَّ الأيديولوجيا الناصرية كانت تحارب الإخوان المسلمين وتحبِّذ في الوقت ذاته الشروط النفسية والثقافية لتوسعهم وانتشارهم.

وفي الواقع أنّه على الرغم من توجهها العلماني فإنَّ الناصرية كانت تهتم بنفس الموضوعات الأساسية والمحورية المشتركة لدى الحركات الإسلاموية كافة وتعطيها الأولوية والامتياز، وتتمثل هذه الموضوعات بالنزعة الماضوية والتركيز على العصر الذهبي والوحدة العربية وعظمة العرب ومعاداة الإمبريالية والصهيونية والعدالة الاجتماعية، ونحن نجد الظاهرة نفسها لدى الجزائر الاشتراكية والنظام الملكي للحسن الثاني[1].

ومجمل الحركات القومية كانت تقع في مسالك ضيّقة لا تستطيع أن تتعامل مع معطيات التحوّل العالمي وحراك الفكر البشري الذي حمل آفاقاً واسعةً وجديدة للتعبير عن آمال الشعوب وتطلعاتها.

ولذلك فشلت الاتجاهات القومية في أن تلج حلبات الصراع العالمي والاستراتيجي وفشلت في التحليل والمنهج والرؤية العالمية الكاملة؛ فلذلك بدأت تحركات البلدان الاشتراكية في عقود القرن العشرين لتسدّ الفراغ النظري والفلسفي لدى الدول التي رفعت الشعارات القومية.

وعلى العموم كان القوميون قد حصروا عقائدهم داخل حدود جغرافية ضيقة انتهت بهم إلى العزلة والضمور السياسي.

وفي الواقع قد فشل الاتجاه القومي في عكس المشاكل والمعاناة التي كان يعيشها المجتمع المحلي... وحين قرر الوحدويون والقوميون أن يرفعوا شعارهم

---

(١) محمد أركون، الفكر الإسلامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء:٣٨.

العودة إلى الذات، عاد بعضهم إلى تراث الجاهلية والشعر والخمر والغزل، وكأن حضارة الإنسان العربي صنعتها أهازيج الشعر ودنان الخمور، متناسين الحقيقة التي بعثت الروح والنشاط والحيوية في هذا الجسم الضائع في متاهات الصحراء، وقد أحياهم الكتاب السماوي والنبيّ العربي محمد ﷺ حيث وضع الوحي السماوي العرب في موقع عالٍ وشرّفهم بالنبيّ المصطفى ﷺ حيث بثّ الروح والحياة في الكيان العربي وشرّفه، وكانت وإلى زماننا هذا تفتخر أمة العرب بأنَّ محمداً ﷺ منها وإليه تُعزى.

إنَّ الدين الإسلامي يحترم الهوية القومية ويحفظ خصوصيات الإنسان الجغرافية واللسانية، فالنبيّ ﷺ لم يصادر لغة في زمانه حتّى اللهجات المنبثقة عن القومية الواحدة، بل كانت لديه محترمة، فكان ﷺ يخاطب هذه القبائل بلهجاتها، وما علم القراءات القرآنية إلّا مظهر من مظاهر الاحترام القومي، فلم تصادر لهجاتهم ولم يُكرهوا حتى في رواية الحديث النبوي على لهجة قريش التي كانت اللهجة الرسمية للشريعة الإسلامية آنذاك، وبصفته ﷺ رئيس الحكومة الإسلامية في حينها لم يصدر النبيّ ﷺ أمراً بتوحيد اللهجات أو اللغات التي امتلأت بها جزيرة العرب.

ولكن الهوية الجديدة، أو قل القومية الجديدة التي طرحها الدين الإسلامي هي الهوية المحمدية، وهي أعلى درجة وأشرف مرتبة يصلها الإنسان، وله تُعزى وتنسب كلّ الأمم والشعوب وإلى اليوم، فهو فوق كل انتساب وكلّ عصبية ويجمع لشرف عصبته ودعوته كلّ إنسان فيقول ﷺ: **أنا مولى من لا مولى له، أنا مولى كلّ مسلم، عربيّها وعجميّها**[1].

وكانت دعوة النبيّ ﷺ وخطاباته ذات آفاق أممية عالمية تجاوزت زمانها

---

(١) معاني الأخبار للصدوق: ٤٠٥، بحار الأنوار٦٧: ١٦٩. مشيراً ﷺ إلى مفهوم الأمّة لذا كان الضمير مؤنثاً.

وآفاقها المحلية والقومية، وبهذا البعد تفهم نصوص الحديث المنسوبة له ﷺ، ومنها قوله ﷺ: **أُعطيت خمساً لم يُعطهنّ أحدٌ قبلي: كان كلّ نبيّ يبعث إلى قومه خاصّة ويُبعثت إلى كلّ أحمر وأسود، وأُحلّت لي الغنائم ولم تحلّ لأحدٍ قبلي، وجُعلت لي الأرض طيّبة وطهوراً ومسجداً، فأيّما رجل أدركته الصلاة صلّى حيث كان، ونُصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة**[1].

وفي خبر آخر يتحدث صلّى الله عليه وآله عن عالمية دعوته فيقول ﷺ: **جعلني رسول الرحمة ورسول التوبة، ورسول الملاحم والمقفّى، قفيّت النبيين جماعة، وأنا القيّم الكامل الجامع، ومنّ عليّ ربّي وقال: يا محمد قد أرسلت كلّ رسول إلى أُمّته بلسانها وأرسلتك إلى كلّ أحمر وأسود من خلقي، ونصرتك بالرعب الذي لم أنصر به أحداً، وأحللت لك الغنيمة، ولم تحلّ لأحدٍ قبلك، وأعطيت لك ولأمّتك كنزاً من كنوز عرشي فاتحة الكتاب وخاتمة سورة البقرة، وجعلت لك ولأمّتك الأرض كلّها مسجداً وترابها طهورا، وأعطيت لك ولأمتك التكبير، وقرنت ذكرك بذكري حتّى لا يذكرني أحدٌ من أمّتك إلّا ذكرك مع ذكري، طوبى لك يا محمد ولأمّتك**[2].

والملاحظ أنَّ خطاب الأنبياء كان ذا طابع خاص يمكن تسميته مجازاً بطابع قومي، ويبدو أنَّ وضع المبادئ السماوية في متناول الآفاق القومية للأنبياء كان واضحاً من ظاهر النصوص القرآنية كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ

---

(١) صحيح مسلم١: ٣٧٠ ح٥٢١ كتاب المساجد.

(٢) الخصال للصدوق: ٤٣٥، ونحوه في مسند أحمد٣: ٣٠٤.

الرَّحِيمِ﴾ (١).

وكما في قوله تعالى محدّثاً عن قوم إبراهيم عليه السلام: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢).

وكما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٣).

وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (٤).

وغيرها من الآيات الدالة على ذلك، ولا شكَّ بأنَّه كان معظم البلحثين يعتقد:

حيثما حلَّ الإسلام حلَّ معه الشعور بدور العرب الخاصّ في التاريخ، فالنبيّ ﷺ كان عربياً، والقرآن نزل باللغة العربية، وحتّى البدو والأعراب كانوا من مادة الإسلام، أي وسائله البشرية لفتح العالم.

وقد استمرّ وعي العرب القومي هذا، لا بل ازداد بفضل العناية التي كان السلاطين العثمانيون يحيطون بها المدارس السنّية والشرع.

لكن هذا الوعي لم يتجلّ في النزعة نحو وجود سياسي منفصل، بل ظهر في الاعتزاز باللغة والثقافة والأجداد وفي الشعور بالمسؤلية نحو الإسلام، وعلى

---

(١) البقرة: ٥٤.

(٢) الأنعام: ٨٠.

(٣) الأعراف: ٥٩.

(٤) الزخرف: ٤٤.

هذا الشكل تزعمه ونطق باسمه العلماء المحليون، وبوجه أعم العائلات الكبرى في مدن الولايات، تلك العائلات التي صانت تقاليد الدراسة الدينية، واللغة العربية وعلومها، وذكريات ما قام به العرب في سبيل الإسلام[١].

ولم يعارض المفكّرون الإسلاميون التوجهات الوطنية والقومية التي برزت في البلدان الإسلامية في القرن العشرين، حيث كان المسلمون يستمعون ويقرأون آراء كثير من مفكريهم الذين أدلوا برأيهم في مسألة مهمة تهمّ المستقبل الحضاري والاجتماعي والسياسي لبلدانهم، وقد كان بعضهم يرى أنَّ القومية والوطنية مذمومتان إذا أدّتا إلى تفرقة الأمّة، ومع هذا فإنّه يعتبر أنَّ بعض الأنبياء كانت لهم أهداف قومية أيضاً[٢]، حيث يصف باحث معاصر رسالات الأنبياء السابقين بالقول:

رسالتهم كانت محصورة بإنقاذ طائفة أو قوم معينين، وليس إصلاح كلّ البشر، كما يعتقد أيضاً أنّ الإسلام لم يأت لنفي الأقوام، بل جاء لإعطاء القوميات هوية أوسع وأكبر[٣].

وإلتفات الإنسان إلى ماضيه وأجداده لا يُعدّ جرماً كبيراً وإثماً ينبغي التخلّص منه، بل يكون افتخاراً وزهواً للإنسان وخاصة حينما يكون الانتساب إلى النبوّة والتوحيد، ولكن جهل الإنسان وشقاءه جعله يحن إلى أسياد الجهل والشرك.

فانبثقت أطروحة التغنّي بالأمجاد والعزف على الماضي التراثي العرقي

---

(١) ينظر الفكر العربي في عصر النهضة: ٤٣.

(٢) استناداً لقول النبيّ ﷺ: أعطيت خمساً لم يُعطهنَّ أحدٌ قبلي، كان كلّ نبيّ يُبعث إلى قومه خاصّة وبعثت إلى كلّ أحمر وأسود روى الخبر مسلم في صحيحه١: ٣٧٠ح٥٢١ كتاب المساجد.

(٣) محمد رضا وصفي الفكر الإسلامي المعاصر في إيران دار الجديد بيروت ط الأولى: ١٦١.

الذي يرى الأجداد أسياد العباد، وقد نبّه النبيّ ﷺ من قبل إلى مخاطر الأغاني القومية التي تُعنى بالأمجاد والأجداد، كما يظهر من رواية الصادق عليه السلام بأنّه أتى رسول الله ﷺ رجل فقال: يا رسول الله أنا فلان بن فلان، حتّى عدّ تسعة، فقال له رسول الله ﷺ: **أمّا إنّك عاشرهم في النار**[1]، ولم يرفع النبيّ ﷺ في نسب آبائه حين قال:

أنا النبيّ لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب

وإنما اقتصر على جدّه عبد المطلب الذي رَبّاه.

وانتسب النبيّ ﷺ إلى عدنان وقال: **كذب النسّابون**[2].

ولكن النبيّ ﷺ وضع لعلّي عليه السلام نسباً يفتخر به هو النسب الجهادي التوحيدي تقول الرواية: أنّ رجلاً فاخر علياً عليه السلام فقال له رسول الله ﷺ: **يا عليّ فاخر أهل الشرق والغرب والعرب والعجم، فأنت أقربهم نسباً، وابن عمّك رسول الله وأكرمهم نفساً، وأعلاهم رفعةً، وأكرمهم ولداً، وأكرمهم أخاً، وأكرمهم عمّاً، وأعظمهم حلماً، وأقدمهم سلماً، وأكثرهم علماً، وأعظمهم عزّاً في نفسك ومالك، وأنت أقرأهم لكتاب الله عزّوجلّ وأعلاهم نسباً، وأشجعهم قلباً في لقاء الحرب، وأجودهم كفّاً، وأزهدهم في الدنيا، وأشدّهم جهاداً، وأحسنهم خلقاً، وأصدقهم لساناً، وأحبّهم إلى الله وإليّ، وستبقى بعدي ثلاثين سنة تعبد الله، وتصبر على ظلم قريش لك، ثمّ تجاهد في سبيل الله إذا وجدت أعواناً، تقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله، ثمّ تُقتل شهيداً تُخضب لحيتك من دم رأسك، قاتلك يعدل قاتل ناقة صالح في البغضاء لله والبعد من الله، يا عليّ إنّك بعدي مغلوب مغصوب، تصبر على الأذى في الله**

---

(١) الكافي٢: ٣٢٩ح٥.

(٢) الاشتقاق لابن دريد: ٣٢، طبقات ابن سعد١: ٢٤.

وفيٌّ محتسباً، أجرك غير ضائع، فجزاك الله عن الإسلام خيراً[١].

وقد رويت أحاديث في فضل العرب، فسّرها الأئمة المعصومون بأساس ولائي واعتقادي، ومن ذلك قول النبيّ ﷺ: **لا تسبّوا قريشاً ولا تُبغضوا العرب**[٢]، فسّر بأنهّم الأئمة عليهم السلام[٣] وما جاء في خبر الصادق عليه السلام: نحن قريش وشيعتنا العرب وعدوّنا العجم[٤] فسّره العلامة المجلسي بالقول: العرب الممدوح من كان من شيعتهم وإن كان عجماً، والعجم المذموم من كان عدوّاً لهم وإن كان عرباً[٥].

وقد وصلت إلينا أخبار تفيد بأنَّ بعض القوميات والمدن والأعراق قد دخلت في قوائم المجتمعات المذمومة أو تبدو وكأنها مؤهلة أو تحمل استعداداً ذاتياً للإثم والعدوان، وإنْ كان من المسلّم بأن مثل هذه الأخبار لا يمكن التسليم بصحّتها بالكامل، لأنَّ مهمة الأنبياء والأوصياء ليس تقطيع أوصال المجتمعات البشرية ووضع أمّة دون أخرى في درجة النجاح والسقوط الاجتماعي، أو الغضّ من هذه الأمة أو تلك، كما أنَّ العدالة الإلهية لم تمنع فرص الهداية والصلاح عن أمّة دون أخرى.

وحقائق العلم تذهب إلى أنَّ الخصائص البشرية هي واحدة تنتهي إلى آدم أصل البشر ووالدهم، يقول النبي ﷺ: إنّكم من آدم وآدم من طين[٦] وفي خبر يقول ﷺ: **الناس كلّهم أبيضهم وأسودهم وقرشيهم وعربيهم وعجميهم**

---

(١) بحار الأنوار٢٩: ٤٢٦.

(٢) علل الشرائع: ٣٩٣ح٤.

(٣) بحار الأنوار٦٧: ١٧٦.

(٤) معاني الأخبار: ٤٠٤ح٧١.

(٥) بحار الأنوار٦٧: ١٧٦.

(٦) الزهد للأهوازي ٥٦ ح١٥٠.

من آدم[١]، فما يعني هذا الفاصل المفترض الذي نجده في بعض النصوص التي تُنسب إلى النبيّ والأئمة المعصومين عليهم أفضل الصلاة والسلام.

وإذا كانت بعض النصوص عالية في إسنادها فمن الممكن أن تحمل هذه على مرحلة ما قبل الهداية، أو حين تختار الشرك وتقاوم دعوة الحق فإنّها تُترك وما تحمل من بذور الشر، أمّا حين تقبل الهداية والصلاح فإنَّ هذه الأمم تنفتح لها أبواب الخير وتبدع في مسارها الاجتماعي والحضاري.

وأمّا الحديث عن البلدان والأمصار فهو حديث يماثل بحث القوميات فما يُنسب إلى النبيّ ﷺ من الحديث والقول بأنّ بعضهم يروي عن النبي ﷺ بأنّه قال: **انتحوا مصر ولا تطلبوا المكث فيها**[٢] يجعلنا نتساءل أليس يوسف الصديق عليه السلام قد مكث في مصر ما شاء الله له المكث حتّى انتقل إلى جوار ربّه ولم يترك هذه الأرض، أو ليس أنّه دعا أباه يعقوب عليه السلام للبقاء والعيش في مصر وهو نبيّ كامل معصوم، أو لم تكن إقامة موسى عليه السلام وهو من أولي العزم إقامة طويلة في أرض مصر.

وهناك أخبار أخر تخصّ مدناً وبلداناً أخرى غير مصر ومن ذلك ممّا يُنسب إلى النبيّ ﷺ قوله: **لا تساكنوا الخوز، ولا تزوّجوا إليهم، فإنَّ لهم عرقاً يدعوهم إلى غير الوفاء**[٣].

ونُسب إلى عليّ عليه السلام قوله: إنَّ أهل أصفهان لا يكون فيهم خمس خصال: السخاوة والشجاعة والأمانة والغيرة وحبّنا أهل البيت[٤]، وغير ذلك من نصوص وأخبار أشار لها الشيخ المجلسي في باب الممدوح من البلدان والمذموم

---

(١) فروع الكافي٥: ٣٤٠.

(٢) قصص الأنبياء للراوندي: ١٨٦ح٢٣٦.

(٣) بحار الأنوار٧٤: ١٩٣ وج٦٧: ١٧٤.

(٤) الخرائج والجرائح٢: ٥٤٥ح٧.

منها ضمن موسوعة بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار.

وقد علّق العلامة المجلسي رحمه الله على مثل هذه الأخبار بالقول: يمكن أن تتبدّل أحوال هذه البلاد باختلاف الأزمنة، ويكون ما ذكر حالهم في ذلك الزمان[1].

في حين أنّ النصوص القرآنية لم تشر إلى قومية معيّنة بوصف سلبي، فلم نجد هذه الإشارات كما نلمسها في نصوص الحديث، وما نجده من إشارات ناقدة هي وصف حالة جاهلية أو مرحلة عامة من مراحل التفكير البشري أو الموقف تجاه الأديان والأنبياء والرسالات السماوية، حيث تجد ذلك واضحاً بالنسبة لأعراب الجاهلية كما في قوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾[2].

فالكتاب حين يتحدّث عن سنّة لدى العرب لم يتحدث عنهم بصفتهم عرباً وإنّما تحدّث عنهم بصفتهم أعراباً، والأعراب تعني في مفهوم الإسلام الجهل والتخلف والبداوة والبعد عن التحضر والفهم، ولا يعني المس بالأصل والجدّ والقبيلة والأرومة، فالمساس بالعرب كقومية يعني المساس بأشرف الخلق محمد ﷺ الذي ينتسب إلى هذه القومية، وهو النموذج الكامل الذي تتأسى به الأمم والشعوب، فكيف تكون أمّة عظيمة أنجبت خير الخلق وأكرمهم ذات ملامح سلبية وميول عدوانية!

وحين يتحدّث القرآن عن أمم لا يتحدّث عن أصول هذه الأمم وأعراقها وإنّما يتحدّث عن ضلالها وإعراضها وبعدها عن الطريق المستقيم، فلا نجد إشارات إلى الأصول الفارسية أو الرومية أو العربية أو السلافية، أو غيرها من الأصول والأعراق البشرية.

---

(١) بحار الأنوار٦٠: ٢٠٧.

(٢) التوبة: ٩٧.

وقد حظيت بعض البيوت وبعض الأماكن بأوصاف إيجابية تفتخر الجموع بالانتساب لها، وقد يكون وصف اجتماعي أو سياسي باعث اعتزاز وافتخار، يتمنى الإنسان لو حاز هذا الوصف أو ذاك، أو يكون هنالك كيان وصرح حضاري يُنسب له الشخص فتتطلع له الأفئدة والعيون، ومهما تكن الجماعة أو الفئة التي يُنسب لها فإنّها لا تجاوز الكيان الخاصّ بالمؤمن، فالمؤمن نسيج وحده، ومستودع الافتخار، وموضع الرحمة، فإذا كان المفتخرون يعتزّون بالانتساب إلى كيان خاص واحد، فإنَّ المؤمن ينتسب إلى كلّ الكيانات ويتشعّب انتسابه ويتحدد على ضوء هذه الدلالات، وإلى هذا التنوع والتعدد أشار الصادق عليه السلام فيقول معرّفاً بكماله: المؤمن علوي لأنّه علا في المعرفة، والمؤمن هاشمي لأنّه هشم الضلاله، والمؤمن قرشي لأنّه أقرَّ بالشيء المأخوذ عنا، والمؤمن عجمي لأنّه استعجم عليه أبواب الشرّ، والمؤمن عربيّ لأنَّ نبيّه صلى الله عليه وآله عربي وكتابه المنزل عربي والمؤمن نبطيّ لأنّه استنبط العلم، والمؤمن مهاجري لأنّه هجر السيات، والمؤمن أنصاري لأنّه نصر رسول الله وأهل بيت رسول الله، والمؤمن مجاهد لأنّه يجاهد أعداء الله عز وجلّ في دولة الباطل بالتقيّة وفي دولة الحق بالسيف[1].

قال المجلسي رحمه الله: كأنّ المقصود من هذه الرواية أنّ مناط الشرف والفضل والكرامة الإيمان والتقوى والعمل الصالح، فإذا انضمّت إليه سائر الجهات كانت أحسن وأشرف، وإن افترقتا فصاحب الإيمان والتقوى أشرف، وبالكرامة أحرى... .

---

(١) علل الشرايع: ٤٦٧.

وقال أيضاً: إنَّ المؤمن لشرفه وكماله يمكن أن يطلق عليه كلّ من هذه الألفاظ بوجه حسن.

وقال أيضاً: أو المعنى أنّه من أيٍّ هذه الأصناف كان فإطلاقه عليه بوجه حسن يتضمّن مدحاً عظيماً[1].

(١) بحار الأنوار٦٧: ١٧٢.

مفهوم الدولة والحكومة والقانون

يلاحظ أنَّ الفكر القومي الذي تطرقنا له والذي ظهر في عقود القرن العشرين كان مسار فكر جديد في الطروحات والنظريات السياسية، بالنسبة لشرقنا المسلم، كما أنَّ الفكر القومي الذي برز في تلك الأزمنة والذي لقي ترحيباً وتأييداً في الأوساط السياسية الفتية تعرّض للمدّ والجزر وفقاً للبيئة التي وُلد فيها.

ومن المؤكد أنَّ الفكر القومي لا يعني بالضرورة الدولة القومية التي أصبحت الشكل المهيمن للحكومة، والتي برزت في الغرب ككيان سياسي في القرن السابع عشر، وتحديداً مع مؤتمر وستفاليا ١٦٤٨م[١]، فتلاه قيام تجارب سياسية متعددة بدأت في الغرب الأوربي فنضج مفهوم الدولة والحكومة بالصورة والرؤية الحديثة، فتكاملت مع مرور الزمان والتطوّر الحضاري.

ويظهر واضحاً لدى التحقيق والبحث عند الباحث وغيره وجود فرق بين مفهومي الدولة والحكومة، فالحكومة الوكيل الأساسي عن الدولة، والقائم بتنفيذ الأمور اليومية المتعلّقة بالدولة، والحكومات آليات قصيرة الأجل لإدارة الأهداف طويلة الأجل للدولة.

والحكومات المتتابعة في الدولة تمثّل هذه الدولة، ولكنّها ليست بديلاً لها.

ويقال في الدولة بوصفها معقلاً للسلطة، لذا لا يمكن لها أن تبقى خارج السياسة[٢].

وتعرف الحكومة بأنّها الهيئة التنفيذية والإدارية العليا في الدولة،

---

(١) ينظر هبة رؤوف عزّت، المرأة والعمل السياسي: ١٧٢.

(٢) ينظر الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر، بيتر تيلور، كولن فلنت، ترجمة عبد السلام رضوان، وإسحق عبيد: ٢٩٥و٣٠٠.

والدولة: هي وحدة قانونية تتمتع بالشخصية الدولية، تتضمّن وجود هيئة اجتماعية تباشر سلطات قانونية معيّنة إزاء شعب مستقرّ في إقليم معيّن[١].

والدولة بنظر الإسلام ضرورة حضارية واجتماعية وإلى ذلك أشار النبيّ ﷺ بقوله: **السلطان ظلّ الله في الأرض يأوي إليه كلّ مظلوم من عباده**[٢]، وبلغت الضرورة للدولة والحكومة حدّاً أن قال عليّ عليه السلام: سلطان ظلوم خير من فتن تدوم[٣].

لأنّ الفراغ السياسي بغياب السلطة والدولة يؤدّي إلى زعزعة القيم والاستقرار الاجتماعي والاقتصادي، فتعصف الأزمات والكوارث بالأمّة وتهدّدها، بل تجعلها في دوامة فتن تمزّق الكيان البشري، ولهذا قال عليّ عليه السلام: لابدَّ للناس من أمير بَرّ أو فاجر يعمل في إمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر، ويُبلِّغ الله فيها الأجل، ويُجمع به الفيء، ويُقاتل به العَدوّ، وتأمَنُ به السُبل، ويؤخذ به للضعيف من القويّ، حتّى يستريح بَرٌّ، ويُستراحَ من فاجرٍ[٤].

وهذا الفهم الحضاري المبكّر لدور الدولة وتحديد وظيفتها الاجتماعية والسياسية عكسه لنا عليّ عليه السلام بقوله لابن عبّاس حين دخل عليه وهو يخصف نعله قائلاً عليه السلام له: والله لهي أحبُّ إليَّ من إمرتكم، إلّا أن أقيم حقّاً، أو أدفع باطلاً[٥].

وقد أشار القرآن الكريم إلى ضرورة الدولة للكيان البشري في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ

---

(١) عبد الواحد كرم، معجم المصطلحات القانونية: ٢٠١و٢٣١.

(٢) بحار الأنوار٧٥: ٣٥٤ وج ٧٢ ط بيروت، غوالي اللآلي١: ٢٩٣.

(٣) بحار الأنوار٧٥: ٣٥٩.

(٤) نهج البلاغة: ٨٢ كلام رقم ٤٠.

(٥) نهج البلاغة: ٧٦ خطبة ٢٣.

﴿بِالْقِسْطِ﴾[١].

وهذا مؤشر واضح على أنّ الأنبياء والذين كانوا يحملون مبادئ ورسالات كاملة ومنهم أولو العزم، كُلّفوا بتحقيق وتشكيل لبنات الحكومات والدول، لأنَّ تنفيذ القانون وحمل الناس على الخضوع للقوانين لا يتمّ إلّا بتوفر أجهزة منظمة تراقب وضع اللوائح والشرائع وتسعى إلى بسط العدل والنظام في حياة الإنسان.

ولذلك اقترن القانون والتشريع والدولة بمفهوم الدين والشريعة السماوية، فالحديث عن التشريع والحكومة والقانون هو حديث عن الدين والسماء والنبوّة بالضرورة.

ويستطيع الباحث أن يتلمّس ذلك من النصوص الدينية، فقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾[٢]، يوحي بأنَّ اختيار السلطة السياسية كان يجري وفق تقديرات وحسابات دينية، وما الدولة والحكومة إلّا تدبير ديني سماوي، وقد اتسم التاريخ السياسي لبني إسرائيل بالطابع الديني، وممّا يروى في هذا أنَّ النبيّ ﷺ قال: **إنَّ بني إسرائيل كانت تسوسهم أنبياؤهم**[٣].

وعند الحديث عن مفهوم الدولة والحكومة لابدَّ من الإشارة إلى القوانين والتشريعات التي توضع بين يدي الدولة والحكومة التي تتخذها منهج عمل لها.

وكانت سيرة الأنبياء توحي بأنّهم يقومون بعملية تقنين وتشريع، أو توصيل هذه القوانين والشرائع إن لم يقم بعضهم بعملية التشريع، أو بدور

---

(١) الحديد: ٢٥.

(٢) البقرة: ٢٤٧.

(٣) مسند أبي يعلى ج١١: ٧٥ ح٦٢١١.

مزدوج من توصيل وتقنين حسب متطلبات الأزمنة وحاجة الناس للشرائع والأنظمة، ويُفهم الدور التشريعي للأنبياء من الوصف الخاص الذي وصف به بعض الأنبياء بوصف «أولو العزم» فكلّ واحد من هؤلاء الأنبياء جاء بكتاب مدوّن وشريعة ومنهاج أوجبوا على الناس الأخذ بها[1].

وقد وردت نصوص تحدّد وتفسّر هذه التسمية حيث روى سماعة أنّه سأل الصادق عليه السلام عن هؤلاء، فقال عليه السلام: هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم أفضل الصلاة والسلام.

وقد سأله سماعة عن علّة هذه التسمية فقال عليه السلام لأنَّ نوحاً عليه السلام بُعث بكتاب وشريعة، وكلّ من جاء بعد نوح عليه السلام أخذ بكتابه عليه السلام وشريعته ومنهاجه حتى جاء إبراهيم عليه السلام بالصحف وبعزيمة ترك كتاب نوح عليه السلام، وكلّ نبيّ جاء بعد إبراهيم عليه السلام أخذ بالصحف وبعزيمة ترك كتاب نوح عليه السلام.

حتّى جاء موسى عليه السلام داعياً إلى الأخذ بالتوراة، ثمَّ جاء عيسى عليه السلام بالإنجيل، وكلّ نبيّ جاء بعد عيسى عليه السلام أخذ بشريعة عيسى عليه السلام حتّى جاء محمد ﷺ خاتماً هذه الشرائع والنظم[2].

ويُفهم من هذه الرواية سير التطوّر القانوني والتشريعي الذي كانت عليه الرسالات السماوية والانعطاف المرحلي لهذه النظم والشرائع التي تلاحظ المستوى العقلي والمدني للناس، فحيثما تطوّر الإنسان وقفز قفزة حضارية كانت السماء تقنن وتشرع لهذه المرحلة، حتّى انتهت إلى مرحلة التكامل الحضاري والتشريعي للنبيّ محمد ﷺ خاتم المرسلين والمشرعين.

وتُعتبر مرحلة التقنين والتشريع أعلى مستوى حضاري تبلغه الأمّة في

---

(١) ينظر بحار الأنوار٦٨: ٣٢٦.

(٢) ينظر تفصيل الرواية في أصول الكافي٢: ١٧ باب الشرائع.

مسيرتها، يقول الدكتور محمود البستاني واصفاً هذه المرحلة: ثمّ قطعت البشرية مراحل متنوعة من التطوّر الحضاري: زراعيّاً وصناعيّاً فيما واكبها تطوّر عقلي أفضى بالمجتمعات إلى أن تعتمد العادات والأعراف والتقاليد، أي أن تعتمد التفكير الاجتماعي حيال الظاهرة المجتمعية، من خلال رسوّها على مبادئ اجتماعية فرضتها طبيعة التطور البيئي، كما أنَّ التفكير الفلسفي واكب هذه البيئة، فيما تخلّت عن التفكير الوثني والخرافي إلى طرح المفهومات المتّصلة بالمطلق أو بما وراء الوجود ثمّ قطعت البشرية مرحلة ثالثة بدأت مع ظهور الصناعة، وتطوّرت من ثمَّ حتّى وصلت إلى المجتمع الحديث، فيما واكبها تغيّر عقلي يتمثل في صياغة القوانين العلمية التي تشهدها المجتمعات المعاصرة[1].

فالأمم المتمدّنة هي أمم مشرّعة مقننة، فإنْ لم يكن هناك قانون وتشريع فكيف يمكن تسيير حياة الناس وتنظيمها، فالقانون والشرائع فلسفة عقلية وأفكار حضارية اتخذت سمة التنظيم والترتيب للحقوق العامة والخاصّة للناس ولحرياتهم.

وقد رافقت عملية التشريع والتقنين الوجود البشري منذ أن خطا الإنسان خطواته الأولى على الأرض، ولم تكن هناك فاصلة كبيرة بين هبوط آدم عليه السلام وعملية الدسترة والتشريع، كما ترى حكاية أصول التشريع وبداياته في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ

---

(١) الإسلام وعلم الاجتماع: ٧٨ ط مجمع البحوث الإسلامية بيروت.

مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾[1].

فقوله تعالى في مفردة«كتبنا» يؤكد صدور التشريع والقانون الذي يدخل في تفاصيله قانون الجزاء والعقوبات ضمن مجموعة القوانين الداخلة في مفردة «كتبنا»، ثمّ تسير الآيات سيرورة زمنية لتضع قانوناً يساير المجتمعات والأزمان حيث وجدت، وهو قانون الردع السياسي والاجتماعي لمن يحارب المجتمعات والقوانين فليس له إلّا القتل والمحو من الوجود.

فالفساد والشرّ لا علاج له إلّا بالاستئصال والاقتلاع، وهذا ما أخذت به حتّى الشرائع غير السماوية.

وحاجة الإنسان إلى القانون والحكومة والدولة حاجة فطرية أزلية، ومنذ أن حيي الإنسان حياة الاجتماع بدأ يعوزه القانون لينظم له بعض علاقاته بمن يعايشهم في حياته، فابتدأ القانون يجد سبيله إلى الوجود ثمّ أخذ يتطوّر بتطوّر أحوال الإنسان في مراحل نموّه الاجتماعي.

فربّ الأسرة في الأسرة المنفردة كان هو مصدر القانون ومنفّذه، فهو الذي يؤدّب ابنه إذا بدر منه ما يسيء إلى أمّه أو إخوته، وهو الذي يضع قاعدة التأديب ونوع الجزاء، وفي القبيلة تتكون أعراف يلتزم بها أبناؤها ويقضي بها

---

(١) المائدة: ٢٧-٣٣.

في منازعاتهم رئيس القبيلة أو عرّاف القوم، ثمَّ خطا الإنسان خطواته الكبرى فألّف مجتمعه الكبير، مجتمع الشعوب والأمم، عندئذٍ كثرت معاملات الناس وتشعّبت وتعدّدت منازعاتهم وتنوّعت فافتقروا أيما افتقار إلى القانون الذي ينظم لهم تلك العلاقات[١].

ولا شكّ بأنَّ أصول القانون تعود إلى نزول الشرائع السماوية وظهور الحضارات وتطوّر التمدن الإنساني، فحيثما وجدت حضارة ومدنية ظهرت بوادر القانون والتشريع، لذلك قالوا باختلاط القانون بالمدينة، وينسب إلى هيرقليطس الإغريقي القول: «على الشعب أن يقاتل من أجل القانون كما يقاتل من أجل سور المدينة»[٢].

وحين ينبثق القانون تكون الحاجة إلى القوة أو الدولة أو الحاكم الذي يقوم بتنفيذ هذا القانون ورعايته، ومن هنا تكون نظرية الدولة نظرية دينية اقترنت مع تشريع الأحكام، وفي هذا يقول الشيخ جعفر سبحاني:

وما ورد في هذه المجالات من قوانين وأحكام تدلّ بصميم ذاتها على أنَّ مشرعها افترض وجود حاكم يقوم بتنفيذها ووجود قوّة مجرية وسلطة تنفيذية تتعهد اجراءها وتتولّى تطبيقها مع العلم بأنَّ سنّ القوانين وحده لا يكفي في تنظيم المجتمعات[٣].

وعرّفوا القانون بأنّه مجموعة الأحكام والقواعد الملزمة التي تنظم علاقات الأشخاص في المجتمع تنظيماً يكفل لهم حقوقهم أفراداً وجماعات، وبأنّه

---

(١) ينظر مصطفى عبد الله، علم أصول القانون: ٤٠.
(٢) توشار، تاريخ الأفكار السياسية١: ٢٦.
(٣) معالم الحكومة الإسلامية: ٢٣.

المنشء للحقوق[١].

ويُعدّ النبيّ ﷺ أوّل واضع للقانون الإسلامي في التاريخ، ومنه بدأت اللوائح التشريعية حيث قال لسعد بن عبادة: «**إنَّ الله جعل لكلّ شيء حدّاً**»[٢] فهذا مبدأ قانوني عام تنبثق عنه التقنينات والتشريعات القانونية، ويقال عنها في لغة علم القانون الحديث فروع القانون، وكان النبيّ ﷺ يتعامل مع الوقائع القانونية تعاملاً واقعياً واعياً، منها ينبغي أن تُقنن تفريعات علوم القانون جميعها.

فقد تعامل النبيّ ﷺ مع واقعة قانونية مألوفة، تتعلّق بعلاقة المرأة بزوجها، حيث رواها الصادق عليه السلام بالقول: جاءت امرأة عثمان بن مظعون إلى النبيّ ﷺ فقالت: يا رسول الله، إنَّ عثمان يصوم النهار ويقوم الليل! فخرج رسول الله ﷺ مغضباً يحمل نعليه حتى جاء إلى عثمان فوجده يصلّي فانصرف عثمان حين رأى رسول الله ﷺ فقال له ﷺ: **يا عثمان، لم يرسلني الله تعالى بالرهبانية، ولكن بعثني بالحنيفية السهلة السمحة، أصوم وأصلي وألمس أهلي، فمن أحبَّ فطرتي فليستنّ بسنّتي، ومن سنّتي النكاح**[٣].

وحين مارس النبيّ ﷺ سلطته القضائية في حادثة الرجل المريض الزاني وضع النبيّ ﷺ في تنفيذ العقوبة، مسألة الحالة الصحية للجاني فيكون تنفيذ القانون هنا تنفيذاً واعياً مدروساً.

تقول الرواية: أُتي رسول الله برجل دميم قصير قد سُقي بطنه وقد درّت عروق بطنه قد فجر بامرأة فقالت المرأة: ما علمت به إلّا وقد دخل عليَّ، فقال

---

(١) عبد الله مصطفى، علم أصول القانون: ٢٥و٢٦.

(٢) فروع الكافي ٧: ١٧٤ ح ٤ باب التحديد.

(٣) فروع الكافي ٥: ٤٩٤ ح ١.

لـه رسـول الله ﷺ: **أزنيـتَ؟** فقال: نعم، ولم يكن أُحصن، فصعّد رسول الله ﷺ بصره وخفضه ثمّ دعا بعنق فقدّه بمائة ثمّ ضربه بشماريخه[١].

وقـد وضـع الـنبيّ ﷺ فاصـلاً قانونـياً بين إقرار الجاني على نفسه وبين الجـاني المتلـبس بالجريمة بشهادة جماعية، تقول الرواية: أقرَّ ما عز بن مالك عند رسـول الله ﷺ بالـزنا فأمـر ﷺ أن يُـرجم، فهرب من الحفيرة، فرماه الزبير بن العوّام بساق بعير فعقله فسقط فلحقه الناس فقتلوه، ثمَّ أخبروا رسول الله ﷺ بذلـك فقـال لهم: **فهلّا تركتموه إذا هرب يذهب! فإنّما هو الذي أقرَّ على نفسه** وقـال لهـم: **أما لو كان عليّ عليه السلام حاضراً معكم لما ضللتم، ووداه رسول الله ﷺ من بيت مال المسلمين**[٢].

وتحـتفظ العهـود والمواثـيق بقوّة قانونية لدى النبيّ ﷺ، ويتّضح هذا في رواية الصدوق التي تقول: إنَّ النبيّ ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى حيّ يقال لهم بـنو المصـطلق مـن بـني خـزيمة، وكـان بينهم وبين بني مخزوم إحنة في الجاهلية، وكـانوا قـد أطـاعوا رسـول الله ﷺ وأخذوا منه كتاباً لسيرته عليهم، فلمّا ورد علـيهم خـالد بـن الوليد أمر مناديه ينادي بالصلاة ثمّ أمر الخيل فشنّوا عليهم الغـارة فقـتل وأصاب منهم، فطلبوا كتابهم فوجدوه فأتوا به النبيّ ﷺ وحدّثوه بما صنع خالد بن الوليد فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة ثمّ قال: **اللهم إنّي أبرأ إلـيك ممّـا صـنع خـالد بن الوليد** ثمّ قُدم على رسول الله ﷺ بتبر ومتاع فقال لعلـيّ عليه السلام: **يـا عليّ ائت بني خزيمة من بني المصطلق فارضهم ممّا صنع خالد ثمّ** رفـع ﷺ **قدميـه فقـال: يا عليّ، اجعل قضاء أهل الجاهلية تحت قدميك، فأتاهم** علـيّ عليه السلام **فلمّا انتهى إليهم حكم فيهم بحكم الله عزّوجلّ، فلمّا رجع إلى النبي** ﷺ **قـال: يـا عليّ اخبرني بما صنعت،** فقال: يا رسول الله عمدت فأعطيت لكلّ

---

(١) فروع الكافي ٧: ٢٤٤ ح ٤.

(٢) فروع الكافي ٧: ١٨٥ ح ٥ باب صفة الرجم.

دم دية، ولكلّ جنين غرّه، ولكلّ مل مالاً، وفضلت معي فضلة فأعطيتهم لمليغة كلابهم وحبلة رعاتهم، وفضلت معي فضلة فأعطيتهم لروعة نسائهم، وفزع صبيانهم، وفضلت معي فضلة فأعطيتهم لما يعلمون ولم لا يعلمون، وفضلت معي فضلة فأعطيتهم ليرضوا عنك، فقال ﷺ: **أنت منّي بمنزلة هارون من موسى**[1].

وحين نتأمّل هذه الرواية نقف على ممارسات قانونية مهمّة، منها

١-احترام المواثيق والعهود ومنحها قوّة إلزامية.

٢-استند عليّ عليه السلام في ممارسته القانونية على مبدأ التعويض القانوني والقضائي[2].

٣-التعويض العادل والمجزي الذي مارسه علي عليه السلام بصفته ممثلاً ونائباً عن السلطات: التشريعية والقضائية والتنفيذية.

وقد تكاملت المسيرة القانونية للإنسان بالشريعة التي جاء بها النبيّ ﷺ فهنا وضعت شريعة دولة وحياة، وإليها انتهت الشرائع الدينية السابقة، وقد تحدَّث الصادق عليه السلام عن هذه الشريعة بقوله: إنّ الله تبارك وتعالى أعطى محمداً ﷺ شرائع نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام: التوحيد والإخلاص وخلع الأنداد والفطرة الحنيفية السمحة، ولارهبانية في الإسلام ولا سياحة، أحلّ فيها الطيّبات وحرّم فيها الخبائث ووضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، ثمّ افترض عليه فيها الصلاة والزكاة والصيام والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحلال والحرام والمواريث والحدود والفرائض والجهاد في سبيل الله

---

(١) علل الشرائع: ٤٧٤.

(٢) التعويض القانوني: هو تعويض يتقرر بنصّ في القانون، أمّا التعويض القضائي فيتقرر بحكم قضائي. ينظر معجم المصطلحات القانونية للدكتور عبد الواحد لحرم: ١٤٣.

وزاده الوضوء، وفضّله بفاتحة الكتاب وبخواتيم سورة البقرة والمفصّل، وأحلّ له المغنم والفيء، ونصره بالرعب وجعل له الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسله إلى الأبيض والأسود والجنّ والإنس، وأعطاه الجزية وأسر المشركين وفداهم ثمّ كلّف ما لم يكلّف أحدٌ من الأنبياء وأنزل عليه سيف من السماء من غير غمد، وقيل له: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾[1].

(١) أصول الكافي ٢: ١٧ باب الشرائع، والآية في سورة النساء: ٨٤.

مفهوم الحقوق

ويـترادف غالباً مصطلح الحقوق مع مصطلح القانون باعتبار أنَّ اللفظين يمثلان موضوعاً واحداً وهو تحقيق وبسط العدالة في المجتمع.

وهـناك حقـوق أساسـية حيوية للفرد تُستنبط من الكتاب والسنّة، وهذه الحقوق:

أ- حـقّ الحـياة؛ فكـلّ إنسـان يتمتع بحقّ الأمن على حياته ودمه من كلّ تهديـد، وقد صرّح بذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾[1].

ب- حقّ الملكية الخاصة: أي إنَّ الإنسان آمن على ماله فلا يصادر، وعلى رزقه لا يُضار فيه، وعلى عمله فلا يُنقل منه أو يُعزل عنه بسبب معارضته.

وقد نصَّ القرآن على ذلك، فالله تعالى يقول:

﴿فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[2].

ج- حـقّ الحرية الشخصية: فكلّ إنسان مأمون على حرّيته فلا يُحبس أو يُعتقل أو تُحدد إقامته إلّا بحقّ وفي الأماكن التي عيّنها الشارع كالمفلس والمجنون والقاصر وغيرها.

---

(١) المائدة: ٣٢.

(٢) البقرة: ٢٧٩.

وقد سبق الإسلام بالنص على الحقوق الثلاثة الرئيسية مجتمعة قبل القوانين الغربية إذ يقول الرسول الأعظم ﷺ: كلّ المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه[١]، ويقول السيّد باقر شريف القرشي: وأعلن الإسلام منذ بزوغ نوره حقوق الإنسان وأشاد صروحها ودعا المجتمع الإسلامي إلى تطبيقها على مسرح الحياة، لقد أعلن الإسلام حقوق الإنسان ورفع شعارها وتبناها في جميع المجالات فهو السابق لتأسيسها والمطبق لبنودها من غير ثورة أو حرب، على عكس أوربا فهي، إنّما هتفت بها ودعت إليها نتيجة للاضطهاد البالغ الذي واجهته شعوبها من جراء الحكم الأسود الذي خيّم عليها[٢].

ويتكرّر في لغة الأدب السياسي والاجتماعي مفهوم الحقوق، وما زال محور الحديث والشعارات المعاصرة، وهذه الحقوق تارة تُخصّص بمفهوم حقوق المرأة، أو حقوق الإنسان، أو حقوق العامل، وغيرها من قائمة المفاهيم والمصطلحات الدائرة حول محور الحقوق أو غيرها.

وقد استندت هذه المفاهيم إلى وثائق تاريخية مهمة، منها إعلان حقوق الإنسان في الولايات المتحده الأمريكية عام ١٧٧٦،وإعلان الثورة الفرنسية ١٧٩٠، والإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عام ١٩٤٨ عن الأمم المتحدة.

ويعرّف فقهاء القانون الحقّ بأنّه مصلحة يحميها القانون[٣]وأوّل من وضع مفهوم الحقوق في متناول يد العقلاء والعلماء هو النبيّ ﷺ حيث تداول رواة حديثه ﷺ مصطلح الحقوق الذي تكرر في لغة الحديث النبوي.

والحقّ واحد الحقوق يشمل ما كان لله، وما هو لعباده، وهو اسم من أسماء

---

(١) فاضل الصفّار، الحكومة الديمقراطية: ٩٦.

(٢) نظام الإسلام السياسي، دار التعارف بيروت:١٧٩.

(٣) ينظر عبد الواحد كرم، معجم المصطلحات القانونية: ١٨٨.

الله تعالى أو هو من صفاته، وهو مقابل للباطل، والحق: الثابت بلا شك كما في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[١].

والحقّ الأمر المقضي، والحقّ الحزم، ومنه الحديث الشريف «ما حقّ امرئ مسلم أن يبيت ليلتين إلّا ووصيّته عنده» أي ما الأحزم له والأحوط إلّا هذا.

والحقّ: الواجب اللازم، وفي القرآن: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

والحقّ: العدل... الحقّ: النصيب، وفي الحديث أنّ الله أعطى كلّ ذي حقّ حقّه فلا وصيّة لوارث، أي حظّه وتصيبه الذي فرض له، وشرعاً: ما ثبت به الحكم: وفي اصطلاح أهل المعاني: هو الحكم المطابق للواقع.

ويُطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك[٣].

ويعرّف هنري لثي بريل اجتماعيات الحقوق بأنّها علم الحقوق بوصفها مجموعة أحكام إلزامية تعيّن العلاقات الاجتماعية المفروضة في كلّ آن من قبل الجماعة التي ينتمي الأفراد إليها، وعلى قدر ما تتغيّر الجماعات تتطوّر الأحكام والقواعد الحقوقية[٤].

وقد حملت نصوص الحديث جملة من الحقوق منها حقّ الاخوّة في الإيمان فقال النبيّ ﷺ: للمسلم على أخيه ثلاثون حقّاً لا براءة له منها إلّا بالأداء أو العفو: يغفر زلّته، ويرحم عبرته، ويستر عورته، ويقيل عثرته، ويقبل معذرته،

---

(١) الذاريات: ٢٣.

(٢) الروم: ٤٧.

(٣) ينظر سعدي أبو حبيب، القاموس الفقهي: ٩٤، ولسان العرب«حقق».

(٤) مفاتيح العلوم الإنسانية: ١٧٢ رقم ٥٨٠.

ويردّ غيبته، ويديم نصيحته، ويحفظ خلّته، ويرعى ذمّته، ويعود مرضته، ويشهد ميّته، ويجيب دعوته، ويقبل هديّته، ويكافئ صلته، ويشكر نعمته، ويحسن نصرته، ويحفظ حليلته، ويقضي حاجته، ويشفّع مسألته، ويسمّت عطسته، ويرشد ضالّته، ويردّ سلامه، ويطيّب كلامه، ويبرّ إنعامه، ويصدّق أقسامه، ويوالي وليّه ولا يعاديه، وينصره ظالماً ومظلوماً، فأمّا نصرته ظالماً فيردّه عن ظلمه، وأمّا نصرته مظلوماً فيعينه على أخذ حقّه، ولا يسلمه ولا يخذله، ويحبّ له من الخير ما يحبّ لنفسه، ويكره له من الشرّ ما يكره لنفسه[1].

ويبدو للباحث في تاريخ الشرائع السماوية تجذّر مفهوم الحقوق، فعلى هذا يمكن أن يقال: ما كانت شريعة الأنبياء إلّا مجموعة قواعد ونظم تبرمج وتوضح الحقوق المطلوبة... ومن هذا المنطلق كتب عليّ بن الحسين عليه السلام في هذه الحقوق رسالة إلى بعض أصحابه قال فيها: اعلم أنَّ لله عزَّ وجلّ عليك حقوقاً محيطة بك في كلّ حركة تحرّكتها أو سكنة سكنتها، أو حال حلتها، أو منزلة نزلتها، أو جارحة قلبتها، أو آلة تصرّفت فيها.

فأكبر حقوق الله تبارك وتعالى عليك ما أوجب عليك لنفسه من حقّه الذي هو أصل الحقوق، ثمّ ما أوجب الله عزّ وجلّ عليك لنفسك من قرنك إلى قدمك على اختلاف جوارحك، فجعل عزَّ وجلَّ للسانك عليك حقّاً، ولسمعك عليك حقّاً، ولبصرك عليك حقّاً، وليدك عليك حقّاً، ولرجلك عليك حقّاً، ولبطنك عليك حقّاً، ولفرجك عليك حقّاً، فهذه الجوارح السَّبع التي بها تكون الأفعال، ثمّ جعل عزّ وجلّ لأفعالك عليك حقوقاً، فجعل لصلاتك عليك حقاً، ولصومك عليك حقّاً، ولصدقتك عليك حقّاً، ولهديك عليك حقّاً، ولأفعالك عليك حقوقاً، ثمّ يخرج الحقوق منك إلى غيرك من ذوي الحقوق الواجبة عليك فأوجبها عليك حقوق أئمتّك، ثمّ حقوق رعيّتك، ثمَّ حقوق رحمك، فهذه حقوق

---

(١) بحار الأنوار٧٤: ٢٣٦، كنز الكراجكي: ١٤١.

تتشعّب منها حقوق، فحقوق أئمتك ثلاثة أوجبها عليك حقّ سائسك بالسلطان، ثمّ حقّ سائسك بالعلم، ثمّ حقّ سائسك بالملك، وكلّ سائس إمام.

وحقوق رعيتك ثلاثة أوجبها عليك حقّ رعيتك بالسلطان، ثمّ حقّ رعيتك بالعلم فإنَّ الجاهل رعيّة العالم، ثمّ حقّ رعيتك بالملك من الأزواج وما ملكت الأيمان.

وحقوق رعيّتك كثيرة متّصلة بقدر اتصال الرَّحم في القرابة، وأوجبها عليك حقّ أُمّك، ثمّ حقّ أبيك، ثمّ حقّ ولدك، ثمّ حقّ أخيك، ثمّ الأقرب فالأقرب والأولى فالأولى، ثمّ حقّ مولاك المنعم عليك، ثمّ حقّ مولاك الجارية نعمته عليك، ثمّ ذوي المعروف لديك، ثمّ حقّ مؤذّنك لصلاتك، ثمّ حقّ إمامك في صلاتك، ثمّ حقّ جليسك، ثمّ حقّ جارك، ثمّ حقّ صاحبك، ثمّ حق شريكك، ثمّ حقّ مالك، ثمّ حقّ غريمك الذي تطالبه، ثمّ حق غريمك الذي يطالبك ثمّ حقّ خليطك، ثمّ حق خصمك المدّعي عليك، ثمّ حقّ خصمك الذي تدّعي عليه، ثمّ حقّ مستشيرك، ثمّ حقّ المشير عليك، ثمّ حقّ مستنصحك، ثمّ حقّ الناصح لك، ثمّ حقّ من هو أكبر منك، ثمّ حقّ من هو أصغر منك، ثمّ حقّ سائلك، ثمّ حقّ من سألته، ثمّ حقّ من جرى لك على يديه مساءة بقول أو فعل عن تعمّد منه أو غير تعمّد، ثمّ حقّ أهل ملّتك عليك، ثمّ حقّ أهل ذمّتك؟ ثمّ الحقوق الجارية بقدر علل الأموال وتصرّف الأسباب.

فطوبى لمن أعانه الله على قضاء ما أوجب عليه من حقوقه ووفّقه لذلك وسدّده.

فأمّا حقّ الله الأكبر عليك: فأن تعبده لا تشرك به شيئاً، فإذا فعلت بالإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة.

وحقّ نفسك عليك أن تستعملها بطاعة الله عزّ وجلّ، وحقّ اللسان

إكرامه عن الخنى، وتعويده الخير، وترك الفضول التي لا فائدة لها، والبر بالناس وحسن القول فيهم.

وحقّ السمع تنزيهه عن سماع الغيبة، وسماع ما لا يحلّ سماعه.

وحقّ البصر أن تغضّه عمّا لا يحلّ لك وتعتبر بالنظر به.

وحقّ يدك أن لا تبسطها إلى ما لا يحلّ لك.

وحقّ رجليك أن لا تمشي بهما إلى مالا يحلّ لك، فبهما تقف على الصراط فانظر أن لا تزلّ بك فتردى في النار.

وحقّ بطنك أن لا تجعله وعاءً للحرام، ولا تزيد على الشبع.

وحقّ فرجك أن تحصنه عن الزنا، وتحفظه من أن ينظر إليه.

وحقّ الصلاة أن تعلم أنّها وفادة إلى الله عزّ وجلّ وأنت قائمٌ بين يدي الله عزّ وجلّ، فإذا علمت ذلك قمت مقام العبد الذليل الحقير الراغب الراهب الراجي الخائف المستكين المتضرّع المعظّم لمن كان بين يديه بالسكون والوقار، وتقبل عليها بقلبك، وتقيمها بحدودها وحقوقها.

وحقّ الحجّ أن تعلم أنّه وفادة إلى ربّك وفرار إليه من ذنوبك وبه قبول توبتك وقضاء الفرض الذي أوجبه الله عليك.

وحقّ الصوم أن تعلم أنّه حجابٌ ضربه الله على لسانك وسمعك وبصرك وبطنك وفرجك ليسترك به من النار، فإن تركت الصوم خرقت ستر الله عليك.

وحقّ الصدقة أن تعلم أنّها ذخرك عند ربّك عزَّ وجلّ، ووديعتك التي لا تحتاج إلى الإشهاد عليها فإذا علمت ذلك كنت بما تستودعه سرّاً أوثق منك بما تستودعه علانية، وتعلم أنّها تدفع البلايا والأسقام عنك في الدنيا، وتدفع

عنك النار في الآخرة.

وحقّ الهَدْي أن تريد به وجه الله عزَّ وجلَّ، ولا تريد به خلقه، ولا تريد به إلّا التعرّضُ لرحمة الله ونجاة روحك يوم تلقاه.

وحقّ السلطان أن تعلم أنّك جُعلت له فتنة وأنّه مبتلى فيك بما جعله الله عزَّ وجلّ له عليك من السلطان، وأنَّ عليك أن لا تتعرّض لسخطه فتلقى بيدك إلى التهلكة، وتكون شريكاً له فيما يأتي إليك من سوء.

وحقّ سائسك بالعلم التعظيم له والتوقير لمجلسه، وحسن الاستماع إليه والإقبال عليه، وأن لا ترفع عليه صوتك وأن لا تجيب أحداً يسأله عن شيء حتّى يكون هو الذي يجيب، ولا تحدّث في مجلسه أحداً ولا تغتاب عنده أحداً، وأن تدفع عنه إذا ذكر عندك بسوء، وأن تستر عيوبه وتظهر مناقبه.

ولا تجالس له عدوّاً ولا تُعادي له وليّاً، فإذا فعلت ذلك شهد لك ملائكة الله بأنّك قصدته وتعلّمت علمه لله جلّ اسمه لا للناس.

وأمّا حقّ سائسك بالملك فأن تطيعه ولا تعصيه إلّا فيما يسخط الله عزّ وجلّ، فإنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وأمّا حقّ رعيتك بالسلطان فأن تعلم أنّهم صاروا رعيتك لضعفهم وقوّتك، فيجب أن تعدل فيهم وتكون لهم كالوالد الرحيم، وتغفر لهم جهلهم، ولا تعاجلهم بالعقوبة، وتشكر الله عزّ وجلّ على ما آتاك من القوّة عليهم.

وأمّا حقّ رعيتك بالعلم فأن تعلم أنَّ الله عزّ وجلّ إنّما جعلك قيّماً لهم فيما آتاك من العلم وفتح لك من خزائنه، فإن أحسنت في تعليم الناس ولم تخرق بهم ولم تضجر عليهم زادك الله من فضله، وإنْ أنت منعت الناس علمك أو خرقت بهم عند طلبهم العلم منك كان حقّاً على الله عزَّ وجلّ أن يسلبك العلم وبهاءه ويسقط من القلوب محلّك.

وأمّا حقّ الزوجة فأن تعلم أنَّ الله عزَّ وجلّ جعلها لك سكناً وأُنساً فتعلم أنّ ذلك نعمة من الله عليك، فتكرمها وترفق بها، وإنْ كان حقّك عليها أوجب فإنَّ لها عليك أن ترحمها لأنّها أسيرك وتطعمها وتكسوها فإذا جهلتْ عفوت عنها.

وأمّا حقّ مملوكك فأن تعلم أنّه خلق ربّك وابن أبيك وأمّك ولحمك ودمك لم تملكه لأنّك صنعته دون الله ولا خلقت شيئاً من جوارحه ولا أخرجت له رزقاً، ولكنَّ الله عزَّ وجلّ كفاك ذلك، ثمّ سخّره لك وائتمنك عليه واستودعك إيّاه ليحفظ لك ما تأتيه من خير إليه فأحسن إليه كما أحسن الله إليك، وإنْ كرهته استبدلت به، ولم تعذّب خلق الله عزَّ وجلّ، ولا قوّة إلّا بالله.

وحقّ أُمّك أن تعلم أنّها حملتك حيث لا يحتمل أحدٌ أحداً، وأعطتك من ثمرة قلبها ما لا يُعطي أحدٌ أحداً، ووقتك بجميع جوارحها، ولم تبال أن تجوع وتطعمك، وتعطش وتسقيك، وتعرى وتكسوك، وتُضحى وتظلّك، وتهجر النوم لأجلك، ووقَتْكَ الحرّ والبرد لتكون لها فإنّك لا تطيق شكرها إلّا بعون الله تعالى وتوفيقه.

وأمّا حقّ أبيك فأن تعلم أنّه أصلك، وأنّه لولاه لم تكن، فمهما رأيت في نفسك ممّا يعجبك فاعلم أنَّ أباك أصل النّعمة عليك فيه، فاحمد الله واشكره على قدر ذلك ولا قوّة إلّا بالله.

وأمّا حقّ ولدك فأن تعلم أنّه منك ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشرّه، وأنّك مسؤول عمّا وليته من حسن الأدب والدلالة على ربّه عزَّ وجلّ، والمعونة له على طاعته، فاعمل في أمره عمل من يعلم أنّه مثاب على الإحسان إليه، معاقب على الإساءة إليه.

وأمّا حقّ أخيك فأن تعلم أنّه يدك وعزّك وقوّتك، فلا تتّخذه سلاحاً على معصية الله، ولا عدّة للظلم لخلق الله، ولا تدع نصرته على عدوّه والنصيحة له.

فإن أطاع الله وإلّا فليكن الله أكرم عليك منه، ولا قوّة إلّا بالله.

وأمّا حقّ مولاك المنعم عليك، فأن تعلم أنّه أنفق فيك ماله وأخرجك من ذلّ الرقّ ووحشته إلى عزّ الحرّية وأنسها، فأطلقك من أسر الملكة وفكّ عنك قيد العبودية وأخرجك من السجن، وملّكك نفسك، وفرّغك لعبادة ربّك، وتعلم أنّه أولى الخلق بك في حياتك وموتك وأنّ نصرته عليك واجبة بنفسك وما احتاج إليه منك، ولا قوّة إلّا بالله.

وأمّا حقّ مولاك الذي أنعمت عليه، فأن تعلم أنّ الله عزّ وجلّ جعل عتقك له وسيلة إليه، وحجاباً لك من النار، وأنّ ثوابك في العاجل ميراثه، إذا له يكن لم رحم، مكافأة بما أنفقت من مالك وفي الآجل الجنّة.

وأمّا حقّ ذي المعروف عليك فأن تشكره وتذكر معروفه وتكسبه المقالة الحسنة وتُخلص له الدعاء فيما بينك وبين الله عزّ وجلّ، فإذا فعلت ذلك كنت قد شكرته سرّاً وعلانية، ثمّ إنْ قدرت على مكافأته يوماً كافيته.

وأمّا حقّ المؤذّن أن تعلم أنّه مذكّر لك ربّك عزّ وجلّ وداعٍ لك حظّك، وعونك على قضاء فرض الله عليك فاشكره على ذلك شكرك للمحسن إليك.

وأمّا حقّ إمامك في صلاتك فأن تعلم أنّه قد تقلّد السفارة فيما بينك وبين ربّك عزّ وجلّ، وتكلّم عنك ولم تتكلّم عنه، ودعا لك ولم تدع له، وكفاك هول المقام بين يدي الله عزّ وجلّ، فإن كان به نقص كان به دونك، وإنْ كان تماماً كنت شريكه، ولم يكن له عليك فضل فوقى نفسك بنفسه وصلاتك بصلاته، فتشكر له على قدر ذلك.

وأمّا حقّ جليسك فأن تلين له جانبك وتنصفه في مجازاة اللفظ ولا تقوم من مجلسك إلّا بإذنه، ومن يجلس إليك يجوز له القيام عنك بغير إذنك وتنسى زلّاته وتحفظ خيراته، ولا تُسمعه إلّا خيراً.

وأمّا حقّ جارك فحفظه غائباً، وإكرامه شاهداً، ونصرته إذا كان مظلوماً، ولا تتبع له عورة، فإنْ علمت عليه سوءاً سترته عليه، وإنْ علمت أنّه يقبل نصيحتك نصحته فيما بينك وبينه، ولا تسلّمه عند شديدة، وتقيل عثرته، وتغفر ذنبه، وتعاشره معاشرة كريمة، ولا قوّة إلّا بالله.

وأمّا حقّ الصاحب فأن تصحبه بالتفضّل والإنصاف، وتكرمه كما يكرمك، وكن عليه رحمةً، ولا تكن عليه عذاباً، ولا قوّة إلّا بالله.

وأمّا حقّ الشريك فإنْ غاب كفيته، وإن حضر رعيته، ولا تحكم دون حكمه، ولا تعمل رأيك دون مناظرته، وتحفظ عليه ماله ولا تخونه فيما عزَّ أوهان من أمره، فإنَّ يد الله تبارك وتعالى على الشريكين ما لم يتخاونا ولا قوّة إلّا بالله.

وأمّا حقّ مالك فأن لا تأخذه إلّا من حلّه، ولا تنفقه إلّا في وجهه، ولا تؤثر على نفسك من لا يحمدك، فاعمل فيه بطاعة ربّك، ولا تبخل به فتبوء بالحسرة والندامة مع السعة، ولا قوّة إلّا بالله.

وأمّا حقّ غريمك الذي يطالبك فإنْ كنت موسراً أعطيته، وإنْ كنت معسراً أرضيته بحسن القول ورددته عن نفسك ردّاً لطيفاً.

وحقّ الخليط أن لا تغرّه، ولا تغشّه، ولا تخدعه، وتتقي الله تبارك وتعالى في أمره.

وحقّ الخصم المدّعي عليك فإن كان ما يدّعي عليك حقّاً كنت شاهده على نفسك ولم تظلمه، وأوفيته حقّه، وإن كان ما يدّعي باطلاً رفقت به، ولم تأتِ في أمره غير الرفق، ولم تسخط ربّك في أمره، ولا قوّة إلّا بالله.

وحقّ خصمك الذي تدّعي عليه إنْ كنت محقاً في دعوتك أجملت مقاولته، ولم تجحد حقّه، وإنْ كنت مبطلاً في دعوتك اتّقيت الله عزَّ وجلّ وتبتَ إليه

وتركت الدعوى.

وحقّ المستشير إنْ علمت أنَّ له رأياً أشرت عليه، وإن لم تعلم أرشدته إلى من يعلم.

وحقّ المشير عليك أن لا تتهمه فيما لا يوافقك من رأيه، فإنْ وافقك حمدت الله عزَّ وجلّ.

وحقّ المستنصح أن تؤدّي إليه النصيحة وليكن مذهبك الرحمة له والرّفق به.

وحقّ الناصح أن تلين له جناحك وتصغي إليه بسمعك، فإن أتى الصواب حمدت الله عزَّ وجلّ وإنْ لم يوافق رحمته، ولم تتهمه وعلمت أنّه أخطأ، ولم تؤاخذه بذلك إلّا أن يكون مستحقّاً للتهمة فلا تعبأ بشيء من أمره على حال، ولا قوّة إلّا بالله.

وحقّ الكبير توقيره لسنّه، وإجلاله لتقدّمه في الإسلام قبلك وترك مقابلته عند الخصام، ولا تسبقه إلى طريق ولا تتقدمه، ولا تستجهله، وإنْ جهل عليك اجتملته وأكرمته لحقّ الإسلام وحرمته.

وحقّ الصغير رحمته في تعليمه والعفو عنه والسَّتر عليه والرفق به والمعونة له.

وحقّ السائل إعطاؤه على قدر حاجته، وحقّ المسئول إنْ أعطى فاقبل منه بالشكر والمعرفة بفضله، وإن منع فاقبل عذره.

وحقّ من سرَّك لله تعالى ذكره أن تحمد الله عزَّ وجلّ أوّلاً، ثمّ تشكره.

وحقّ من أساءك أن تعفو عنه، وإنْ علمت أنَّ العفو عنه يضرّ انتصرت،

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[1].

وحقّ أهل ملّتك إضمار السلامة والرحمة لهم، والرّفق بمسيئهم، وتألّفهم واستصلاحهم، وشكر محسنهم وكفّ الأذى عنهم وتُحبّ لهم ما تُحب لنفسك، وتكره لهم ما تكره لنفسك، وأن تكون شيوخهم بمنزلة أبيك، وشبّانهم بمنزلة إخوتك، وعجائزهم بمنزلة أمّك، والصغار بمنزلة أولادك.

وحقّ الذمّة أن تقبل منهم ما قبل الله عزّ وجلّ، ولا تظلمهم ما وفوا لله عزّ وجلّ بعهده[2].

ويرى القارئ بأنّ هذه الرسالة هي وثيقة حضارية راقية، حيث تبدأ بحق الخالق الذي خلق الأرواح جميعها وتنتهي بحقوق أهل الكتاب ممّن نأوا عن هداية المصطفى ﷺ، ولا يخفى على القارئ أهمية هذه الرعاية والحنوّ من نفس كريمة ملؤها الرحمة، جعل مِسْك الختام ذكر من صدّوا عن عقيدته ورسالته، ولو تأمّلنا نصوص هذه الوثيقة لوجدنا أنّ هذه الوصايا هي بمثابة قانون دستوري وضع للأمم والشعوب، ترجع له في عملية التقنين والتشريع، حيث وضع عليه السلام لكلّ حقّ فقرة دستورية يبني المشرع عليها، ومنها مثلاً تستنبط مبادئ حقوق الإنسان التي تنادي بها الهيئات والمؤسسات الدولية، فرسالة الحقوق بلورت حقوق الإنسان وطالبت بصيانتها، فإذا كانت هذه الرسالة دعت إلى فرض الحقوق بين البشر كافة فهي بحق ميثاق عالمي سبق زمننا الذي ينسب شعار حقوق الإنسان إليه.

---

(١) الشورى: ٤١.

(٢) الخصال للصدوق: ٥٦٤، بحار الأنوار ٧١: ٧٢.

النبيّ وحقوق المرأة وتكوين الأسرة

لم تحظ المرأة في تاريخها الاجتماعي بمنزلة كريمة كالمنزلة التي أنزلها النبيّ ﷺ في حديثه ﷺ ورعايته الكريمة، فالمرأة نالت من الألفاظ الكريمة والمحترمة كحدّ أدنى ما لم تكن تحلم بها حتّى أنه قال لأنجشة: **رفقاً بالقوارير**. مكنياً ﷺ عنها بأسلوب جمالي مهذّب، ولدى استقرائنا لتاريخ الحضارات القديمة السابقة لحضارتنا الإسلامية لم نجد لها دوراً محترماً ووظيفة اجتماعية لائقة بها غير الاستيلاد والامتهان، فالغرب يفتخر بالإغريق الذين اشتهروا بالفلسفة والآداب والفنون والعلوم في حين وكما كان واقعهم نراهم «على العموم يعدّون النساء من المخلوقات المنحطّة التي لا تنفع لغير دوام النسل وتدبير المنزل، فإذا وضعت المرأة ولداً دميماً قضوا عليها، ومن ذلك قول مسيوترو يْلُونغ: كانت المرأة السيئة الحظ التي لا تضع في إسبارطة ولداً قويّاً صالحاً للجندية تُقتل، وقال: كانت المرأة الولود تُؤخذ من زوجها بطريق العارية لتلد للوطن أولاداً من رجل آخر»[1].

وكانت الدراسات الدولية قد عنيت كثيراً بأحوال المرأة في العالم، وكانت تهتم بموضوعات مثل الحقوق الاقتصادية أو الاجتماعية أو أحوال الهجرة بين النساء، والجديد أن تمتدّ هذه الدراسات والتي تشارك فيها منظمات عدّة مثل منظمة الصحّة العالمية، ومنظمة الطفولة، ومنظمة الأنشطة السكّانية... والجديد أيضاً أن تمتدّ لقضية مثل العنف ضد النساء وتحاول استخراج أرقام وإحصاءات من الظاهرة...

ونتيجة لتفاقم ظاهرة العنف في المجتمع الأوربي ظهرت منظمات

---

(١) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر: ٤٠٦.

وهيئات تدعو لوقف هذا الأسلوب، وفي الولايات المتحدة الأمريكية تقود الرابطة الطبية الأمريكية حملة ضدّ العنف، وفي أمريكا توجه ٤٠٠ منظمة نشاطها لمكافحة القسوة ضدّ النساء[١].

وهذا مؤشر على تراجع المرأة وضياع حقها في مجتمع متقدم صناعياً وتكنولوجياً يصنّف ضمن المجتمعات التي شهدت التمدن والحضارة الحديثة.

وصار الحديث الذي يتناول انهيار الأسرة الغربية حديثاً واقعياً كجزء من انهيار الكيان الاجتماعي العام، واختلف أصحاب الفكر في تعليل هذا الانهيار.

وهناك من يعزو انهيار الأسرة إلى مصادر متعددة:

منها الإباحية الجنسية التي بدأت خلال الستينيات من القرن العشرين، وإلى تساهل الوالدين، وتصاعد الحركة النسائية، والانتشار الصريح للمثلية الجنسية.

وقد نشأت فئة دنيا مستبعدة تضم رجالاً كثيرين هائمين على وجوههم، ونساء كثيرات عزباوات حائرات ممّا أفضى إلى ارتفاع مستوى الجريمة، علاوة على أنّها تعبير عن تفسّخ الأسرة مثلما هي نتيجة لذلك[٢].

في حين أنَّ الإسرة هي مصدر التماسك الاجتماعي ونواة المجتمع المثالي، فحين تنهار الأسرة ينهار المجتمع ويتهدّم، وهنا يبرز دور المرأة الحجر الأساس لهذه الخلية الاجتماعية الخطيرة، ولذلك كانت الشرائع السماوية تؤكد على صلاح هذه الخلية، وصلاح المرأة التي تبني هذه الأسرة وتعدّها، فلذلك عدّ النبيّ ﷺ المرأة الصالحة نعمة ينبغي أن يشكر الرجل الله جلّ وعلا عليها بعد نعمة

---

(١) ينظر أرقام تصنع العالم لمحمود المراغي: ٣٩و٤٢.

(٢) أنطوني جيدنز، بعيداً عن اليسار واليمين: ٦٥و٨٥.

الإسلام والإيمان فيقول النبي ﷺ: **ما استفاد امرؤ مسلم فائدة بعد الإسلام أفضل من زوجة مسلمة تسرّه إذا نظر إليها، وتطيعه إذا أمرها وتحفظه إذا غاب عنها**[1].

ومع هذا وذاك فإنَّ الأُسرة خلية تتظافر في بنائها أيدي أفرادها ومؤسسيها، والمرأة العنصر الأوّل فيها.

وتُعدّ الأسرة في الرؤية الإسلامية وحدة أساسية من وحدات المعمار الكوني، وبناءً أساسياً من أبنية المجتمع الإسلامي يتضافر مع الأبنية الأخرى في تحقيق مقاصد الاستخلاف.

وإذا كانت الرابطة الإيمانية هي التي تجمع المرأة والرجل على مستوى الأمّة في إطار الاستخلاف، فإنّ الأسرة تمثّل الوحدة الأساسية التي تجمعها على مستوى الجماعة، سواء في إطار علاقات القرابة أو الزواج، وتحكمها قيم التراحم والمودّة والسكن، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[2] وقال أيضاً: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

ويرتبط تأسيس الأسرة بفطرة الله التي فطر الناس عليها من نزوع كلّ من الجنسين للآخر، وهو ما يجعلها إحدى السنن الاجتماعية، ومهمّة التشريع هي المحافظة على المودّة والرحمة والسكن، والتي هي صفات من صميم خلقة الإنسان وفطرته التي فطره الله عليها، والتي لا تتبدّل، فمهمة التشريع لا

---

(١) فروع الكافي٥: ٣٢٧ح١ باب من وفّق لزوجة صالحة.

(٢) الأعراف: ١٨٩.

(٣) الروم: ٢١.

تنفصل عن التكوين بل مهمته حفظه من الضياع أو الانحراف.

الأسرة في الرؤية الإسلامية إذاً فطرة وسُنّة اجتماعية يؤدّي الإعراض عن الالتزام بأحكامها الشرعية وآدابها إلى انفراط عقد المجتمع وانهياره، فهي مؤسسة طبيعية تراحمية تحكمها قيم العفو والفضل والتقوى، وليست مؤسسة اصطناعية نشأت مع تطور الرأسمالية لتحقيق تراكم الثروة من خلال نظام الإرث كما يذهب الماركسيون، ولا هي ذات طبيعةٍ صراعية تنافسية تخضع لعلاقات توازن القوى كما يذهب التحليل الاجتماعي الليبرالي.

ويمثل مفهوم التوحيد دعامة أساسية في فلسفة الأسرة في الرؤية الإسلامية، إذ إن التشريع الإسلامي لا ينظم فقط العلاقة بين الرجل والمرأة داخل الأسرة، بل يجعل الصلة بينهما صلة توحد وتكامل، مؤكّداً على انسجام هذه الصلة مع الفطرة السوية، آخذاً موقفاً من الصراع بين الجنسين، ومحرّماً لأيّ شكل من أشكال الاستغناء عن الطرف الآخر ومشدّداً على النهي عن الزنا والشذوذ[1].

ومن هذا الأساس كانت الأحاديث التي جاءت عن النبيّ ﷺ وأهل بيته المعصومين مؤكّدة على ضرورة التزوّج وكراهة العزوبة والاستغناء عن الطرف الآخر.

ومن ذلك قوله ﷺ: **المتزوّج النائم أفضل عند الله من الصائم القائم العزب.**

وقوله ﷺ: **من أحبّ أن يلقى الله طاهراً مطهّراً فليلقه بزوجة**، وقوله ﷺ: **شرار أُمّتي عزّا بها**[2].

---

(١) ينظر هبة رؤوف عزت، المرأة والعمل السياسي: ١٨٧.

(٢) بحار الأنوار١٠٣: ٢٢٢.

وقوله ﷺ: **من تزوّج فقد أحرز نصف دينه فليتّق الله في النصف الباقي.**

وقوله ﷺ: **من أحبّ فطرتي فليستن بسنّتي ومن سنّتي النكاح.**

وقوله ﷺ: **ما يمنع المؤمن أن يتّخذ أهلاً لعلّ الله أن يرزقه نسمة تثقل الأرض بلا إله إلّا الله**[1].

وجعل النبيّ ﷺ الإيمان والصلاح هو المعيار الذي ينبغي أن يؤخذ به في إنشاء الإسرة وتكوينها، ونلحظ ذلك في حوارات النبيّ ﷺ في قصة تزويج جويبر من الذلفاء، وكان جويبر رجلاً قصيراً دميماً محتاجاً عارياً، وكان من قباح السودان فضمّه رسول الله ﷺ لحال غربته وعُراه، وكان يُجري عليه طعامه، فقال له يوماً: لو تزوّجت امرأة فعففت بها فرجك وأعانتك على دنياك وآخرتك، فقال له جويبر: يا رسول الله بأبي أنت وأمّي من يرغب فيّ؟ فو الله ما من حسب ولا نسب ولا مال ولا جمال فأيّة امرأة ترغب فيّ! فقال ﷺ: **يا جويبر، إنّ الله قد وضع بالإسلام من كان في الجاهلية شريفاً وشرّف بالإسلام من كان في الجاهلية وضيعاً وأعزّ بالإسلام من كان في الجاهلية ذليلاً، وأذهب بالإسلام ما كان من نخوة الجاهلية وتفاخرها بعشائرها وباسق أنسابها، فالناس كلّهم أبيضهم وأسودهم وقرشيّهم وعربيّهم وعجميهم من آدم، وإنّ آدم خلقه الله من طين، وإنّ أحبّهم إلى الله عزّ وجلّ يوم القيامة أطوعهم له وأتقاهم.**

وما أعلم يا جويبر لأحدٍ من المسلمين عليك اليوم فضلاً إلّا لمن كان أتقى منك وأطوع، ثمّ قال له: انطلق يا جويبر إلى زياد بن لبيد فإنّه من أشرف بني بياضة حسباً فيهم، فقل له: إنّي رسول رسول الله إليك وهو يقول لك: زوّج جويبر ابنتك الذلفاء، فانطلق جويبر فأدى الرسالة، فانطلق زياد إلى رسول الله

---

(١) مكارم الأخلاق: ١٩٦.

ﷺ وقال: يارسول الله، نحن لا نزوّج إلّا أكفاءنا من الأنصار، فقل له رسول الله ﷺ: **يا زياد جويبر مؤمن، والمؤمن كفؤٌ للمؤمنة والمسلم كفؤٌ للمسلمة فزوّجه يا زياد ولا ترغب عنه**، فزوّجه زياد على سنّة الله وسنّة رسوله وضمن صداقها، ثمّ جهّزها وهيّأها[1].

وجعل النبيّ ﷺ للمرأة المتفاهمة مع زوجها والمتأدبة بآداب الدين درجة الشهيد والعامل الداعي إلى الله تعالى، ويظهر هذا من رواية الحسن بن الفضل الطبرسي حيث يقول: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إنَّ لي زوجة إذا دخلتُ تلقّتني وإذا خرجت شيّعتني، وإذا رأتني مهموماً قالت: ما يهمك إنْ كنت تهتمّ لرزقك فقد تكفّل به غيرك، وإنْ كنت تهتمّ بأمر آخرتك فزادك الله همّاً، فقال رسول الله ﷺ: **بشّرها بالجنّة وقل لها: إنّك عاملة من عمّال الله ولك في كلّ يوم أجر سبعين شهيداً**[2].

وكان معيار التقوى شاملاً لجنس المرأة والرجل، تقول الرواية: نزل قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى**﴾[3]، في ثابت بن قيس حين قال للرجل الذي لم يتفسّح له: ابنَ فلانة، فقال النبيّ ﷺ: **من الذاكر فلانة؟** فقام ثابت فقال: أنا يا رسول الله، فقال: **انظر في وجوه القوم**، فنظر إليهم فقال: **ما رأيت يا ثابت؟** فقال: رأيت أسود وأبيض وأحمر، فقال ﷺ: **فإنّك لا تفضلهم إلّا بالتقوى والدين**، فنزلت هذه الآية[4].

ويعتقد بعض الباحثين بأن المرأة تمتعت بمكانة مهمة لدى العرب قبل الإسلام، حيث كانت تؤدّي مهاماً عديدة، سواء في الأعمال المنزلية أو الاهتمام

---

(١) بحار الأنوار٢٢: ١١٧، فروع الكافي٥: ٣٤٠.

(٢) مكارم الأخلاق: ٢٠٠.

(٣) الحجرات: ١٣.

(٤) بحار الأنوار٢٢: ٥٤.

بالماشية، وكان من العار على الرجل إهانة زوجته، ومارست بعض النساء التجارة واستثمار الأموال، وخير دليل على ذلك السيّدة خديجة بنت خويلد، في حين تقلّدت نساء أُخريات مراكز بارزة في المجتمع وصلت إلى حدّ تولّي الحكم مثل زنوبيا ملكة تدمر وبلقيس ملكة اليمن، وظهرت شاعرات بارزات مثل الخنساء، ومع ذلك سادت بعض الأعراف السيّئة مثل وأد البنات، أي دفنهنّ وهنّ أحياء خوفاً من الفقر أو العار[١].

في حين أنَّ المرأة لدى الغرب الأوربي لم تحظ في تاريخها البعيد بهذه المنزلة، وإنْ كان المظهر الجديد الذي عرفت به المرأة الغربية يبدو غريباً ومثيراً للانتباه، إلّا أنَّ هذا الوضع هو وضع طارئ وبدون تاريخ.

فالإعلان الشهير لحقوق الإنسان والمواطن الذي أصدرته الثورة الفرنسية لم يطبق على حقّ المرأة في التصويت إلّا عام ١٩٤٥، فقد أمر بذلك شارل ديغول بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة، وهذا يعني أنّه لزم مرور ١٥٠ سنة لكي تطبّق مبادئ الثورة الفرنسية على المرأة[٢].

ولا يعني انفلات المرأة من مسئولية الأسرة والتزام الضوابط الدينية والأخلاقية نصراً محرزاً لها.

ولا ننسى ويفوت عن بالنا عند انبثاق المجتمع المدني في المدينة المنوّرة أنَّ النبيّ ﷺ وضع لائحة حقوق الإنسان وحقوق المرأة في برنامجه السياسي والاجتماعي، وقد كانت الوصايا الأخيرة للنبيّ هي مراعاة حقوق المرأة، ومن ذلك ما روي في خطبته ﷺ أنّه قال: يا أيّها الناس، إنَّ النساء عندكم عوانٍ[٣]، لا

---

(١) تاريخ الحضارة العربية الإسلامية للتليسي: ٤٣.

(٢) أركون، قضايا في نقد العقل الديني: ١٨١.

(٣) قال أبو الهيثم: العاني الخاضع، والعاني: العبد، والعاني: السائل من ماء أو دم. اللسان «عنا».

يملكن لأنفسهنّ ضرّاً ولا نفعاً، أخذتموهنّ بأمانة الله واستحللتم فروجهنّ بكلمات الله، فلكم عليهنّ حقّ، ولهنّ عليكم حقّ، ومن حقكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم، ولا يعصينكم في معروف، فإذا فعلن ذلك فلهنّ رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف ولا تضربوهنّ[1].

وقد جعل النبيّ ﷺ المرأة أسيراً في يد الرجل يستوصي بها، أو عبداً مملوكاً يعاني من الرقّ والعبودية يطلب لها العتق والحرية، وهذا عطف ونظر منه ﷺ لأحوال المرأة التي كانت عليها آنذاك.

ونحو هذا الخبر روى سليمان بن عمرو بن الأحوص قال: حدّثني أبي أنّه شهد حجّة الوداع مع رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ ثمّ قال: **استوصوا بالنساء خيراً فإنّهنّ عندكم عوان، ليس تملكون منهنّ شيئاً غير ذلك، إلّا أن يأتين بفاحشة مبيّنة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهنّ ضرباً غير مُبرِّح، فإنْ أطعنكم فلا تبغوا عليهنّ سبيلاً، إنّ لكم من نسائكم حقّاً ولنسائكم عليكم حقّاً، فأمّا حقّكم على نسائكم، فلا يوطئنَ فُرشكم من تكرهون ولا يأذنّ في بيوتكم لمن تكرهون ألا وحقهنّ عليكم أن تُحسنوا إليهنّ في كسوتهنّ وطعامهنّ**[2].

وكان ﷺ يقول: **إنّي أُحرِّج حقّ الضعيفين اليتيم والمرأة**[3].

وكان النبيّ ﷺ إذا بشّر بجارية قال: **ريحانة ورزقها على الله عزّ وجلّ**.

وجاء في خبر أنّه ﷺ بشّر بابنة له فنظر في وجوه الصحابة فرأى

---

(١) الخصال للصدوق: ٤٨٧، البحار١٠٣: ٢٤٥.

(٢) سنن ابن ماجة ١: ٥٩٤ح١٨٥١ كتاب النكاح.

(٣) مسند أحمد٢: ٤٣٩.

الكراهة فيهم، فقال ﷺ: **ما بالكم! ريحانة أشمّها ورزقها على الله**[١].

وفي فضل الإناث قال ﷺ: **نعم الولد البنات مُلطفات مُجهدات مُؤنسات، مُفليات**[٢]**مباركات**[٣].

ولـه ﷺ قول آخر في فضلهنّ: **البنات حسنات والبنون نعمة، والحسنات يُثاب عليها والنعمة يُسأل عنها**[٤].

وجعل النبيّ ﷺ للبنت رتبة متقدّمة حتّى عند توزيع الهدايا فيقول ﷺ: **من دخل السوق فاشترى تحفة فحملها إلى عياله كان كحامل صدقة إلى قوم محاويج، وليبدأ بالإناث قبل الذكور، فإنّ من فرّح ابنة فكأنّما أعتق رقبة من ولد إسماعيل**[٥].

ومن المناسب لهذا الفصل أنْ نقول: عرفت الحضارة الإسلامية شأن الحضارات الأخرى تطبيقات العلوم النظرية وظهر ذلك في الهندسة والصناعات والصيدلة والطب، وقد سجل التاريخ العلمي بعض هذه الإنجازات العلمية، ومن ذلك ما عرف في تاريخ المسلمين من المستشفى المحمول، وهذا النوع من المستشفيات عرفه المسلمون منذ زمن الرسول محمد ﷺ، وهو يشبه مستشفيات الميدان في الجيوش الحديثة، وهذا النوع هو الذي ينتقل من مكان إلى مكان بحسب ظروف الأمراض والأوبئة عدا أيّام الحروب، وهو يشبه المستوصفات السيّارة في وقتنا الحاضر.

---

(١) بحار الأنوار ١٠٤: ٩٧و١٠٤.

(٢) مفليات: من فَلْي الشعر وأخذ القمل منه. اللسان «فلا».

(٣) بحار الأنوار١٠٤: ٩٨.

(٤) بحار الأنوار١٠٤: ١٠٤.

(٥) بحار الأنوار١٠٤: ٦٩و٩٤.

وأوّل ما عرف في الإسلام من المستشفيات كان في خيمة رفيدة، وهي إمرأة كانت تداوي الجرحى.. وكان ذلك في زمن رسول الله ﷺ حيث قال لقوم حين أصاب سعد بن معاذ السهم في غزوة الخندق: **اجعلوه في خيمة رفيدة حتّى أعوده من قريب.**

ولما تتابعت الفتوح كان لكلّ جيش مضارب ممرضات من النساء لمداواة الجرحى، وكان هذا هو جهادهن[١].

ونقل من كتاب اليواقيت لأبي عمر الزاهد عن ليلى الغفارية قالت: كنت امرأة أخرج مع رسول الله ﷺ أداوي الجرحى[٢].

وفي هذا جاءت رواية الكليني بأنَّ النبيّ ﷺ خرج بالنساء في الحرب حتّى يداوين الجرحى ونفلهنّ من غنائم الحرب[٣].

وقد أسند ﷺ لهنّ دوراً اجتماعياً مهماً كما نلمس ذلك وهذا تكريم للمرأة إذا ما أخذ بنظر الاعتبار المرحلة الزمنية التي عاشتها المرأة في مجتمع جاهلي تُساق به المرأة كسبية في الحرب من غير أن يكون لها أيّ دور سلبي أو إيجابي، في حين أنَّ النبيّ ﷺ أكرمها بالمشاركة الإيجابية الحضارية، وهذه المشاركة تجلّت في ممارسة الطبابة وتقديم خدمات علاجية للجيش مع مراعاة منحهنّ بعض الحقوق المادية التي تُعتبر مرحلة متقدمة في وقتها، فاستخدام العنصر النسائي ضمن تشكيلات الجيش عمل حضاري سجلته صحائف التاريخ.

وبلغ احترام مشاعر المرأة لدى النبيّ ﷺ درجة تفوق حدّ التصوّر، فحين

---

(١) هادي العبوسي، المستشفيات في بغداد دراسات في الطبّ العربي: ١٥٤ ط بغداد وزارة التعليم العالي.

(٢) بحار الأنوار٣٨: ٢٣٩.

(٣) فروع الكافي٥: ٤٥ح٨.

شكته ﷺ امرأة عن قصور زوجها وعجزه في أداء دوره الوظيفي لم يجابهها النبيّ ﷺ بسؤال أو استفسار عن دوافع هذا البغض والرفض لدور الزوج في البيت، بل وظّف النبيّ ﷺ لها أسلوب الدعاء نزولاً عند مشاعرها، تقول رواية القطب الراوندي أنّ النبيّ ﷺ خرج فعرضت له امرأة فقالت: يا رسول الله أنّي امرأة مسلمة ومعي زوج في البيت مثل المرأة، قال ﷺ: فادعي زوجك، فدعته فقال لها: **أتُبغضينه؟** قالت: نعم، فدعا النبيّ ﷺ لهما ووضع جبهتها على جبهته وقال: **اللهم ألّف بينهما وحبّب أحدهما إلى صاحبه**، ثم كانت المرأة تقول بعد ذلك: ما طارف ولا تالد ولا والد أحبُّ إليّ منه[1].

واحترام المرأة وكيانها الاجتماعي يتجلّى واضحاً في حديث الإفك الذي رميت به عائشه، وهي كامرأة وزوجة كإنسان له حقّه الطبيعي في قضيّة اجتماعية خطيرة واجهته، فما كان من النبيّ إلّا أن خاطبها بلغة واعية هادئة يعكس فلسفة النبيّ ﷺ ورؤيته للمرأة حين توضع في دائرة الاتهام، تقول الرواية: التفت إليها ﷺ قائلاً: **يا عائشة أنّه بلغني عنك كذا وكذا، فإنْ كنتِ بريئة فسيبرئك الله، وإنْ كنتِ ألممتِ بذنبٍ فاستغفري الله وتوبي إليه، فإنّ العبد إذا اعترف ثمّ تاب تاب الله عليه**، قالت عائشة: فلمّا قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتّى ما أُحسّ منه قطرة[2].

وكان من تبجيل المرأة واحترام دورها في الحياة أن جعل ﷺ للرجل نصيباً من الثواب لمجرد أن يقوم بدور ثانوي لإعانتها في منزلها وبيت أسرتها.

تقول رواية عليّ عليه السلام أنّه دخل علينا رسول الله ﷺ وفاطمة جالسة عند القدور وأنا أُنقّي العدس، فقال: **يا أبا الحسن**، قلت: لبّيك يا رسول الله، فقال:

---

(١) الخرائج والجرائح١: ٥١ح٧٨.

(٢) صحيح البخاري ج ٥: ١٥٢.

اسمع منّي وما أقول إلّا من أمر ربّي، ما من رجل يعين امرأته في بيتها إلّا كان له بكلّ شعرة على بدنه عبادة سنة صيام نهارها وقيام ليلها، وأعطاه الله من الثواب مثل ما أعطاه الصابرين داود النبيّ ويعقوب وعيسى عليهم السلام، يا عليّ من كان في خدمة العيال في البيت ولم يأنف كتب الله اسمه في ديوان الشهداء، وكتب له بكلّ يوم وليلة ثواب ألف شهيد وكتب له بكلّ قدم ثواب حجّة وعمرة، وأعطاه الله بكلّ عرق في جسده مدينة في الجنّة، يا عليّ ساعة في خدمة البيت خير من عبادة ألف سنة وألف حجّة، وألف عمرة، وخير من عتق ألف رقبة، وألف غزوة، وألف مريض عاده، وألف جمعة، وألف جنازة، وألف جايع يشبعهم، وألف عار يكسوهم، وألف فرس يوجهه في سبيل الله، وخيرٌ له من ألف دينار يتصدّق بها على المساكين، وخيرٌ له من أن يقرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، ومن ألف أسير أسر فأعتقهم، وخير له من ألف بدنة يُعطي للمساكين، ولا يخرج من الدنيا حتّى يرى مكانه من الجنّة، يا عليّ من لم يأنف من خدمة العيال فهو كفّارة للكبايز، ويطفيء غضب الربّ، ومهور الحور العين، وتزيد في الحسنات والدرجات، يا عليّ لا يخدم العيال إلّا صدّيق أو شهيد أو رجل يريد الله به خير الدنيا والآخرة[1].

ومع هذا التكريم واللطف الذي حظيت به المرأة من قبل النبيّ ﷺ فقد جعل لزوجها عليها حقّاً بيّنه ﷺ لمّا جاءت امرأة إليه ﷺ فقالت: يا رسول الله، ما حقّ الزوج على المرأة؟ قال ﷺ: تطيعه ولا تعصيه ولا تتصدق من بيته بشيء إلّا بإذنه، ولا تصوم تطوّعاً إلّا بإذنه، ولا تمنعه نفسها، وإنْ كانت على ظهر قتب، ولا تخرج من بيته إلّا بإذنه، فإن خرجت بغير إذنه لعنتها ملائكة السماء وملائكة الأرض وملائكة الغضب وملائكة الرحمة حتّى ترجع إلى

---

(١) بحار الأنوار١٠٤: ١٣٢.

بيتها[١] وقال ﷺ: **لا تؤدّي المرأة حقّ الله عزّ وجل حتّى تؤدّي حقّ زوجها**[٢].

وقال ﷺ: **لو أنّ جميع ما في الأرض من ذهب وفضّة حملته المرأة إلى بيت زوجها ثمّ ضربت على رأس زوجها يوماً من الأيّام تقول: من أنت؟ إنّما المال مالي، حبط عملها، ولو كانت من أعبد الناس، إلّا أن تتوب وترجع وتعتذر إلى زوجها.**

وقال عليّ عليه السلام: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **أيما امرأة هجرت زوجها وهي ظالمة حشرت يوم القيامة مع فرعون وهامان وقارون في الدرك الأسفل من النار إلّا أن تتوب وترجع**[٣].

وقد وضع النبيّ ﷺ لائحة حقوق لكلّ من الرجل والمرأة في محاورته مع خولة الصحابية حين قالت له ﷺ: إنّي أتعطّر لزوجي كأنّي عروس أزفّ إليه، فآتيه في لحافه فيولّي عنّي، ثم آتيه من قبل وجهه فيولّى عنّي، فأراه قد أبغضني يا رسول الله، فماذا تأمرني؟ قال: **اتقي الله وأطيعي زوجك**، قالت: فما حقّي عليه؟ قال: **حقّك عليه أن يطعمك ممّا يأكل ويكسوك ممّا يلبس ولا يلطم ولا يصيح في وجهك**، قالت: فما حقّه عليّ؟ قال: **حقّه عليك أن لا تخرجي من بيته إلّا بإذنه، ولا تصومي تطوّعاً إلّا بإذنه، ولا تتصدقي من بيته إلّا بإذنه، وإن دعاك على ظهر قتب تجيبيه**[٤].

---

(١) بحار الأنوار١٠٣: ٢٤٨.

(٢) مكارم الأخلاق: ٢١٥.

(٣) مكارم الأخلاق: ٢٠٢.

(٤) مكارم الأخلاق: ٢١٨.

النبيّ ومفهوم الأمة والوطن

انبثقت مع بعثة النبيّ ﷺ واستتباب الدعوة الإسلامية مجموعة من المفاهيم والقيم صارت معبّرة وملازمة لهذه النهضة الحضارية، ولذا حين يُشار لهذه المفاهيم تعني هذه الإشارة التعبير عن ثقافة وحضارة خاصّة بها تعبّر عن معالمها وطابعها الخاصّ بها وسقفها الزمني، والحضارة الإسلامية لها مصطلحاتها ومفرداتها التي تعبّر بالضرورة عن خصائصها ولونها المميّز الذي يعبّر بوضوح عنها، ونلحظ عدداً من المفاهيم الحضارية يستنبطها الباحث من نصوص الكتاب والسنّة، ومن هذه المفاهيم التي أفرزتها هذه الحضارة مفهوم الأمّة، وقد شخّصت النصوص القرآنية مفهوم الأمّة كمصطلح قانوني واجتماعي وسياسي موغل في القدم، وقد أشارت هذه الآية: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[1]، إلى هذه الحقيقة، فجاء مضطلح الأُمّة المسلمة امتداداً لمفهوم الأمّة في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[2].

والظاهر أنَّ هذا المفهوم يحمل بعداً عقائدياً وحضارياً فيقول الشيخ الطبرسي: بأنّ مفهوم الأمّة المسلمة هو الجماعة الموحّدة، والمراد بها أمّة نبيّنا محمد ﷺ بدلالة قوله تعالى: ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾[3].

والأمّة في المفهوم الإسلامي: مجتمع يشترك أفراده في العقيدة ومفاهيم الحياة، وفي القيم الخلقية والمثل الإنسانية، وما يتبع ذلك أو ينبثق عنه من نظم وعادات، أو شعائر وعبادات، سواء أكانت هذه الأمّة قبيلة، حين كان التطوّر

---

(١) البقرة: ٢١٣.

(٢) البقرة: ١٢٨.

(٣) البقرة: ١٢٩. مجمع البيان١: ٢١٠.

البشري يمرّ بمرحلة القبيلة، أم كانت الأمّة قوماً حين كانت البشرية تمرّ بمرحلة تكوّن القوميات، أم كانت مجموعة شعوب تجاوزت المرحلتين القبلية والقومية في اتجاه التجمع الإنساني، وهي المرحلة الأحدث والأرقى والأعلى[١].

وقد تتداخل المفاهيم السياسية والقانونية نظراً لتطوّر حياة الإنسان، واختلاف رؤية الباحثين وسقفهم الزمني الذي يولد في فضائه هذا المصطلح أو ذاك، ومن هذه المصطلحات المتداخلة مصطلح الأمّة والشعب، وقد تداخل وانسجم مفهوم الأمة مع مفاهيم الدين الإسلامي، فالدين الإسلامي هو الذي أفرز هذا المفهوم وبلوره.

فالدين هو بالماهية قيمة من طبيعة سياسية، لا بل هو القيمة الحقيقية الوحيدة لهذه الطبيعة السياسية، القيمة الوحيدة التي تهب المدينة-الدوله معنى وجودها، والمؤمنون وهم مواطنون من حيث الواقع في دولة فوق قومية، يندمجون في الجماعة في الأمّة.

وكلمة الأمّة أساسية في القرآن، فهي تعني جماعة من الناس يرسل الله لهم نبيّاً، وعلى الأخصّ أولئك الذين يصدّقونه بعد أن سمعوا نبوءته، ويعاهدون الله بوساطته[٢].

ويفرّق الفقه الدستوري الحديث بين الشعب والأمّة، على أساس أنّ الرابطة التي تجمع بين أفراد الأمّة رابطة طبيعية معنوية، لا يترتّب عليها أي أثر قانوني، إذ تستند هذه الرابطة إلى عوامل معيّنه تشمل اللغة والدين والتاريخ المشترك والمصالح الاقتصادية والإقليم وما يتفرّع عنها من عوامل كوحدة المشاعر والآلام والثقافة المشتركة والبيئة المتجانسة، والعادات والتقاليد

---

(١) فصل الدين عن الدولة: ١٩٨.

(٢) جان توشار، تاريخ الأفكار السياسية١: ١٩١.

الواحدة.

وأمّا الرابطة التي تربط أفراد الشعب بالدولة فهي رابطة سياسية قانونية، تفرض عليهم الولاء للدولة، والخضوع لقوانينها، وتلقي على عاتق الدولة -في المقابل- مسئولية حماية أرواحهم وأموالهم وكافّة حقوقهم التي يقرّها لهم القانون.

وقد تحدّد مفهوم الشعب في الدولة الإسلامية على أساس الدين، حيث كان المسلمون المقيمون في دار الإسلام، أي فوق إقليم الدولة الإسلامية، هم الذين يكوّنون شعبها، ونظراً لأنَّ رابطة الجنسية لم تكن معروفة عند ظهور الإسلام، فقد ربط الإسلام بين المسلمين برابطة جديدة هي رابطة الأخوة الإسلامية التي تكتسب بواسطة الإشتراك في العقيدة الإسلامية[1].

وقد توسّع مفهوم الأمّة في العهد النبوي، ليشمل مفهوم الأمّة العالمية التي ينضوي تحتها المسلمون أمّة القرآن أمّة الإسلام أمّة محمد ﷺ.

وإذا كان هناك اتجاهان سادا الفكر القومي في البلدان العربية في العقود الأخيرة المنصرمة، وهما الاتجاه الإقليمي الجغرافي الذي ينسب الفكر والحسّ القومي إلى الانتساب الجغرافي لدائرة الوطن العربي، وقد كان هذا الاتجاه متداخلاً مع الحركات التحررية الإقليمية والوطنية التي كانت تشعر بانجذابها للتربة والإقليم، نتيجة ظروف الاحتلال الاستعماري الذي كانت تحته البلدان العربية موزّعة بين فرنسا وبريطانيا، فإنّ الاتجاه القومي اللغوي أو الثقافي الثاني الذي يعزي الأفكار والأحاسيس القومية إلى اللغة العربية التي تجمع مشاعر البلدان العربية في لغتهم وأدبهم العربي الذي يشدهم إلى الصحراء العربية وقصائد امرؤ القيس والمتنبي كان له حضور قويّ في مشاعر الشباب.

---

(١) ينظر نظرية الدولة في الإسلام: ٢٦.

وكان هذان الاتجاهان القوميان يتداولان مفهوم الأمّة قاصدين به المفهوم الذي يجمع الناطقين بالعربية والمنتسبين إلى جغرافية الوطن العربي الكبير، ولم يتصادم هذان الاتجاهان مع المفهوم الإسلامي للامّة، وإنّما كانا يضيّقان مفهوم الأمّة لتقف عند حدود اللغة العربية وتضاريس أرض العرب، والظاهر أنَّ هذه الاتجاهات القومية التي استهوت عدداً من الشباب الناهض لم تنس العمق الإسلامي والغطاء الديني الذي مجّد هذه الأمّة وأعطاها هذا الزخم والقوّة في الحسابات الدولية والسياسية، لذا لم تتصادم مع علماء الدين والقوى الإسلامية التي كانت ترفع شعارات ذات مدى وبعد أوسع.

ولم يعرف المسلمون عند تشكيل دولتهم مفهوم الشعب أو المواطن أو السكّان كما يُطلق في عصورنا الحاضرة، وإنّما عرف مفهوم ومصطلح الأمّة أو المسلمين أو المؤمنين.

وقد كان المسلمون المقيمون في دار الإسلام آنذاك يُعرّفون بهذا الاسم أو اسم المؤمنين، وقد كانت الرابطة الدينية-وهي إعلان الشهادتين-وهي الرابطة القومية التي يشترك بها جموع الدولة الإسلامية فيترتب عليها أنماط من الروابط الاجتماعية والسياسية، ولا يمنع اللون والجنس والقومية بمعناها العرقي من منحهم حقّ المواطنة والانتساب إلى الدولة الإسلامية القائمة آنذاك، وعليه فمفهوم الأمّة الإسلامية الذي جاء متأخّراً في التسمية كان يعني شعب الدولة الإسلامية، والمسلمون هم يتحمّلون مسئوليات التكاليف العامة، كالدفاع العسكري والسياسي، أمّا المشرك فليس له موضع في الدولة الإسلامية، واعتبر غير المسلم من أهل الكتاب بمثابة الأجنبي المقيم داخل الإقليم الإسلامي ونظم وجوده داخل الدولة بعقد اجتماعي هو عقد الذمّة.

ولم يظهر لدى المسلمين في عصور الدولة الإسلامية كافة مفهوم الإقليم أو الوطن أو القطر أو الدولة بهذا المعنى المتداول في الفقه السياسي الحديث

كتعبير يُراد توفره كركن أساسي من أركان الدولة الحديثة لغرض قيامها.

بالنظر إلى النطاق الأرضي أو الترابي، مع الحيّز المائي والمجال الهوائي الذي يشكل الفضاء الذي تُمارس عليه الدولة سيادتها وتطبّق القوانين الصادرة من أجهزتها الدستورية والقضائية، فقد كانت شخصية الحاكم أو الملك أو الإمبراطور هو الذي يمارس وجوده السياسي والقانوني في التاريخ السياسي القديم.

فالإقليم الأرضي والجوي والبحري مفهوم برز حديثاً، والمشاهد في لغة الفقه السياسي الإسلامي هو مصطلح دار الإسلام الذي عنى آنذاك مفهوم الإقليم أو القطر، فهذا المفهوم حين يُطلق يعني النطاق الأرضي الذي تسود فيه أحكام الإسلام.

ولم تكن الحدود السياسية والدولية المتعارف عليها في العصر الحديث واضحة المعالم بالنسبة للمسلمين وغير المسلمين.

وقد تداولت نصوص التراث العربي والإسلامي مفهوم الوطن بمعنى المنزل الذي يقيم به الإنسان ومحلّه؛ قال ابن منظور: الوطن: المنزل تُقيم به، وهو موطن الإنسان ومحلّه، وقد خفّفه رؤبة في قوله:

أَوْ طَنْتُ وَطْناً ولم يكن من وَطَني

لو لم تكن عاملها لم أسكن

بها ولم أَرْجُنْ بها في الرُّجَّن

والجمع أوطان، وأوطان الغنم والبقر :مرابضها وأماكنها التي تأوي إليها، قال الأخطل:

كُرُّوا إلى حرَّتيكُم تَعْمُرونهما

كما تَكُرُّ إلى أوطانها البَقَرُ

ومواطن مكّة: مواقفها، وهو من ذلك، وَطَن بالمكان أَوْطَنَ: أقام، الأخيرة أعلى، وأوطنه: اتّخذه وطناً، يقال: أَوْطَن فلانٌ أرض كذا وكذا، أي اتّخذها محلاً ومَسْكنا يُقيم فيها[١].

وقد ورد في الكتاب العزيز لفظ الموطن في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾[٢] والمراد به مشاهد الحرب التي يشهدها الإنسان[٣] وجاء في الحديث الموطن بمعنى الموضع، كما في حديث أبي عبد الله الصادق عليه السلام: تتمّ الصلاة في أربعة مواطن: في المسجد الحرام، ومسجد الرسول، ومسجد الكوفة، وحرم الحسين عليه السلام[٤].

ومن هذا جاء الخبر: كان النبيّ ﷺ إذا أراد أن يشهر عليّاً في موطن أو مشهد علا على راحلته وأمر الناس أن ينخفضوا دونه[٥].

وقد اتّخذ لفظ الوطن بعداً سياسياً وقانونياً جديداً حيث تعرّفه كتب التعجيم المصطلحي بالإقليم الذي تسكنه أمّة يشعر الفرد بانتمائه إليها[٦].

ويتشكل مفهوم الوطن من عنصرين أساسيين هما الأرض والإنسان، والأرض هي منبع ذكريات ومصدر تراث، بالإضافة إلى كونها الأساس المادّي لحياة الشعب ولتكوين وحدته، والإنسان هو العنصر الثاني الذي يتفاعل مع

---

(١) لسان العرب «وطن»، مجمع البحرين «وطن».

(٢) التوبة: ٢٥.

(٣) تنوير المقباس من تفسير ابن عبّاس: ١٥٦.

(٤) كامل الزيارات لابن قولويه: ٢٤٩.

(٥) مناقب ابن شهر اشوب٢: ٢١٨.

(٦) ينظر معجم المصطلحات القانونية للدكتور عبد الواحد كرم: ٥١٤.

العنصر الأوّل[١].

ويُعبّر عن مفهوم الوطن باعتبار الأرض التي ينمو فوقهاالشعب، ويتطوّر عليها المجتمع في عملية تفاعل تاريخية طويلة، تسمح بتشوء الأمم، لهذا فالوطن مرتبط بالأمّة، وهو عنصر جوهري من عناصرها، ومرتبط بالشعب وهو بوتقته.

والوطن مرتبط بالتاريخ، وبالتالي لابدّ أن يكون مرتبطاً بالحاضر، ومن ثمّ بالمستقبل، وإذا كانت القومية هي التعبير عن شعور الأمّة تجاه ذاتها، ومن ثمّ سعيها من أجل التبلور والتكوّن والتوحّد فإنّ الوطنية هي التعبير عن شعور الأمّة تجاه الآخر: المحتلّ، المستعمر، وبالتالي سعيها من أجل الدفاع عن ذاتها[٢].

ومفهوم الوطن الإسلامي الذي يُطلق تجوزاً كان غير مفهوم الوطن الذي تعورف عليه في وقتنا الحاضر، فالوطن الإسلامي هو وطن الدين والإيمان، فالمواطن هو المؤمن أو المسلم، والرقعة المكانية غير كافية في منح هذه الجنسية وهوية الأحوال المدنية «إنّ وطن المؤمن هو العقيدة التي يؤمن بها، وإنّ أهل المؤمن وإخوانه هم أولئك الذين يعتنقون تلك العقيدة ويشاركونه سرّاءه وضرّاءه، إنّ عقيدة المؤمن أعزّ عليه من الأرض والأهل، وما الأرض؟ إنّه يستطيع ان يجدها في كلّ مكان يحلّ فيه، ولكنّه لا يستطيع أن يجد عوضاً عن عقيدته إذا فقدها، وما الأهل؟ إنّه سيجد في إخوانه المسلمين عوضاً عمّا فارق من الأهل، ولكن ما الذي يعوّضه عن عقيدته إذا هو تركها؟

من أجل هذا ضحّى المسلمون بالوطن والأهل والمال والولد فراراً

---

(١) ينظر موسوعة الثقافة السياسية الاجتماعية الاقتصادية العسكرية: ١٤٠٦.

(٢) ينظر سلامة كيله، العرب ومسألة الأمّة، مجلة الطريق العدد٢ سنة ١٩٨٩: ٤٧.

بدينهم وعقيدتهم»[١].

ولقد أصبحت الأمّة هي الإطار العام لسياسة الرسول ﷺ كما يفرضها الإيمان بالتوحيد وضرورات تحققه، وأصبحت الدعوة إلى التحرر الاجتماعي والثقافي والسياسي والاقتصادي تهدف أساساً إلى تجاوز ما يعيق تحقيق الوحدة، وتحديد سمات المجتمع المطلوب بناؤه.

وقد عبّر الرسول ﷺ عن هذه التوجهات بشعار مركزي شكّل نظرية العصر **«أيّها الناس قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتذلّ لكم العجم»**[٢].

إنّ ذكر الأمّة الإسلامية والتأكيد على وجودها في النصوص الإسلامية لا يعني إلغاء التجمعات البشرية الأخرى الموازية لها أو المعارضة، فالآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[٣] توحي بقبول الأمم والأديان والعقائد المختلفة قبولاً حضارياً ينسجم مع مقولات العولمة التي ينادي بها منظرو الفكر المعولم.

فالمسلمون أمّة واحدة من دون الناس، أي كتلة يرتبط أعضاؤها برابطة العقيدة الدينية.

فالتنظيم قائم على أُسس فكرية أخلاقية وعقائدية، وليس على أساس الدم أوعلى أُسس بيولوجية والأمّة قابلة للتوسّع والتقلّص تبعاً لعدد ينضمّ

---

(١) الدكتور محمد السيّد الوكيل، المدينة المنوّرة عاصمة الإسلام الأولى دار المجتمع للنشرو التوزيع، جدّة ط الثانية: ٩.

(٢) الدكتور نزار عبد اللطيف الحديثي، الأمّة والدولة في سياسة النبيّ والخلفاء الراشدين، بغداد١٩٨٧: ٥٩.

(٣) الحجرات/ ١٣.

إليها أو يتركها باختياره.

فبالإمكان أن تتسع عندما يزداد عدد من يؤمن بالعقائد التي تعتنقها، أو تتقلص بقدر من يترك من أفرادها تلك العقيدة.

ورابطة الأُمّة مفتوحة لمن يعتنق عقائدها، ويقبل روابطها بصرف النظر عن عرقه ودمه وثروته.

وما دامت تقوم على رابطة العقيدة، فإنّها تستند إلى مبادئ روحية وأخلاقية، فالسياسة في الإسلام ممتزجة بالعقيدة والأخلاق، ورابطة الأُمّة تسود على كافة الروابط.

والأمّة كتلة واحدها يميّزها تماسكها من غيرها من الكتل والجماعات[1].

إنَّ الأمّة في المفهوم الإسلامي: مجتمع يشترك أفراده في العقيدة ومفاهيم الحياة، وفي القيم الخُلقية والمثل الإنسانية، وما يتبع ذلك أو ينبثق عنه من نظم وعادات، أو شعائر وعبادات، سواء أكانت هذه الأُمّة قبيلة، حين كان التطور البشرى يمرّ بمرحلة القبلية، أم كانت الأمّة قوماً حين كانت البشرية تمرّ بمرحلة تكوّن القوميات، أم كانت مجموعة شعوب تجاوزت المرحلتين القبلية والقومية في اتجاه التجمع الإنساني، وهي المرحلة الأحدث والأرقى والأعلى[2].

---

(١) أحمد صالح العلي، دولة الرسول في المدينة ص١٠٩، شركة المطبوعات للتوزيع بيروت: ٢٠٠١.

(٢) اسماعيل الكيلاني، فصل الدين عن الدولة: ١٩٨.

الرقيق

عرف الرقّ كمظهر من مظاهر الحياة البشرية منذ أقدم العصور، وظلَّ قائماً معترفاً به اجتماعياً وقانونياً في كافة المجتمعات الإنسانية القديمة والوسيطة، بل والحديثة أيضاً[1]، ولا شكّ أنَّ الحرب كانت السبب الرئيس في قيام الرق في العصور القديمة، فقد كان القوي يلزم الضعيف بالعمل لمصلحته ولحسابه وكان المنتصر يسترق الأسرى لينتفع بهم في خدمته، وأخذ الرق يكتسب طابعه الاجتماعي المعروف كلمّا اشتدت الحروب واتسع نطاقها، وكثر نتيجة ذلك عدد الأسرى.

وهكذا نجد الاسترقاق في مصر القديمة ووادي الرافدين، وفي الهند حيث اعترفت به شريعة مانو، وكذلك في الصين وفارس وبلاد العبرانيين[2].

وعرفت المجتمعات القديمة للعبودية شكلين من هذه الصورة، أوّلهما: ظهورها كظاهرة اجتماعية كبقية الظواهر الاجتماعية التي تظهر في المجتمعات البشرية توجبها أوضاع الناس وتشريعاتهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى وجود هذه الظاهرة المبعثرة هنا وهناك في تاريخ الإنسان كما في قوله تعالى حاكياً عن يوسف عليه السلام: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[3] وكما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ

---

(١) الدكتور فيصل السامر، ثورة الزنج، مكتبة المنار بغداد: ١٣.

(٢) يقدّر عدد العبيد الذين جيء بهم من أفريقيا إلى أمريكا قبل عام ١٨٥٠م ب١٥ مليون إنسان- ما العولمة لبول هيرست جراهام ترجمة فالح عبد الجبار: ٤١.

(٣) يوسف/١٩.

﴿جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[١] فالعبودية هنا بمعنى تشريع جنائي.

وثانيهما: ظهورها كنظام اجتماعي وسياسي متكامل يشكل العبيد في هذا النظام طبقة اجتماعية واقتصادية ضمن بنية المجتمع كالنظام الذي مرّت به المجتمعات الزراعية والصناعية.

ولم تُعدم رباع الجزيرة العربية التي كانت ساحة الرسالة المحمدية من وجود فئة العبيد الذين امتلأ بهم تاريخ الأرض آنذاك، وهذه الظاهرة كانت مألوفة في تاريخ كلّ الأمم.

وقد علل الباحثون ظهور العبيد في المجتمع العربي آنذاك إلى:

١-الحروب والأسرى الذين يُصبحون أرقّاء.

٢-التجارة.

٣-العجز عن تسديد الديون الذي يؤدّي بالإنسان أحيانا إلى أن يتحوّل إلى عبد.

ويبدو أنَّ العرب كانوا يُبيحون استرقاق العربي للعربي فلم يحرّموا كالرومان استعباد الروماني للروماني.

ولقد تاجر أهل مكّة بالرقيق واستخدموا الرجال بعد ضرب أُجور يومية عليهم، وكذلك ضُربت على الإماء منهنَّ أُجور ترفيه[٢] ولذلك جاء قوله تعالى ناهياً ومشيراً لهذه الظاهرة: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٣]، وكذلك روي أنّه كان لعبد الله بن جدعان جوارٍ

---

(١) يوسف/ ٧٢-٧٥.

(٢) تطوّر الأوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة والراشدين: ٦٧.

(٣) النور: ٣٣.

يُساعين ويبيع أولادهن[١].

وكانت نسبة العبيد في اليمن أكثر من غيرها قياساً لشبه جزيرة العرب، وربّما يعود السبب في ذلك إلى أنَّ رقيق شرق أفريقيا كان يُؤتى به عن طريق اليمن بوساطة كبار تجّاره.

ومع هذا فقد بقيت العبودية ظاهرة مرافقة إذ لم تشكّل في المجتمع العربي الجاهلي نظاماً موحداً وشاملاً لمجموع قطاعات الحياة الاجتماعية، بل ظلّت ظاهرة مرتبطة بالعمل التجاري ومتغلغلة في المجتمع أكثر من ارتباطها بالأعمال الزراعية والعمرانية من سدود ومنشآت مختلفة، ولم تكن العبودية متأتية عن وجود طبقتي الأسياد والعبيد كما كان في روما وأثينا مثلاً[٢]، وعليه فظهور العبودية لها أصول تاريخية مرتبطة بوجود الإنسان، وقد تغيب طبقة العبيد وتظهر طبقاً لأحوال المجتمعات وأوضاعها.

وتتضح طبقة العبيد بين ثنايا المجتمع حين ينعم هذا المجتمع بالثروة والرخاء الاقتصادي، والعرب شأنهم شأن الأمم الأخرى تظهر لديهم هذه الطبقة عند حصول تراكم ثروة بين أفرادهم وجماعاتهم ممّا يفرز مجتمعاً تراتبياً تفاوتياً.

وبرز التفاوت في الثروة والانقسام الاجتماعي في حواضر الحجاز، فمكّة كانت مدينة تجارية تضمّ فئة التجار الذين كان منهم التاجر الكبير والتاجر الصغير وما يقع بينهما، وكانت تضم الغني والفقير المعدم إضافة إلى طبقة وسطى من الأحرار تقع بين الاثنين، كما وجدت فئة العبيد فيها وكانت تضرب عليهم أجور يومية.

---

(١) المعارف لابن قتيبة: ٥٧٦ ط دار الكتب القاهرة ١٩٦٠ بتحقيق ثروت عكاشة.

(٢) تطور الأوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة والراشدين: ٦٨.

كما وجد في الطائف القريبة من مكّة التجار والمزارعون والعبيد، فالمجتمع قبل الإسلام كان يُقاسي من اختلال مردّه التفاوت في الثروة واختلاف دور الغني عن الفقير من حيث القيمة والفاعلية... .

ومع أنَّ المجتمع كان يعاني من غياب العدالة الاجتماعية إلّا أنّه لم يصل إلى درجة تطوّر طبقي صريح استكملت فيه الطبقة مقوماتها.

إذ إنَّ القرابة وطبيعة الموقف النفسي للعربي في نظرته إلى الثروة وبالتالي حركية مصدر الثروة المتأتية عن الغزو أو التجارة، قد خفّفت ولطّفت من التشكّل الطبقي وأخّرت تطوّره[1].

(١) ينظر تطور الأوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة والراشدين: ٦٦.

النبيّ والتمييز العنصري

حفظت لنا ذاكرة التاريخ صور التمييز العنصري منذ زمن بعيد، فاللون الأسود اقترن بالعبودية والإذلال في التاريخ السحيق للإنسان، وكأنَّ هذا اللون صار طوقاً حديدياً يكبل عنق ويد الإنسان الزنجي، وفي تاريخ كلّ الشعوب والأمم تُسجل مشاهد قاتمة عن حالات من العبودية والاستغلال والامتهان التي مارسها الإنسان تجاه أخيه الإنسان، وقد سجلت العصور الإسلامية المتأخرة، العباسي والأموي على الأخص، هذه النظرة القاسية لطبقة العبيد حيث كانت النظرة السائدة للزنج نظرة الاحتقار، وقد عبّر الجاحظ عن نظرة معاصريه إليهم بقوله: وقد علمنا أنَّ الزنج أقصر الناس مدّة وروية، وأذهلهم عن معرفة العاقبة، فلو كان سخاؤهم إنّما هو لكلال حدّهم ونقص عقولهم وقلّة معرفتهم... ومن الأمثلة السائرة آنذاك: أنَّ العبد إذا جاع نام وإذا شبع زنى[1].

فقد كانت المرحلة التاريخية التي رافقت ظهور الإسلام ترتكز على عمل العبيد بأشكاله المختلفة، وكان الرقيق يشكلون فئة لها دورها في تيسير أسلوب معاش الناس، ومع هذا فإنَّ الإسلام قد عدّ الرقّ حالة مؤقتة وطارئة في حياة الإنسان لأنَّ الأصل في نظره هو الحريّة، ومن هنا وجدنا أنفسنا أمام عدّة إجراءات تخفّف من الرق وتسعى إلى تقليصه قدر الإمكان، فالإسلام قد ألزم من يقتل مؤمناً خطأً، ومن يحنث في يمينه، ومن ظاهر امرأته ثمَّ تراجع عن قراره عتق رقبة[2].

قال تعالى في هذا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا

---

(١) ينظر فيصل السامر، ثورة الزنج: ٢٦.

(٢) ينظر نجمان ياسين، تطور الأوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة والراشدين: ١١٤.

فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا[1].

ونظام الرقّ والعبودية هو نظام عرضي وطارئ في نظر الإسلام ولا ينبغي أن يتشكّل المجتمع بطبقة تُسمّى طبقة العبيد والإماء، فالإسلام يرى صورة العبودية منافية لإنسانية الإنسان، لذلك قال النبيّ ﷺ: **لا يقولنّ أحدكم عبدي فكلكم عبدٌ ولكن ليقل فتاي، ولا يقل العبد لسيّده ربّي، ولكن ليقل سيّدي**[2].

فلفظ العبوية كان مستكرهاً له ﷺ، وكيف يقبل النبيّ ﷺ للإنسان الذي خلقه الله حرّاً وكريماً أن يكتئب ويشقى بهذه الأغلال البشرية الموضوعه في عنق الإنسان.

وقد دخل تحرير الإنسان في نظام العقوبات الجزائية الإسلامية منذ أن بدأت مرحلة التأسيس القانوني والتشريعي، ويتفهّم الباحثون المعاصرون الإلغاء المرحلي لظاهرة الرقّ ونظراً لتجذّر هذه الظاهرة في المجتمعات آنذاك فالإلغاء النهائي لظاهرة الرقّ يعني إرباك المجتمع وإحداث خلل كبير في تراتب المجتمع وإصابته بنوع من الشلل الاقتصادي؛ لأنّ بعض المهن ونظام الزراعة والرعي كان يعتمد على هذه القوى التي ألّفت هذه الأعداد الهائلة من العبيد والموالي المسخّرين لتحريك حياتهم وترتيبها، ولهذا تجد نظام العقوبات

---

(١) النساء: ٩٢.

(٢) مسند أحمد٢: ٤٤٤ وفي آخر له ﷺ: ولا يقل ربّي ربّكم الله، ولكن ليقل سيّدي. مسند أحمد٢: ٤٩٦.

الإسلامي يأخذ العرف الاجتماعي في عملية التقنين يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ (١)... ولكن حين يتعلّق الأمر بتنفيذ العقوبة يرجح الشارع وضع الحرية للناس المملوكين بين يدي الحاكم الشرعي قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٣).

وجعل الله تعالى سهماً لعتق العبيد في آية الصدقات في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٤).

وكانت الأحاديث النبوية واضحة في تأكيد منح الحرية لهؤلاء الناس، حيث رغّبت في عتق الرقاب، وجعلت فضيلة عتق رقبة إنسان بمثابة صكوك تأمين ممنوحة تحجب العذاب عن المسلم.

---

(١) البقرة: ١٧٨.

(٢) المائدة: ٨٩.

(٣) المجادلة: ٣.

(٤) التوبة: ٦٠.

يقول النبيّ ﷺ: **من أعتق رقبة فهي فداؤه من النار، كلّ عضو منها فداء عضو منه.** هذا في مطلق العبيد.

وفي خبر آخر مخصّص قال ﷺ: **من أعتق رقبة مؤمنة كان له بكلّ عضو منه فكاك عضو منه من النار.**

وقال ﷺ: **من أعتق مؤمناً أعتق الله بكلّ عضو منه عضواً من النار، وإنْ كانت أُنثى أعتق الله بكلّ عضوين عضواً من النار لأنّ المرأة نصف من الرجل.**

وقال ﷺ أيضاً في حديث: **خمسة من أتى الله بهنّ أو بواحدة منهنّ وجبت له الجنّة: من سقى هامة صادية، أو حمل قدماً حافية، أو أطعم كبداً جايعة، أو كسا جلدة عارية، أو أعتق رقبة عانية**[1].

وكانت هناك أفكار استباقية لإلغاء وجود الرق أصلاً، ولكن النظام الاجتماعي والسياسي للحياة البشرية التي شهدت بزوغ فجر الإسلام لم يكن يسمح بإلغائه بين ليلة وضحاها، فالحروب الواسعة التي شهدتها حركة الفتوح الإسلامية كانت تفرز هذه الأعداد الهائلة من الأسرى، كما أنّ الحركة الاقتصادية للناس كانت تتطلّب الأيدي العاملة الرخيصة والتي تؤمنها أسواق الرقيق فتدفع بهم إلى أيدي الناس، ومع كلّ هذه الأحوال لم تكن نفس عليّ عليه السلام تستسيغ استعباد هذا الكيان البشري وتحويله إلى بضاعة مهانة، وتجد ذلك في الممارسة العملية التي كان يمارسها عليّ عليه السلام ليمنح نعمة الحرية لهؤلاء الناس الذين مُنعوا منها، ففي خبر أنّه أعتق عليه السلام ألف أهل بيت بما مجلت يداه وعرقت جبينه، وفي خبر أنّه عليه السلام أعتق ألف مملوك ممّا عملت يداه[2].

---

(١) بحار الأنوار١٠٤: ١٩٤و١٩٥.

(٢) بحار الأنوار ١٠٤: ١٩٥.

وكان الأئمة المعصومون عليهم السلام يمارسون دور المانح للحرية في سيرتهم عليه السلام إسهاماً منهم في إعادة الإنسانية المسلوبة من هؤلاء الناس الذين يسمونهم العبيد والموالي.

وكان عليّ عليه السلام يتفهّم معاناة هؤلاء الناس وقسوة الزمان عليهم، فتراه عليه السلام يعاملهم بعطف ورأفة متزايدة مدركاً بأنَّ الرق مظهر غير إنساني أملته ظروف الحروب والسياسات العدوانية، وإنَّ عقاب هؤلاء الناس كان عقاباً جائراً سارت عليه القوانين والأنظمة التي خلقها الإنسان، ويلمس الباحث ذلك في رواية سبي الفرس، تقول هذه الرواية: لما ورد سبي الفرس إلى المدينة أراد عمر بن الخطاب بيع النساء وأن يجعل الرجال عبيداً فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: **أكرموا كريم كلّ قوم**، فقال عمر قد سمعته يقول: **إذا أتاكم كريم كلّ قوم فأكرموه، وإنْ خالفكم**، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: هؤلاء قوم قد ألقوا إليكم السلام ورغبوا في الإسلام ولابدَّ من أن يكون لي فيهم ذرّية، وأنا أشهد الله وأشهدكم أنّي قد أعتقت نصيبي منهم لوجه الله تعالى، فقال جميع بني هاشم: قد وهبنا حقّنا أيضاً لك، فقال:اللهم اشهد أنّي قد أعتقت ما وهبوني لوجه الله، فقال المهاجرون والأنصار: قد وهبنا حقّنا لك يا أخا رسول الله، فقال: اللهم اشهد أنّهم قد وهبوا لي حقهم وقبلته وأشهدك أنّي قد أعتقتهم لوجهك، فقال عمر: لم نقضت عليّ عزمي في الأعاجم وما الذي رغبك عن رأيي فيهم؟ فأعاد عليه ما قال رسول الله في إكرام الكرماء، فقال عمر: قد وهبت لله ولك يا أبا الحسن ما يخصّني وساير ما لم يُوهب لك، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: اللهم اشهد على ما قالوا وعلى عتقي إيّاهم، فرغب جماعة من قريش أن يستنكحوا النساء فقال أمير المؤمنين: هؤلاء لا يكرهن على ذلك، يخيّرن فما اخترنه عمل به، فأشار جماعة إلى شهربانويه بنت كسرى فخيّرت وخُوطبت من وراء الحجاب والجمع حضور، فقيل لها: من تختارين من خطّابك، وهل أنت ممّن تريدين بعلاً؛ فسكتت، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: قد أرادت وبقي

الاختيار، فقال عمر: وما علمك بإرادتها البعل؟ فقال أمير المؤمنين: إنّ رسول الله ﷺ كان إذا أتته كريمة قوم لاوليّ لها وقد خطبت يأمر أن يقال لها: أنت راضية بالبعل؟ فإن استحيت وسكتت جعل إذنها صماتها وأمر بتزويجها، وإنْ قالت لا، لم تُكره على ما تختاره، وإنَّ شهربانويه أُريت الخطّاب فأومأت بيدها واختارت الحسين ابن علي عليه السلام، فأعيد القول عليها في التخيير فأشارت بيدها وقالت بلغتها، هذا إنْ كنت مُخيّرة، وجعلت أمير المؤمنين وليّها، وتكلّم حذيفة بالخطبة فقال أمير المؤمنين: ما اسمك؟ فقالت: شاه زنان بنت كسرى، قال أمير المؤمنين عليه السلام نه شاه زنان مكَر دختر محمد ﷺ وهي سيّدة النساء، أنت شهربانويه وأختك مروارید بنت كسرى، قالت: آري[1].

وقد عاد ودخول مصطلح الأسود والأبيض في قاموس السياسة بشكل واضح، وفي عصورنا الحديثة برز مصطلح أبيض مقابل السود والهنود منذ عام ١٦٩١ على الأقل عندما أصدرت جمعية فرجينيا تشريعها الذي يستشهد به كثيراً، والذي وضع ليمنع ذلك الاختلاط البغيض والذرية غير الشرعية التي يمكن أن تزداد في تلك البلاد بالزنوج والمولّدين والهنود الذين يتزوجون بإنجليزيات ونساء بيضاوات أخريات مثلما تزداد بمرافقة أحدهم بأخرى مرافقة محرمة[2].

وشهد تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية في القرون السابقة مظاهر اضطهاد وظلم للمواطن الأمريكي الذي يتسم بالبشرة السوداء وظلَّ هذا الوضع حتى الحرب العالمية عندها أصبحت المؤسسات الاجتماعية في الولايات المتحدة أقلّ عزلة وتمييزاً مما كان عليه الأمر قبل ذلك، فالجيش والمدارس وأنواع الرياضة البدنية ومعظم مواقع العمل لم تعد تنادي بالتمييز والعزلة بين مختلف

---

(١) بحار الأنوار ١٠٤: ١٩٩.

(٢) مجلة الثقافة العالمية العدد ١١٦ لسنة ٢٠٠٣، باتريك وولف، ترجمة أحمد عوض: ١٣٥.

الأجناس وخصوصاً بين البيض والسود[١].

وبالرغم من كلّ الحملات التي تمّت لإزالة العنصرية في أمريكا، وبرغم اعتلاء الزنوج الكثير من المناصب الرفيعة وبرغم أنّهم شركاء في الوطن منذ نشأته وليسوا من المهاجرين الجدد، برغم ذلك فإنّ أوضاعهم تختلف عن البيض من حيث الأجر والوظيفة وفرص الرزق.

ووفقا لما أذاعه مكتب الإحصاء الامريكي فإنّه بين كلّ ثلاثة من الزنوج هناك رجل فقير بينما تنخفض النسبة عند البيض لتكون رجلاً من كلّ تسعة وبالتحديد فإن ٣٢٪ من السود يحملون صفة فقير، بينما تهبط النسبة إلى ١١٪ عند البيض[٢].

وظاهرة العبيد قد استحكمت في بنية المجتمعات البشرية القديمة استحكاماً لا يمكن فصمه عن هذه المجتمعات، لذا كان التشريع السماوي ينسجم مع الأعراف الاجتماعية السائدة آنذاك، وقد كان قانون العقوبات الديني يأخذ بنظر الاعتبار هذه الظاهرة فنجد ذلك في آية القصاص التي تتحدث عن فرض العقوبات الجزائية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾[٣].

وتشكلت طبقة الرقيق أو العبيد على الأشهر في تاريخ العرب والمسلمين من بعد، من أسرى الحروب والغارات التي كانت شائعة ومترادفة، ومن ازدهار تجارة النخاسة التي اعتبرت الإنسان سلعة اقتصادية ذات ربح مشجع ويسهل تداوله وانتقاله لحاجة أو غيرها، فقد كان العبد جزءاً من متاع

---

(١) ينظر معتز سيد عبد الله، الاتجاهات التعصبية ١٣٦و ١٦٥و١٦٢و١٠٧.

(٢) محمود المراغي، أرقام تصنع العالم: ٢٠٠ ط الكويت كتاب العربي ١٩٩٨.

(٣) البقرة: ١٧٨.

سيّدة وثروته يُكتسب بالشراء أو الإرث أو الهبة شأنه شأن أيّ ثروة أُخرى، لذا تردّد وكثر في آداب وتاريخ العرب والمسلمين لفظ المولى والعبد والأمة، والنخّاس، وهو بائع الرقيق.

«ويبدو أنَّ العرب لم يكونوا هم المؤسسون لهذه النخاسة، بل إنَّ أفريقية طالما كانت معيناً للعبيد منذ أقدم العصور، كما يتّضح من البقايا التي عثر عليها في قبور مصر السفلى من عصور ما قبل التاريخ، والتي تدلّ على استرقاق المصريين لزنوج البوشمان.

وظلّ المصريون والرومان وغيرهم يغيرون على مناطق أفريقية للحصول على العبيد، غير أنَّ التجار في الدولة الإسلامية وسّعوا تجارة الرقيق حتّى شملت جميع مناطق أفريقية التي استطاعوا النفوذ إليها.

والحقّ أنَّ هؤلاء التجّار لم يقوموا هم أنفسهم باصطياد الزنج، بل كانوا يغرون رؤساء العشائر الزنجية بالبضائع والسلع فيقدّمون لهم العبيد، أو كانوا يتدخلون في النزاع بين عشيرتين زنجيتين فينالون حصّة من الأسرى، وكانت مصر وجنوب جزيرة العرب وشمال أفريقية أكبر أسواق الرقيق الأسود في العصر العباسي»[1].

العبيد الرساليون

وللعبيد أو الموالي دور مهم وخطير في التاريخ العربي والإسلامي، وقد لعب أفراد من هذه الطبقة دوراً أساسياً في دفع حركة العلوم والفنون والآداب إلى أمام، فضلاً عن الدور السياسي والعسكري الذي اشتهر به جمعٌ من هؤلاء النابغين.

---

(١) فيصل السامر، ثورة الزنج: ٢٣.

فبصمات الموالي أو العبيد في حضارة المسلمين ومدنيتهم واضحة، وقد ساهمت إماءٌ كثيرات في صنع هذه الحضارة التي أنجبت عليّ بن الحسين السجّاد وموسى بن جعفر وعليّ بن موسى الرضا والمهدي المنتظر عليهم وعلى آبائهم أفضل الصلاة والسلام، فهؤلاء المعصومون العظام رضعوا من لبن الإماء وجرت في عروقهم ودمائهم أمشاج من هؤلاء.

وللعبيد والموالي موقف رسالي مشرّف نزل فيهم قوله تعالى كما روى ابن عبّاس ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[1]، حيث قال: نزلت في رجلٍ وهو صهيب بن سنان مولى عبد الله بن جذعان أخذه المشركون في رهط من المسلمين، وخبّاب بن الأرتّ مولى ثابت بن أم أنمار، وبلال مولى أبي بكر، وعابس مولى حويطب بن عبد العزّى، وعمّار بن ياسر وأبو عمّار وسمّية أم عمّار[2]، وهذه الفضيلة ليست هيّنة وإن كان آخرون من الأحرار شاركوهم فيها حيث روى الشيخ علي بن إبراهيم أنَّ هذه الآية نزلت في عليّ عليه السلام حين بات على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا تحالفوا على قتله[3]، وهذا لا يمنع ولا يغضّ من دخول هؤلاء العبيد في جملة المتبايعين مع الله فربحوا في مبايعتهم.

كما أنَّ دخول أعلام منهم بوقت مبكر في الإسلام كعمار بن ياسر وخبّاب وصهيب والمقداد وبلال يوحي بظهور طبقة مهمة من العبيد في أزمنة متاخمة للبعثة النبوية، ولا يعني أنَّ هذه الطبقة تشكلت في هذه الفترة، وإنّما كانت فصائل من هذه الطبقة على مستوى من الوعي والإدراك أهّلها لاستقبال دعوة النبيّ صلى الله عليه وآله والدفاع عن هذه الدعوة الجديدة دفاعاً مستميتاً امتدّ هذا الدفاع

---

(١) البقرة: ٢٠٧.

(٢) بحار الأنوار٢٢: ٣٥٣.

(٣) تفسير العياشي١: ١٠١ ح٢٩٢، تفسير القمي١: ٧١.

إلى الأسرة والقبيلة، حتّى أنّه عُدّت سُمَيّة بنت خُباط أمّ عمّار بن ياسر أوّل شهيدة في الإسلام.

وعُذّبت من أجل دعوة النبيّ ﷺ تعذيباً لا يمكن أن تتحمله امرأة أخرى، فمما روي في هذا أنّها ربطت بين بعيرين ووُجئت في قبلها بحربة، وقد أعلم عمّار النبيّ ﷺ بعذابها الذي لقته دفاعاً عن العقيدة الإسلامية بقوله: بلغ العذاب من أمّي كلّ مبلغ، فقال النبيّ ﷺ: **صبراً يا أبا اليقظان اللهم لا تعذّب أحداً من آل ياسر**[1].

وبلغ عمّار بن ياسر من الوعي والنضوج أن قال لهاشم بن عتبة يوم صفّين: والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا شعاب[2] هجر لعلمت أنّا على حقّ وأنّهم على الباطل[3].

وقال فيه النبيّ ﷺ: **ما خُيّر عمّار بين أمرين إلّا اختار أرشدهما**[4].

وتتحدّث كتب السيرة عن رجل عظيم من هذه الطبقة امتاز عنهم بوعيه وصلابته، وهو بلال بن رباح الحبشي، الذي كان يعاني من العذاب والاضطهاد لإعلانه التوحيد فقد روي أنّ أميّة بن خلف كان يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكّة ثمّ يأمر بالصخرة العظيمة على صدره ثمّ يقول أميّة: لا يزال على ذلك حتّى يموت أو يكفر بمحمد، فيقول بلال وهو في ذلك الحال: أحد أحد[5].

---

(١) ينظر بحار الأنوار٢٩: ٤٠٥و ج١٨: ٢١٠، ٢٤١، الإصابة في معرفة الصحابة٤: ٣٣٤، أسد الغابة٥: ٤٨١.

(٢) وفي رواية أخرى سعفات.

(٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة٤: ٤٦، ط دار إحياء التراث العربي بيروت.

(٤) أسد الغابة٤: ٤٥ وفي رواية الصدوق: أشدّهما كما في البحار٢٢: ٣٢٠.

(٥) الإصابة في معرفة الصحابة١: ١٦٥، الاستيعاب١: ١٤٤.

وكان بلال من الأوائل الذين أظهروا الإسلام وجلّهم من الموالي والعبيد وهم عمّار وسميّة وصهيب والمقداد، وقد أخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد وأصهروهم في الشمس فما منهم إنسان إلّا وقد واتاهم على ما أرادوا إلّا بلالاً.

فإنّه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكّة وهو يقول أحد أحد[1].

وكان بلال يمتلك وعياً عقائدياً، فحين سُئل عن توقيره لعليّ عليه السلام أضعاف ما كان يوقر أبابكر، مع أنَّ أبابكر كان مولاه الذي اشتراه وأعتقه من العذاب، أجاب بأنَّ حقّ عليّ عليه السلام أعظم من حقّ أبي بكر، لأنّه_أراد أبابكر- أنقذني من رقّ العذاب الذي لو دام عليّ وصبرت عليه لصرت إلى جنات عدن، وعليّ عليه السلام أنقذني من رقّ العذاب الأبد وأوجب لي بموالاتي له وتفضيلي إيّاه نعيم الأبد[2].

واستقرّ حبّ النبيّ صلى الله عليه وآله في أعماق بلال فحين قبض صلى الله عليه وآله امتنع بلال من الأذان، لأنَّ الأذان يثير ذكريات الحبيب المفارق، فاسم النبيّ صلى الله عليه وآله حين ينساب على لسان بلال يؤجج ذكريات الدعوة ويوقد وهج الأحزان والأشجان.

ولمّا قالت فاطمة عليها السلام ذات يوم: إنّي أشتهي أن أسمع صوت مؤذّن أبي بلال، بلغ بلالاً ذلك فأخذ في الأذان، فلمّا قال: الله أكبر، ذكرت أباها وأيّامه، فلم تتمالك من البكاء، فلمّا بلغ إلى قوله: أشهد أنَّ محمداً رسول الله، شهقت فاطمة وسقطت لوجهها وغُشي عليها، فقال الناس لبلال: أمسك يا بلال، فقد فارقت

---

(١) الإستيعاب في معرفة الأصحاب١: ١٤١.

(٢) تفسير الإمام العسكري:٦٢١ح ٣٦٥.

ابنة رسول الله ﷺ الدنيا، وظنّوا أنّها قد ماتت فقطع أذانه ولم يتمه[١] ولم يؤذّن بعد ذلك لأنَّ هذه الشعيرة التي اقترنت بصوته كانت تختزن لحظات عاطفية وشعورية لا يمكن استيعابها وإدراكها إلا من بضعة صاحب الرسالة، فكان بلال يفهم ذلك لما أُعطي من الوعي والفهم والبصيرة.

ومن رجال هذه الطبقة الصامدين خبّاب بن الأرتّ مولى أم أنمار الخزاعية، والذي وصف بقدم إسلامه وممّن عُذّب في الله حيث وصف صورة من عذاباته فقال: لقد أُوقدت لي نار وسُحبت عليها فما أطفأها إلّا ودك ظهرى، وممّا يُنقل عن نوع العذاب الذي ناله أنّ الكفّار جعلوا يلصقون ظهره بالرضف حتّى ذهب لحم متنه.

وترحّم عليه علي عليه السلام قائلاً: رحم الله خبّاباً أسلم راغباً وهاجر طائعاً وعاش مجاهداً، وابتُلي في جسمه أهوالاً ولن يضيع الله أجر المحسنين[٢].

وكان عليّ عليه السلام قد اختصّ من هؤلاء عبداً اسمه قنبر، وكان هذا له عليه السلام كوزير وأخ وابن يلازمه كظلّه، وبلغ من حبّه علياً عليه السلام إذا خرج عليّ عليه السلام خرج على إثره بالسيف، وكان إذا سُئل مولى من أنت، يقول: مولاي من ضرب بسيفين، وطعن برمحين، وصلّى القبلتين، وبلغ عرفانه مع حبّه لعليّ عليه السلام قدراً كبيراً، فحين قال له الحجاج: أنت مولى عليّ بن أبي طالب، قال: الله مولاي، وأمير المؤمنين علي عليه السلام وليُّ نعمتي، وحين قال له الحجاج: إبرأ من دينه، قال له قنبر: فإذا برئت من دينه تدلّني على دين غيره أفضل منه! قال له الحجّاج: إنّي قاتلك فاختر أيَّ قتلة أحبّ إليك؟

قال قنبر: قد صيّرت ذلك إليك، قال الحجاج: ولم؟ قال: لأنك لا تقتلني

---

(١) ينظر من لا يحضره الفقيه١: ٢٩٨ ح٢٠٧.

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة٢: ١٠٠، الاستيعاب١: ٤٢٣ و٤٢٤، الإصابة١: ٤١٦.

قتلة إلّا قتلتك مثلها[١].

فمثل هذا الحوار يعكس لنا الوعي والنضوج الذي كان عليه قنبر.

وكان ميثم التمّار من عرفائهم بل من سادة العرفاء، وقد عرّفته أم سلمة رضي الله عنها حين دخل عليها فقالت: والله لربّما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يذكرك ويُوصي بك عليّاً عليه السلام في جوف الليل[٢].

وقيل في ميثم: كان ممّن يحتمل العلم الذي لا يحتمله إلّا ملك مقرّب أو نبيّ مرسل، أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان[٣].

وتفيد رواية الشيخ الطوسي وابن شهر اشوب علو مقام ميثم، وتجلّى هذا المقام حين أتى الخضر صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين عليه السلام بالكوفة عند الأسطوانة السابعة من باب الفيل، فأكب الخضر على عليّ عليه السلام وقبّل رأسه... .

ثمّ جاءه ثانية فإذا ميثم يصلّي إلى تلك الأُسطوانة فقال: يا صاحب السارية أقرئ صاحب الدار السلام _ يعنى علياً عليه السلام_ وأعلم أني بدأت به فوجدته نائماً[٤].

ويتحدث قنبر عن العرفان الذي تلقّى دروسه في مدرسة عليّ عليه السلام فيقول: كنت عند أمير المؤمنين عليه السلام إذ دخل رجلٌ فقال: يا أمير المؤمنين أنا أشتهي بطّيخاً، قال قنبر: فأمرني أمير المؤمنين عليه السلام بشراء بطّيخ فوجّهت بدرهم فجاؤونا بثلاث بطّيخات، فقطعت واحدة فإذا هو مرٌّ فقلت: مرٌّ يا أمير المؤمنين، فقال: ارم به من النار وإلى النار، قال: وقطعت الثاني فإذا هو حامض، فقلت:

---

(١) ينظر بحا رالأنوار٤٢: ١٤٦ وج ٥: ١٠٤ والتوحيد للصدوق: ٣٣٨.

(٢) إرشاد الشيخ المفيد: ١٧٠.

(٣) بحار الأنوار٢: ٢١٠وج ٢٥: ٣٨٣.

(٤) أمالي الشيخ الطوسي١: ٥٠، مناقب ابن شهر آشوب٢: ٢٤١، بحار الأنوار٣٩: ١٣٠و١٣١.

حامض يا أمير المؤمنين، فقال: ارم به من النار وإلى النار، قال: فقطعت الثالث فإذا مدوّدة، فقلت: مدوّدة يا أمير المؤمنين، فقال: ارم به من النار وإلى النار، قال: ثمّ وجّهت بدرهم آخر فجاؤونا بثلاث بطيخات فوثبت على قدمي فقلت:أعفني يا أمير المؤمنين عن قطعه_كأنّه تأثم بقطعه_فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: اجلس يا قنبر فإنّها مأمورة، فجلست فقطعت واحدة فإذا هو حلو، فقلت: حلوٌ يا أمير المؤمنين، فقال: كل وأطعمنا، فأكلت ضلعاً وأطعمته ضلعاً وأطعمتُ الجليس ضلعاً، فالتفت إليَّ أمير المؤمنين فقال: يا قنبر إنّ الله تبارك وتعالى عرض ولايتنا على أهل السماوات وأهل الأرض من الجنّ والإنس والثمر وغير ذلك فما قبل منه ولايتنا طاب وطهر وعذب وما لم يقبل منه خبث وردى ونتن[١].

ومن الموالي الذين وصف إيمانهم بالصدق والإخلاص المقداد بن الأسود، فقد قيل: ما بقي أحدٌ إلّا وقد جال جولةً إلّا المقداد بن الأسود فإنَّ قلبه كان مثل زبر الحديد، حتّى قال رسول الله ﷺ لسلمان: **يا سلمان لو عرض علمك على مقداد لكفر، يا مقداد لو عُرض علمك على سلمان لكفر**[٢].

ومع كلّ هذا العطاء من هؤلاء وغيرهم فلهم «فضل كبير في الإسلام لأنَّ معظم الحفّاظ وأهل التفسير واللغة والشعر وسائر العلماء وأكثر التابعين منهم»[٣].

وبهذا تميّزت حضارة المصطفى ﷺ عن الحضارات التي سحقت مواهب وكفاءات طبقة مهمة في المجتمع البشري.

---

(١) الاختصاص للمفيد: ٢٤٩ انتشارات مكتبة الزهراء قم.

(٢) بحارالأنوار٢٢: ٤٤٠.

(٣) السيّد محمد الحسيني الشيرازي، من التمدن الإسلامي: ٢٤٥.

خاتمة البحث

كانت فصول هذا البحث مقدّمة ومدخلاً لأثر نعمة الله الفُضلى على عباده خاتم الأنبياء والرسل محمد المصطفى ﷺ منقذ البشرية من ظلام الجهل والانحطاط الحضاري، ولا يسع هذا البحث أن يتناول تفصيلات صنعها وأوجدها بوجوده المبارك، وكأننا قد أشرنا إلى الأثر الجليّ الواضح التي تركه النبيّ ﷺ في مجمل تاريخ الحضارة، ممّا لا يمكن نكرانه وتجاهله، ولا يمكن لأيّ دارس وباحث مهما كان معتقده الديني أن ينكر الدور التعليمي والثقافي الواضح في حياته ﷺ، ودفع المسلم وغير المسلم نحو التعلّم والثقافة كان من أبرز معالم السيرة النبويّة، وقد تناولت فصول البحث بعض هذا الجانب.

ويلمس القارئ أنَّ الحضارة الإسلامية التي بناها المصطفى ﷺ كانت حضارة بنائية سلمية ذات بعد إنساني، فتداول مفردات مثل: رحمة، حرمة، حقوق، ذمّة، عدل، أمّة... لها دلالاتها وأبعادها الإنسانية فهي ليست محصورة في أفق ديني أو قومي محدد فتبلور هذه المفاهيم ينبغي أن يكون مقبولاً كحقيقة ثابتة في قاموس الحضارة الإسلامية، إنْ لم يكن نشأتها وانبثاقها مقبولاً لدى البعض، وأشار البحث إلى أنَّ النبيّ ﷺ كان وارث أسرة متحضرة وضعت لبنات دولة مهمة في التاريخ هي دولة قريش، فالتراث السياسي والحضاري للنبيّ ﷺ لا ينفصل عن تاريخ قريش، وهو سيّد قريش وشرفهم وعزّهم وباني مجدهم.

وتناولت فصول من هذا البحث أثر النبي ﷺ وخلفائه المعصومين عليهم السلام في تنمية وتطوير نشاط الإنسان في حقول الزراعة والصناعة والتجارة، وبالتالي انعكس هذا الأثر في قيام نهضة زراعية وصناعية واقتصادية عُرفت في تاريخ المسلمين بشكل واضح امتدّت لعصور، وللمرأة نصيب من الرعاية والإكرام محفوظ في السنّة أشار لذلك فصل من هذا الكتاب، وقد يكون من المناسب إفراد بحث مستقلّ قد يجد طريقة في مشاريع بحث مستقلّة.

وأشار هذا البحث إلى مفاهيم مهمة كمفهوم الدولة والقانون والحكومة، مبيّناً دور المصطفى ﷺ في إرساء وتوضيح هذه المفاهيم، بصفتها مفاهيم حضارية، لا بدّ للإنسان من التعامل معها.

وقد عرّج البحث على مفهوم مهم هو مفهوم القومية والوعي القومي، وتناول البحث المشاعر القومية ضمن النطاق الإسلامي المسموح به، فلم تفت النبيّ ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام الإشارة إلى الأحاسيس القومية التي تتحرك لدى الإنسان.

وتناول هذا البحث صفحات مشرقة من تاريخ الموالي والعبيد، فقد أخذ العبيد والموالي دورهم في حضارة المصطفى ﷺ، وكان لرعايته ﷺ وحنوّه عليهم من الأثر المبارك أن أصبح لهذا الطبقة ضمن التركيب الاجتماعي حضور فاعل ومنظور، وعليه فاللموالي من المواقف والمشاهد الرائعة التي ترسّمت في نهضة المسلمين بقاء واستمرار لا يزال واضحاً، في حين لم يكن للرقيق أي دور إيجابي في الحضارات الأخرى، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين وصلاته وسلامه على سيّدنا وهادينا ومنقذنا محمد وعلى آله الطاهرين إلى قيام يوم الدين.

عادل عبد الرحمن البدري

مشهد الرضا عليه وعلى آبائه

آلاف التحية والسلام.

مصادر ومراجع الكتاب

١_ الاتجاهات التعصبية، الدكتور معتز سيّد عبد الله، عالم المعرفة الكويت ١٩٩٨.

٢_ الاختصاص، محمد بن محمد بن النعمان العكبري المفيد، المتوفّى ٤١٣ هـ تحقيق على أكبر غفارى، مكتبة الزهراء، قم و ط جماعة المدرسين في الحوزة العلمية قم.

٣_ الآراء والمعتقدات، غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، المطبعة العصرية بيروت.

٤_ الإرشاد، الشيخ المفيد، منشورات بصيرتى قم.

٥_ أرقام تصنع العالم، محمود المراغي، كتاب العربي الكويت ١٩٩٨.

٦_ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر يوسف بن عبد الله القرطبي الأندلسي، دار صادر ودار إحياء التراث العربي بيروت.

٧_ أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين علي بن أبي الكرم بن الأثير، المتوفىّ ٦٣٠ هـ أفسيت المكتبة الإسلامية طهران.

٨_ أسطورة الإطار، كارل بوير، ترجمة يمنى طريف الخولي، عالم المعرفة الكويت ٢٠٠٣.

٩_الإسلام شريكا، فريتس شتيبات، ترجمة الدكتور عبد الغفّار مكاوي، عالم المعرفة الكويت ٢٠٠٤.

١٠_ الإسلام وعلم الاجتماع، الدكتور محمود البستاني، مجمع البحوث الإسلامية، بيروت ١٩٩٨.

١١_ الإسلام والغرب،مجموعة من الكتاب، كتاب العربي الكويت ٢٠٠٢.

١٢_ الاشتقاق، محمد بن الحسن بن دريد المتوفى ٣٢١ هـ تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة المثنى بغداد.

١٣_ الإصابة في معرفة الصحابة، أحمد بن حجر العسقلاني المتوفّى ٨٥٢ هـ دار صادر وإحياء التراث العربي بيروت.

١٤_ الأصناف في العصر العباسي، صباح إبراهيم الشيخلي، وزارة الإعلام بغداد.

١٥_ الأصول والفروع من الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، المتوفى ٣٢٩ هـ دار الكتب الإسلامية طهران ١٣٨٨ هـ

١٦_ أعلام العرب في الكيمياء، الدكتور فاضل الطائي، وزارة الثقافة بغداد.

١٧_ أقاليم الدولة الإسلامية، مسعود أحمد مصطفى، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٩٠.

١٨_ اقتصادنا، السيّد محمد باقر الصدر، دار التعارف بيروت الطبعة السادسة عشرة.

١٩_ الآلة قوّة وسلطة، أر.إيه بوكانان، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة الكويت ٢٠٠٠.

٢٠_ الأمالي، السيّد المرتضى أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى المتوفّى ٤٣٦ هـ منشورات مكتبة آية الله المرعشي النجفي قم ١٤٠٣ هـ

٢١_ الأمالي، الشيخ أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمّي المتوفّى ٣٨١ هـ ، المعروف أمالي الصدوق، نشر مؤسسة الأعلمي بيروت ١٤٠٠ هـ

٢٢_ الأمالي، الشيخ محمد بن الحسن الطوسي، ط النجف.

٢٣_ الأمن الغذائي للوطن العربي، محمد السيّد عبد السلام، عالم المعرفة الكويت ١٩٩٨.

٢٤_ الأمّة والدولة في سياسة النبي والخلفاء الراشدين، نزار الحديثي، بغداد ١٩٨٧.

٢٥_ أهل اليمن في صدر الإسلام، نزار الحديثي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت.

٢٦_ إيلاف قريش، فكتور سحّاب، كمبيوتر نشر والمركز الثقافي العربي بيروت ١٩٩٢.

٢٧_ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، الشيخ محمد باقر المجلسي المتوفّى ١١١١ هـ مؤسسة الوفاء بيروت، وط دار الكتب الإسلامية طهران.

٢٨_ بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته، الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، عالم الكتب القاهرة ١٩٨٧.

٢٩_ بعيداً عن اليسار واليمين، أنطوني جيدنز، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة الكويت ٢٠٠٢.

٣٠_ بلاد ما بين النهرين، ليو أو پنهايم، ترجمة سعدي فيضي عبد الرزاق، وزارة الثقافة بغداد.

٣١_ البلدان وفتوحها وأحكامها، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري المتوفّى ٢٧٩ هـ تحقيق الدكتور سهيل زكّار، دار الفكر بيروت ١٩٩٢.

٣٢_ تاريخ الأفكار السياسية، جان توشار، ترجمة نلجي الدراوشة، وزارة الثقافة دمشق.

٣٣_ تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون المتوفّى ٨٠٨ هـ دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى.

٣٤_ تاريخ الحضارات العام، إشراف موريس كروزيه، منشورات عويدات، باريس_بيروت ١٩٨٦.

٣٥_ تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، الدكتور بشير رمضان التليسي وجمال هاشم الذويب، دار المدار الإسلامي بيروت ٢٠٠٢.

٣٦_ التاريخ الحقيقي لليهود من نشأتهم الأولى وحتّى الآن، نجيب زبيب، دار الهادي بيروت ٢٠٠١.

٣٧_ التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة في عهد الرسول ﷺ ، الدكتور علي معطي، مؤسسة المعارف بيروت ١٩٩٨.

٣٨_ تاريخ العرب في الإسلام، جواد علي، انتشارات الشريف الرضي ١٤١٤ هـ

٣٩_تاريخ مكّة، أحمد السباعي، دار مكّة للطباعة والنشر في مكّة ١٩٧٩ ط الرابعة.

٤٠_ تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر المتوفّى ٢٨٤ هـ دار صادر بيروت.

٤١_ تاريخ اليمن السياسي في العصر الإسلامي، الدكتور حسن سليمان محمود، المجمع العلمي العراقي بغداد ١٩٦٩.

٤٢_ تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، الدكتور شوقي عبد القوي عثمان، عالم المعرفة الكويت ١٩٩٠.

٤٣_ تحف العقول عن آل الرسول، الحسن بن علي الحرّاني من أعلام

القرن الرابع، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية قم ١٤٠٤.

٤٤_ تراث الإسلام، مجموعة من المؤلّفين، تحقيق الدكتور شاكر مصطفى، عالم المعرفة الكويت.

٤٥_ تطوّر الأوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة والراشدين، الدكتور نجمان ياسين، وزارة الثقافة بغداد ١٩٩١.

٤٦_ تفسير التبيان، الشيخ محمد بن الحسن الطوسي، ط مكتبة الأمين النجف.

٤٧_ تفسير البيضاوي، أبو الخير عبد الله بن عمر البيضاوي المتوفى ٧٩١ هـ منشورات البابي الحلبي مصر ١٣٨٨.

٤٨_ تفسير العيّاشي، محمد بن مسعود السمرقندي المتوفى ٣٢٠ هـ تصحيح السيّد هاشم الرسولي المحلّاتي، المطبعة العلمية قم.

٤٩_ تفسير القرطبي،«جامع لأحكام القرآن» شمس الدين محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي المتوفى ٦٧١، منشورات دار الغد العربي القاهرة ١٤٠٩هـ ودار الكاتب العربي بيروت ١٩٦٧.

٥٠_ تفسير القمّي، عليّ بن إبراهيم بن هاشم المتوفى ٣٢٨ هـ تحقيق الطيّب الجزائري، ط النجف مكتبة الهدى ١٣٨٦ هـ

٥١_ تقييد العلم، للحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بن عليّ بن ثابت الخطيب البغدادي المتوفّى ٤٦٣ هـ تحقيق يوسف العش، ط دار إحياء السنّة النبوية ١٩٧٥.

٥٢_ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، انتشارات استقلال طهران.

٥٣_ تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي المتوفى ٤٦٠ هـ دار الكتب

الإسلامية طهران ١٣٩٠ هـ

٥٤_ التوحيد، الشيخ الصدوق، نشر جماعة المدرسين بقم.

٥٥_ التيارات الإسلامية وقضيّة الديمقراطية، حيدر إبراهيم علي، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٩٩.

٥٦_ الثقافة العربية وعصر المعلومات، الدكتور نبيل علي، عالم المعرفة الكويت ٢٠٠١.

٥٧_ ثورة الزنج، الدكتور فيصل السامر، مكتبة المنار بغداد ط الثانية.

٥٨_ جامع الأصول، مجد الدين مبارك بن أبي الكرم ابن الأثير المتوفّى ٦٠٦ هـ دار إحياء التراث العربي بيروت.

٥٩_ الجغرافية السياسية لعالمنا المعاصر، بيتر تيلور وكولن فلنت، ترجمة عبد السلام رضوان وإسحاق عبيد، عالم المعرفة الكويت ٢٠٠٢.

٦٠_ جغرافية العهد القديم، بنو إسرائيل جغرافية الجذور، زياد منى، منشورات مكتبة الأهالي دمشق.

٦١_ حضارة العراق،مجموعة من الكتّاب، دار الحرية للطباعة بغداد ١٩٨٥.

٦٢_ حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر منشورات البابي الحلبي مصر ط الرابعة ١٩٦٤.

٦٣_ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي بيروت، ط الخامسة.

٦٤_ الحركة العلمية في عصر الرسول وخلفائه، محمد السيّد الوكيل، دار المجتمع جدّة.

٦٥_ الحكومة الديمقراطية أُصولها ومناهجها، فاضل الصفّار، دار المحجّة

البيضاء بيروت ١٩٩٧.

٦٦_ حوار الحقيقة، تحسين البدري، المركز العالمي للدراسات الإسلامية قم.

٦٧_ الخرائج والجرائح، قطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي المتوفى ٥٧٣ هـ مؤسسة المهدي (عج) قم.

٦٨_ الخصال، الشيخ محمد بن علي بن بابويه القمي ا لمتوفى ٣٨١هـ نشر جماعة المدرسين قم.

٦٩_ دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، الدكتور حسّان حلّاق، دار النهضة العربية بيروت ١٩٩٩ الثانية.

٧٠_ دراسات في تاريخ العرب، الدكتور خالد العسلي، وزارة الثقافة بغداد.

٧١_ دراسات في الحضارة الإسلامية، مجموعة من الكتّاب، الهيئه المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥.

٧٢_ دراسات في الطب العربي، الدكتور عادل البكري وهادي العبوسي، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي بغداد ١٩٩١.

٧٣_ دراسة في طبّ الرسول المصطفى، عباس تبريزيان، موسوعة الرسول المصطفى، دار الأثر بيروت ٢٠٠٢.

٧٤_ دعائم الإسلام، أبو حنيفة النعمان بن محمد بن متصور المغربي المتوفّى ٣٦٣ هـ دار المعارف مصر ١٣٨٣ هـ

٧٥_ دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، الدكتور عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات الكويت ١٩٧٩.

٧٦_ دولة الرسول في المدينة، الدكتور صالح العلي، شركة المطبوعات بيروت ٢٠٠١.

٧٧_ الديارات النصرانية في الإسلام، حبيب الزيّات، دار المشرق بيروت ١٩٩٩ ط الثالثة.

٧٨_ ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة، الشهيد محمد بن مكي العاملى المتوفى ٧٨٦هـ منشورات مكتبة بصيرتي قم.

٧٩_ الزهد، حسين بن سعيد الأهوازى، من أعلام القرنين الثاني والثالث الهجري، منشورات مدرسة المهدي (عج) قم بتحقيق غلام رضا عرفانيان.

٨٠_ سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني المتوفى ٢٧٥ هـ دار الفكر بيروت.

٨١_ السيرة النبوية، عبد الملك ابن هشام البصري المتوفى ٢١٨ هـ بتحقيق مصطفى السقّا وآخرين، دار إحياء التراث العربي بيروت.

٨٢_ شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد المعتزلي المتوفى ٦٥٦ هـ تحقيق أبو الفضل إبراهيم، منشورات مكتبة آية الله المرعشي النجفي قم ١٤٠٤ هـ

٨٣_ شعب الإيمان، أبوبكر أحمد بن الحسين بن عليّ البيهقي المتوفى ٤٥٨هـ تحقيق السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية بيروت.

٨٤_ صحيح مسلم بن الحجّاج النيسابوري المتوفى ٢٦١ هـ دار الفكر ودار إحياء التراث العربي بيروت.

٨٥_ صور من حياة الرسول، أمين الدويدار، دار المعارف مصر ط الرابعة.

٨٦_ الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد، دار صادر بيروت.

٨٧_ الطرائف، السيد علي بن موسى بن جعفر ابن طاووس المتوفى ٦٦٤ هـ منشورات مطبعة الخيام قم ١٤٠٠.

٨٨_ عالمية الإسلام وقضايا العصر، محمد عللوه، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، الجماهرية الليبية طرابلس.

٨٩_ العبادة والعبودية والعلاقة مع الله، دار البلاغ طهران ١٩٩٧.

٩٠_ العرب قبل الإسلام، جرجي زيدان، مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٦.

٩١_ العرب والإسلام في أيّام الرسول، عبد الله برّي، دار التعارف بيروت.

٩٢_ علل الشرائع، محمد بن علي بن بابويه القمي، المكتبة الحيدرية النجف ١٣٨٥ هـ

٩٣_ علم أصول القانون، الدكتور مصطفى عبد الله، المكتبة الوطنية بغداد.

٩٤_ العمل وحقوق العامل في الإسلام، باقر شريف القرشي، دار التعارف بيروت ١٩٧٩ الرابعة.

٩٦_ العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، مصطفى عباس الموسوي، وزارة الثقافة والإعلام بغداد ١٩٨٢.

٩٧_ عيون أخبار الرضا، الشيخ الصدوق، نشر رضا مشهدي قم.

٩٨_ غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام الهروى المتوفى ٢٢٤ هـ دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٦.

٩٩_ غوالى اللآلئ، ابن أبي جمهور الإحسائي المتوفى ٨٨٠هـ مؤسسة

سيد الشهداء قم ١٤٠٣هـ

١٠٠_ فصل الدين عن الدولة، إسماعيل الگيلاني، المكتب الإسلامي بيروت ط الثانية.

١٠١_ الفضائل، أبو الفضل شاذان بن جبرئيل القمّي منشورات الرضي قم.

١٠٢_ الفكر الإسلامي، محمد أركون، ترجمة هاشم صالح، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، مركز الإنماء القومي بيروت.

١٠٣_ الفكر الإسلامي المعاصر في إيران، محمد رضا وصفي دار الجديد بيروت، ط الأولى.

١٠٤_ الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨_١٩٣٩، البرت حوراني، ترجمة كريم عزقول، منشورات نوفل بيروت ١٩٩٧.

١٠٥_ الفكر القومي إسلامياً وتاريخياً، نجاح الطائي،منظمة الإعلام الإسلامي طهران.

١٠٦_ فلسفة العلم في القرن العشرين، يمنى طريف الخولي، عالم المعرفة الكويت.

١٠٧_ فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي، أحمد محمد عبد الرازق، معهد الفكر الإسلامي فرجينيا.

١٠٨_ في أصول تاريخ العرب الإسلامي، محمد محمد حسن شرّاب، دار القلم دمشق.

١٠٩_ في نظرية التطوّر الاجتماعي، واسني الأعرج، دار دمشق ١٩٨٢.

١١٠_ القانون الدوليّ في الإسلام، عباس علي العميدي الزنجاني، ترجمة

علي هاشم، مجمع البحوث الإسلامية مشهد.

١١١_ القاموس الفقهي، سعدي أبو حبيب، دار الفكر دمشق.

١١٢_ القرآن الكريم بنيته التشريعية وخصائصه الحضارية، الدكتور وهبي الزحيلي، دار الفكر دمشق ١٩٩٣.

١١٣_ القرآن والنظر العقلي، فاطمة إسماعيل، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا.

١١٤_ قرب الإسناد، محمد بن جعفر الحميري المتوفى ٣١٠هـ مكتبة نينوى الحديثة طهران، وط النجف.

١١٥_ قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، خليل عبد الكريم، سينا للنشر القاهرة ١٩٩٣.

١١٦_ قصص الأنبياء، قطب الدين الراوندي المتوفى ٥٧٣، تحقيق غلام رضا عرفانيان، مجمع البحوث الإسلامية مشهد.

١١٧_ قضايا في نقد العقل الديني، محمد أركون، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة بيروت ط الثانية ٢٠٠٠.

١١٨_ كامل الزيارات، جعفر بن محمد بن قولويه المتوفّى ٣٦٧هـ المطبعة المرتضوية النجف ١٣٥٦هـ

١١٩_ الكامل في اللغة والأدب، أبو العباس المبرد المتوفى ٢٨٦هـ مؤسسة المعارف بيروت.

١٢٠_ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل في وجوه التأويل، جار الله الزمخشري المتوفّى ٥٢٨ هـ منشورات دار الكتاب العربي بيروت.

١٢١_ كنز العمّال، المتقى الهندي، علاء الدين علي بن حسام المتوفى ٩٧٥

هـ مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٩هـ

١٢٢_ كنز القوائد، محمد بن علي الكراجكي المتوفى ٤٤٩، مكتبة مصطفوي قم.

١٢٣_ لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي، دار الفكر بيروت.

١٢٤_ مآثر الإنافة في معالم الخلافة، أحمد بن عبد الله القلقشندي المتوفّى ٨٤١هـ وزارة الإعلام الكويت.

١٢٥_ ماضي النجف وحاضرها، جعفر آل محبوبة، مؤسسة الأعلمي بيروت.

١٢٦_ ما العولمة، بول هيرست جراهام، ترجمة الدكتور فالح عبد الجبار، عالم المعرفة الكويت ٢٠٠١.

١٢٧_ ما وراء التاريخ، وليام هاولز، ترجمة أحمد أبو زيد، دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٢.

١٢٨_ المثقفون والتقدم الاجتماعي، معهد الاستشراق في أكاديمية العلوم السوفيتية، نشر وزارة الثقافة دمشق.

١٢٩_ المجازات النبوية، الشريف الرضى المتوفى ٤٠٦هـ تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، منشورات الحلبي مصر ١٣٩١هـ

١٣٠_ مجالس الشيخ المفيد، محمد بن النعمان، جماعة المدرسين قم.

١٣١_ المجتمع العربي الإسلامي، الحياة الاقتصادية والاجتماعية، الدكتور الحبيب الجنحاني، عالم المعرفة الكويت ٢٠٠٥.

١٣٢_ مجمع البحرين ومطلع النيّرين، فخر الدين الطريحي المتوفى ١٠٨٥

هـ تحقيق السيد أحمد الحسيني، منشورات المكتبة الرضوية طهران.

١٣٣_ مجمع البيان، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي المتوفى ٥٤٨هـ منشورات مكتبة آية الله المرعشي النجفي قم.

١٣٤_ المحاسن، أحمد بن محمد بن خالد البرقي المتوفى ٢٧٤هـ دار الكتب الإسلامية قم.

١٣٥_ المدن الحجازية، الدكتور عمر الفاروق، الهيئة المصرية للكتاب.

١٣٦_ المدن في الإسلام، الدكتور شاكر مصطفى، منشورات دار السلاسل الكويت ١٩٨٨.

١٣٧_ المرأة والعمل السياسي، هبة رؤوف عزّت، المعهد العالمي للفكر الإسلامي فرجينيا ١٩٩٥.

١٣٨_ مسند أبي يعلى الموصلي، أحمد بن علي بن المثنى التميمي، منشورات دار المأمون للتراث دمشق.

١٣٩_ مسند أحمد بن حنبل المتوفى ٢٤١هـ دار صادر بيروت.

١٤٠_ مصباح الشريعة، ينسب للإمام الصادق عليه السلام، مؤسسة الأعلمي بيروت ١٤٠٠هـ

١٤١_ المصنّف لابن أبي شيبة الكوفي، عبد الله بن محمد المتوفى ٢٣٥هـ منشورات دار الفكر بيروت ١٩٩٤.

١٤٢_ المعارف، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى ٢٧٦هـ تحقيق ثروت عكاشة، دار الكتب القاهرة ١٩٦٠.

١٤٣_ معالم الحكومة الإسلامية، الشيخ جعفر سبحاني، نشر مكتبة أمير المؤمنين عليه السلام إصفهان.

١٤٤_ معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، تحقيق علي أكبر غفاري، جماعة المدرسين قم.

١٤٥_ معجم البلدان، ياقوت الحموي المتوفى ٦٢٦هـ دار إحياء التراث العربي ودار صادر بيروت.

١٤٦_ معجم مصطلحات عصر العولمة، إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي، الدار الثقافية للنشر القاهرة ٢٠٠٤.

١٤٧_ معجم المصطلحات القانونية، الدكتور عبد الواحد كرم، مكتبة النهضة العربية، عالم الكتب بيروت ١٩٨٧.

١٤٨_ المغازي، محمد بن عمر الواقدي المتوفى ٢٠٧هـ تحقيق الدكتور مارسدن جونس، نشر دانش إسلامي ١٤٠٥هـ

١٤٩_ مفاتيح العلوم الإنسانية، الدكتور خليل أحمد خليل، دار الطليعة بيرت ١٩٨٩.

١٥٠_ المقدّمات التاريخية للعلم الحديث، توماس جولدشتاين، ترجمة أحمد عبد الواحد، عالم المعرفة الكويت ٢٠٠٣.

١٥١_ مكارم الأخلاق، الحسن بن الفضل الطبرسي المتوفى ٥٤٨هـ منشورات الأعلمي بيروت وطبعة الأخوندي طهران.

١٥٢_ مناقب آل أبي طالب، محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني المتوفى ٥٨٨هـ المطبعة العلمية قم.

١٥٣_ من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، دار الكتب الإسلامية طهران.

١٥٤_ من التمدن الإسلامي، السيّد محمد الحسيني الشيرازي، دار الصادق

بيروت ١٩٧٧.

١٥٥_ منهج البحث الاجتماعي بين المعيارية والوضعية، محمد محمد امزيان، معهد الفكر الإسلامي فرجينيا ١٩٩٦.

١٥٦_ منهج التربية عند الإمام علي عليه السلام، على الأديب، المكتبة الحيدرية النجف.

١٥٧_ منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، محمد سعيد البوطي، دار الفكر دمشق ١٩٨٢.

١٥٨_ موسوعة الثقافة السياسية الاجتماعية الاقتصادية العسكرية، عامر رشيد مبيّض حمص ١٩٩٩.

١٥٩_ موسوعة الحضارة العربية، الدكتور قُصيّ الحسين، دار البحار ومكتبة الهلال بيروت ٢٠٠٤.

١٦٠_ موسوعة العتبات المقدسة، جعفر الخليلي وآخرون، مؤسسة الأعلمي بيروت.

١٦١_ موسوعة علماء الكيمياء، الدكتور موريس شربل، دار الكتب العلمية بيروت.

١٦٢_ نظام الإسلام السياسي، السيد باقر شريف القرشي، دار التعارف بيروت.

١٦٣_ نظرية الدولة في الإسلام، الدكتور عبد الغني بسيوني عبد الله، الدار الجامعية بيروت ١٩٨٦.

١٦٤_ النفلية، محمد بن مكي العاملي، مكتب الإعلام الإسلامي قم.

١٦٥_ نهاية اليوتوبيا، راسل جاكوبي، ترجمة فاروق عبد القادر، عالم

المعرفة الكويت ٢٠٠١.

١٦٦_ نهج البلاغة، جمع الشريف الرضى، تحقيق صجي الصالح دار الهجرة قم ١٣٩٥هـ

١٦٧_ نوادر الراوندي، فضل الله بن علي الراوندي المتوفى ٥٧١هـ ط المكتبة الحيدرية النجف.

١٦٨_ الوطن العربي والغزو الصليبي، خاشع المعاضيدي وآخرون، وزارة التعليم العالي بغداد ١٩٨١.

١٦٩_ الوعي الفكري في الحضارة الإسلامية عبد الفتاح أحمد أبو زايده ، منشورات الدعوة الإسلامية، الجماهيرية الليبية.

١٧٠_ اليهود والدولة العثمانية،أحمد النعيمي، وزارة الثقافة بغداد ١٩٩٠.

فهرست الموضوعات

كلمة الموسوعة ٧

مقدمه ١١

مفاهيم الحضارة ١٣

الحضارة بين يدي التاريخ ٢١

علم الثقافة ٢٩

تقسيمات الثقافة ٣٢

ثقافة العنف وانعكاسها على السيرة النبوية ٣٨

الحضارة الإسلامية والحضارات العالمية ٥٧

مفهوم الجاهلية والحضارة ٦٥

معنى المدنية والحضارة ٧٥

دور المدينة في صنع الحضارة ٧٦

الحضارة العالمية والمدينة الكونية ٩١

شرط الحضارة ودولة قريش والدول الأخرى ٩٩

اليمن والحضارة ١١٩

الحضارة والقرآن الكريم ١٣٣

الزراعة والحضارة ١٣٩

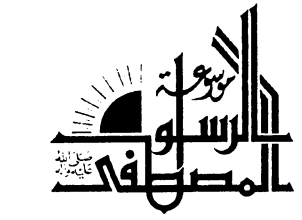
إصلاح الزراعة والتنمية الزراعية ١٤٨

المياه والأنهار ١٦٤
النخلة والحضارة ١٦٩
الصناعة والمعادن ١٧٩
التجارة والحضارة ١٩١
المراعي والثروة الحيوانية ٢١١
التجمل والنظافة ٢٢٣
الارتباط الوثيق بين الحضارة والمدنية والعلم ٢٣١
دور المسجد في صنع الحضارة ٢٣٥
النبي والتعليم والتنشئة الاجتماعية ٢٤٣
حضور الأنبياء في الحضارة ٢٥١
الكتابة والتدوين ٢٦٣
النبي والحضارة والحسّ القومي ٢٦٧
مفهوم الدولة والحكومة ٣٠٧
مفهوم الحقوق ٣١٩
النبي وحقوق المرأة وتكوين الأسرة ٣٣١
النبي ومفهوم الأمة والوطن ٣٤٥
الرقيق ٣٥٥
النبي والتمييز العنصري ٣٥٩
العبيد الرساليون ٣٦٦

خاتمة البحث ٣٧٣

مصادر ومراجع الكتاب ٣٧٥

الفهرس ٣٩١



Mawsouat Al-rasool
Al-Mostafa
(23)

Address in Lebanon:
P.O.Box 25/138
Al-Ghobairi -Beirut

Address in Iran:
P.O. Box 91375/4436
Mashhad
Fax :(0098-511) 222 2483

Website: www.almawsouah.org

Published in Lebanon by:
Dar Al-Athar
Shahrur building - Dakkash St. Bir Al-Abed - Beirut - Lebanon
Tel: (00 961-1) 270574 - (00 961-3) 349237

Published in Iran by:
Sonbuleh Publisher - Lower level Mahtab Shopping Center-
Sa'adi St. Mashhad- Iran-
Tel: (0098-511) 221 6753

All rights reserved
Copyright © by: Dar Al-Athar

First print: Beirut 1428 – 2007
Second print: Mashhad 1428 – 2007